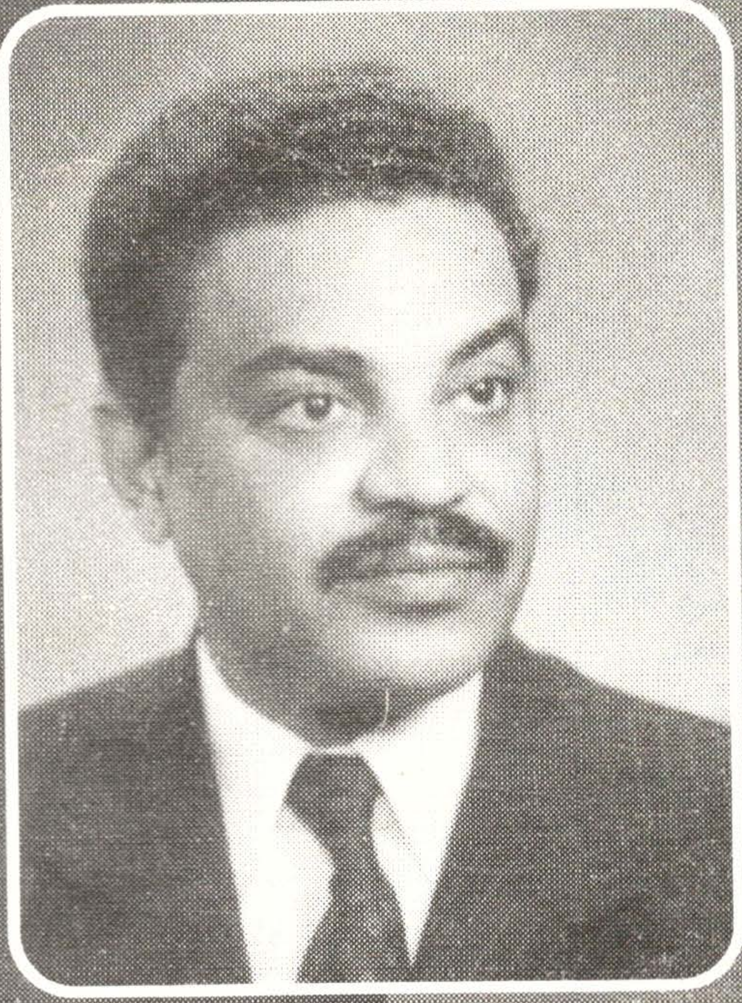
أبو بكر عثمان محمد صالح

# في بلاط الدبلوماسية والسلطة

## مواقف ومشاهد



المكتب المصري الحديث

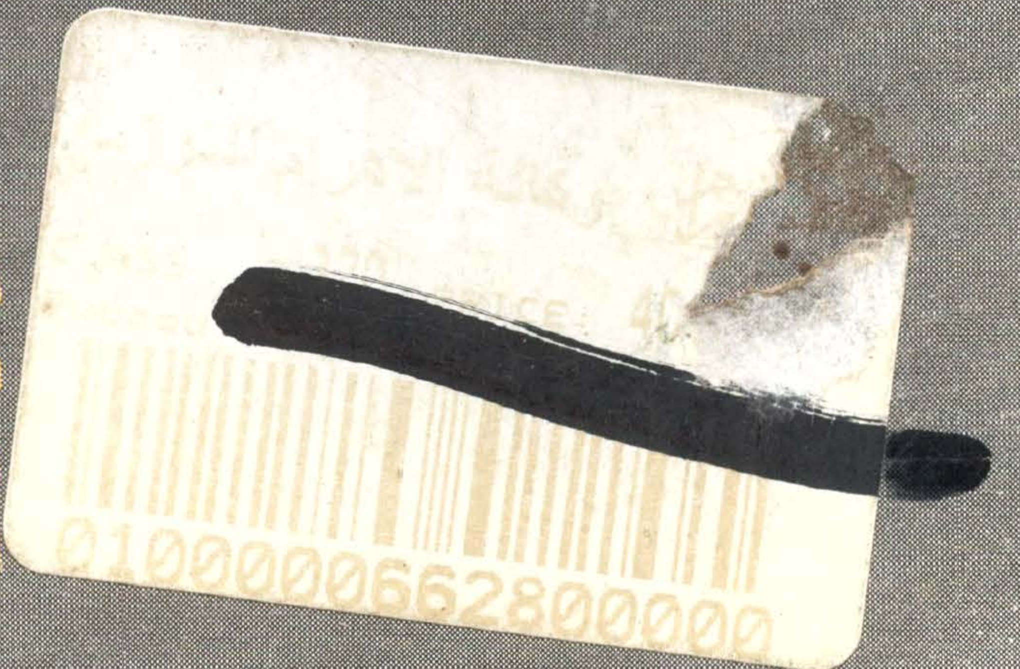


## المؤلف في سطور ..

- ولد بوادي حلفا عام ١٩٣٠، وتلقى تعليمه الأولي بأم روابة، والأوسط بالأبيض، والثانوي بحنتوب، وتخرج في كلية الآداب (جامعة الخرطوم) عام ١٩٥٥.
- انضم لوزارة التربية والتعليم (المعارف سابقًا) معلمًا بالتونج (بحر الغزال) وخورطقت الثانوية.
- التحق بوزارة الخارجية السودانية ضمن أول دفعة تم اختيارها للعمل بالسلك الدبلوماسي عقب استقلال السودان.
- تدرج في وظائف السلك الدبلوماسي، سكرتيرًا ثانيًا وأولاً، ثم مستشارًا ووزيرًا مفوضًا بسفارة السودان بالقاهرة.
- عين أول سفير للسودان بالجزائر.
- عمل سفيرًا بليبيا، ومندوبًا دائمًا للسودان لدى دول ميثاق طرابلس.
- عين أمينًا عامًا لرئاسة الجمهورية.
- عاد للعمل بالسلك الدبلوماسي سفيرًا لدى يوغوسلافيا.
- عمل سفيرًا للسودان بفرنسا، وسفيرًا معتمدًا لدى سويسرا والفاتيكان.
- عين وزيرًا لرئاسة مجلس الوزراء السوداني.
- اختير أمينًا عامًا للتكامل السوداني - المصري.
- مثل السودان في عشرات المؤتمرات الإقليمية والدولية، وشارك في العديد من مؤتمرات القمة العربية والإفريقية ودول عدم الانحياز.
- عضو الوفود الرئاسية لأكثر من ثلاثين قطرًا عربيًا وإفريقيًا وأوروبيًا.
- المبعوث الشخصي لرئيس الجمهورية لعدد من الملوك والرؤساء العرب والأفارقة في مهام خاصة.
- يحمل العديد من الأوسمة والنياشين الوطنية والأجنبية.


تصميم الغلاف: إلياس فتح الرحمن
تنفيذ: عفت إبراهيم

المكتب المصري الحديث
www.almaktabalmasry.com
القاهرة: ٢٠٢/٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٢٠٣/٤٨٤٦٦٠٢

أبو بكر عثمان محمد صالح

# فى بلاط الدبلوماسية والسلطة

## (مواقف ومشاهد)

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com

# المحتويات


| الموضـــوع | رقـــم الصفحة |
|---|---|
| مقدمة | ٥ |
| الفصل الأول : مدارات الصبا والشباب | ١١ |
| ■ حلفا مسقط رأسي ومهدي | ١٣ |
| ■ أم روابة مأواي ومرتع صباي | ١٧ |
| ■ حنتوب الجميلة | ٢٣ |
| ■ تحت رايات اليسار | ٣٣ |
| الفصل الثاني : في مدارج الحياة العملية | ٤١ |
| ■ الالتحاق بسلك المعلمين | ٤٣ |
| ■ أيامي في جنوب الوطن | ٤٦ |
| ■ أيامي في خورطقت | ٥٠ |
| الفصل الثالث : في بلاط الدبلوماسية السودانية : | ٦١ |
| ■ الأيام الأولى فى وزارة الخارجية و نشأة القسم السياسي | ٦٥ |
| ■ السودان ... في الأمم المتحدة | ٧٥ |
| ■ قصة الاعتراف بالصين الشعبية | ٨٤ |
| الفصل الرابع : القاهرة .. محطة الانطلاق الأولي | ٩٥ |
| ■ في رحاب العمل العربي المشترك | ١٠٧ |
| ■ اجتماع تحت حراسة الدبابات | ١٠٩ |
| ■ مفارقات في اجتماعات الجامعة العربية | ١١١ |
| ■ أولئك أسلافى فجئني بمثلهم | ١١٦ |
| ■ الجامعة واجتماع القمة .. تقويم خاطف | ١٢٠ |
| الفصل الخامس : في أرض المليون شهيد | ١٢٧ |
| ■ اختياري سفيراً بالجزائر | ١٢٩ |
| ■ أول وفد رسمي قوامه المعارضون للحكومة | ١٣٤ |
| ■ الشيخ النافذ يتوعدني | ١٣٦ |
| ■ تلقيت أنباء الثورة .. وأنا في طريقي لمأتم أبي | ١٤٥ |
| ■ في الأمم المتحدة وقمة الرباط العربية | ١٥٠ |
| ■ إلي طرابلس علي طائرة عبد الناصر | ١٥٢ |
| ■ اللقاء التاريخي بين ناصر ونميري والقذافي وإعلان ميثاق طرابلس | ١٥٥ |
| الفصل السادس : في رئاسة الجمهورية | ١٧٥ |
| ■ غداء مع ملكة بريطانيا | ١٧٨ |
| ■ المستر براون يبكي أيامه في حنتوب | ١٧٩ |
| ■ لقاء المحجوب وصالح عثمان صالح بتكليف رئاسى | ١٨١ |
| ■ تكوين لجان لإعادة النظر في المصادرة والتأميم والمفصولين تعسفياً | ١٨٥ |
| ■ الرئيس يدعونى للغداء ظهراً .. ويعفيني من منصبى مساءاً | ١٨٨ |
| ■ التعديل الوزاري .. الشيوعيون أول من يعرف | ١٩٠ |

الفصل السابع : العودة للبيت القديم ٢٠١
- تعييني سفيرا بيوغسلافيا ٢٠٣
- لقاء مع تيتو في مخبئه القديم ٢٠٥
- فطنة السفير نائمة .. وهواه يقظان ٢٠٧
- المرأة السودانية تأبي الرفاه .. العفاف يحميها ٢١١
- اختياري سفيرا بفرنسا معتمداً فى سويسرا والفاتيكان ٢١٤
- فرنسا وقناة جونقلى..وأنشد الفرنسيون المارسليز فى سماوات الجنوب ٢٢٢
- لقاء مع عصابات المافيا وتجار السلاح ٢٢٥
- مهام متعددة خارج إطار بعثتى الدبلوماسية ٢٢٧
- زيارة السادات للقدس ( خلفياتها وأسرارها ) ٢٣٢
- ليلتى الأخيرة فى باريس .. وداعا للدبلوماسية ٢٤٨

الفصل الثامن : تركت ما أهـوي لما أخشي ٢٦٥
- تعيينى وزيراً لمجلس الوزراء ٢٦٧
- رحلة التضامن العربي .. زرنا عشرين بلداً عربياً فى عشرة أيام ٢٧٥
- في مجلس الوزراء .. يومان مشهودان ٢٧٩
- العلاقة بين الأجهزة واستنباط مناهج جديدة للعمل ومهام فى إطار التنظيم السياسى ٢٨٥
- و تدفق البترول في أرض السودان ٢٩٠
- أزمة عصابة الأربعة ٢٩٢
- الرحلة إلي أمريكا .. واحتفاء كبير بالرئيس .. مظاهره ودواعيه ٣٠١
- تفاصيل محادثات نميرى وكارتر بعد توقيع اتفاق كامب ديفيد بساعات ٣١٠
- حقيقة موقف السودان من اتفاق كامب ديفيد ٣١٧
- ترميم الجسور مع الأشقاء ٣٢١
- ساعة ونصف مع صدام حسين في بغداد ٣٢٤
- اختياري أمينا عاماً للتكامل .. وتمنعى فى البداية ٣٣٧
- التكامل .. يرتاد المرحلة الثانية ( بناء التكامل ) وأجواء من التفاؤل ٣٤٤

الفصل التاسع : النيل يفيض.. ثم يغيض ٣٤٩
- ثورة مايو تتهاوي ٣٥١
- سقوط مايو : كيف تلقى الرئيس نميرى النبأ ٣٥٣
- إرهاصات لاعتقال قيادة التكامل: هل تنكر أهل ودي ٣٦٤
- اعتقالي وانضمامي لرفاقى بكوبر .. أيامى فى المعتقل ٣٧٠
- مايو .. وقفة تأمل خاطفة ٣٧٤

ملاحق وإضاءات ٣٨٣

# مقدمة

حين فكرت فى إعداد فصول تتناول تجربتي فى الحياة العملية وقفت طويلاً وأنا أغالب الحيرة.. فهذه ليست المرة الأولى التى اعتزم فيها كتابة هذه التجربة، ولكن سرعان ما كنت أتجاوز هذا الخاطر لأسباب عديدة.. بينها أننى لم أشعر يوماً أن فى رحلتى خلال حياتى العملية ما هو جدير بالتسجيل أو الاحتفاء. كذلك كان ثمة إحساس يعرونى بأن كثيراً من الناس صاروا ينظرون إلى كتابات السيرة الذاتية" نظرة لا تخلو من الريبة فى صدقيتها فى كثير من الأحيان. ذلك أن بعض الكتاب نزلوا بمثل تلك الكتابات إلى مدارك الزيف فجعلوا من ذواتهم محوراً لجليل الأحداث وملهمين لها أحياناً، بل إن البعض عمد إلى تحليل الأحداث برؤاه اليوم وليس برؤيته وتحليله من واقع زمانها وظروفها.. فصار الأدعياء كثر والأمناء قلة إلى الحد الذى صارت تعرف كتابات السيرة بأنها " ضرب من إعادة تقويم الذات وتزيينها ". ولشد ما كانت تستهوينى كتابة السيرة الذاتية لبعض الكتاب العالميين التى تجئ صادقة وأمينة والتي تصل أحياناً إلى حد الاعتراف، ولا تصور كاتبيها عباقرة أو أطهاراً، بل بشراً يسعون في شعاب الحياة يخطئون ويصيبون لهم من المثالب مثلما لهم من الفضائل.

ولما استقر الرأى على كتابة هذه الأوراق على تواضع محتواها، كنت أعلم أنها لا ترقى إلى مستوى " المذكرات " بل إنها تمثل " ذكريات " بكل ما ينطوى عليه ذلك من فروق باتت معروفة.. فالذكريات تحفل بسرد الأحداث، والمذكرات توثيق فى بعض جوانبها للأحداث.. الذكريات ضرب من "الرواية" لفترة من فترات العمر والمذكرات تاريخ وتوثيق.. حسبي أن أضع أمام القارئ إضاءات خاطفة وسريعة ومحطات بعينها عساها تصور جانباً من حياتنا على أيام الخمسينيات إلى السبعينات وما تلاها.. هى بذلك زيارة خاطفة إلى زماننا ذاك الجميل. ولقد التزمت نهجاً فى تقديمها يقوم على الالتزام الصارم بتدقيق فى

الوقائع الواردة فيها.. كنت أحاول تعزيز ما أوردت بوثائق ضمنتها أحياناً صفحات كلما توافرت.

وكنت أسعى جاهداً - فى غياب بعض مثل تلك الوثائق متى اقتضت ضرورات إيرادها إلي الأشخاص الذين كانوا طرفاً فى بعض الوقائع كى أقرأ عليهم ما كتبت للتأكد على ما ورد فيها أو إثرائها بالمزيد من التفاصيل.. كان ذلك نهجاً ألتزمته فى حرص وصرامة.

نقطة أخرى لابد من إيضاحها فى معرض الحديث حول النهج الذى ألتزمته فى إعداد هذه الذكريات.. وهي الإحساس الذى ما أغفلته يوماً بتواضع الدور الذى اضطلعت به خلال تلك الأحداث التى تضمنتها هذه الأوراق وهو أمر ظل يزود وجدانى بيقين بأننا كنا "أدوات" فى مسار أحداث تلك الفترة ولم نكن صانعين لها.. ولعل ذلك الدور هو الذي جعلنى أتجاوز الكتابة عن سيرتى الذاتية قبل انخراطى فى العمل العام، إلا بالقدر الذى يسهم بتزويد القارئ بالخلفية التى أسهمت فى تكوينى الفكرى والسياسى، باعتبارها إلتفاتة عجلي لفترة هامة من تاريخ الوطن. اخترت ذلك النهج وأنا استشعر بعض الأسى.. إذ أننى اعتبر العودة إلى سنى طفولتى وصباى أمراً محبباً ربما كان أكثر متعة للقارئ.. لم أشأ أن يقف بى قطار الذكريات كثيراً فى محطات شخصية ظلت حبيبة إلى نفسى ومضيئة فى ذاكرتى.. أكاد أسمع تفاصيلها ووقع خطاها تدب فى عروقى مع تعاقب الأيام.. طفولتى فى "حلفا" حيث تفتحت عيناى على مشاهدها وعوالمها الساحرة.. بنيلها ونخيلها وحنو أهلها ونبل قبيلها.. وذكريات صباى فى أم روابه حيث أشجار النيم الظليلة المنكفئة دوماً على رمالها فى دعة، يعتريها سارى الطل فيغيض الماء ولا تبقى إلا حبات الرمال الصافية وقد غسلها ماء السماء. كانت حلفا مسقط رأسى ومهدى، وكانت أم روابه مرتع صباى ومأواى.. عشنا فيهما زمناً رغيداً:

إذ جانب العيش طلق فى تآلفنا     ومرتع اللهو صاف فى تجافينا

كذلك أتيت خطفاً وبكلمات موجزة على فترات من أحب فترات عمرى وأنا على عهد الطلب فى حنتوب الجميلة التى حفلت بكل ما هو خصيب وحبيب.. تتوارد بشأنها الخواطر والذكريات وتتزاحم فى وجدانى تغرينى بالاحتشاد لاستدعائها بتفصيل وإسهاب.. وإننى لأهفو بكل مشاعرى لاغتنام ساعات صفو أعكف على تناولها يوماً.. فهى كفاء لذلك وأكثر!

على أننى أبادر وأعترف بأن "عنصر" الصدفة وحدها - وهى أمر يأتى فى غير توقع أو ترتيب - أثرت على مجريات كثير من الأحداث فى حياتى العملية إذ جعلت منى "شاهداً" لبعض الوقائع التاريخية "ومشاهداً" فى بعضها الآخر. ولعل مسار عشرين عاماً فى بلاط الدبلوماسية السودانية ربما أغرانى بالوقوف فى محطات معينة تستحق التنويه.. وهى مواقف لا يخلو بعضها من أثر أو دلالة ومغزى.. وربما طرافة أحياناً! وأبادر وأعترف وأنا أعود بالذاكرة إلى أيامى فى السلك الدبلوماسى أن ما شهدته وخبرته من تجارب ووقائع يضع أمامى مجالاً ضيقاً للكبرياء، بل إنه يبدو ضامراً إذا قورن بالتجربة العامرة لكثير من الدبلوماسيين الذين انكبوا على كتابة مذكراتهم أو أولئك الذين ظلوا يختزنونها فى صدورهم.. بعضهم مضى وبعضهم مازال ينتظر. ولطالما طغت على مشاعر الحزن كلما قضى أحد أولئك الأفذاذ دون أن تهيئ له ظروف العيش القاسية - بعد تقاعده. فى غالب الأحيان فرصة لينكب على تدوين خبرته وتجربته.. وهى فى نظرى محنة تتجاوز عشيرتى من الدبلوماسيين إلى مسارات أخرى فى مجالات قادة العمل السياسي والصحفيين ورواد الخدمة المدنية التى بات مجرد ذكرها يثير فى النفس لواعج الحزن والأسى ويدعو لتهاطل دمع العين إشفاقاً لما حاق بها اليوم.. إن مشاعر الألم تطبق والله على كلما مررت بمدافن فاروق أو أحمد شرفى أو حله حمد فتفر من عينى دمعتان.. إحداها تذكراً لأهل وأصدقاء وقادة و مبدعين رحلوا من جهة، ولفيض التجارب الثرية والغنية التى أضحت دفينة بين رمالها تغطيها شجيرات السيال عوضاً عن أن تكون ذخيرة نفيسة بين المراجع فى مظانها حيث ينبغي لها أن تكون.

وربما يلاحظ القارئ أنني وقفت طويلاً عند محطة العمل الدبلوماسي ومرد ذلك شعوري بأنه يمثل العنصر الغالب في حياتي العملية التي امتدت لثلاثين عاماً.. فباستثناء الفترة التي أعقبت تمام دراستي الجامعية والتي عملت خلالها معلماً في جنوب الوطن قبيل اندلاع أحداث الجنوب عام ١٩٥٥م بفترة قصيرة، وثانوية خورطقت التي سبقت اختياري للعمل دبلوماسيا محترفاً، كانت فترة عملي الوزاري التي امتدت لنحو عشرة أعوام حافلة في بعض جوانبها بضروب العمل الدبلوماسي حيث كان اختياري ممثلاً دائماً للسودان في ميثاق طرابلس الذي يضم السودان ومصر وليبيا وأمينا لرئاسة الجمهورية فوزيراً لرئاسة مجلس الوزراء وأخيراً كأول أمين عام للتكامل المصري السوداني علي عهد الميثاق.. حيث كنت خلالها أمثل بلادي في بعض الوفود الرسمية وأحمل الرسائل لرؤساء بعض الدول وأنضم للوفود الرئاسية وأشارك في رسم توجهات السياسة الخارجية للتنظيم السياسي وأعمل علي إعداد بعض أدبيات وأطر الهياكل التي تتصل بالعمل الإقليمي إلي غير ذلك من أمور تصب في رافد العمل الخارجي.

هذه أوراقى أقدمها للقارئ لعل فى تواضعها ما يبدد تردد الآخرين فى تسجيل ذكرياتهم.. وأننى لا أدعى لنفسى شيئاً من الابتكار والابتدار، ولكن حسبى أن أشير إلى بعض الأيام التى أحسب أن فيها ضرباً من الإثارة فى حياتى، متذكراً حكمة أهل الصين " بأن المقادير حين تغضب عن شخص فإنها تحكم عليه أن يعيش أياماً مثيرة " سيما وكانت أيامى كذلك فى بعض جوانبها حين شاءت إرادة ثورة مايو التى ناصرت وأيدت منذ أيامها الأولى ورأيت في مقاصدها ومبادئها ترجمة لأشواق جيلنا في صنع التقدم علي أرض السودان - تتنزعنى من البيت الدبلوماسى الذى عشت على بلاطه لانخرط فى مجال العمل السياسى وزيراً لعشرة أعوام خايلني شعور وقتها بأنني تركت ما أهوى إلى ما أخشى!

ولكني آنست عزاءاً حين وجدت نفسي أمارس نفس الدور بأسلوب آخر وإن تناءت الوسائط والأساليب.

ولكني آنست عزاءاً حين وجدت نفسي أمارس نفس الدور بأسلوب آخر وإن تناءت الوسائط والأساليب.

قال أحد الحكماء " إن المرء يفقد نصف عقله حين يصبح وزيراً.. ويفقد النصف الباقى من عقله حين يترك الوزارة "!! أرجو ألا تكون أوراقى التى بين يديك برهاناً ومصداقاً لتلك المقولة سيما وقد جمع كاتبها بين " الحسنيين "!

وقال آخر " يظل المرء بعقله حتى يؤلف كتاباً "! أتراني كنت محقاً في تسجيل ما أضعه بين يديك اليوم أيها القارئ العزيز؟؟

إن راودك إحساس بأنك لست واجداً فيها ما هو قمين بالتنويه أو التسجيل، وإن ساعات من وقتك ضاعت بدداً في مطالعة ما لا نفع فيه ولا طائل.. فلك العتبي مني.. ولك من الله الثواب،،

أ.ع

مسطورات











الفصل الأول

# مدارات الصبا والشباب

## حلفا مسقط رأسي ومهدي

"حلفا دغيم" اسم لقرية كانت ترقد وادعة علي ضفاف النيل.. يفيء إليها القادم من الخرطوم بعد قضاء يوم وليلة في قطار الإكسبريس السريع يخترق خلالها صحراء العتمور.. تتبدي عند شروق الشمس كالواحة في طرف الصحراء بنخيلها ومئذنتها الشهيرة وقبابها. يحمد الكل السرى وتكتحل عيونهم بمرأى الزرع والمروج بعد ادلاجهم في ظلمات الصحراء بين الرمال الممتدة عبر الأفق!! يتكيء القطار بضع دقائق في محطتها الصغيرة التي يطلقون عليها اسم "السندة" ثم يواصل رحلته حتى يصل إلي مدينة وادي حلفا التي تبعد نحو خمسة كيلومترات بين مشاهد البساتين وغابات النخيل التي تتبدي علي بعد أمتار وخلفها النيل التي تتناثر حوله السواقي والنواعير.

كانت مدينة وادي حلفا جسراً يصل السودان بمصر.. وكانت من أجمل مدن السودان وأكثرها ألقاً وحضارة ورقياً.. تلوح علي الجانب الغربي منها علي الضفة المقابلة للنيل مكامن الحضارة النوبية العريقة بكنوزها وآثارها، وتعج أسواقها بالجائلين لكسب العيش من مختلف الأجناس.. شوام وهنود وإغريق وغالبية من السودانيين والمصريين.

كانت محطاً اختاره الإنجليز عند الفتح لمد الخط الحديدي الذي يصل الي أواسط السودان وازدهرت علي تلك الأيام الحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها فشهدت افتتاح أعرق المعاهد والمدارس والدواوين والمرافق.. وكان موقعها الفريد علي البوابة الشمالية التي تنفتح علي القطر المصري يمثل قنطرة لتداخلٍ دائم بينٍ سكانها وأهلهم من الرابضين خلف الحدود فكانوا يمثلون نسيجاً إجتماعياً واحداً.. جلهم من النوبة الذين تشدهم إليهم وشائج القربى

والنسب.. فظلوا في كثير من الأوقات يجتازون الحدود راجلين للوفاء ببعض الفروض الاجتماعية.. وكان ميناء المدينة نقطة انطلاق الي مصر حيث تنطلق البواخر الأنيقة بالمسافرين عبر أراضي النوبة بين الحقول والمنازل التي زينت واجهاتها بالأطباق الصغيرة والنقوش النوبية والزخارف حتي تبلغ مرساها في أسوان.

كانت حلفا دغيم شأنها شأن قرى شمال السودان تتمدد علي شريط ضيق علي ضفة النيل.. تحدها الصحراء والجدب.. ومن عجب أن ذلك الشريط الضيق الذي يمتد علي ضفاف النيل ألهم ساكني تلك البقاع حضارة من أعظم الحضارات التي عرفتها البشرية وألهمها إبداعاً في وسائل الزراعة وإعمار الأرض التي كفلت لهم لقمة ندية من العيش الكريم تسد الرمق.. كان لمحدودية الأرض وشح الموارد دور في دفع أهل تلك المناطق كي ينتشروا في فجاج الأرض كسباً للعيش مخلفين وراءهم الزوج والولد.. يمم الكثيرون شطر مصر لذلك الغرض بينما انطلق آخرون الي قلب السودان وأركانه القصية.. وكان بين أولئك "أبي" الذي انطلق في العقود الأولي من القرن الماضي برفقة شقيقه الأكبر الذي كان يعمل قاضياً شرعياً بعد أن نال إجازته في جامعة الأزهر.. كان أخوه حريصاً علي تشجيعه علي الإلمام بالعمل التجاري وفنونه كما كان حريصاً علي إلحاقه ببعض رجال الأعمال المرموقين والمشهود لهم بالكفاءة والأمانة كي يتلقي تدريباً علي أيديهم.. وفي كوستي إلتحق بأعمال المرحوم يوسف بدري – وكان من كبار التجار يومها – فتوثقت العرى وقويت الوشائج حتي صارت نسباً وصهراً في مقبل الأعوام.. ثم نقل عمي قاضياً لمحكمة أم روابة الشرعية بشرق كردفان حيث رافقه أبي الذي طاب له المقام في تلك المدينة ومارس العمل التجاري فأصاب نجاحاً.. وصار وكيلاً لبعض الشركات الإنجليزية الكبرى بالعاصمة والتي تعمل في مجال تصدير الصمغ العربي كشركة بوكسول وجيمس لانج ثم إرتاد مجال الحبوب الزيتية ومشتقاتها وأقام عدة معاصر تقليدية وتطورت أعماله حتي أقدم بمشاركة صديقه إبراهيم البلك بإنشاء أول مصنع آلي للزيوت في كردفان عام ١٩٣٧م.. وقد اكتسب

ذلك المصنع سمعة حسنة خاصة حين عمد الي استخراج الزيوت من حب البطيخ خلال سنوات الحرب حيث أصاب البلاد قحط أدى الي شح السمسم والفول وغيرها من الحبوب الزيتية، وكان من عادة أهل الشمال أو "الجلابة" أو "أولاد البحر" فيما كان يسميهم مواطنو تلك الديار ان يبعثوا بأزواجهم الي قراهم بالشمالية للوضوع والعودة بالمولود الجديد.. ولم يمثل مولدي شذوذاً لتلك القاعدة.. ولم أكن أدري دلالة لذلك أو مغزى حتى دب فيّ الوعي بالدنيا والأحداث.. إذ وجدت الإجابة في إحساسٍ داخليٍ يجعل "مسقط الرأس" أمراً يسري بين حنايا المرء ويتغلغل في كيانه حباً وحنيناً وعشقاً! وبالرغم من أنني أمضيت أغلب سنوات عمري خارج مسقط رأسي إلا أن السنوات الباكرة من طفولتي ما زالت تشدني وتلوح أمام ناظري في كل وقت وحين.. ما زلت أذكر القريةِ وبيوتها والحقول الممتدة أمامها والرحلة اليومية الأثيرة التي تغمر روحي حناناً ودفئاً بين أهل أبي في" السندة" وبين أهل أمي المنحدرين من آل بتيك في حي الولياب.

وما زالت تتراءى أمامي ملاعب صباي وضجيج الرفاق وأسمارهم بلسان لا أفهمه (الرطان النوبي) وضحكاتهم العالية التي لا أدركها أو أسبر أغوارها إلا عبر إبن خالي "حسن" الذي كان ترجماناً لي ودليلاً.. لشد ما كان يستهويني منظر النيل الذي نرده في العشايا حيث ينزل الكل للسباحة فأقبع وحيداً علي الشاطيء يتملكني شعور بالرهب والخوف من ذلك المجرى المائي الهادر المهول.. كنت أمر – علي حي لمرآه – مر المجانب ولم أكن أدري سبباً لذلك الخوف والرهب الذي يتملكني كل ما أمعنت النظر في النيل إلا بعد إنقضاء سنوات ابتلع خلالها الماء اثنين من أشقائي – كان كلاهما في ميعة الصبا- فترك الحادث جرحاً غائراً في كبدي.

كانت تتراءي أمام عيني مناظر النسوة وبينهن جداتي يحملن المناجل لحصاد البلح.

كان جدي وكيلاً لإحدي الطوائف في حلفا (طائفة الختمية) التي يدين الكثيرون لها من أهل الشمال بالولاء.. وكان لأحد السادة من قادة تلك الطائفة

ابن يقيم في وادي حلفا ويأتي أحياناً لتمضية بضعة أيام في دارنا بالقرية، حيث أفردت له غرفة خاصة به في طرف الدار، وما أن يغادرها حتي تحرص جدتنا علي إحكام إغلاقها ولا يتم فتحها إلا في يوم عاشوراء (ولست أدري سبباً لذلك الموعد) وكانت جدتنا تحرص علي أن تقوم بتنظيف الحجرة وترتيبها بنفسها.. كان المريدون يحتشدون حول الدار في ذلك اليوم يلتمسون البركة في ما قد تأتي به الجدة من الحجرة من ترابها. أذكر أن تزامن حضوري للقرية – وأنا طفل – مع تلك المناسبة فآثرتني الجدة بمكرمة حسدني عليها الكثيرون.. احتضنتني ودخلت بي الي الغرفة بعد أن أحكمت رتاجها من الداخل وظلت تقوم بتنظيفها وأنا أكاد أختنق جراء الغبار العالق فتتواتر نوبات "الكحة والعطس" وهي تبشرني بالبركات التي ستنهال علي، ما أن خرجنا بعد إنجاز المهمة حتي وجدتني في جوف جمع من المريدين يتبادلون الحديث عن لماحات الضوء التي غمرت المكان حال فتح الغرفة.. وما أن ظهرت حتي صاح أحدهم – وكان من غلاة تابعي تلك الطائفة وسألني عما إذا كنت شاهدت ذلك الضوء.. ألقيت نظرة عليه فإذا به يصوب نظرات حادة ونفاذة إلى وجهي بينما تبدت عضلاته الغليظة تصارع أكمام قميصه فأومأت بالإيجاب – خوفاً وفزعاً – واسترسلت في وصف اندفاع الضوء وسحره فعلا التكبير والتهليل..

تري هل كان لهذا الحادث البسيط أثر في تكوين رأيي في الطائفية منذ سنوات عمري الباكرة؟!

ظللت أعود إلي مسقط رأسي في فترات متباعدة لمست خلالها بعض معاناة أهلي حيث درست مدارج طفولتي أثر فيضان عام ١٩٤٦م فضاعت معالم القرية ولجأ أهلنا إلي بعض الكثبان المرتفعة فجاء السد العالي فدرس مواقعهم ومحاها من الوجود.. فاعتصموا ببعض الأكواخ يغالبون مرارة الحياة وقسوتها مفضلين البقاء حيث كانوا التصاقاً بأرضهم وإبقاء لجذوة الصلة التي تربط السودان بمصر عوضاً عن الهجرة إلي المكان الذي اختارته لهم الحكومة يومها ورفضه الكثيرون ولكن سيقوا إليه قسراً.. وسرعان ما عبروا عن رأيهم بالمظاهرات السلمية التي انتهت بالكثيرين من شبابهم إلي أعماق السجون..

صاروا هدفاً للسلطة ونقمتها فعمدت إلي إيقاف القطارات التي تربطهم ببقية أجزاء القطر بينما فكرت في نزع الخط الحديدي علي أثر توقف الملاحة النهرية التي كانت تربط السودان بمصر.. ظلوا صامدين ما انكسروا ولا أذعنوا ولا لانوا.. بل تلاقوا في ملحمة تكافلية مشهودة فأقاموا الجمعيات التعاونية واستجلبوا الناقلات التي تربطهم بأهلهم في سكوت والمحس حيث كانوا يتزودون بمعينات البقاء حتي قيض الله للسودان اندلاع ثورة أكتوبر ١٩٦٤م التي بادرت بالاعتراف بعدالة قضيتهم، فأبقت علي الخط الحديدي وعملت مع الأخوة في مصر علي إعادة انسياب النقل النهري بين البلدين. ظلوا بعد انقضاء تلك الفترة ينشدون تفهماً وعوناً ودعماً لإعمار المنطقة وإعادتها سيرتها الأولى دون طائل. علي أن ذلك الأمل هلت بشائره حيث قرر البلدان جعل المنطقة التي تضم محافظتي شمال السودان وجنوب مصر منطقة نموذجية متكاملة.. وضعت لها الدراسات والمناهج وحددت المشروعات وعقدت تبعيتها لاحقاً لأعلي سلطة في البلدين ممثلين في رئيسيهما، وتم تكوين لجنة تنفيذية سامية في كلا البلدين لتحقيق ذلك.. ولكن الأمل الذي لاحت بوارقه في أكتوبر ١٩٦٤م بالنسبة لهم طوته أحداث أبريل ١٩٨٥.. تلاشت المنطقة المتكاملة الوليدة وتهاوت جهود التكامل بكامله علي أعتاب الكيد السياسي وأهواء الرجال!!

طويت آمالهم كما طويت معها ذكريات طفولتي في تلك الديار الحبيبة إلي نفسي وأنا أردد:

تركت عنـــدك الصباح منذ أول الطفــولة
زرعت فيـــك مهجتي شجـــيرة نحيـلة
لعـــلها قـد أورقــت بحـــب أهلـــــنا

## أم روابة مرتع صباي ومأواي:

في أم روابة نشأت فى دار لا أكاد أذكر أن أبوابها غلّقت قط على أفراد الأسرة دون سواهم، لقد كانت تلك الدار مزاراً ومحطاً لفضائل العلماء ومداح الرسول وجماعات النازحين من الموريتانيين والمقرئين الوافدين من مصر،

والشيوخ من الفقهاء، حيث تعقد حلقات الدرس الموسمية التى يعقدها شيخنا على أدهم ومحمد أحمد البخيت فيتسابق الناس لحضورها والاغتراف من فيض معارفها.. كانت الدار تعمر بجلسات الشعر والإنشاد التى كان يرتادها كثير من عشاق الشعر ويعطر أجواءها شعراء كبار ومنشدون، أمثال محمد سعيد العباسى ومحمد النميرى وحامد العربى وبشير الحضرى والذى أغرته تلك الجلسات السامرة بالاتجاه إلى إنشاد الموشحات.. تلك الأمسيات التى كنا نشهدها ونحن صبية فتأخذنا بأجوائها التى ينطلق خلالها عبق البخور وشدو المنشدين، فجعلتنا نعزف عن لعب الرفاق ولهوهم فى ساحات المدينة وطرقاتها..

..أخذت تلك الأجواء وما يتردد فيها من أشعار تشدنا دون أن ندرك معانيها أحياناً.. ثم بدأنا مع تعاقب الأيام نردد ما وعته الذاكرة منها.. شجعنا على ذلك أعمام لنا كانوا يحرصون على حضورنا كى نقوم على خدمة الحاضرين، ويقومون بتلقيننا أبيات من الشعر السهل البسيط، الذى سرعان ما أنقلب إلى أشعار هى أقرب للألغاز، لقاء عائد مادى رمزى، كثيراً ما يستعصى علينا فهمه وإدراك أغواره ومعانيه.. ولعلهم كانوا يهدفون إلى غرس ملكة الحفظ فى نفوسنا.. مازالت أذكر بعضاً منها مثل:-

قبر حرب فى مكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

أو تقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل هــــم كلهــنَّ قلاقل

أو ولقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

كنا نحس نشوة كلما أمكننا حفظ تلك الأبيات التي تكاد تكون ضربا من الألغاز والتي كنا نحصل جراء تردادها على بعض المال. ثم استهوتنا المناظرات وحلقات الأدب التي كان عمنا خليل يعقدها في الدار والتي يشارك فيها عدد ممن يعرفون " بالجلابة".. كانت دارنا بأم روابة موئلاً لبعض الاجتماعات التى سرعان ما انتقلت إلى الدور القريبة فى الحى حيث أخذ يقوم على رعايتها وتنظيمها شخصيات ظلت قابضة على قضايا الوطن مثل السادة محمد الحسن

شاع الدين ووقيع الله سيد أحمد وعبد الرحمن الحاج سليمان وغيرهم.. أيقظت تلك الاجتماعات التى كنا نتلصص أحياناً السماع لمداولاتها من وراء النوافذ المغلقة أو الجدران مشاعر الثورة وفى نفوسنا، فكنا ننكب على قراءة الصحف المحلية التى كانت تصدر فى الخرطوم ونحرص على متابعة الأخبار العالمية التى كان يبثها مذياع عتيق يمتلكه بعض التجار.. أذكر أن المفتش الإنجليزى وكان يجيد العربية المستر لونج كان يغشى دارنا أحياناً ودور كبار التجار ضيفاً على وجبة سودانية، و يعمل جاهداً لربط علاقات مع شيوخ المدينة ووجهائها ويضيق بما يعتبره "نزقاً" من بعض شباب المدينة وبينهم عمنا خليل والذى كان لصيقاً بنا ويحرص على تزويدنا ببعض الكتب التى ينتقيها من خزانة الكتب فى دارنا.. عبر المفتش لوالدنا يوماً عن ضيقه بنشاط عمنا وصديقه شاع الدين ومعبراً عن خشيته لما يمكن أن يقود إليه ذلك المسلك الوعر الذى كانوا يلتزمون، وتمنى على الوالد أن يقوم بردع شقيقه عن التمادى فى ذلك الشطط.. تكاد كلمات أبى ترن فى أذنى " يا سعادة المفتش.. إن ديننا الإسلام يقول كل نفس بما كسبت رهينة.. وعليك أن تؤدى واجبك وتتخذ ما تراه دون حرج".

كنا نبادر بالذهاب إلي سوق المدينة بعد انقضاء اليوم الدراسي كي نقوم على خدمة أهلنا.. كنت أتابع أبي وعمي وهما يشرفان على شراء المحاصيل من الزريبة أو "الدخولية" فيما كانوا يسمونها، حيث يستهويني نمط "المزاد" وتنافس المشترين ومزايداتهم بصوت عال قبل رسو المحصول على أعلاهم سعراً.. وكنت أتابع تنقية المحاصيل وتنظيفها وتعبئتها ثم أحمل البرقيات التي ترسل لرئاسة الشركات بالخرطوم.. أتصفح بعضها أحياناً فتستوقفني بعض العبارات الغامضة التي هي أقرب "للطلاسم!!" برقية تقول:" الجاري عارى كذا.. تيلونا" علمت لاحقاً أنها تحمل السعر السائد للمحصول غير المعبأ في الجوالات ؛ "تيلونا" يعني "أخبرونا رأيكم".. ولا أدري إن كانت اشتقاقا للفظ الإنجليزي (TELL) الذي يحمل معني مقارباً.. وهكذا علمت أن لبعض التجار "شفراتهم"!

كان القطار يمر على أم روابة خلال رحلته الأسبوعية من الأبيض إلي الخرطوم وبالعكس.. يحمل في رحلة الذهاب الرسائل بينما يأتي خلال رحلة العودة بالبريد القادم من العاصمة، وكان موعد رحلته الذاهبة إلي الخرطوم يكتسي أهمية خاصة إذ كان أبي وعمي يعكفان على إعداد الرسائل التي كثيراً ما كانت تشفع ببوالص الشحن.. كانت الرسائل تكتب بقلم "الكوبيا" ثم تخضع لعملية فنية توكل لنا تتمثل في إحضار قطع من القماش الخفيف "الشاش" تقطع بعناية وفق مقاييس معلومة وتنقع في الماء ثم تعصر جيداً ثم تصف الرسائل على مكبس صغير تصف على أرضيته، بحيث يكون الورق فوق الرسالة ثم يوضع فوقها الشاش، ويجري ضغط المكبس الحديدي الصغير بقوة عن طريق ذراع حديدي مثبت في أعلاه، ثم يجري حل الذراع تدريجياً فتكون صورة الرسالة قد طبعت على الورقة الخفيفة البيضاء... كان ذلك العمل مثار دهشة الأطفال والفضوليين الذين كثيراً ما تحلقوا حول المكتب ليروا ذلك الاختراع العجيب والذي كان يمثل بالنسبة لهم قمة الإبداع "التكنولوجي" الذي يتناقل أمره سكان الأحياء النائية.

على أن يوم البريد القادم من الخرطوم كان يوم متعة وإثارة.. حيث نلتقي أمام باحة مكتب البريد نلهو ونلعب "كرة الشراب" ريثما يفرغ المسئولون من تفريغ الرسائل وتصنيفها وإيداعها الصناديق المخصصة للمشتركين، وكان البريد يحمل عادة مجموعة من الصحف والمجلات المصرية التي نتصفحها ونحن في طريق العودة.

## في المرحلة الوسطي:

التحقت بالمدرسة الوسطى بالأبيض وكانت هي الوحيدة لكل أبناء كردفان ودارفور.. كنا نقيم في داخلية متواضعة داخل حرم المدرسة قوامها ثمانية "درادر" وشيدت حوائطها من الطين وصفت أسقفها من القش بشكل مخروطي يساعد على انسياب مياه الأمطار. كنا نقوم بخدمة أنفسنا في تنظيف حجراتنا وغسيل ملابسنا وكيها.. كانت حياة قاسية رأي المسئولون أن فيها

تدريباً تربوياً يقوي من إحساس الناشئة بالاعتماد على النفس.. كنا في بعض شهور الصيف نعاني كثيراً من نقص مياه الشرب حيث كانت تصرف لنا كميات ضئيلة من مياه الشرب في أكواب صغيرة من "الطلس" وفق مواقيت زمنية محددة! كان زملاؤنا من أبناء دارفور في أغلب الأحيان من أبناء النظار والمقدومين والعمد والمشايخ وأعيان القبائل.. جلهم على أعتاب الشباب يكبروننا بأعوام.. نشأت بيننا مودة وإلفة مثلما نشأت بينهم وبين أساتذتهم.. ولعل هذا ما جعل الحزب الإتحادي يسارع إلي ضم أستاذنا محمد جبارة العوض إلي وفود الحزب المشرفة على الانتخابات في كردفان ودارفور حيث صار تلاميذه القدامى نظاراً أو شخصيات مرموقة تتمتع بنفوذ قوي ومؤثر.. وكان حصاد الحزب وفيراً!

كانت مكتبة المدرسة غنية بالكتب وكان أساتذتنا يزودوننا ببعضها طالبين كل طالب موافاة زملائه في الفصل بخلاصة لكل كتاب يقرأ.. تعقد المناظرات والمطارحات الشعرية البسيطة ومسابقات الإلقاء "وليالي القبعة" التي تدرب الطالب على الارتجال في إطار الجمعية الأدبية التي انصرفنا عنها لبعض الأسباب وأصدرنا صحيفة حائطية منافسة لها.

كانت تلك الواقعة أول عهد لنا " بالتمرد "وأول عشق لي بالعمل الصحفي.

## واقعة لا تنسي:

كانت الحرب العالمية الثانية يشتد أوارها وقوات روميل تدق أبواب مصر.. وكانت الشلة التى تضم عمنا وأصدقاءه حفية بذلك وتتناقل أنباء انكسار قوات الإنجليز فى سعادة وبهجة، وتعبر عن مشاعرها علناً.. بل إن عمنا شاع الدين – وكان رجلاً متعدد المواهب – أعد قصيدة طويلة ترحيباً بحلول قوات المحور ودحر المستعمر البريطانى، كما رسم لوحة جميلة يصور فيها تلك القوات نسراً ضخماً يضرب بجناحيه بغات الطير الذى تساقط تحت قوته

وعتوه، تناقلت أنباءها فئات المجتمع فى إعجاب. وكان طبيعياً أن تعلم السلطات بذلك فتم اعتقال الرجل وأودع السجن، وهرع الكثيرون يعملون على إطلاق سراحه ولكن يبدو أن الحاكم كان مصمماً على إنزال أقصى عقوبة عليه.. أوفد البعض مندوباً عنهم للخرطوم لاستقدام محام، وتواترت صيحات المواطنين بضرورة تقديمه للمحاكمة أو إطلاق سراحه، وكانوا يعدون لجعل المحكمة – فى حالة انعقادها – ساحة للتعبير عن مشاعرهم الوطنية وإطلاق الشعارات المعادية للإنجليز. ولعل الحكومة أدركت كل ذلك فقررت إنزال عقوبة فورية لا تقبل استئنافاً ومن شأنها أن تفسد تخطيط البعض.

وأننى لأذكر يوماً شق سكون المدينة صوت رجال يجوبون طرقاتها داعين المواطنين للتجمع فى إحدى ساحات المدينة التي أحاطت بها فيالق الجنود.. سرعان ما أتت سيارة ترجل منها الرجل مقيداً بالأغلال وأخذ أحدهم فى قراءة الحكم بجلد العم شاع الدين أربعين جلدة.. انهالت عليه السياط قابلها الرجل بثبات وابتسامة لم تفارق شفتيه بل دون أن يرف له جفن.. انتصب واقفاً مجدداً العهد "بمجالدة الاستعمار ومحاربته فى " جَلَدَ " يتضاءل دونه " جلْده " الواجف.. فعلا الهتاف وردد الميدان أصداء زغاريد النساء.

ترك ذلك المشهد أثراً عميقاً فى نفسى ولعلها كانت محطة بارزة فى حملى على تعاطى العمل السياسى وقد عزز من ذلك التوجه انتقالي إلي المدرسة الثانوية بحنتوب.. كانت مدرسة أم درمان الثانوية تعتبر المدرسة الأميرية الوحيدة في بالسودان.. وكان القبول فيها قاصراً على مجموعة محددة من الطلاب الذين يجلسون لامتحان موحد لكل طلبة المدارس المتوسطة بسائر أرجاء السودان.. رؤي أن يوزع طلبتها على مدرستين في عام ١٩٤٦م وهو نفس العام الذي تم قبولنا فيها.. وتم توزيع فصولها حيث انتقل غالبية الفصول إلي وادي سيدنا في شمال مدينة أم درمان وتقرر نقل بقية فصول إلي حنتوب بالجزيرة.ولما كانت مباني حنتوب ما زالت تحت التشييد فقد أمضينا الشطر الأول من العام الدراسي بمقر المدرسة بأم درمان حيث تناثرت داخلياتها في أحياء العباسية والعرضة القريبة منها.. كان أساتذتنا كوكبة قوامها بعض

السودانيين والبريطانيين والمصريين وكان السودانيون منهم على وجه الخصوص يمثلون نخبة متميزة من قيادات العمل الوطني في ذلك الحين بل كان عدد منهم أعضاء في الهيئة الستينية لمؤتمر الخريجين.. بينهم السادة إسماعيل الأزهري وأمين زيدان ونصر الحاج على وعبد الله عبد الرحمن الضرير والشيخ محمد الخاتم عثمان إلي جانب بعض الشخصيات المرموقة في مجال الأدب والشعر مثل الأستاذ أحمد محمد صالح وعبد الحليم على طه وآخرين. وقد شهدت أيامنا الأولى حدثاً بارزاً تمثل في سفر أول وفد سوداني إلي مصر يضم قادة الأحزاب للتبشير لقضية السودان وإبرازها على المنابر الدولية.. خرجت جموع الشعب السوداني لوداع الوفد بمحطة الخرطوم.. وتدافعت مواكب الطلاب والنقابات العمالية وجماهير الأحزاب صوب محطة الخرطوم حيث كان مقرراً أن يستقل الوفد القطار إلي مصر.. أذكر أننا سرنا في تظاهرة من قلب أم درمان إلي الخرطوم لوداع الوفد سيراً على الأقدام رافعين البنود مرددين الأناشيد الوطنية.. كان الوفد هدفاً لأطواف رجال الأمن التي كثيراً ما التحمت بالموكب في محاولة لصده دون طائل.. كان لهذه المناسبة دوراً في إذكاء الشعور الوطني في دواخلنا.

## حنتوب الجميلة:

حينما كانت الحركة الطلابية في عنفوانها ضاقت بها الإدارة البريطانية فعمدت إلي كسر تجمعاتها وهكذا انتقلنا إلي "حنتوب" على الضفة الشرقية للنيل الأزرق قبالة مدينة ودمدني حاضرة الجزيرة في أكتوبر ١٩٤٦ قبل أن يتم اكتمال تشييد بعض مرافقها تماماً.. شيدت المدرسة على منطقة ساحرة تحف بها بعض الجروف والبساتين.. بنيت دور الأساتذة وداخليات الطلبة على الطراز المعماري الحديث وكان يفصل بين صفي الداخليات ميادين النجيل الفسيح والملاعب.. وتبدي على بعد أمتار منها المبني الرئيسي للمدرسة وكان يضم ثمانية فصول شمخ فوق برجه طائر الهدهد المصنوع من المعدن والذي اتخذته المدرسة شعاراً لها.. وبدت على البعد مساكن العمال ومن خلفها دور الأهلين.

كانت حنتوب تمثل مدينة قائمة بذاتها بطلابها وأساتذتها وعمالها ومرافقها.. كانت تعترض السائر في شوارعها بعض أشجار العشر والطلح والسيال وغيرها من النباتات البرية بينما اتخذت بعض الزواحف والهوام من طرقاتها مرتعاً لها عاني عدد من الطلاب من لدغاتها.. كان الطلاب الجدد أشبه بجماعات الكشاف الأقدمين الذين يرتادون القارات المجهولة بينما الأساتذة يستشعرون أنهم عصبة موعودة بنشر نور العلم في تلك المنطقة المهجورة.. كان الجميع يغالب ظروف الحياة، تعليماً وتعلماً من جهة، وتعميراً للمنطقة من جهة أخرى.. لذا نشأت بين الجميع جراء ذلك الواقع آصرة من الحب الشديد والمودة والألفة ظلت باقية على مر الدهور.

كان المستر براون - ناظر المدرسة البريطاني- يشعر أن حنتوب هي مولوده الذي أتي من صلبه عاشها حلماً.. وتابعها فكرة وتخطيطاً، وعايشها واقعاً.. كان يحب كل حجر فيها أو نبت أو حبة رمل.. وكان يشارك طلابها مأكلهم ويقف على تأهيلهم بنفسه.. يسهر على مرضاهم ويحمل بعضهم بين يديه ويبحر بهم إلي مستشفي مدني والدموع تتهاطل من عينيه عطفاً وحناناً.

وكانت المنافسة حامية بين حنتوب ورصيفتها وادي سيدنا في المناسبات الرياضية والمجالات الأكاديمية، وكثيراً ما جمعت بين طلبتها علاقات صداقة وحب.. قوى من عضدها التنسيق الحميم في الاضرابات احتجاجاً على مخططات الاستعمار على تلك الأيام في منتصف الأربعينات.. وكان حراك الوادي في "قرابه" تهتز له حنتوب في "العرين" على حد قول أستاذنا وشاعرنا الفحل أحمد محمد صالح.

كنت نفوراً بطبعي من علوم "الرياضيات" واجد عسراً شديداً في فهمها وسبر أغوارها.. ولم يكن عجباً أن أكون ضمن طليعة "الراسبين" في تلك المادة كلما جد اختبار وهو أمر أورثته أبنائي (إيمان وأسامة وخالد) في مقبل الأيام. ولما كانت النظم تقضي بتوزيع الطلبة على مجموعات (SETS) وفقاً لمستواهم في تلك المادة فقد كان طبيعياً أن أحجز مكاني في آخر مجموعة "بجدارة"، وكان ضمن رفاقي الذين يتمتعون بتلك "العبقرية في الغباء" أصدقائي صالح فرح

وبابكر على التوم وعبد الله أبو عاقلة وغيرهم.. وكانت مجموعتنا تضم عشرة طلاب جيء لنا بأستاذ مصري عساه يصلح من فسادنا وقلة إدراكنا للعلوم الرياضية.. كان الرجل قصيراً يميل إلي البدانة مع بروز خفيف في بطنه، يرتدي بنطلوناً يشده إلي كتفه مشجب (حمالة) مخافة سقوطه.. كان أسمر البشرة التي تعلوها حمرة خفيفة مما ينبئ بأنه قادم من صعيد مصر. كان مستطيل الوجه يتوج رأسه شعر خشن يصارع الانحسار حتي تبدت صلعة خفيفة في مؤخرة رأسه وكان مظهره مريحاً في مجمله ينم عن طيبة متأصلة وذكاء.

أستهل أستاذنا مهمته معنا بخطاب مازلت أذكر معانيه:

- إن المعلم بشر يتمني كسائر الناس أن يكون أحسن خلق الله.. اثنان فقط يتمني المعلم أن يكونا خيراً منه وأرفع قدراً هما أنجاله وتلاميذه.
- إنه سوف يلتزم الصراحة المطلقة في تعامله معنا.. ومن هذا المنطلق ذكر أنه يعرف بأننا أقل زملائنا فهماً وإدراكاً بعلم الرياضيات.. وبقدر ما هو عليم بصعوبة مهمته بقدر ما هو واثق بأن جهوده سوف تكلل بالنجاح وأننا سنكون في طليعة المميزين في هذه المادة في نهاية المطاف، سيما وأنه علم أن تخلفنا في بلوغ مستوى مرض فيها لا يعود إلي تخلف عقلي بقدر ما يعود إلي تعلقنا بالمواد الأدبية، وانصرافنا عن التركيز على الرياضيات واستطرد: (أنا بدوري لم أكن أحفل بالأدب ولا أحفظ الشعر عشقي هو المواد العلمية) ولكن بيتاً من الشعر القليل الذي أحفظ ظل عالقاً بذهني لعدة عقود وهو:

العبد يقرع بالعصا          والحر تكفيه الملامة

"أنتم أحرار يا أبنائي.. لن أرفع العصا في وجوهكم يوماً وإذا قسوت على بعضكم يوماً فتلك قسوة الأب الحريص على أبنائه" ثم قال في حسم: "ستنجحون في الرياضيات.. ستنجحون.. ستنجحون" كررها ثلاثاً ثم أردف أعرف أنه تم اختياري لتلقينكم دروس الرياضة لأنكم "حمير" ثم تساءل إنتو إيه؟ فنرد جميعاً "حمير يا أفندي".

بدأنا الرحلة مع أستاذنا أبو النجا وكانت الرياضيات شأن معظم العلوم تدرس بالإنجليزية.. كنا نسعد ونحن نصغى له وهو يتحدث الإنجليزية بلسان يكاد يكون عربياً.. يشرح قواعد الهندسة والجبره ثم يعاود شرحها بالعربية ويستغرق في تكرارها مستدعياً بعض الطرائف والنكات حتي ألفنا دروسه، وبدأ استعدادنا واضحاً لفهم ما يقول ثم أخذنا نألف حصصه ونشتاقها.. ولما جلسنا لامتحان شهادة 'كمبردج' -والتي كانت إجازة المتقدمين للالتحاق بالجامعات والمعاهد العليا- حصل كل فرد في مجموعتنا بأفرادها العشرة على درجة جيد (CREDIT) في الرياضيات.. وكانت تلك أول مرة في حياة بعضنا يحصلون على درجة 'المرور' فيها أو يحفظون جدول الضرب!

سقت هذه الواقعة للأثر الكبير الذي تركته في نفسي وما أدري إن كان لها – وللإعجاب الكامن في دواخلي ببقية أساتذتنا العظام الذين كانوا يمثلون لنا نموذجاً وقدوة علماً ومسلكاً – أثر في انخراطي ضمن سلك المعلمين في مطلع حياتي العملية.

عسير على والله أن اطوي هذه الأسطر عن حنتوب الحبيبة – والتي أتيت بها استطراداً – دون أن أعبر عن حنين يغمر كياني لها بين زملاء أري أطيافهم تحتشد أمامي في هذه اللحظات التي أكتب فيها ولكم تمنيت أن أذكرهم فرداً فرداً.. وإذا كنت أتمثل بعضهم من الذين إرتحلوا إلي عفو ربهم، والذين لمعوا في ميادين تخصصهم والذين أرجو أن أعود إلي ذكرهم في صفحاتي المستفيضة عن حنتوب يوماً، فإنني رأيت أن أورد بعض الذين أسهموا في العمل العام والذين عرفتهم جماهير شعبنا وربما لم تكن تدري أنهم كانوا حصاداً لذلك المعهد العريق – وكان من بينهم قيادات العمل السياسي في السودان جعفر نميري - الرشيد الطاهر الطاهر عبد الباسط – مأمون سنادة - بابكر كرار- محمد إبراهيم نقد –ميرغني النصري- عمر نور الدائم – حسن الترابي- على التوم- الحاج الطاهر – محمد يوسف محمد – مبارك رحمة – الجزولي دفع الله – عبد الله زكريا – سيد أحمد نقد الله – شيبون – إبراهيم منعم منصور- عبد العزيز شدو – بابكر على التوم – عبد الله محمد أحمد- أحمد عبد الحليم –

خلف الله الرشيد – فاروق إبو عيسى- شوقى ملاتى ومن الشعراء صلاح أحمد إيرهيم وشاكر مرسال وكان من خريجيها في مجال الصحافة محجوب محمد صالح وبقادي والروائيين حمدنا الله عبد القادر ومن الاقتصاديين عبد اللطيف حسن وهارون العوض وفتح الرحمن البشير وخليل عثمان ومن قادة العمل الرياضي الطيب عبد الله وطه صالح (هلال- مريخ)

علمتني حنتوب دروساً يصعب الإتيان عليها أو الإحاطة بها أقلها دورها في إيقاظ مشاعر الوطنية البصيرة في نفسي.. انقضى ذلك الزمن الجميل.

زمن كالربيع حل وزالا　　　　ليت أيامه خُلقن طوالا

## عرفنا المظاهرات... وأحببناها

صرنا نقبل على نشاط اتحاد الطلبة بأم روابه ومعى رفاق يتدفقون حماساً ووطنية بينهم يوسف جاد الله ومالك وعبد الله حيدوب وإمام الجاك وأحمد النور وغيرهم والذين أمكن بفضلهم بعث النشاط الثقافى فى نادى المدينة باعتباره مقدمة وستاراً لنشاطهم السياسى، وقادوا حملة تنوير مشهودة وجابوا المنطقة داعين إلى إنشاء المدارس الأهلية بالمنطقة وجمع التبرعات واستنفار الجهود، ومراسلة صحف الخرطوم معبرين عن قضايا المدينة ومعاناة أهلها.. أصبحت مراسلاً لجريدة الصراحة العاصمية وأذكر أننى والصديق مالك حيدوب بدأنا على صفحاتها حملة على السلطة المحلية التى أنشأت فرقة موسيقية أنفقت عليها الكثير، عوضاً عن شراء عربة للمطافئ حيث كانت الحرائق تلتهم البيوت والأحياء.. أذكر أن الأستاذ عبد الله رجب اختار لها عنواناً "شعبنا الشقى يأبى الرفاهية".. ولم ينج الأستاذ الكبير من مساءلة السلطات.

وكان أهالى المدينة ينتهزون فرصة قدوم بعض الساسة من الخرطوم للاحتفاء بهم فى ليال سياسية جامعة، يستمعون إليهم وهم يقومون بتنوير حول المرحلة ومسار الحركة الوطنية.. وكانت تعقد أحياناً بعض اللقاءات

المشابهة لهذا الغرض وأننى لأذكر أن تلك الفترة شهدت أول مظاهرة فى تاريخ المدينة فى أعقاب ليلة سياسية ثم على أثرها اعتقالى والأخ الطبيب حسن عبد الرحمن – أمد الله فى عمره – والوطنى الراحل وقيع الله سيد أحمد.

صار أمر المظاهرات أمراً محبباً إلى نفوسنا.. وأذكر أن بعض زملائنا فى حنتوب كانوا يجتازون النيل سباحة إلى الشاطئ الآخر بودمدنى كى يشاركوا فى المظاهرات التى كان يقودها الأستاذ أحمد خير ورفاقه.

.. وقويت خلال تلك الفترة شوكة "الإضرابات" لأبسط الأسباب، وكانت كلها تعبيراً عن ضيق بالاستعمار ومؤسساته وسياساته تتعطل على أثرها الدراسة. وكثيراً ما كان الآباء يضيقون بمسلك أبنائهم وهم يعودون إلى ديارهم بعد تعطيل الدراسة جراء مثل تلك الإضرابات.. وأحياناً كان يطلب إلى كل طالب المجئ مزوداً بتعهد من ذويه بالإقلاع عن مثل ذلك "المسلك الشائن" بالانصراف للدراسة.. وكنت أحار أحياناً فى صمت أبى بل كنت أحياناً أحس أن قسمات وجهه تنم عن رضى وارتياح كلما تعرضت لمثل تلك المواقف.. لم أكن أحسب أن لأبى نزوعاً للسياسة – فقد عهدته قواماً فى لياليه التى يمضيها فى تلاوة القرآن فى صوت جميل آسر، ومحباً لمجالس علماء الدين ورفيقاً لهم.. يحتفى بالمشائخ والعلماء والخلفاء.. وكان أبى ينتمى إلى طائفة "الختمية" شأن سائر أهلنا فى الشمال إلى أن جدت واقعة غيرت مساره فى هذا المجال حين قام بأداء فريضة الحج– وكان الوصول إلى تلك الديار يومها شاقاً وعسيراً – إذ رأى وهو بالمدينة المنورة خلال منامه أحد الأولياء (السيد أحمد التجانى) يطلب إليه الانضمام إلى "طريقته" التيجانية (وهي رواية أوردها الأستاذ الفاتح النور في مؤلفه عن الطريقة التيجانية بالسودان). حار كثيراً وأخيراً قرر التوجه إلى السيد على الميرغنى فور عودته لبلاده، والإفضاء إليه بما حدث– وكانت تربطه بالسيد على الميرغنى علاقة محبة وتقدير.. استمع إليه وآذن له بالتزام الطريقة التجانية شريطة أن يظل يقرأ مولد "الختمية" فى المناسبات المحددة.. وكان أبى يداوم على قراءة مولد الختيمة فى أداء رائع كنت أشعر بزهو وأنا صبى أرى الناس يتحلقون حوله وبعضهم يحمل "الرتاين" ويعمل على تهيئة أسباب الراحة له

يعمد إلى مساءلتى أو تقريعى قط يوماً لانصرافى للعمل السياسى شأن الكثيرين، إلى أن وجدت تفسيراً لذلك بعد عشرات السنين حين فاجأنى الصديق محمد عمر بشير يوماً بأنه اهتدى خلال محاولاته إعداد بحث عن تاريخ الحركة الوطنية وجود اسم أبى ضمن أعضاء جمعية " الاتحاد السودانى " السرية، والتى كانت ساعداً ونواة لانطلاقة اللواء الأبيض باعتباره مندوباً لها فى شرق كردفان، حيث كان يضطلع بجمع التبرعات واستنباط وسائل التمويل لها فى تلك الجهة والتبشير بمقاصدها والعمل مع حلفاتها السرية.

كان هناك موسمان للهجرة تعرفها دارنا فى أم روابه.. أولهما هجرة "أبى" برفقة قادة الطريقة التجانية مثل الشيخ أبن عمر – حفيد السيد أحمد التجانى والشيخ محمد الحافظ قطب تلك الطريقة وكان عالماً وشاعراً ويتقن التحدث بعدة لغات بينها الإنجليزية الفرنسية.. كانوا يحلون ضيوفاً على دارنا حيث يتزاحم الناس لنيل " البركة " ثم ينطلقون فى رحلة يدزعون خلالها مدن كردفان ودارفور على مدى أسابيع وشهور.. كان أبى ينضم إلى تلك القافلة ولا نكاد نلم بمكانه. أما الموسم الآخر فهو موسم الانتخابات البرلمانية فى مطلع الخمسينيات حيث كان عمى خليل وشقيقى عمر ضمن نشطاء الحزب الوطنى الاتحادى يومها وكانوا ينطلقون بعد اجتماعات مكثفة وتخطيط دقيق قوامه بعض الرجال الذين أوقفوا عافيتهم ومالهم لدعم الحزب مثل وقيع الله سيد أحمد وعبد الرحمن سليمان وشاع الدين وغيرهم.. كانوا يطوون الآفاق ويغشون القرى "والحلالات" على امتداد المنطقة التى تحدها تندلتى شرقاً والرهد غرباً وآفاق دار الريح مستقطبين أصوات الناخبين.. كانت رحلاتهم الشاقة تمتد أسابيع كثيرة دون أن نعرف شيئاً عن أخبارهم.

## محاولات للالتحاق بالجامعات المصرية:

كان طبيعياً أن نتأثر بتلك البيئة التى ألقت بظلالها على التكوين الفكرى والمزاج العام لكل واحد منا. تعرفت خلال تلك الفترة على بعض قادة الحزب الاتحادى الذى كانت دعوته تلاقى هوى فى نفسى، تعمقت أسبابها وبواعثها

فى نفسى حتى بلغت السبعين من عمرى.. فمازلت من أشد المؤمنين بأن علاقة السودان بمصر هى علاقة قدر ومصير وأنه لا مناص من التحامهما وتوحدهما يوماً.. وأننى لأذكر أننى كنت أجد متعة فى أحاديث شقيقى الأكبر " محمد " والذى ترك الدراسة طائعاً بجامعة الخرطوم وانطلق مع أول مجموعة من الشباب السودانى ضمن ما عرف " ببعثة السنهورى " للانخراط فى الجامعات المصرية.. كنت أجد فى أحاديثه ما كان يغرينى ويقوى تلك العاطفة الكامنة فى نفسى ويجعلنى أتحرق شوقاً لتلقى العلم فى مصر.. وجدت تشجيعاً من عمنا محمد نور الدين والسيد محمد أمين حسن- وكان كلاهما من قادة الحزب الاتحادى - بل أن الأخير شجعنى على التبشير بتلك الفكرة بين زملائى فى جامعة الخرطوم (وكانت تسمى يومها كلية الخرطوم الجامعية).. وبالفعل بدأت مناقشة الفكرة مع عدد من زملائى وأصدقائى وكان بعضهم تربطنى بهم علاقة تعود إلى أيام الدراسة فى المرحلة المتوسطة والثانوية بجنتوب من الذين أنست فيهم استعداداً وحماساً دفيناً، فانطلقوا وتلقوا تعليمهم بمصر بينما اقعدتنى ظروف لم تكن فى الحسبان من الانضمام إلى ركبهم، وكنت خلال الفترة التى قدمنا فيها للالتحاق بالدراسة فى الجامعات المصرية لا أعير أهتماماً لدراستى فى الجامعة، فكثيراً ما كنت أتخلف عن حضور المحاضرات فى بعض المواد باعتبار أن بقائى فيها موقوت.. وكثيراً ما كنت أعمل متطوعاً فى بعض الصحف المحلية التى وجدت فيها متعة وإشباعاً لهواية لازمتنى منذ كنت فى المرحلة المتوسطة بالأبيض، حين تمردنا ونحن فى مقتبل العمل على المشرفين يومها على الجمعية الأدبية " بتعيين " رئيس لها فأنشأنا صحيفة " النهضة " الجدارية التى أوكل أمر تحريرها لى لتكون منبراً مناوئاً للجمعية الأدبية أمكننا استقطاب غالبية الطلاب للكتابة فيها.. وقد لازمتنى تلك الهواية فى مختلف مراحل دراستى بجنتوب حيث كنت أحرر صحيفة "المحراب" ثم " الفكر الجرئ ".. واستأنفت ذلك النشاط خلال المرحلة الجامعية التى كنت أصدر خلالها صحيفة باسم " الطريق ".. بل أننى استأنفت ذلك النشاط متطوعاً بالعمل فى صحيفة " صوت الشعب " العاصمية ومجلة كردفان لاحقاً حيث صرت كاتباً راتياً

فى كليهما إلى أن وقع الاختيار على لأكون ضمن هيئة التحرير لمجلة "الاشتراكى" الناطقة بلسان التنظيم بعد تفجير ثورة مايو.

قلت أننى كنت أمضى وقتى بين دور الصحف حيث أدلف إلى معاونة الأصدقاء سيد أحمد نقد الله وأحمد باشرى وعصمت يوسف وغيرهم، وبين حجرات الدراسة لحضور بعض المواد المحببة إلى نفسى مثل الأدب العربى والإنجليزى ومادة التاريخ مع إسقاطى عامداً لمحاضرات الجغرافيا التى كنت أحس بنفور شديد إزاءها خاصة "الجغرافيا الحسابية".. وكنت واثقاً من أن فرصة قبولى فى الجامعات المصرية آتية لا محالة لولا أننى فوجئت بملابسات حالت دون ذلك فيما أشرت.. إذ شاءت الصدف أن يهبط أبى الخرطوم فى مهمة خاصة بأعماله التجارية حيث التقى فى دار أحد الأقارب بالعم إبراهيم أحمد – والذى كان يومها نائباً للمدير لشئون الطلاب بالجامعة – حيث أسر إليه بما تناهى إليه من اعتزامى السفر لمصر والالتحاق بجامعاتها وعبر عن خشيته.. بمشاعر أبويه صادقة – بأن ينتهى ذلك بضياع مستقبلى لما أنس فى من شطط وجموح ونشاط ما كان خافياً عليه.. فوجئ أبى بما كنت أعتزم فبادر إلى استدعائى مستفسراً عن جلية الأمر وكان قاطعاً فى رفضه للفكرة وأذكر أنه خيرنى بين تحقيق ما كنت أعتزم على كره منه أو نيل رضاه.. وهكذا أسقط فى يدى ولم يكن هناك خيار إلا البقاء.. حيث انطلقت قوافل زملائى صوب القاهرة وبقيت أردد فى حسرة بعد أن تعذرت علىّ رفقتهم، متمثلاً قول التجانى وهو يخاطب مصر:

نضر الله وجهها فهى لا تزداد إلا بعداً علىّ وعسراً

انصرفت إلى مراجعة الدروس التى فاتتنى وتدارك ما تم خلال تلك الفترة فانتظمت فى حضور المحاضرات.. أذكر أن أستاذ الجغرافيا الإنجليزى ويدعى المستر هاول أوقف محاضرته فجأة قائلاً " أرى وجهاً جديداً بين صفوفكم.. دعونا نرحب بالضيف القادم! ثم بدأ يسألنى عن أسمى والصفة التى أتلقى بها المحاضرة وعن ما إذا كنت طالباً بالجامعة؟.. وكان طبيعياً أن ينتهى الأمر بإصراره على حرمانى من الجلوس للامتحان الذى كان على الأبواب لعدم

انتظامى في الدراسة وأخيراً وبعد لأى قبل جلوسى للامتحان ولعله كان يضمر أمراً.. وكان طبيعياً أن أرسب فى المادة التى يلقننا أياها مع زميله المستر باربر والتى كانت قواعد الدراسة تجيز لنا إسقاطها فى السنة التالية سيما وقد أحرزت نجاحاً وتفوقاً فى المواد الثلاثة الأخرى.. كانت اللوائح تنص على فصل أى طالب يتعثر فى النجاح فى سائر المواد، ولكن رؤى - عوضاً عن فصلى وحرمانى من مواصلة الدراسة - أن أعطى فرصة لإعادة العام الدراسى. لم يكن ذلك في واقع الأمر يمثل أى مشكلة بالنسبة لى، فقد كنت واثقاً من انطلاقى اعتماداً على النتائج التى أحرزتها فى بقية المواد.. وأننى لأذكر فى تأثر عميق استدعاء أحد أساتذتنا البريطانيين الذين كنا نتلقى علي أيديهم مادة الأدب الإنجليزى لى وهو يواسينى فى عبارات رقيقة ومشجعة ويطلب إلى التركيز على مادة الجغرافيا خلال العام المقبل بل ويبيح لى استغلال أوقات محاضراته فى مراجعة تلك المادة (الجغرافيا).. ولقد قابلت تلك اللفتة الكريمة والمؤثرة من المستر هارت بعرفان وتأثر عميقين.

وهكذا بدأت عاماً دراسياً جديداً بين زملاء جدد شاءت الأقدار أن تعمق بيننا وشائج محبة ومودة انتهت إلى صداقات امتدت وشائجها وتعمقت جذورها إلى اليوم.. وقد كان لوجودى بينهم - والذى لم أسع إليه بل رمت بى الأقدار بينهم - الأثر الكبير فى تكوين مزاجى السياسى والفكرى..

رأى شقيقى محمد أن يصحبنى فى رحلة إلى القاهرة التى كنت أهيم بها عشقاً، عساه يخفف من وطأة حرمانى من الدراسة فى جامعاتها، فأمضيت بها شهراً نهلت من مواردها وغشيت الكثير من ندواتها برفقة أصدقاء قدامى هما الراحلان أبو بكر خالد ومأمون أبو علوان ومحمد الحسن الشيخ - أمد الله فى عمره - تعرفت خلالها إلى بعض الشعراء والكتاب خلال حضورنا لبعض الندوات التى كانت تعقد بحضور كبار النقاد حيث يبدأ الشعراء الشباب فى قراءة أشعارهم التى يعقبها تغليق وتحليل نقدى.. ومازلت أذكر ندوة تعاقب رواد الشعر الحديث على منبرها وكانت تضم الأساتذة صلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطى حجازى وجيلى عبد الرحمن وتاج الحسن والفيتورى

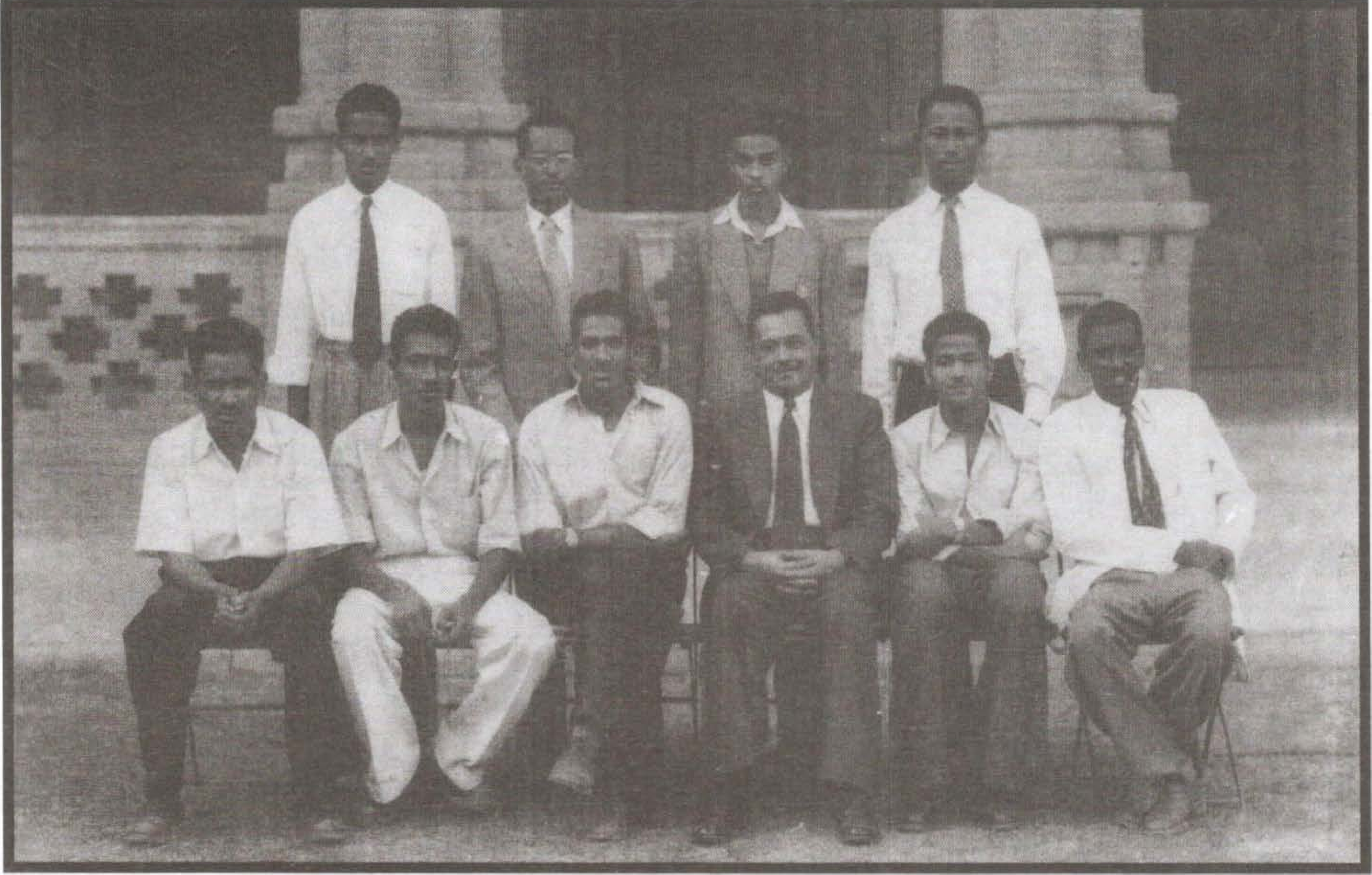
وكيلانى سند وأمل دنقل ومحي الدين فارس وغيرهم من الشعراء الذين فاضت أشعارهم بالنيل " المبطن " من ثورة يوليو فى أيامها الولى.. وهو أمر استهوانى فكتبت عنها فى جريدة الصراحة لدى عودتى بإصرار من بعض الزملاء.. وقد ربطت تلك الندوات الباكرة أواصر مودة بينى وبين بعضهم توثقت عراها حين جئت القاهرة دبلوماسياً فى منتصف الستينات واعترف بأنني كنت أشقي كلما تذكرت تلك الواقعة في مراحل لاحقة من حياتي حين اهتديت لآثار تلك الثورة.

## تحت رايات اليسار:

على أن مرحلة الدراسة الجامعية فتحت أمامى آفاقاً رحبة للتعرف على الحركة السياسية والمبادئ التى تلتزمها الأحزاب ومناهجها.. كانت كلية الخرطوم الجامعية يومها بؤرة للنشاط المناهض للاستعمار وكانت مقصداً لكل ناشط سياسى حيث يؤم الجميع دار اتحادها للمشاركة فى المحاضرات وأركان النقاش.. وكان المجتمع الطلابى نفسه منقسماً بين اتجاهين رئيسيين.. أحدهما وهو الغالب يبشر للفكر اليسارى بجميع مدارسه بينما يضم الآخر العاملين علي إرساء التيار الإسلامى الذى أحد يتشكل ويقوى عوده على تلك الأيام.. وجدت نفسى مشدوداً إلى المعسكر الأول أتابع نشاطه.. أتعرف إلى توجهاته وأدبياته وأنفق جهداً فى الدفاع عنه حتى صارت صحيفتي " الطريق " رديفاً لصحيفة " أسكرا " التى كان يصدرها الصديق مبارك بابكر الريح منبراً لفكرها.. كنت أقوم بتلك المهمة دون أى التزام حزبى أو فروض يمليها على انتمائى للحزب الشيوعى.

كنت أرى فى زملائنا من الشيوعيين صلابة وقوة شكيمة وإقبالاً على التضحية وإقداماً على خوض المعارك، كما كان كثير من أصدقائى ينتمون لذلك الفصيل.. وكنا نقضى أوقاتنا معاً فى مناقشات حية وثرية ونمضى أوقات فراغنا فى جلسات سامرة ممتعة.. لم أكن أحتفى كثيراً بالجوانب النظرية والفلسفية فى النهج الذى يلتزمون وأن كنت مشدوداً إلى الأدب الروسى أكاد

التهم مؤلفات المبدعين من كتابهم أمثال ماكسيم جوركى وتشيخوف وتورجنيف وتولستوى.



لجنة اتحاد جامعة الخرطوم سنة١٩٥٢
الجالسون من اليمين: فاروق محمد إبراهيم- فاروق مصطفى المكاوي- جمال محمد أحمد (مدير شئون الطلاب) - جعفر الحسن - طه محمد طه - الطيب حسب الرسول
الواقفون من اليمين: الأمين حاج الشيخ- أبو بكر عثمان محمد صالح- عبد القادر حسين محي الدين محجوب شودة.

كان التنافس على لجنة الاتحاد المكونة من عشرة أعضاء على أشده بين الفريقين المتصارعين. وفجأة وعلى غير انتظار – وجدت نفسى مرشحاً ضمن قائمة اليسار لعضوية لجنة الاتحاد.. وقد حققت تلك القائمة فوزاً كاسحاً إذ أمكن انتخاب تسعة أعضاء من المعسكر اليسارى بالإضافة إلى عضو واحد من القائمة الأخرى هو المرحوم محمد أحمد على. وقد شهدت فترة قيامنا على أمر الاتحاد أحداثاً سياسية كبيرة واكبت تحولات كبرى فى تاريخ الوطن توجت بإبرام اتفاقية الحكم الذاتى لاحقاً.. كانت فترة غنية بأحداثها قامت اللجنة

خلالها بمبادرات دائبة لجمع الصفوف ولتوحيد الجهود لمحاربة الاستعمار، فطرحنا شعار "الجبهة المتحدة" التى ضمت كثيراً من الأحزاب المؤثرة العاملة فى الساحة السياسية.. كنا والصديقين فاروق محمد إبراهيم وطه محمد طه مندوبين دائمين لدى تلك اللجنة التى تضم فى عضويتها قادة الأحزاب السياسية والنقابات العمالية والمهنية. أمضينا زمناً حافلاً بالعمل الجاد فى رفقة نضالية حميمة نتصدى للاضطلاع بدورنا والوفاء بواجبنا فى المعركة الوطنية وفقاً للقرارات التى نصدرها مع الأطراف الأخرى فى الجبهة المتحدة، ونقوم بواجبنا فى تعبئة مجموعات طلاب المراحل الثانوية والتى كنا على اتصال دائم بمندوبيها من جهة، ونتصدى لعناصر التيار المنافس الذى كان أفراده ينحون إلى الحيطة والحذر ويتخذون من الكفاح أمراً ثانوياً مقارنة بالانكباب على التحصيل والانصراف إلى الأمور الأكاديمية.. وكانت علاقتنا بقادة ذلك المعسكر وقياداته المتمثلة فى الأخوة الرشيد الطاهر وبابكر كرار وميرغنى النصرى ومولانا وأحمد الشيخ البشير وأحمد أمين ومحمد يوسف ويوسف حسن سعيد تتسم بالاحترام والود الصادق والمودة البيضاء التى لا يفسدها اختلاف الرأى وتباينه.

وبدت مع الأيام مظاهر الخلاف تدب فى أوصال معسكر اليسار، ولم يكن ذلك الخلاف إلا انعكاساً لبوادر انقسام كان يمارس فى الخفاء وفى حلقات ضيقة فى المستويات العليا فى أجهزة الحزب الشيوعى بين الحرس القديم وبعض العناصر التى تنادى بإشاعة أسباب الديمقراطية فى داخل الأجهزة والتقدم برؤية جديدة تتسم بالمرونة. كنا نشعر بأن بعض ما كان يترامى إلينا من أفكار المجددين يمثل ترجمة لما يعتمل فى صدورنا. وبالرغم من أن الأمر كان وقفاً على قيادة التنظيم الشيوعى ولم يكن يهمنا فى كثير أو قليل، إلا أننا وجدنا أنفسنا طرفاً فى الدفاع عن تلك الأفكار خلال محادثاتنا مع بعض الأخوة فى معسكر اليسار العريض الذى كنا نرفع لواءه معاً.

يبدو أن الخرق اتسع على الراتق وعمل المعسكر التجديدى على دعم صفوفه وتلقينا دعوة لحضور مؤتمر تأسيسى لإنشاء تنظيم لتلك المجموعة فى

الطرف الشمالى لأم درمان فى أقصى حى ودنوبادى وفى منزل الأخ التيجانى الطيب عثمان.. وإذا بنا أمام مجموعة من بعض قادة النقابات والطلاب والمثقفين الوطنيين أذكر منهم أن لم تخنى الذاكرة عوض عبد الرازق وحسين ونى وأحمد المغربى وحسن أبو جبل وعبد الله عبيد ود. عبد القادر حسن وسيد أحمد نقد الله وأبو المعالى عبد الرحمن وتوفيق أسحق وبابكر أحمد موسى وحسن سلامة وعبد الرحيم البوليتارى وميرغنى أحمد المصطفى وعبد الوهاب محمد احمد وعز الدين صالح داوود إلى جانب زملائنا الطلاب عبد الكريم المهدى والطيب حسب الرسول والتجانى الطيب وبدر الدين سلمان وعلى التوم ومحى الدين عووضه وعبد الرحمن شمس الدين وفيصل عبد الرحمن ومحمد الأمين محمد صالح وأنور أدهم وعبد المنعم هلال وعبد الرحمن البشير وبابكر العقاد وعكرمه وآخرين يمثلون قيادات لمنظمات شبابية ونسائية مثل الأخوات عزيزه مكى وحاجة كاشف. سرعان ما قام السيدان عوض عبد الرازق وحسين ونى بطرح الفكر الجديد ومناهج بلوغ مراقيه..

كان استعراضاً علمياً مبهراً حمل توصيفاً لواقع الوطن ومكوناته.. ومطامحه وآماله ووسائل بلوغها.. وهكذا وجدت نفسى جزءاً من ذلك الكيان بجهازيه السرى (حدس) والعلنى (الجمعية الوطنية فى مرحلة لاحقة).. بل صارت صحيفة " الطريق " التى كنت أقوم على تحريرها إلى جانب رصيفتها "إصرار" التى كان يصدرها الصديق على التوم ناطقتين باسم ذلك الكيان الوليد فى الجامعة. وكان ذلك مدعاة لنشوب معركة ضارية وشرسة مع قدامى الشيوعيين من زملائنا بالجامعة وبين معسكرنا حيث كانوا ينظرون إلينا باعتبارنا فئة ضالة أخطأت الطريق فأضحت فى عداد المرتدين.. واتخذت تلك المعركة مظاهر جعلت المعسكر الإسلامى يعبر عن سعادة واضحة ويسعى إلى تأجيج المعركة بين الفريقين وتوسيع الشقة بينهما.. ولما كانت غالبية زملائنا فى المعسكر اليسارى ظلت على مواقفها المعروفة وكان معسكرنا يبدو أقل عدداً فقد أطلق على المعسكر الأول لقب "البولشفيك" بينما عرفنا "بالمنشفيك".

هناك أمر مازال يحيرنى وهو أن أية فئة تدفعها دواعى الاجتهاد للخروج عن الجماعة التى كانت تنتمى إليها تظل هدفاً لحرب ضروس وحملة قاسية وعاتية تتضاءل دونها المرارات التى تحسها الجماعة تجاه أعدائها والمناوئين لفكرها. هى ظاهرة تكاد تحفل بها فصول التاريخ البشرى.. ولعل فى تاريخ الحزب الشيوعى نفسه ما يعزز ذلك بل تنهض الخلافات بين الدعاة منذ القدم شاهداً ويكفى أن نراجع الخلافات الحادة بين الجماعات المسيحية أو بين بعض المذاهب الإسلامية. كان الخلاف يبدو أكثر ضراوة بيننا وبين زملائنا القدامى على الساحة السياسية والتى لم تلق بأية آثار على علاقات المحبة والصداقة التى كانت تشدنا على الصعيد الشخصى. عملنا فى معسكرنا الجديد على مخاطبة الوجدان الوطنى ومحاولة استقطاب أكبر عدد من فصائله إلى جانبنا.. وحاولنا جاهدين أن نخرج بعملنا عن المحيط الطلابى إلى الساحة السياسية العامة حيث خططنا لمبادرات أجازتها قيادة الحزب. قررنا إحياء فكرة المهرجان الأدبى الذى واكب نشوء الحركة الوطنية ووقع الاختيار على مدينة الأبيض كى تكون مسرحاً له. بذلنا جهداً مضنياً فى جمع المال وإقناع المبدعين بالمشاركة وبعض الفنانين بالسفر إلى هناك وإحياء لياليه لقاء أجر رمزى فاستجاب له البعض وشاركوا تطوعاً دون لقاء أجر أذكر منهم الفنانين أحمد المصطفى ورمضان حسن وأبدى رجال كردفان – كالعهد بهم – أريحية وكرماً وقدموا عوناً مشهوداً. انتهزنا فرصة عطلة عيد الفطر فاستأجرنا عربة قطار (بالدرجة الرابعة) وانطلق جمعنا حيث تبارى رجال الأبيض فى استضافتنا.. وسارع الفنانون المحليون لتقديم العون وتهيئة المسرح.. وأننى لأذكر مشهداً رائعاً يصور فصائل المجتمع السودانى ومجتمعه المدنى بكامل فئاته.. كان صديقنا الطيب حسب الرسول يقف من وراء الكواليس يقوم بتحية كل فصيل يظهر على المسرح بصوته الجهورى مشفوعاً بأبيات شعرية تبث الحماس وتلهب المشاعر.. ما أن ظهرت كتيبه المزارعين يحملون فئوسهم ومعدات الزراعة حتى صاح فى أسى:

يـــا هابطـــاً أرض الجزيـــرة كيـــف حـــلفت الروابـــى
والـــزراعين الحاصـــدين جنـــى العـــــذاب
يـــا لـــوزة القطـــن الحبيـــب أثـــرت مـــا بـــى
جعلـــوك عنـــوان الثـــراء فكنـــت عنـــوان الخـــراب

وهنا علت أصداء حشرجة أشبه بالنشيج من بين صفوف المشاهدين " يا الله.. هذه أبيات من شعرى.. رعاكم الله يا شباب "!! ولم يكن مصدر الصوت إلا العم الوزير السابق والشاعر المعروف خلف الله بابكر. ولم ينس العم أن يبادر إلى تهنئة منظمى ذلك المهرجان باعتباره حفظاً للتراث وإعلاء لقيم الحركة الوطنية.. وقد لقى ذلك العمل أصداء واسعة. كانت من المبادرات التى أذكرها "أننا قررنا تنظيم ندوات يدعى إليها قادة الفكر والسياسة لمناقشة بعض القضايا الماثلة.. بدأنا بتنظيم ندوة عن " أزمة الثقافة فى السودان " تحت مظلة " الطريق " التى كنت أحررها وجهت الدعوة إلى نخبة ممتازة من قادة الفكر والعمل الثقافى.. كان من بينهم السادة محمد أحمد المحجوب ومبارك رزوق وده عبد الحليم محمد وحسن الطاهر رزوق ومحمد عمر بشير ومحجوب محمد صالح وطه بعشر والدكاترة محمد النويهى وعبد المجيد عابدين وإحسان عباس والأديب المصرى يوسف الشارونى وغيرهم إلى جانب الأخوات حاجة كاشف وفاطمة طالب إسماعيل وغيرهن.. وقد اضطلع الأخ الطيب حسب الرسول بإدارة الندوة وكنت مقرراً لها.. وقد خرجت الندوة بتشخيص دقيق للواقع الثقافى وتقديم بعض الحلول!.. وقبل أيام وبعد انقضاء خمسين عاماً حملت إحدى صحفنا المحلية دعوة من بعض الجهات لمناقشة أزمة الثقافة فى السودان.. فتأمل!!

أخذت مثل تلك المبادرات والطرح المرن الذى أخذ يسم نشاطنا السياسى ومجافاتنا للتطرف واستعداء الآخرين، والنهج الوطنى الذى كنا نلتزمه، مدعاة للتقريب بيننا وبين تيار أخذ يتبلور ويعمل على تنظيم صفوفه على استحياء.. تيار يمثل الكثرة الغالبة من طلاب الجامعة الذين كان قدرهم- فى غياب تنظيم

لهم يخوضون الانتخابات تحت لوائه – أن يصوتوا لأحد التيارين.. اليسارى أو جبهة الميثاق الإسلامى.. ولما شعر الكثيرون من تلك الفئة بتحفظاتنا على النهج المتطرف الذى يلتزمه كلا الفريقين فى مجال العمل الطلابى، ولما باتوا يدركون أن كليهما لا تعدو عضوية أعضائه الملتزمين تنظيمياً بضعة عشرات وأن بدوا أكثر حجماً بفضل حناجرهم القوية ونشاطهم الدائب وقدراتهم التنظيمية، فقد أخذ بعضهم يدعو بصفة فردية – إلى ضرورة قيام تنظيم مستقل يجمع شملهم ( وهو أمر تحقق فيما بعد بعد تخرجنا من الجامعة). على أننا أخذنا نجرى اتصالات ومحاولات متصلة مع بعضهم حتى توج ذلك بتحالف معهم نخوض بموجبه الانتخابات الوشيكة للجنة الاتحاد بقائمة موحدة.. وهو مسعى فطن إليه التياران الآخران فقاما بجهد مماثل أثمر عن فوز بعض مرشحى اليسار القديم بمقاعد محدودة.. وقد شرفت والزميلان الطيب حسب الرسول ومهدى مصطفى بترشيح الحزب لنا لخوض الانتخابات وبالفعل نجحنا بتوفيق من الله حيث وجدنا أنفسنا ضمن عشرة أشخاص أنيط بهم قيادة العمل الطلابى فى الجامعة.. مرة أخرى.. وأذكر أن اللجنة ضمت عدداً من المستقلين ونفراً محدوداً من رفاقنا القدامى بينهم الصديق فاروق محمد إبراهيم.

وقد شهدت تلك الدورة ضروباً من المكايدات والمزايدات لدفعنا دفعاً لإعلان الإضراب مع نشوء كل واقعة مهما كانت صغيرة.. على أننا – اعتماداً على تجاربنا – أفلحنا فى إحباط تلك المحاولات التى كانت تستهدف إحراجنا ودفعنا إلى مهاوى الشطط.. وكما أصبنا نجاحاً فى النأى بأنفسنا عن مزالق التطرف أياً كان مصدره، قمنا بإنجازات صبت فى مجملها فى مصلحة المجتمع الطلابى دون اعتبار لتحقيق أية مكاسب سياسة أو مذهبية.. وكانت تلك الفترة التى شهدت تعاوناً مع رفاقنا القدامى فى المحيط الطلابى ترياقاً بدد بعض المرارات التى رانت على علاقاتنا يوماً. وكانت تلك الدورة (١٩٥٤-١٩٥٥) هى التى واكبت السنة النهائية لدراستنا فى الجامعة.. حيث أنهمك الجميع فى الإعداد لامتحان التخرج، والانطلاق الي ساحات العمل العام حيث كان على كل منا الإسهام فى خدمة بلاده وفقاً للموقع الذى قدر له أن يجد نفسه فيه.

الفصل الثاني

# في مدارج الحياة العملية

## الالتحاق بسلك المعلمين:

كانت " قهوة النشاط " بؤرة للعمل الطلابي بالجامعة وكانت منبراً لكل من أراد التبشير بفكر معين أو قصد دعماً لجماعة أو حزب، وكان يغشاها أحياناً بعض النقابيين وقادة العمل الوطنى مثلماً كانوا يغشون دار اتحاد الطلاب فى الأمسيات حيث تعقد الاجتماعات وحلقات النقاش. كانت قهوة النشاط أشبه بالركن المعروف بحديقة هايد بارك الشهيرة فى قلب لندن.. الحرية فيها مكفولة لا تحدها حدود.. من يتحدث فيها فهو آمن ومن جنح فى حديثه واشتط كان جزاؤه أحياناً صفيراً وتقريعاً. كنت عائداً من قهوة النشاط ضحى أحد الأيام حين استوقفنى مشهد ثلاثة من زملائى أبناء الدفعة وهم يتحاورون ويتصافحون بالأكف بأسلوب هو إلى التعاهد أقرب.. دنوت استطلع الأمر فإذا بهم يخبروننى بأنهم قادمون لتوهم من المبنى الرئيسى لكلية الآداب، حيث علقت النتائج النهائية فى لوحة الإعلانات.. وبما أنهم أدركوا النجاح فإنهم يعتزمون الذهاب إلى وزارة المعارف (التربية والتعليم) للالتحاق بها معلمين يعنون بتربية الناشئة وفاءاً لرغبة دفينة فى نفوسهم، ووصلاً لتجربة جميلة مارسوها يوماً متطوعين، واستمتاعاً بعطلات سنوية تمتد شهوراً يتصرفون خلالها إلى الإطلاع والعمل النافع. كان الخريجون الجدد– على أيامنا – يتقدمون للعمل فى مرافق توفر لهم فرص الترقى السريع والابتعاث للخارج للحصول على مزيد من المعرفة والتحصيل.. مثل الإدارة والمالية وبنك السودان إلى غير ذلك. صادف ما سمعت هوى فى نفسى، ذلك أننى كنت أحس نفوراً شديداً من العمل المكتبى، ولم أكن أتصور نفسى يوماً ترساً فى جهاز بيروقراطي متشابك.. كنت ميالاً للعمل الحر الذى أجد فى فضائه فرصة للانطلاق والمبادرة.. لذا وجدتنى – قبل ظهور النتيجة – أخاطب أحد أصدقائى– وكان

أخوه من رجالات مشروع الجزيرة المرموقين – لكى يظاهر الطلب التى تقدمت كى أعمل محرراً لصحيفتها التى أعلن عنها. كما فكرت فى الالتحاق بالحكم المحلى حيث تبدو الفرصة مواتية للالتصاق بجماهير الريف، والمشاركة فى مؤتمراتهم والتى تخطط للنهوض بمناطقهم، وسعيت للاستعانة بالأعمام داود عبد اللطيف وعلام حسن علام.. ما أن استمعت لحديث زملائى حتى وجدتنى أمسك بيد صديقى الأثير عبد الرءوف محمد صالح معاهداً إياه والزميلين عبد الله محمد أحمد وعلى الغبشاوى على المضى قدماً إلى بلوغ ما يسعون إليه.. وهكذا انطلقنا إلى وزارة المعارف الرابضة على ضفاف النيل الأزرق على مقربة من مبانى الجامعة وطلبنا مقابلة المدير.. " المدير حتة واحدة!" لعل السكرتير والذى لم يعرف الغرض من المقابلة رأى من الجرأة التى عبرنا بها عن طلبنا ما يشى بأننا ربما كنا مندوبين من اتحاد طلبة الجامعة، الذى كثيراً ما كان يغشى المسئولين فى المعارف، لمناقشة قضايا الطلبة فى مختلف المراحل تأسيساً على قيادته لمؤتمر الطلاب.. ولم تجد نصائحه لنا بالانصراف إلى مقابلة مسئولين آخرين.. وأخيراً – وبعد ما زاد إصرارنا على مقابلة المدير سمح لنا بالدخول، فإذا بنا وجهاً لوجه مع الأستاذ الكبير عوض ساتى.. المربى الكبير وناظر وادى سيدنا، ومنشئ دار النشر ومحرر الصبيان وفوق ذلك سكرتير مؤتمر الخريجين العام يوماً.. فرحب بنا.. وما أن أفضينا إليه برغبتنا فى الالتحاق بالمعارف – وكان ذلك أمراً نادر الحدوث إذ أن الكل كان ينصرف إلى الجهات الأخرى، فيما سبق أن أوضحنا – نتيجة لضمور فرص الترقى، حتى صار المعلمون ليس فى السودان فحسب بل ربما فى كل مكان فى نهاية سلم الخدمة فيما عبر كثير من الكتاب والشعراء من تلك الفئة المتميزة المعطاءة.

ما أن أفصحنا عن رغبتنا حتى نطق بكلمة واحدة " مدهش! " ونادى على أحد مساعديه – الأستاذ فرح – وطلب إلينا أن نكرر ما قلناه فبدت علامات الدهشة واضحة على وجهه.. وربما ظن أننا " شيوعيون " طلب إلينا التنظيم الالتحاق بسلك التعليم حتى نربى الطلاب على الوجهة التى تخدم مصلحتنا وتبشر بأهدافنا فأكثر من سؤالنا عن الأسباب التى دعتنا إلى اختيار سلك

التعليم والانصراف عن التقدم إلى المسارات الأخرى إلا إذا كنا نحسب أن هناك موانع قد تحول دون استيعابنا فى تلك المرافق.. و... الخ وأخيراً – وفى زهد لم يخف مظاهره أخطرنا بأن علينا أن ننتظر حتى يوليو (ثلاثة أشهر أخرى) حتى نفتح مدارس الشمال، نتيجة لتغيير العام الدراسى وتساءلنا عن إمكانية استيعابنا رسمياً على أن نقوم بالاضطلاع بأية أعمال خاصة بالمنهج أو التدريب حتى انتظام الدراسة فى يوليو فأوضح صعوبة ذلك. وأخيراً ذكر لنا – وربما حسب أنه يطلق آخر سهم فى حملنا على الانصراف أن المدارس فى جنوب السودان مفتوحة وبإمكاننا التوجه إلى الجنوب للتدريس هناك حتى يحل موعد انتظام الدراسة فى مدارس الشمال فأبدينا موافقتنا بل وترحيبنا.. وهنا تهللت أسارير الأستاذ عوض ساتى وعلق بذات الأسلوب " مدهش " وطلب إلى مساعده ترتيب الأمر. وفى مكتبه كان العم "فرح" " فرحاً " حينما إطمأن إلى أن منطلقنا ينطوى على رغبة صادقة وذكر أنه "سيبرنا " بمكان يتمنى الكثيرون العيش فيه. إنها " مدرسة التونج".. وقال مشجعاً إنها منتجع ساحر.. نكاد نرى أنوار " واو " على البعد وأضاف أنها منطقة "يتنافس عليها المتنافسون" – على حد قوله. وهكذا انطلقنا ننشد مزيداً من يقين جرياً على شرعة موسى " قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى".. سألنا زملاءنا وأهل التجربة فى كل مكان عسانا نظفر على من يزودنا بمزيد من المعرفة عن ذلك " المنتجع الساحر "، ثم بدأنا نعد العدة وتوفير ما نصحونا بالتزود به من المال الذى وافتنا به الوزارة والذى كان يعطى عادة للمبعوثين إلى الخارج والعاملين بالجنوب.. اشترينا بعض " الشماسي" اتقاءاً لزخات المطر الذى لا ينقطع، وأحذية طويلة تتجاوز الأقدام فى انسياب حتى منتصف الساق، إلى جانب "بطاريات" صغيرة كاشفة تحاشياً للدغات الثعابين وهوام الأرض.

## أيامي في الجنوب:

كانت المرة الأولى التى نمتطى فيها طائرة.. كانت الطائرة صغيرة من طراز "دكواتا" تعبث بها الرياح.. كانت مشاعرنا مزاجاً من السعادة والوجل الذى غالبناه بالحديث إلى زملائنا الذين وقع عليهم الاختيار للعمل بالجنوب فى السلك الإدارى والقضائى، وكان بينهم زميلنا الراحل موسى عبد الغنى والذى كان زهرة لمجالس السمر فى الجامعة حيث كان يثرى تلك الليالى بأغانيه الشجية والأهازيج التى يؤلفها وكانت أخرها تلك الأنشودة الجميلة التى يستعجل فيها أوان التخرج من الجامعة والانخراط فى الوظيفة. وأننى لأذكر أغنيته اللطيفة التى قام بتلحينها على نسق الأغنية القديمة " طيبة الأخلاق ".

وكان يداعبنى والأخ طه صالح شريف فيها لانصرافنا عن المذاكرة إلى "دك" المحاضرات وتجاوزها إلى الاهتمامات السياسية والرياضية.

خلاص يا إدارة " جيناكى          ولبس البدلة بالكاكي

وركوب العربة الملاكي...          الخ

كان موسى بادى السعادة وهو يرى حلم حياته يتحقق.. ذلك الحلم الذى ألهمه البدائع والروائع، وما كان يدرى ساعتها أن الموت يكمن له وراء دغل فى أحراش الخيوب بعد أسابيع.

جلس إلى جانبى فى الطائرة رجل وقور فى زى أفرنجى كامل.. كان طويلاً ربع القامة لا تكاد المسبحة تفارق أصابعه.. كان يكثر من الدعاء فى صوت خافت.. وحين حطت الطائرة فى مطار " ملكال" رأينا ثلة من الجنود يصطفون فى هيئة " قرة قول " شرف ولحنا أبواق الموسيقى الصفراء بمختلف أحجامها تنطلق تحية للضيف الذى هب مدير المديرية " محمد عثمان يس " لاستقباله على سلم الطائرة، وعلمت أن ذلك الرجل التقى المتواضع لم يكن سوى السيد محمد محمود الشايقى وكيل وزارة الداخلية الذى كان يقصد الجنوب لعقد اجتماع مع مديرى المديريات الثلاث..

واصلنا رحلتنا حتى جوبا حيث كان علينا أن نقدم أنفسنا للمسئول عن التعليم فى الجنوب لاعتمادنا وتهيئة وسائل نقلنا إلى التونج.. وقد سعدنا حين علمنا أنه السيد عبد الحليم على طه – أستاذنا الكبير. وكان السكان بجوبا يرون فى وصول الطائرات القادمة من الخرطوم فرصة للقيا المعارف وتسقط الأخبار وربما الحصول على بعض الصحف أو بغرض تزجية الفراغ ورؤيا نماذج من البشر القادمين.. فى ذلك النهار فوجئ الواقفون فى مطار جوبا بأربعة شبان يغطون رؤوسهم بقبعات ينتعلون أحذية سميكة "**Boots** " ويمسك كل منهم بمظلة فى إحدى يديه وبطارية صغيرة فى اليد الأخرى.. ذلك العتاد الذى نصحنا العارفون بالتزود به.. بدت الحيرة بادية على عيون البعض وندت بسمات ساخرة من البعض الآخر. لم يطل بنا المقام بجوبا حيث تنافس الأخوة هناك من موظفين وتجار على الاحتفاء بنا ثم بدأنا رحلة الذهاب إلى بحر الغزال عبر غابات الإستوائية الساحرة فوق طرق عالية ناعمة تنافس الطرق الأوروبية اتساعاً تحف بها الأشجار وتبدو على البعد بين ثنايا الأشجار المتشابكة بعض الأكواخ إلى جانب الفيلات الأنيقة التى غطيت سقوفها بالقرميد الأحمر.. وما أن وصلنا مندرى حتى قصدنا دار " السلطان جامبو " الذى جلس على كرسى وثير فى قلب دهليز مستطيل مصنوع من " النال " تحف به الأشجار العالية الظليلة التى تشابكت أغصانها.. وكانت الصبايا يتحلقن حول الدار يقمن بتنقية أكوام من الفول السودانى وتقشيره بهمة ونشاط وتعلو أصواتهن بالأغانى العذبة وينتشر صداها فى الأفق الرحيب لتعانق غلالات السحب التى تتدلى حتى تكاد تلامس الرؤوس.. وكانت الرياح الهادئة تحمل بين الحين والآخر رجع صخب الرجال فى جوف الغابة وهم يتقافزون ويلهون فى سعادة ومرح. سألنا السلطان جامبو عن مقصدنا وطبيعة مهمتنا.. وما أن علم أننا سنعود إلى الخرطوم بعد أسابيع حتى أخرج من جيبه ساعة عتيقة صدئة طالباً إلينا إيصالها للصاغ صلاح سالم مشفوعة بتحياته كى يوجه بإصلاحها وإعادتها إليه، فهو ضنين بها لأنها هدية عزيزة على قلبه من الصاغ نفسه ثم

انطلق يتحدث عن الصاغ ودماثته وثقافته.. ولعل الساعة مازالت بطرف أحدنا أو لعلها ستظل بين متعلقاته حتى تقوم "الساعة"

وصلنا واو بعد رحلة ممتعة حيث وجدنا زميلنا وصديقنا عبد الله عمر – مأمور المركز – وآخرين بالغوا فى الاحتفاء بنا ثم اتجهوا بنا فى أصيل يوم مطير إلى المرسى حيث ترسو البواخر والمراكب إلى الضفاف الأخرى من نهر التونج.. حتى بدت من على البعد بعض المظاهر التى توحى بشئ من العمران.. فاطمأنت قلوبنا وازدادت اطمئنانا حين وجدنا بين المستقبلين أصدقاء لنا قدامى بينهم الأخوة توفيق إسحق وهجام وعلمنا أن مفتش المركز هو الأخ جيلى حامد.. لقينا ترحيباً مؤثراً وأخذنا إلى حيث كان علينا أن نعمل ونعيش.. كانت المدرسة فى ركن قصى من المدينة وعلى أطراف الغابة وكان بناؤها جيداً تحيط بها منازل المعلمين.. وقد حددت فيلا جميلة تحيط بها أسلاك النملية من كل جانب اتقاء البعوض وبعض المتاريس المتوسطة الارتفاع لمغالبة الثعابين وهوام الأرض.

وكان السكن مريحاً حيث خصصت غرفة لكل اثنين منا تقاسمنا والأخ عبد الله إحداها بينما تقاسم رءوف والغبشاوى غرفة مقابلة.. وسرعان ما تحول بيتنا إلى منتدى يؤمه الأصدقاء.. وكنا نعرج فى بعض الأمسيات على نادى البلدة حيث نشق طريقنا بين الأشجار الكثيفة ونتسرب عبر المنازل إلى ذلك المنتدى. مرت أيامنا هادئة وادعة بين احتفاء طلاب انسوا إلينا لما رأوه من لقاءات ودودة وعطف ونقاش هادئ وإصغاء لشكاواهم والانتصار لها.. وقد قمنا بمبادرات بتخصيص يوم فى كل أسبوع لعقد ندوات وليال تجمعنا وإياهم.. نتعرف على المواهب الباكرة لبعضهم.. ونعقد ندوات أشبه بليالى "القبعة".. كنا نجد متعة فى متابعة الناظر فهمى سليمان وهو يعود بذكرياته حين كان لاعباً مرموقاً فى الهلال حيث يسوق لنا أوابد قدامى اللاعبين طلعت فريد وهاشم ضيف الله وشرفى وغيرهم ومغامراته فى صيد الحيوانات المفترسة، وكان جعفر الخليفة مدير معهد التدريب بالتونج دنيا قائمة بذاتها.. كان كريماً لا يكاد يترك الآخرين يفلتون من قبضته وهو يتصيدهم إلى مائدته ومجلسه

العامر وطرائفه العديدة.. وأحياناً ترديده لبعض الأغانى التى تثير فى نفوسنا الشجن والحنين.. كان زملاؤنا فى الجامعة والمنتشرون على أطراف المديرية من خبراء زراعيين وبياطرة وإداريين يحرصون على زيارتنا وتمضية عطلة نهاية الأسبوع معنا.. وهى مناسبات كنا نتطلع إليها بشوق وكان الاتصال بيننا وزملائنا فى رومبيك الثانوية القريبة ممدوداً لا ينقطع.. وفجأة لاحت فى الأفق نذر تشى بما هو آت.. إذ بدت تطرق مسامعنا كلمة "مندوكورو" لأول مرة ونحن نتخذ طريقنا بين مساكن الأهالى فى طريقنا إلى النادى، وبدت علامات التحدى الصامت تلوح وأخذ زملاؤنا ينقلون إلينا ما لاحظوه من سلوك غير مألوف لدى أشقائنا الجنوبيين فى المناطق التى قدموا منها، وانخرطنا لأسابيع نحاول تحليل هذه الظاهرة والوصول إلى كنهها.. ومع مرور الأيام أخذت شكوكنا تتحول إلى ما يشبه التسليم.. ثم صارت يقيناً تاماً بأن أمراً ما يجرى إعداده.. وحان شهر يوليو.. وهو موعد افتتاح مدارس الشمال... وهو الموعد المضروب لعودتنا.. فطلبنا من مفتش التعليم بالمديرية سرعة نقلنا إلى هناك وفقاً للاتفاق.. ثم شفعنا ذلك بعد أيام بمخاطبة الرئاسة فى جوبا وظللنا نلح دون طائل.. وأخيراً استقر رأينا على الإضراب عن التدريس. وهكذا كالعادة اصطف الطلاب فى طابور الصباح ولم يظهر المعلمون.. جاء الطلبة وأضرب المعلمون! وكان حادثاً ليس له شبيه أضحى موضع تنذر لدى الكثيرين.. سعى الناظر وأعيان المدينة لإثنائنا عن مواصلة الإضراب مع تعهد غليظ بالسعى الجاد لتحقيق مطلبنا دون طائل.. كنا نشعر أننا نسابق "كابوساً" يكاد يطبق علينا مع مرور كل صباح.. وأخيراً تم إخطارنا بالتوجه إلى الخرطوم لمقابلة المختصين الذين قرروا عقد مجلس تأديب لنا.. وهكذا حزمنا أمتعتنا على عجل ولم نشأ البقاء لمزيد من الوقت فطلبنا من أخ كريم هو المرحوم محمد النجومى – ممثل الدائرة فى البرلمان – بنقلنا عبر مركبه العتيق إلى واو عسانا ندرك الطائرة الأسبوعية التى كان موعدها صباح اليوم التالى..

وهكذا فى ليلة مطيرة تلاقى فيها صفير الرياح بوهج البروق أبحرنا عبر أمواه نهر التونج الذى كان يلفه ظلام دامس وقد أبى السيد النجومى إلا أن

يصحبنا بنفسه ويشمر عن ساعده فيقدم العون للعاملين على تسيير المركب ودفعه حتى بلغنا " واو " على الشاطئ الآخر وكان بانتظارنا أصدقاء قدامى بينهم الصديق عبد الله عمر ومحمد بشير مدير السجن وآخرون.. انطلقوا بنا إلى دار المأمور العامرة حيث نحرت الذبائح ودعى وجهاء المدينة وعلية القوم اتبعوا ذلك بليلة سامرة أحياها بعض الفنانين المحليين.

## أيامي في خور طقت:

توجهنا إلى رئاسة المعارف صبيحة وصولنا للخرطوم وطلبنا مقابلة المسئولين الذين وجهونا بالانطلاق على الفور إلى مواقعنا الجديدة مزودين بخطابات إلى نظار تلك المدارس لعقد مجالس تأديب لنا قبل تسلمنا لمهامنا.. وكان أن انطلقت وزميلى عبد الله محمد أحمد إلى خورطقت حيث تم إبلاغنا بأن علينا أن يبقى كل منا فى الداخلية التى حددت له دون اتصال بالطلاب أو ممارسة التدريس حتى يفرغ المعنيون للقرار فى أمرنا.. وكان الكل مشغولاً بالإعداد لزيارة الرئيس إسماعيل الأزهرى ووزير المعارف.. كانت تجرى البروفات للأناشيد والتمثيليات والمعارض.. الخ. وقد زارنا فى أماكن السكن العم خالد موسى – الناظر بالإنابة- لأن المرحوم بشرى عبد الرحمن كان يستشفى بالعاصمة، فطمأننا بأسلوبه المرح بأن عقوبتنا لن تتعدى قرصة فى أذن كل منا عسانا نصحو لندرك الفارق بين ترف الحياة الطلابية وواقع الحياة العملية.. وهكذا خلدت إلى سكنى فى حجرة المشرف على داخلية ( زاكى الدين ) بينما التزم عبد الله سكنه ى داخلية (أبو سن) القريبة، مما أتاح لنا فرصة التلاقى وتمضية الوقت معاً.

انقضت أيام وكلانا رهن محبسه.. نغالب الملل حتى فوجئت بمن يخطرنى بأننى مطلوب فى تليفون المدرسة والذى كان يبعد بضعة أمتار من محل إقامتى •• وحسبنها محادثة من أحد أفراد أسرتى أو أصدقائى بأم روابه فإذا بالمتحدث هو الأخ الشيوعي مصطفى أبو حسنين – ويبدو أن أمر وصولنا والظروف المحيطة بنا ذاع أمرها فى مجالس الأبيض – والذى بادرنى بكلمات لاهثة

ومتقطعة بأن الدنيا مقلوبة " والرئيس لن يأتى.." قل لهم يوفروا مجهودهم ".. انطلقت شرارة التمرد فى الجنوب " ثم أغلق الخط.. وكان الأمر مفاجئاً لنا وتوالت الأنباء عن مقتل أعداد كبيرة من إخواننا الشماليين فى الجنوب، وأخذ الإشفاق يتملكنا على مصير الكثيرين من أصدقائنا بل وزملائنا الذى تركناهم وراءنا فى رومبيك والتونج ٠٠ حتى أخذت التفاصيل تترى وإذا بنا نفزع بآمالنا منها إلى الكذب.. ذبح الكثيرون من زملائنا وأصدقائنا الذين طالما أمضوا معنا نهاية الأسبوع وغيرهم من زملائنا فى رومبيك.

كان استهلالاً مفجعاً لفترة عملنا فى تلك القرية الوادعة "خورطقت" الراقدة على كثبان رملية نظيفة تنعكس عليها أشعة الشمس نهاراً وضوء القمر ليلاً فتحيلها إلى نهر من العسجد الصافى تلتف حولها شجيرات الهشاب والسدر.

وكان مجتمع طقت قوامه الطلاب والأساتذة.. يعيشون معاً فى تآلف بعيداً عن صخب المدينة فى دعة أعادت إلى نفوسنا ذكرى أيامنا فى حنتوب الحبيبة إلى نفوسنا.

ويبدو أن أمر وصول الأساتذة الجدد وملابسات حضورهم أخذت طريقها إلى مجالس الطلاب كما يبدو أنهم تلقوا من جهة ما توجهات الأساتذة الجدد.. كما يبدو أنه جرى تصنيف مذهبى لنا دون أن ندرى.. كنت ألمح حفاوة بالغة من بعضهم كما كنت ألمح نظرات حذرة من البعض الآخر.. ولم أكن لأعير الأمر اهتماماً حتى أشار إلى زميلى عبد الله بأنه يساوره نفس الشعور. ولعل هذا ما جعل الناظر المكلف فى ذلك الوقت – العم خالد موسى – يتفاءل بأن أمر الإضرابات فى المدرسة أضحى بعد وصولنا مقدوراً عليه.. فإذا كان الإضراب يدعو إليه ويذكى أواره "الاشتراكيون" عمد إلى دعوة الأستاذ الوافد – ذى النزعة الاشتراكية (الذي هو أنا) – يدعوه إلى الغداء فى داره يلتمس عونه فى التحدث إلى شيعته وإقناعهم بخطل القرار الذى التزموه... وإذا كان المحرضون على الإضراب من الجماعات الإسلامية عمد إلى

الشاب الآخر عساه يفسد تحرك جماعته ويطوقه.. وصارت دعوات العم العزيز خالد لأحدنا للغداء كلما لاحت نذر إضراب فى الأفق أمراً مألوفاً.. على أن الأمر الذى بدا محيراً ومربكاً لطلابنا فى آن واحد أنهم لاحظوا أن كلينا لم يبد قط انحيازاً لفكر معين.. أو التبشير والدعوة له بل رأوا علاقة ود حميمة وظاهرة تربطنا، خلافاً لما كانوا يتصورون من انعكاس التباين الفكرى على العلاقة الحميمة. وكنا فى حقيقة الأمر اعتزمنا منذ البداية أن يتخلى كل منا عن عواطفه السياسية وميوله، وأن ننصرف إلى أداء واجبنا بروح قومى يتسامى عن الحزبية والتحزب، وقد وجد هذا المسلك تقديراً من كثير من أساتذتنا ممن كانوا فى عداد المشفقين، وكان المربى الكبير عبد الباقى محمد أعلاهم صوتاً فى التعبير عن ذلك.

سارت الحياة هادئة هانئة وكنت سعيداً بممارسة مهنة التدريس التى أحببت، وكنت أستشعر رضى تاماً وسعادة كلما أنست تفوقاً لبعض الفصول التى تقع تحت دائرة إشرافى كلما جد اختبار.. واليوم وأنا استعرض ذلك استشعر امتناناً وتقديراً لأستاذى القديم إسماعيل عمر – الذى كنا نتلقى عليه قواعد اللغة الإنجليزية قبل خمسين عاماً.. كان " يجرعنا " قواعد اللغة " إذا صح التعبير حتى رسخت فى أذهاننا وصارت وقوداً لنا ونحن نقوم بتدريسها بعد مرور كل تلك العقود. وكنا على الصعيد الاجتماعى نتخذ من دار الأستاذ أحمد محمد سعد – نائب الناظر – مقراً للميس.. والأستاذ أحمد سعد شخص تصعب الإحاطة بملكاته وقدراته ومواهبه.. كان أستاذاً فى العلوم وأصاب شهرة حيث أبتعث إلى بريطانيا ولفت أنظار زملائه الأجانب.. كان مولعاً بالموسيقى الكلاسيكية على وجه الخصوص.. يهيم بها عشقاً وولهاً وكان أديباً وشاعراً.. بل كان سياسياً مفتوناً بالفكر الاشتراكى بمدارسه المختلفة ومذاهبه.. وكان مرجعاً فى العملية التربوية وتاريخ يحث الرضا على وجه الخصوص وفوق كل ذلك كان هادئ الطبع رضى النفس يتمتع بقدر عال من التواضع وينأى بنفسه عن الدنايا.

بدا مجتمع خورطقت وديعاً متجانساً.. قوامه الأساتذة والطلاب والعاملين بالمدرسة.. وكان كل منهم بادى السعادة للقاء زملائه الذين غيبتهم عنه العطلة الصيفية الطويلة.. وكانت مجموعة الأساتذة فى مجملها كوكبة منتقاة من السودانيين والمصريين والبريطانيين، وقد أسعدنى أن وجدت بينهم زملاء قدامى وآخرين أوحى تعاملنا الباكر معهم بأننا موعودون بفترة زاهية وخصيبة.

... وكان بينهم الشيوخ والكهول والمحدثون.. أجيال متفاوتة تعمل بروح الفريق.. كان بينهم الأستاذ أنور توس الذى كان معلماً لى فى المدرسة الوسطى بالأبيض وكان إلى جانبه الناظر بشرى عبد الرحمن الذى قام بتدريسه هو فى المرحلة المتوسطة ( ثلاثة أجيال تعمل معاً )، ووجدت الأستاذ عوض عقارب الذى كان أستاذاً لى بحنتوب إلى جانب زملاء دراسة لى بينهم الأخ محمد الأمين فرحات. تم اختيارنا لتدريس مادة اللغة الإنجليزية وبات علينا والأخ جعفر بوجاج أن نعيش بين مجموعة من الأساتذة البريطانيين الذين كان معهم أستاذ سودانى واحد هو الأستاذ عمر الصديق.. كان عمر حجة فى قواعد اللغة الإنجليزية ومناهج تعليمها وكان صارماً فى تعامله مع زملائه " الخواجات " والذين كان يرى فيهم عصبة من " الكفار " الذين لا يؤتمنون على تربية النشء.. كان عميقاً فى تدينه ووطنيته.. وكثيراً ما كان يفترش " مصلاته " فى مكتبه بين مناضد الأساتذة البريطانيين كى يؤدى الصلوات كلما حل أوانها.. وكانت معاملته معهم تتسم بالخشونة والجفاء الذى سرعان ما تحول إلى ضرب من الاحتكاك والعراك.. أذكر أننا فوجئنا يوماً بلوحة كبيرة تغطى الحائط الذى يستظل به الأستاذ عمر فى المكتب الكبير المستطيل الذى يضم أساتذة الشعبة، منقوش عليها " يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم " فجاءنى المستر تولر البريطانى – رئيس الشعبة – طالباً عونى أو عون جعفر لترجمة ما هو مكتوب على اللوحة فتحايلنا وربما وافيناه بترجمة مختلفة.. فما كان من عمر إلا أن هب واقفاً كى يوافى المستر تولر بترجمة حرفية للآية الكريمة. كان عمر وطنياً شارك فى العمل الوطنى زاهداً قابضاً على دينه.. وكثيراً ما كان يحدثنا عن صلف المستعمرين فى السودان والتى لمسها خلال حياته بينهم فى بلادهم.

كنا نقضى سحابة يوم الجمعة من كل أسبوع فى دار الأخ أحمد سعد حيث نعقد مباريات فى لعب " الوست " والمطارحة الشعرية والاستمتاع بالموسيقى وتبادل الذكريات والتجارب.. كان بعضنا يذهب إلى الأبيض لقضاء حوائجه والوفاء ببعض الفروض الاجتماعية.. وأننى لأذكر أننا فوجئنا بالأخ جعفر ابوجاج – زميلى فى شعبة اللغة الإنجليزية والذى كان قادماً لتوه من المدينة ينادى على من خارج الدار ويدفع إلى مهللاً ببعض الأوراق.. فإذا بها نسخة من صحيفة "الرأى العام" تحمل إعلاناً بارزاً صادراً من وزارة الخارجية الوليدة يدعو الراغبين للانخراط فى وظائف السلك الدبلوماسى الذى يجرى تكوينه، والذين تنطبق علهم مواصفات خاصة وشروط ينبغى توافرها إلى التقدم بملء استمارات، توطئة للجلوس إلى امتحانات تعقد لهذا الغرض فى العاصمة والأقاليم تتبعه معاينة وأردف الأخ جعفر قائلاً بحماس " سأرسل فى طلب الأرانيك.. لى ولك " فى الواقع لم أكن أفكر فى هجر مهنة التعليم. التى بدأت أجد متعة لا تعد لها متعة فى ممارستها.. كنت سعيداً بالجو الهادئ الذى كنت أعيش فيه وهو أمر أتاح لى وقتاً لممارسة الرياضة القديمة التى كنت أحب " رياضة القراءة".. وقضاء عطلات طويلة بين الأهل والأصحاب.

## قصة التحاقي بوزارة الخارجية:

لم أشأ أن أقابل حماس زميلى بسلبية وفتور.. واتفقنا أن نناقش الأمر بروية فى وقت لاحق.. وهكذا وبتشجيع وعون من زملائى وفى مقدمتهم الأستاذ عبد الباقى محمد ملأت الاستمارة.. ثم جرى تحديد موعد الامتحان ومراكزه فى داخل السودان وخارجه وظلت الصحف تتابع الأمر وذكرت أن أعداد المتقدمين يعد بالمئات إن لم يكن تجاوز الألف متقدم، وأن العدد المطلوب لا يتعدى الأربعين. تبعه الإعلان عن الذين يحق لهم الجلوس لذلك الامتحان من بين المتقدمين وكانوا يعدون بالمئات منهم ثمانية اختيروا للجلوس فى مركز الأبيض. شعرنا بالتحدى وأخذنا فى الاستذكار ومراجعة كل ما يتصل بالمواد

التى جرى تحديدها من شئون دولية وقضايا ماثلة محلياً ودولياً وتاريخ السودان ومادتى الأدب الإنجليزى والعربى.. وقدم لنا زملاؤنا الأساتذة عوناً مشهوداً..

وفى الموعد المحدد وبينما كنت وزميلى جعفر نتخذ طريقنا إلى الأبيض لأداء الامتحان إذا بزميلى يتلوى ألماً وينخرط فى صراخ متصل فتغير مسارنا إلى مستشفى الأبيض حيث تم احتجازه لإجراء جراحة عاجلة له واستجبت لإلحاح زملائى القدامى من الأطباء الذين نصحونى بالتوجه لإدراك الامتحان!

إن للقدر مفارقات غريبة.. ها هو جعفر الذى بادر بحماس إلى الإقدام على تلك الخطوة والذى عمل على إقناعى لتحقيقها تحول دونه بغيته الظروف. وحقاً "تقدرون وتضحك الأقدار".

واصلت مسيرتى حزيناً حتى مبنى المديرية حيث وجدت ستة من زملائى.. وأدينا الامتحان على مدى يومين متتاليين وكان يقوم على الإشراف السيد مكاوى أكرت- مدير المديرية بنفسه – فى مقر الامتحان وانطلقنا إلى صالون مجلة كردفان حيث كنا نبقى حتى يأتى موعد رحيل الحافلة إلى خورطقت. ومن الطرائف أن الأسئلة الخاصة بالشئون الدولية حفلت بأمور بدت عصية على إدراكنا فى ذلك الوقت.. كانت فيها أسئلة تحوى عدة أمور ينبغى انتقاء عدد منها والكتابة عن بعضها وبينها سؤال عن "الإيرتايت" ماهيته وتاريخه. لم نكن سمعنا بهذا قط وجلسنا فى صالون كردفان حيث لجأ صاحب الصالون الأستاذ الفاتح النور إلى التليفون يسأل من يأنس فيه إلماماً بذلك الشئ. وفجأة دخل علينا أحد أصدقائنا المحامين البارزين فى المدينة وكان حياً موفور الحركة والنشاط ولما استطلع جلية الأمر أبدى تعجبه ودهشته من "جهلنا" وجرأتنا فى التقدم للعمل الدبلوماسى ونحن على هذا الجهل الفاضح وأخيراً سألناه أن يترفق ويشرح لنا معناها قال فى ثقة "أنها منظمة الأغذية والزراعة يا جهله!".. وصدقنا "فالمؤمن صديق"!. ومن المفارقات أنه كان على بعد نحو عامين من التحاقى بوزارة الخارجية أن أجلس ضمن نحو من سبعين مندوباً هم كل أعضاء المنظمة الدولية ممثلاً لبلادى فى اللجنة السياسية الخاصة

التى تعالج قضية " الإبرتايد ".. وترفع توصية للجمعية العامة بشأنها. نعالجها بوصفنا خبراء على مستوى "الكون" كله ونستشرف لها بالحلول وللقارئ أن يتصور مدى الجهد الذى كنا نبذله استذكاراً واستغراقاً بين المراجع حتى نوفى بما أوكل إلينا على نحو مرض ومسئول، وحتى يأتى تمثيل بلادنا على النحو الذى يتكافأ والثقة التى وضعت على كواهلنا.. ولكن هذا قدر الأقطار النامية وقدرنا فى السودان حيث كان علينا أن نرتاد آفاق المجهول والجديد العصى "بقلوب تحمَّل ما لا تطيق.. فتحمل! ".. ونتقبل كل ذلك برضى وسعادة.

كانت فترة التصحيح موسماً حولياً يتطلع المعلمون إلى قدومه بشوق وترحاب.. فهى موسم يجمع المعلمين على صعيد واحد.. يتطارحون الذكريات وينتظمون فى جلسات سامرة وينخرطون فى العمل لقاء مكافآت تعينهم على مغالبة ظروف العيش. وكانت جامعة الخرطوم بداخلياتها ومكاتبها ودهاليزها وباحاتها تغص بجماعات المعلمين الذين جاءوا من شتى بقاع السودان لإنجاز المهمة السامية المتمثلة فى تصحيح أوراق الشهادة الثانوية فاتخذوا منها سكناً ومقراً.. وكان الجميع مقبل على تلك المهمة فى تفان ومتعة.. وفجأة أعلن عن أسماء الذين اجتازوا امتحان السلك الدبلوماسى والذين يتعين عليهم المثول أمام لجنة الاختيار خلال أيام.. وكانت القائمة تضم عدداً من المعلمين كنت بينهم. استقبل الجميع ذلك بسعادة غامرة ورأوا فيها انتصاراً لكل فرد منهم وتشريفاً للمهنة فتتأدى البعض إلى جمع مبالغ من المال لتزويدنا ببعض ربطات العنق والأحذية الأنيقة الباهظة الثمن حتى تكتمل أناقتنا فنأسر قلوب القائمين على لجنة الاختيار.

كانت لجنة الاختيار تضم بعضاً من كبار رجال الخدمة المدنية ورؤى أن يجئ تشكيلها على نحو يغطى الجوانب المبتغاة فى المتقدمين لتلك المهنة الرفيعة.. وهكذا ضمت كبار رجال الخدمة المدنية والعاملين فى مجال التربية والإدارة والقانون والأمن وعقدت رئاستها للعلامة وطبيب علم النفس المعروف الدكتور التجانى الماحى إلى جانب بعض الكبار من رموز المجتمع أمثال داوود عبد اللطيف ونصر الحاج على وعبد الهادى حمدتو وأحمد أبارو وخليفة عباس

وغيرهم.. وكانت اللجنة تفرد وقتاً طويلاً مع كل متقدم ( يتجاوز أربعين دقيقة أحياناً) تمطر خلالها المتقدم بالأسئلة المتلاحقة والمربكة أحياناً والتى تغطى مختلف جوانب المعرفة حتى تتبين مدى رد فعله إزاء الأسئلة المحرجة والمستفزة أحياناً. وكانت اللجنة أعدت لكل متقدم ملفاً يحوى تفاصيل دقيقة عنه جمعت من دوائر الأمن والمدارس والمعاهد التى تلقى تعليمه فيها أو المرافق التى عمل بها إلى غير ذلك. كانت تجربة قاسية بحق بذل خلالها أعضاء اللجنة جهداً مضنياً.

أذكر أن أول سؤال بادرنى به الدكتور الماحى -عالم النفس المتفرد - بعد أن رمقنى بنظرات حادة وفاحصة امتدت دقيقة حسبتها دهراً عن أسمى الرباعى طالباً تعريف مفرداته بإيجاز ثم انتقل للسؤال عن هواياتى وما أن أجبت أنها تتمثل فى القراءة ولعب "الشطرنج" حتى انخرط يمطرنى بأسئلة متلاحقة عن تلك اللعبة... أصولها وتاريخها وقوانينها ومكان ظهورها وأشهر لاعبيها فى التاريخ وعن الأشعار التى قبلت حولها وأشهر منازلاتها ماضياً وحاضراً إلى غير ذلك من أسئلة دقيقة مكنتنى الصدفة وحدها أن أقابلها بردود سليمة وشافية كانت مبعث حيرته ودهشته.. ذلك أننى كنت أطالع فى تلك الأيام كتاباً عن الشطرنج أهداه إلي الأخ أحمد أبو علوان خلال رحلة القطار من أم روابة إلى الخرطوم، استهوانى مضمونه وعكفت على قراءته مرات خلال أوقات الفراغ.. ثم تواترت على أسئلة أخرى من بعض أعضاء اللجنة الآخرين حول مواضيع متفرقة إلى أن فاجأنى أحدهم بسؤال عن ما إذا كنت أمارس النشاط الشيوعى يوماً. دهشت لسؤاله وأنكرت أننى كنت منتظماً تحت لواء أى تنظيم شيوعى فى يوم من الأيام رغم إننى مولع بقراءة تاريخ العظماء الذين تركوا بصماتهم فى سجل التاريخ الإنسانى وبينهم كارل ماركس ولينين فقال بجزم " إن من يتبنى فكراً أو مبدأ لا ينبغى له أن ينكر أو يتنكر له " ثم قرأ على نصاً أوردته صحيفة الصراحة قبل سنوات فى صدر صفحتها الأولى حول اكتساح الشيوعيين لانتخابات لجنة اتحاد طلاب جامعة الخرطوم المكونة من عشرة أعضاء بينهم أسمى وسألنى عن تفسير ذلك. أجبت بأننى لا أخفى ميولى الاشتراكية ولكن هذا لا يقف شاهداً على أننى شيوعى وأن قبولى

الترشيح لخدمة قضايا الطلبة كان يعنى الكثير بالنسبة لى.. وأن من أورد الخبر بتلك الصحيفة هو المسئول عن إثباته أما أنا فعلى اليمين إذا أردت عدلاً " فإن البينة على من أدعى واليمين على من أنكر " ولكنه ظل يردد فى تصميم أن مجال العمل الدبلوماسى يتطلب التمحيص والتدقيق والحيدة والبعد عن الشبهات! شعرت لحظتها أن ما سمعت ينم عن أن قبولى أضحى بعيد المنال فرددت بنبرة لا تخلو من حده" قلت لك... " وهنا تدخل أحد أعضاء اللجنة ولعله السيد داؤود عبد اللطيف يسألنى عن مسقط رأسى حلفا وأهميته كهمزة وصل بين مصر والسودان وغير ذلك من أسئلة حميمة عن أفراد من المسنين هناك فقد كان داؤود عماً لى، أسر إلى لاحقاً أنه خشى أن أفسد الانطباع الإيجابى الذى تركته لدى أعضاء اللجنة بما قد أبديه من ضيق وحماقة فأراد أن يقول لى " لا تقلق.. نحن هنا ".

انقضت فترة التصحيح وتفرقنا كل إلى بلده نقضى عطلة الصيف الطويلة بين الأهل والأصحاب نتطلع إلى أمرين أولهما نتائج طلابنا الذين جلسوا لامتحان الشهادة وثانيهما نتائج المعاينة التى يتوقف عليها قبولنا فى السلك الدبلوماسى..

وطال انتظارنا حتى انقضت العطلة فعدنا إلى مواقع عملنا وانتظم مسار الحياة على النحو الذى ألفنا كنا ننتظر يوم الخميس بشوق.. فقد كان الأساتذة ينطلقون إلى مدينة الأبيض حيث الحياة الاجتماعية الغنية بوقائعها ورجالها وكانوا يعودون مزودين بحصيلة وافرة من أنباء الحركة الوطنية وأخبار المجتمع.. وكانت الرحلة إلى الأبيض فى حد ذاتها فرصة للانطلاق والمرح وتبادل القفشات والغناء أحياناً.. كانت فترة يتحلل خلالها البعض من رداء الوقار الذى يلتحفون به طيلة الأسبوع فيطلقون نفوسهم على سجبتها.. وكانت " الحافلة " التى تقلنا أو "أسطول الخور" فيما كان يحلو لنا أن نسميها تنهى رحلتها عند مقصف " على كيفك " الذى يقف قبالة مبنى مجلة كردفان التى كان يصدرها الأستاذ الفاتح النور.. والذى يطلق صيحته كلما رآنا نسرع لاتخاذ مقاعدنا فى صالون المجلة الشهير " الله.. هجم التتار.. الخوجات بانوا " ثم سرعان ما يغمرنا بكرمه ولطف تعليقه الذى يشيع المسرة فى نفوسنا..

ولم يكن أستاذنا الفاتح ليضيع الفرصة أحياناً دون أن يوكل إلينا بعض المهام فى مراجعة المواد أو تحريرها.. وقد شرفت فى فترة ما بأن صرت محررا راتباً أحرر عمود "بين السطور" بتوقيع رمزى هو "الهاتف"... وهو عين اللقب الذى صرت أذيل به الصفحة الرياضية لصحيفة "صوت الشعب" العاصمية والتى كنت مشرفاً عليها بعد ذلك بسنوات. كنا نغادر صالون كردفان وننطلق إلى شعاب المدينة ننشد حلقات السمر فى مظانها ونغشى الأصدقاء فى بعض أندية تلك المدينة الرائعة وندواتها.

وفى إحدى الأمسيات وأنا أجلس فى غرفتى بالداخلية سمعت تصفيقاً وهتافاً وحركة أشخاص يتقافزون طرباً.. وإذا بمجموعة من الطلاب تقتحم غرفتى فى غير استئذان تنهى إلى نبأ اختيارى للعمل فى السلك الدبلوماسى.. هكذا سمعوه من إذاعة أم درمان التى نقلت الأسماء فى التو.. وزاد أحدهم بأن ترتيبى كان الثانى بين المتقدمين.. وما علموا أن إيراد الأسماء يأتى فى العادة وفقاً للترتيب الأبجدى للأسماء.

امتلأت غرفتى بالمهنئين من الأساتذة والطلاب.. وفرت دمعة من عينى وأنا أعانق صديقى جعفر أبو حاج وأنا استرجع الملابسات التى حالت دون التحاقه.. وبدأت الإعداد للسفر للخرطوم للالتحاق بعملى الجديد. وقد أظهر زملائى وطلابى فيضاً من المشاعر الإنسانية.. بلغت ذروتها وأنا أتطلع من نافذة القطار المتجه بى للخرطوم نفراً من زملائى وطلابى على رصيف المحطة وهم يلوحون بأيديهم مودعين فى حركة آسية وحزينة.. وزاد من تأثرى أن وجدت بعض البرقيات بانتظارى لدى توجهى لوزارة الخارجية تشمل التمنيات لى من بعض تلامذتى.. مازلت احتفظ بها ذخراً وتجسيداً للوفاء.

كان طلاب خورطقت على أيامنا صفوة منتقاة.. يتميز الكثيرون منهم بالذكاء اللماح ودماثة الخلق وتوقير المعلم والتزام الجادة.. وأن المرء يلتمس عزاء فى أنه أشرف ولو بقدر يسير على رعاية تلك الكوكبة المختارة من الشباب الذين تكاد صورهم تحتشد أمامى وأنا أكتب هذه السطور بعد نحو من خمسين عاماً وأتمنى لو استطعت إيراد أسمائهم فرداً فرداً..

وإذا كان الكثيرون منهم بلغوا مجداً فى ميادين الطب والهندسة والجندية وبين أساتذة الجامعات فأننى اكتفى هنا ببعض الذين انخرطوا فى العمل السياسى وصاروا من أعلامها أمثال فاروق كدوده ويوسف حسين وحيموره وعلى نور الجليل ومختار عبيد من الشيوعيين وعلى الحاج وعبد الله حسن أحمد وحافظ الشيخ الزاكى ومجدوب البر من الإسلاميين وبكرى خليل وشيخون من البعثين وأحمد البلال والفاتح التجانى وعمر صديق من الاتحاديين و"العم" صلاح عبد العال وعز الدين حامد وميرغنى محمد أحمد وحسن عابدين ومحمد المكى إبراهيم ونورى خليل ومحمد عبد الدايم ويوسف مختار من الوزراء والسفراء وعثمان عبد الله وفضل الله برمه ومحمد ميرغنى من أعضاء المجلس العسكرى الانتقالى وغيرهم. إن هذه الخواطر التى اكتبها على عجل لا تتيح لى فرصة الوقوف طويلاً عند محطة خورطقت.. جادها غيث السماء بكل ذكرياتها وأوابدها وتفاصيل أيامى بها والتى أعطتنى بقدر ما أعطيت.. والتى يمثل كل من التقيته طالباً فيها محط اعتزاز وإعتداد يعين على ادلاج مسالك الحياة أجد نفسى دائماً بحاجة إليه.

فارقت خور طقت ويممت الخرطوم بالقطار للانخراط في عالمي الجديد.. وما أن توقف القطار بمحطة أم روابة حتي ألفيت عدداً من أصحابي وأهلي الذين هبوا لاستقبالي وتمضية نصف ساعة معي بالمحطة وأنا في طريقي دون أن أهبط مدينتهم.. وربما لأول مرة! استأنف القطار مساره.. وتوارت أشجار النيم الظليلة والمراتع التي ألفتها عن ناظري ببطء وجاءت على خاطري أبيات الشاعر صلاح الدين أبو القاسم وهو يصف تلك المدينة:

| | |
|---|---|
| خـــضـرة النيـــــم تحـــــيّ | كـــــل مـــــن يرجـــو التحيـــة |
| تـــضحـك الدنـــــيا مـــــراراً | فـــي الـــصبيحـة والعـــشيـة |
| قـــــد كـــــساها الله تيهــــاً | مـــــــن ثيـــاب سندســـية |
| يــــرتوي الظمـــآن فيـــــها | مـــــن ميـــاه معـــــدنية |

الفصل الثالث

# في بلاط الدبلوماسية السودانية

انطلقت صبيحة اليوم التالى لوصولى الخرطوم إلى مبانى وزارة الخارجية المطلة على شاطئ النيل (ولعلها صارت اليوم مقراً لوزارة الإسكان).. فاستوقفنى حراس أشداء وحالوا دون دخولى للوزارة رغم محاولاتى لإقناعهم بأننى وافد جديد تم استدعاؤه ضمن آخرين لمقابلة المسئولين بالوزارة.. وبعد مشاورات ومحادثات تليفونية بين كشك الحراسة وبعض المسئولين بالداخل سمح لى بالدخول..

كانت الخارجية تتكون من بعض المبانى الشاهقة ( اثنين على وجه التحديد) يطل أحدهما على ميدان نجيل فسيح تحيطه أشجار البان السامقة والسبسبان.. تحده من الناحية الشرقية حدائق السيد على الميرغنى وتقف وراءه من ناحية الجنوب مبان مستطيلة صفت بعناية علمنا أنها كانت مرابطاً لخيول الإنجليز.. يتجاوزها المرء حتى يدلف إلى المبنى الآخر الشاهق الذى يقف على خلفية من النجيل الذى تناثرت على حواشيه بعض الشجيرات والزهور البرية.

.. كان المبنى الرئيسى يضم اثنين من كبار العاملين بالوزارة – بعد استقالة الدكتور عقيل أحمد عقيل فى وقت سابق.. هما السيد الوكيل بالإنابة وأحد الدبلوماسيين الذين التحقوا خلال الفترة التمهيدية هو السفير لاحقاً عز الدين شبيكه والذى وجه الحراس بإخطاره لى لمقابلته على الفور. كنت أصعد الدرج الخشبى المؤدى إلى مكتب الأخ عز الدين وإذا برجل نحيل الجسم وخط الشعر الأبيض رأسه يرتدى جلباباً أبيض ناصع البياض يلفه معطف خفيف نقشت على أحد حواشيه " شمسية ".. ينتعل حذاء خفيفاً يركض خلفى كالإعصار.. يمضى سريعاً فى خطو تخاله قفزاً.. يتجاوزنى ويتلفت إلى قائلاً " خفف الوطء يا شاب.. هذا الدرج كان يمشى عليه سير جيمس "! ولعل الرجل كان يشير إلى أن ذلك المبنى العتيق الشامخ المطل على النيل الأزرق كان سكناً للسير جيمس

روبرتسون السكرتير الإدارى على أيام الإنجليز والرجل الأكثر نفوذاً بينهم واصلت سيرى إلى الباحة العلوية من المبنى وإذ بى أمام زميلى الراحل عز الدين شبيكه زميل الدراسة فى حنتوب والذى كان يسبقنى بثلاثة أعوام دراسية وكان يعمل معاوناً للسيد الوكيل استقبلنى بحفاوة ظاهرة وقادنى إلى مكتبه الذى طلى بلون أزرق وقد تدلت الثريات الكهربائية على طاولته المغطاة بالجوخ الأخضر وتناثرت فيها بعض الملفات.. تطارحنا الذكريات وما آل إليه الحال بالنسبة لكلينا منذ افتراقنا بعد أيامنا الزاهرة فى حنتوب والجامعة حيث شرق من شرق وغرب من غرب وطوتنا تصاريف الحياة. ثم تحدث عبر الهاتف إلى شخص لم أتبينه أخطرنى على أثرها بأن السيد الوكيل بالإنابة سوف يستقبلنى متى فرغ من إنجاز ما بين يديه، ذلك أن الوكيل الدائم الذى تمت تسميته وكيلاً للخارجية يقوم بتصفية بعض أعماله بملكال. أقتادنى الأخ عز الدين إلى المكتب المجاور والذى يفصله عن مكتبه باب داخلى لأجد نفسى فى حضرة الوكيل بالإنابةخليفة عباس. ثم انسحب لإنجاز بعض شئونه. بدا مكتب الوكيل مستطيلاً فسيحاً أمامى.. فرشت أرضيته ببساط فاخر بلون التركواز وعلقت أستار من القطيف الأخضر على بعض جوانبه وبدا الوكيل جالساً وراء مكتبه الأنيق فى أقصى ركن من غرفة المكتب.

.. خطوت فإذا بى أمام رجل فى منتصف العمر.. وسيم طلق المحيا.. كان يرتدى بدلة زرقاء غامقة وربطة عنق فضية توهج فوقها دبوس ذهبى منعاً لشرودها.. يضع على فمه مبسماً ذهبياً ثبتت فوقه لفافة تبغ علت رقائق دخانها تتلوى فى رفق.. تبسم الرجل ودعانى للجلوس بعد أن تبادلنا عبارات التحية.. وما أدركت من فرط الرهب أنه كان ضمن لجنة الاختيار.. بادرنى بأنه يعرف أننى كنت معلماً ثم سألنى عن المادة التى كنت أقوم بتدريسها خلال عملى وما أن أجبت بأنها كانت اللغة الإنجليزية حتى تهللت أساريره وانخرط يناقشنى فى بعض قواعد اللغة التى كنت أحب ثم طوف بى إلى آفاق الأدب الإنجليزى حيث أتى على بعض المشاهير من كتاب المسرح.. شكسبير وشو وشعراء العصر الرومانسى وبعضاً من الشعراء المعاصرين أمثال جورج اليوت

وعزرا باوند وبدا الرجل متمكناً من إلمامه بالأدب الإنجليزى. ثم تحدث عن أيام الاستعمار بالسودان والميراث الثقيل الذى أورثونا ولكنه أوضح أن ذلك لا يمنعنا من الأخذ بفضائل الأفراد منهم من الذين تقلدوا بعض المواقع وإسهامهم فى إثراء تلك المواقع وأشار بصفة خاصة للإداريين الذين عملوا فى أطراف السودان القصية فتوافروا على دراستها واقتصادياتها وبطونها وعشائرها وتجاربهم فى العمل بين أهلها إلى غير ذلك مما حفلت به مجموعة "رسائل ومدونات". ثم تحدث عن مناهضتهم للاستعمار وتصديهم لمؤامراته خلال عملهم بمؤتمر الخريجين وهو نضال ساقوه ضد السياسة البريطانية ولا يتضارب مع التسليم بفضائل الفنيين الذين أدوا واجبهم بإخلاص فى إرساء ركائز الخدمة المدنية.. كانت جلسة عامرة بكل ما هو شائق ومفيد وبدا أنه كان راضياً عن ما أسهمت به من مداخلات خلال نقاشنا خاصة فى مجال الأدب الإنجليزى والذى كنت به شغوفاً خلال دراستى بالجامعة وعامى الأخير على وجه الخصوص. ثم رحب بى مرة أخرى بعبارات إنجليزية رصينة وأمسك بيدى وأخذنا نطوى درج السلم الخشبى دركاً كى يقدمنى لزملائه من كبار العاملين.. وطوف بذهنى خلال ذلك المشوار القصير خاطر عربيد.. ترى لو كان سألنى سؤالاً يندرج تحت علم الرياضيات مثلاً ماذا كان يكون انطباعه عنى؟

## الخارجية في أيامها الأولي:

انتهينا إلى قاعة فسيحة فى الطابق الأرضى صفت فيها المناضد من غير تنسيق وتحلق حولها نفر من الناس خلف المكاتب بينما اتخذ البعض من الكراسى الوثيرة المتناثرة متكأ..

خاطبهم السيد خليفة بصوت عال.. هذا وافد جديد توسمت فيه خيراً جاء ضمن طلائع الملتحقين الجدد إن لم يكن أول القادمين.. وأشار إلى الجالسين فرداً فرداً معرفاً إياهم بالمهام المؤقتة الموكلة إليهم مضيفاً أنهم من السفراء الجدد.. يقومون على إنشاء الوزارة واقتراح التفاصيل الخاصة بمهام

إداراتها وتوصيف أعبائها وشئون العاملين بها.. يمثل كل منهم إدارة قائمة بذاتها.. وأشار إلى أحدهم قائلاً هذا قسم المؤتمرات والمعاهدات.. وذاك الاقتصادى.. وذاك القسم القنصلى.. وهذا القسم السياسى.. الخ وفى هذه اللحظة دخل شاب ربع القامة سريع الخطو بادى الحيوية أبيض الوجه مستديرة.. بدا حذاؤه منسجماً مع بدلة الشاركسكين التى يتزين بها يضع نظارة سوداء تكاد تغطى نصف وجه فأشار إليه الوكيل وذاك هو " البروتوكول ".. عليك أن تختار القسم الذى ترى الالتحاق به.. بدت لى بعض الأسماء يونانية لا تفهم.. فنصلى.. بروتوكول.. معاهدات.. فرددت بسرعة بل أختار القسم السياسى ( أفهم معنى السياسة على أقل تقدير.. مارستها وجربت الاعتقال بسببها.. ألا تكون ممتعة؟ ). وهنا قفز أحد الجالسين من مقعده فى حيوية وأمسك بيدى صائحاً.. يا سلام عليك.. الآن صار عندى"STAFF" وقد علمت فيما بعد أن الرجل لم يكن سوى الأستاذ أمير الصاوى – الإدارى المرموق والذى طالما سمعت عنه من شقيقه الدرديرى الصاوى الذى كان يعمل بالسكة الحديد بأم روابه وكان صديقاً لعمى. كما علمت أن الآخرين كانوا السفراء عمر عديل – الباقر السيد محمد – محمد خوجلى – الصادق أحمد المصطفى وأمير الصاوى.. وأن الشاب الأنيق الذى أشار إليه الوكيل بالإنابة بقسم " البروتوكول " لم يكن سوى الدكتور بشير البكرى.. شيخ السفراء على أيامنا هذه.

انطلق بى السيد امبرالى مكتب مجاور ورحب بى وأشار إلى أنهم بصدد وضع مناهج للعمل حالما تكتمل القوة البشرية فى الوزارة ثم أمر بإحضار ملف خاص عن فنار "سنجانيب" تتعدى صفحاته الثلاثين صفحة وطلب إلى أن أعكف على ترجمة محتوياته إلى اللغة الإنجليزية.. استهلالى لعملى مذكراً بضرورة إنجاز ذلك على نحو عاجل.. رأيت فى أداء تلك المهمة استهلالاً لعملى، واختباراً لقدراتى وهى بذلك تعتبر تحدياً حقيقياً صممت على الانصراف لها بكل ما أملك من قدره.. فهى تمثل الانطباع الأول الذى قد يكون عنواناً لمسيرتى المستقبلية..

عكفت على أداء مهمتى بجد وتصميم وواصلت العمل بعد انقضاء ساعات العمل.. ورأيت أن أصيب شيئاً من طعام فاتخذت طريقى إلى مقصف "للسندويتشات" بشارع البرلمان ( مقصف زكى).. وكنت طيلة ذلك الوقت أشعر بخيبة أمل حقيقية لذلك الاستهلال لحياتى فى السلك الدبلوماسى.. كنت أتوهم أن الدبلوماسية - التى لم تعرفها بلادنا فى تاريخها – عالم مسحور.. قوامه رجال أجسادهم رشيقة كأغصان البان.. يتزينون أفخر الثياب.. يدخنون الغليون والسيجار.. إذا تحدثوا كان حديثهم همساً.. وإذا لمسوا أمراً كان لمسهم مساً.. يتهامسون فى تبسم.. يتحدثون عن مجتمعات فى شئون يستعصى فهمها على العامة.. لا شئ يربطهم بدنيا الناس وعذابات الناس.. فهم قوم مرفهون منعمون.. أتيحت لهم كل الوسائل التى تتيح لهم الاضطلاع بمهامهم السامية الرقيقة وتفتح لهم مغاليق الأبواب والأسرار.. ولكن سرعان ما أتذكر أننى ألج هذا العالم المسحور عبر أبوابه " سنجانيب "فأردد دون وعى منى.. "سنجانيب قال"!.

وفجأة توقفت سيارة فاخرة إلى جانبى وإذا بأحدهم ينادى على بصوت عال.. التفت فإذا به الصديق على محمد إبراهيم المحامى اللامع فى ذلك الوقت.. الذى بادر بسؤالى عن مقصدى وما أن أفصحت به حتى صاح فى هلع وذعر ملحاً على فى ركوب عربته " أركب.. أركب " وما أن علم بأننى أريد أن أبتاع "سندويتشاً أغالب به غائلة الجوع حتى أكمل مهمة أوكلت لى حتى صاح "أنت الآن دبلوماسى.. أتعرف معنى دبلوماسى.. هل تريد أن تمارس الدبلوماسية بطبائع البروليتاريا؟. وانطلق بى إلى مطعم " سنت جيمس " الفاخر حيث تناولنا وجبة شهية ظل يحاصرنى خلالها عن قروض الدبلوماسية وتبعاتها من مسلك ومظهر وكنت طيلة الوقت أعيش المفارقة بين ما يقول ويتصور وحكاية "سنجانيب".. وأخيراً أفضيت إليه بأن الدبلوماسية تحتم على الآن أن أعمل مترجماً من العربية إلى الإنجليزية وأن أترجم قضية " سنجانيب"!!

انفجر ضاحكاً وهو يقول " لابد أنهم ترفقوا بك لأنهم عرفوا أنك "بربرى" أعجمى وإلا لكلفوك بالترجمة إلى العربية".. ثم عرج بى إلى مكتبة " سودان

بوكشوب" حيث انتقى لى معجماً عساه يعين وأبى إلا أن يبتاع لى نضارة "بيرسول" سوداء وحزمة من أربطة العنق الأنيقة.

وفى اليوم التالى دخل على السيد الصاوى مستفسراً عما إذا كنت قطعت شوطاً فى الترجمة فإذا بى أفاجئه بأننى أنجزت المهمة كاملة.. لم يصدق للوهلة الأولى ثم بدأ يراجع ما كتبت وبدا الارتياح واضحاً على محياه وأبى إلا أن يسوق الثناء للجهد الذى أنفقت ولكنه استطرد " تعرف.. ما كتبت يصلح أن يتلى على المرتادين فى دار الثقافة.. أو عندكم فى ندوات الجامعة.. ولكن تذكر أنها ستوضع فى أضابير وزارة النقل.. وفى مصلحة الوابورات.. ألم تسمع بأغنية عائشة الفلانية " البابورات والمخازن "! لا عليك.. ثم أخذ فى تبسيط وتبديل بليغ لبعض العبارات وشفعها بتعليق طيب ومكتوب.. وكانت علاقة مودة وتقدير لرجل متميز ظلت باقية.



بعد أداء القسم لرجال الصف الثاني أمام المفتي
ويظهر في الصورة الوزير والوكيل
الجالسون من اليمين إلى اليسار: فخر الدين محمد- محمد خوجلي- أمير الصاوي
الوكيل- الوزير- المفتي- صادق المصطفي- وعبد الكريم ميرغني
الواقفون من اليمين: عبد العزيز النصري- صلاح زروق- أحمد الطيب البدوي
الأمين سنهوري- كمال البكري- حامد محمد الأمين- الباقر عبد المتعال.
الصف الأخير من اليمين/ أبو بكر عثمان محمد صالح- محمد علي باشا- عثمان القوصي
أبو بكر عثمان محمد الخير.

أخذ الدبلوماسيون الجدد يتوافدون تباعاً وأضحت مكاتب الوزارة وممراتها وصالاتها حافلة بالصخب والضجيج وتبادل الذكريات والقفشات.. وما أن اكتمل العدد حتى دعينا لأداء قسم الولاء للمهنة والوطن أمام مفتى الديار ( الشيخ هاشم أبو القاسم) بحضور الوزير السيد محمد أحمد محجوب والوكيل وكبار العاملين ثم انخرطنا فى فصول تدريبية تم إعدادها وقف عليها مختصون قصد تعريفنا بالدبلوماسية.. أصولها ومقتضياتها وفنونها وأساليب

العمل فى فضاءاتها إلى جانب محاضرات مكثفة عن واقع بلادنا.. مكانة ومكاناً فى عالم اليوم. تاريخاً واقتصاداً ومقدرات وقدرات.. إلى غير ذلك من أمور تبدو زاداً هاماً للعمل مثل الشئون القنصلية والبروتوكولية والإدارية إلى جانب محاضرات عن الشئون الدولية. وهكذا انقضت أسابيع ونحن نتزود بذلك الفيض الثمين من المعلومات وفق مناهج أعدت بعناية وجهد كبير اضطلع به كبار رجال الخدمة العامة وأساتذة الجامعة وبعض الخبراء الأجانب.. وانخرطنا فى دراسة النواحى الأمنية "والشفرة" السرية التى اضطلع بتلقينها أصولها ذلك الرجل النحيل الذى التقيته يوماً على درج الوزارة.. وكان حاذقاً وحجة فى ذلك الشأن بل علمت أنه يعد من أبرز العاملين فى السلك الكتابى بالسودان.. لم يكن الرجل سوى العم عبد الله وقيع الله والد أخونا المبدع الفنان عثمان عبد الله وقيع الله.

## نشأة القسم السياسي:

تبعت فترة الدراسة زيارات إلى بعض أقاليم السودان حيث لقينا حفاوة ظاهرة واكبتها حملة إعلامية ضخمة جعلتنا هدفاً لجماعات المتعطلين والفضوليين الذين كانوا يتحلقون حولنا أينما ذهبنا لرؤية الدبلوماسيين ومن أى نسيج خلقوا.. انقضت أيام الدراسة بكل ما انطوت عليه من ذكريات وبعث حميم لعلاقات قديمة وآن لناشئة الدبلوماسيين أن ينطلقوا فى أرض الله الواسعة كى يعينوا السفراء الذين تم اختيارهم قبل ذلك بقليل وانطلقوا إلى مواقعهم. بينما تم اختيار بعضنا للعمل بالرئاسة للعون فى إنشائها وفق التصور الجديد.. وكان أن تم اختيارى للعمل بالإدارة السياسية التى اختير المستشار عبد الكريم ميرغنى رئيساً لها إلى جانب آخرين حيث تم اختيار المستشار فخر الدين محمد للمراسم والسفير محمد خوجلى للجانب الاقتصادى والسفير صادق أحمد المصطفى للإدارى والقنصلى والسفير عباس الدابى للمؤتمرات والمعاهدات.. كما سمى السفير أمير الصاوى مساعداً للوكيل للشئون السياسية والسيد خليفة عباس نائباً ومعاوناً للوكيل الدائم السيد محمد عثمان يس.

بوصول السيد عبد الكريم ميرغنى والصديق مصطفى مدنى الذى كان بالمملكة المتحدة يومها اكتمل عقد القسم السياسى بالوزارة.. وبقدر ما كنت تواقاً للعمل بالخارج واستشعر ضيقاً لفوات الفرصة بقدر ما تغشت الطمأنينة نفسى ودخلنى شعور بأن الأقدار أرادت بى خيراً " عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم".. ذلك أن فترة العمل بالقسم السياسى كانت غنية حافلة بالتجارب.. عامرة بالدروس التى كنا نربحها مع مرور أيام العمل تحت أمرة من الأخ عبد الكريم ميرغنى. كان الرجل حاد الذكاء.. لماحاً.. مثقفاً.. خفيف الظل.. جسوراً يتمتع بقدر عال من المسئولية.. يعرف للمهنة شرفها وللوطن جلاله وقدرة. وكنت سمعت الكثير عن ذلك الرجل.. فقد كنا جيلاً يكاد كل منا عرف الآخر أو سمع عنه.. وكان لوجود الصديق مصطفى مدنى الذى تزاملنا فى مرحلة دراسية واحدة ( إن لم تكن مدرسة واحدة) والذى كان يجمعنا فكر واحد فى إطار التوجه السياسى العام أمراً مريحاً.. وكان المعنيون قد أعدوا عدة أوراق تحوى موجزاً أو رؤوس أقلام إذا شئت لطبيعة العمل فى كل إدارة واختصاصاتها إلى جانب بعض الموجهات.. أذكر أن الأخ عبد الكريم اطلع على تلك الأوراق وطواها وأدخلها فى جيب سترته.. ثم اقتطعنا ثلاثتنا فى أنس وسمر حتى انتهت ساعات العمل حيث دعانا إلى داره بأم درمان وبعد الغداء تبسم ضاحكاً وقال " الآن نبدأ العمل"!.

أخذ يحدثنا عن تصوره لطبيعة العمل بالإدارة غير عابئ بما جاءنا من إرشادات.. تحدث كثيراً ثم سأل كلاً منا عن تصوره.. ثم بدأنا فى وضع تصور لأساليب العمل ومناهجه.. وكان عبد الكريم يقف كثيراً عند معنى واحد ظل يكرره خلال الحديث وهو أن أول ما يقتضيه العمل توفر الشعور " لطبيعته القومية بل وضع أمر "القومية" هادياً لنا ومرشداً خلال تحليلنا للأحداث وخلال عرض أفكارنا ووضع توصياتنا.. وذكر بأن كلا منا قد يحمل توجهاً سياسياً وقد تكون لديه عاطفة إزاء بعض الوقائع والأحداث.. بل وبعض الدول ولكن ينبغى أن تتوفر لدى كل منا " الأمانة " والتجرد التام حين انقطاعه للعمل.. ليترك كل منا توجهه على باب الوزارة ويدخل إليها " سودانياً خالصاً " يضع

على عينيه مصلحة السودان دون سواه والتزاماته إزاء الدول الشقيقة والصديقة.

ثم مضى يحرضنا على الشجاعة فى إبداء الرأى - أيا كان - وطرح الأفكار حتى ولو كانت مجافية للتوجه العام - مادمنا نرى فيها مصلحة لبلادنا - وأكد أن شعاره سيظل " من دخل الإدارة السياسية فهو آمن " بضمانته وكفالته.. امتد بنا النقاش حتى منتصف الليل ثم عاودنا المناقشة صبيحة اليوم التالى.. وفجأة أرسل الأخ عبد الكريم ضحكة داوية قائلاً " والله نسيت لنرى ماذا قال كبراؤنا " وبدا يطالع ورقة الإرشادات.. فبدت عليه دلائل الرضى وقال " والله إن فيها الكثير مما يعين.. واتفقنا أن نقوم بصياغة لطبيعة العمل فى الإدارة السياسية ومناهجه فى ورقة نستلهم فيها حديث البارحة وورقة الإرشادات التى جاءتنا من قيادة الوزارة.

وهكذا انطلق سفين الإدارة السياسية فى مناخ توافرت فيه مظاهر الثقة بين زملاء ربط بينهم توحد المقصد وتجانس الفكر والتوجه.

بدأنا فى وضع قائمة بالقضايا الدولية الماثلة وإعداد ملفات للدول التى تربطنا بها علاقات حميمة.. وأخرى عن الدول العربية وملفات عن حركات التحرير الأفريقية. كانت معظم الدول الأفريقية وقتها تحت نير الاحتلال الأجنبى.. وبعض الملفات التى رؤى أن ننشد فيها تعاوناً مع الإدارات الأخرى مثل قضايا التنمية وقضية الجنوب وأبعاد التمرد الذى انطلقت شرارته قبل عام، إلى غير ذلك تم عكف السيد عبد الكريم على إعداد مكتبة للوزارة تكون مرجعاً ومعيناً لمثل تلك الدراسات وإعداد الدوريات والمجلات العالمية التى تمثل راقداً هاماً فى ذلك المجال. وقد تم اختيار شاب يتمتع بقدر عال من الكفاءة والدراية هو الأخ حيدر الحلاب أميناً للمكتبة وقد أمضى أياماً متصلة فى عمل مضن مع السيد عبد الكريم وعدد من الخبراء من خارج الوزارة وبعض الزملاء فى الخارجية والمالية حتى صارت المكتبة وفى فترة قياسية عامرة بغالب المراجع والمؤلفات المعينة فى شتى المجالات. وأضحت المكتبة جزءاً هاماً فى

عملنا. فوجئنا يوماً بتوجيه صادر من الوزير بوجوب توزيع التقارير التى تأتى من سفرائنا بالخارج على الإدارات وفقاً لطبيعتها ( حيث تتم دراستها والتعليق عليها من السكرتارين مهما كانت درجاتهم ورفعها إليه عبر مساعدى الوكيل فالوكيل. كان فى ذلك التوجيه مدعاة لتوجسنا ووجلنا إذ كيف يحق لدبلوماسى ناشئ أن يعلق على تقارير من" جهابذة" وأساتذة من كبار السفراء ونتناولها بالنقد نحن أحياناً، رجال مثل عوض سانى وأنيس والتنى وجمال محمد أحمد ورحمة الله ويعقوب وحمد النيل وبشير وغيرهم! تناقشنا وزميلى مصطفى وانتهينا إلى أن الأمر ربما كان ينطوى على هدف ماكر. لعلهم يريدون أن يقفوا على حقيقة أفكارنا ونحن نعلق على مثل تلك التقارير.. سيما وقد راق لبعض الدوائر أن تصف الإدارة السياسية بأنها " بوابة موسكو " حملنا مخاوفنا للأخ عبد الكريم ونحن واثقون بأننا سنجد الحماية لديه فإذا به يفاجئنا بأنه يؤيد ذلك ويضيف بأنه هو – دون سواه – الذى اقترح ذلك. أتبع ذلك تأنيب على ما بدا منا من مظاهر الرهب وعدم الثقة بالنفس وأكد أن تعليقاتنا قد تأتى مكملة لما يبعث به السفراء لما تحظى به الإدارة من وسائل النظر الشمولى والمحيط للأمور من كل جوانبها.. وأكثر من تحريضنا على التزام الجسارة فى معرض التعليق والانتصار لما نرى ونعتقد دون التفات لأى اعتبار آخر.

وهكذا بدأنا ننخرط فى تلقى تقارير السفراء ونعرف مواقيت وصولها من مختلف العواصم طبقاً للخارطة التى أعدها الأخ حسن سيد أحمد – المسئول عن شئون الحقيبة يوماً – حتى كونا فكرة عن بعض التقارير التى تأتى من الكثيرين حافلة بالتحليل والتعليق والمعلومة والمفيدة والعرض الشيق.. ودقائق الاتصالات وعرض مطالبنا وقضايانا وحصاد ما يجنون خلال المآدب والحفلات الدبلوماسية، وكان بعضها أخاذاً فى أسلوبه شائعًاً فى عرضه، فكنا نتسابق وأخي مصطفى فى الظفر بمثل تلك التقارير فنبكر بالتواجد فى الوزارة لأخذها وفقاً لمواعيد الحقائب التى كانت تأتى.. وكثيراً ما كنت أظفر بها لوصولى باكراً وبالرغم من ذلك كانت تكون من نصيب مصطفى لبراعة

ومضاء الأساليب التى يستعملها.. من قول رقيق أخاذ.. وربما علبة "تبغ" على سبيل الرشوة!

كنا ندرس التقارير بعناية ونشفعها بما يتيسر من قول أو تعليق ونرفعها لمدير الإدارة الأخ عبد الكريم وكثيراً ما كان يضيف إليها إضافات أساسية بل وكثيراً ما يلجأ إلى مكتبة الوزارة كى يعزز بعض القضايا بتاريخ تطورها ثم يأتى فى نهاية المطاف لمناقشتنا فى ما كتبنا وفى ما يرى، طالباً إلينا إعادة كتابها وصياغتها في ضوء مناقشاتنا ثم يعلق عليها باعتبارها صادرة منا.. كنا نجد فى ذلك تشجيعاً وإيثاراً لمبدأ العمل بالفريق الواحد، وتصميماً منه لتعليمنا والأخذ بيدنا فى أول خطونا على طريق العمل الدبلوماسى.

كان السودان قد أنضم إلى جامعة الدول العربية خلال ولاية السيد مبارك زروق الذى كان قد ترك الوزارة عند قدومنا إليها. وخلفه السيد محمد أحمد محجوب الذى كان معروفاً بصداقته للسيد رزوق رغم اختلاف المذاهب والفكر السياسى.. وأذكر أن العاملين فى الوزارة من قدامى الكتبة والإداريين أمثال حاج التوم وعبد الرحيم أبو بكر كانوا يتناقلون أن السيد المحجوب قال فى أول لقاء بالعاملين منهم "أنا سعيد بأن أجلس على الكرسى الذى جلس عليه السيد رزوق.. وأنا مصمم على إكمال الكثير مما بدأ خدمة لبلادنا وأننى بهذا وجه بأن يظل كل توجيه إدارى أو تنظيمى وضعه الوزير السابق كما هو.. حتى وضع المكاتب يظل كما كان.. كانوا يرددونها باعتبارها برهاناً على أن الكبار يظلون كباراً.. وأنهم يقرأون أن فى بعض البلدان المجاورة كثيراً ما يستهل الوزير الجديد أعماله بالتقليل من شأن سلفه والحط من إنجازه..

كان المكتب السياسي يقع فى جنوب غرب المبنى الرئيسى فى الطابق الأول للوزارة والمطل على النيل يفصله عن حديقتها الواسعة سور خشبى أبيض.. وكثيراً ما يعج بالزائرين.. وخاصة شباب الصحفيين.

أذكر أن الأخوة محمد ميرغنى ومصطفى أمين والنجاتى محمد أحمد وإدريس حسن وشيخ إدريس بركات وجاويش وأحمد باشرى ويوسف عبد

العال ومجد إبراهيم طاهر ومحمد سعيد محمد الحسن وعبد الله عبيد كانوا يترددون على الوزارة بصفة تكاد تكون دائمة.. يغشونها استلهاماً لتوجهات السياسة الخارجية وتسقطاً لأنباء الوزارة والسفارات بالخارج أو وصلاً لضروب أخاء تشدهم إلى بعضنا.. وكان الوزير محمد أحمد محجوب يعوج على الإدارة السياسية كل صباح وهو فى طريقه إلى مكتبه حيث يمضى بعض الوقت فى حديث وسمر معنا ومع بعض الزائرين من الأخوان وكثيراً ما كان يطارح السيد أحمد سنجر - المشرف على حدائق السيد على المجاور والصديق الحميم للأخ عبد الكريم - الإشعار والجدل حول أفكاره " الصوفية غير المؤسسة " بالنسبة للشقيقة مصر.. وكان سنجر مولعاً بحب مصر وكان يجاهر بأن أتعس أيام حياته هو يوم اختار البرلمان " الاستقلال " عوضاً عن الاتحاد مع مصر التى ارتضاها أهل السودان فى الانتخابات التى جاء على أثرها الأزهرى للحكم.. بل ظل يرى فى وجود سفارتين للبلدين تكريساً للانفصال والتجزئة وظل طيلة حياته ينأى بقدميه عن أن تطأ سفارة مصر للحصول على تأشيرة لدخول أراضيها.. وظل كذلك حتى أمكن تدبير أسلوب تم بموجبه تنظيم زيارة له لمصر وبالرغم من أن السفير أحمد مختار كان صديقاً له وينحدر من نفس موطنه الصغير وجمعتهما زمالة نضالية طويلة إلا أنه تجنب زيارته فى السفارة أو فى النزل الرسمى.. واكتفيا باللقاءات التى شهدت أطرافاً منها فى بعض الأماكن العامة.. وقد لاحظ الكل أن سنجر كان ملماً بتاريخ مصر وتاريخ أسر حكامها من الفراعنة.. وكان المرشدون السياحيون المصريون يعجبون بإلمامه ومعلوماته عن المرافق التى يزورها.. ومن الطرائف أنه ودع القاهرة بزيارة كرمة ابن هانى - حيث قام بطواف حول المبنى عدة مرات تخللها ركض وهرولة تعبيراً عن خضوعه لقدسية المكان.. طاف مهرولاً وهو يتغنى بمطالع قصائد شوقى.

## السودان... في الأمم المتحدة:

بدأت نسمات سبتمبر الباردة تهب على البلاد.. وبدأ الإعداد لالتحاق بلادنا بالأمم المتحدة والتى كان يمثلنا فيها السيد يعقوب عثمان يعاونه د. ياجى.. انخرطنا فى الإعداد لأعمال الجمعية العامة فى دورتها الحادية عشرة

وتم تشكيل وفد سودانى لذلك المحفل على نحو رفيع حيث عقدت رئاسته لوزير الخارجية وضمت الوكيل الدائم ورؤساء الإدارة المختلفة.. انطلق الوفد والذى تم على يديه رفع علم السودان على سارية بين أعلام نحو ثمانية دول إفريقية يمثلون مجموع الدول المستقلة المنطوية تحت لواء تلك المنظومة الدولية والتي كانت ملاذاً للبشرية.. وحصناً للدول النامية التى ننشد فى رحابها أمناً وعوناً اقتصادياً ومعرفياً ومجالدة لبقايا الاستعمار ونفوذه فى مناطقها وإعمالاً لمواثيق أجيزت بعد الخروج من حرب كونيه مدمرة.. وبينما كان وفدنا منقطعاً لعمله تعريفاً ببلادنا.. تبشيراً بمقاصدنا.. تعبيراً عن آمالنا فى بلوغ مرافى التقدم فى شتى الميادين الاقتصادية منها والثقافية والاجتماعية.. إذا بالاعتداء الثلاثى على مصر يندلع بكل ما ينطوى عليه ذلك من آثار علينا وعلى منطقتنا. وكان على وفدنا أن يجند كل طاقة يملكها انتصاراً لمصر وحماية لظهرها.. وانخرطنا فى الوزارة نساعد فى إعداد الوثائق وجمعها وإعداد الدراسات المتعلقة بالوضع القانونى لقناة السويس وملخص لمناقشات الجهازين التشريعى والتنفيذى ونقل نبض الشارع السودانى الذى انتظمته المواكب والتظاهرات الحاشدة إلى وفدنا الذى ظلت الوكالات تحمل طرفاً من جهوده فى أروقة الأمم المتحدة فى هذا الشأن.. ذلك الجهد الذى توج باختيار السيد المحجوب وزير الخارجية ورئيس الوفد السودانى متحدثاً باسم المجموعة العربية فى الأمم المتحدة.. وتواترت الأنباء حول صولات المحجوب الموفقة والرائعة وهو ينطلق فى أداء مهمته على نحو يدعو للاعتزاز والفخار.. سرعان ما لمع اسمع المحجوب فى ذلك الوقت المحفل حتى رأت الدول النامية أن تقدمه مرشحاً لها لرئاسة الجمعية العامة للأمم المتحدة خلال الدورة القادمة.. وهو أمر أثار قلق بعض الدوائر الاستعمارية لما انطوت عليه مداخلات المحجوب من فضح لمؤامراتها فيما شهدت وقائع جلسات الأمم المتحدة.



لوفدى السودان للأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي
من اليسار لليمين: د. محمد أحمد ياجي- حمزة ميرغني- مأمون بحيري- معتصم البربير - أبو عثمان- يعقوب عثمان- محمد عبد الماجد أحمد- عباس الدابى.

وهكذا برز شار مالك مرشحاً منافساً للمحجوب وعملت تلك الدوائر فيما أشارت بعض الدوائر الإعلامية على إنجاحه. حيث لجأت إلى كل وسائل

الترغيب والترهيب.. كان أداء وفدنا الذى يمثل أول إطلالة لنا على الساحة الدولية متميزاً أعطى دفعاً هائلاً للدبلوماسية السودانية الوليدة.. وظل السودان خلال العام الذى يليه قبلة لحركات التحرر الأفريقى.. كانت الإدارة السياسية تعج بقادة حركات التحرر الذين صار بعضهم رؤساء لبلادهم بعد فترة خلال أعوام.. وكان السودان وفياً لمبادئ سياسته الخارجية يمد لهم كل عون.. يدعمهم بالمال والسلاح بأسلوب خفى اتقاء محاذير لا تحتاج إلى تبيان. ثم جاءت الدورة الجديدة للأمم المتحدة والتى تم اختيارى عضواً فى وفد السودان للمشاركة فيها إلى جانب آخرين.. وكانت فرصة طيبة دنونا خلالها من بعض القضايا الدولية واكتسبنا معرفة بالعمل فيها وكان أن تم اختيار السودان لواحد من أهم المجالس المتخصصة فى الأمم المتحدة وهو المجلس الاقتصادى والاجتماعى والذى يتكون من خمسة عشر عضواً.. وكان للجهد البارز الذى اضطلع به المرحوم حسن محمد حسن فى هذا الشأن مشهوداً وكان أداؤه خلال اجتماعات اللجنة الثانية المنبثقة من الجمعية العامة والتى تعنى بالشئون الاقتصادية محل إشادة من الكثيرين.




في الدورة الثانية عشرة للأمم المتحدة سنة١٩٥٧.

كانت فترة ثرة كنت أقوم خلالها بحضور اللجنة السياسية الخاصة وقد شهدت بعض المناوشات بيني وبين مندوب إسرائيل الذي كان يحاول الوقيعة بين السودان ومصر بزعم مسعى مصر السيطرة على السودان وبينه وبين الدول العربية الأخرى - وكنا نقدم عوناً – بتوجيه خفي من رئاسة الوزراء إلي أخواننا من مناضلي أفريقيا الذين يسعون إلي التبشير بقضاياهم في أروقة المنظمة وأذكر أن ممثل الكميرون في تلك الفترة فيلكس مومي كان يتخذ من مقر بعثتنا هناك منطلقاً لنشاطه مثلما كانت الخرطوم تؤويه وتعينه هو وزملاءه.. ولقد لفت نظري خلال مناقشاتنا حول قضية اللاجئين الفلسطينيين التي تندرج تحت إختصاصات اللجنة – أن إسرائيل كانت تتابع كل كلمة ترد عنها في وسائل الإعلام العربية – ثم تستشهد بها في مجال إثبات أن العرب عدوانيون يستهدفون بقاءها.. لا يتركون شاردة أو واردة وقد واجهني السيد إيبان بسلسلة من المقالات في بعض الصحف السودانية عبر عنها كاتبوها – وقد يكونون من القراء العاديين- عن إعتقادهم بوجوب التصدي لإسرائيل وإقتلاعها من الأرض التي إغتصبتها ظلماً وعدواناً، وهي نقطة اشرت إليها في تقريري الخاص بمهمتي لدى عودتي متمنياً الإهتمام بالإعلام وضرورة دعمه ومتابعته لما يكتب خارجياً بشأن قضايانا.

## مهمة في السعودية:

ثم جرى تكليفي بمهمة في السعودية في منتصف عام ١٩٥٨ حيث أمضيت وقتاً قائماً بالأعمال في غياب السفير المتميز محجوب مكاوي وصادف وجودي موسم الحج.. وبالرغم من ضيقي بالإقامة في جدة في ذلك الزمن – قبل أن يتفجر البترول وتنعم البلاد بالطفرة العمرانية التي شهدتها فيما بعد، فقد كان في أدائي للفريضة ما اشاع الرضى في النفس. أذكر أن بعثة الحج عقدت أمارتها للعم أحمد محمد يس – عضو مجلس السيادة وقتها – كما ضمت نفراً من الشخصيات البارزة مثل العم عوض الله صالح والدكتور زين العابدين والذين حلوا ضيوفاً على في داري بالإضافة إلي الصديق خليفة عباس العبيد.. كان

البعض يعايرني بأن "الحج" الذي أتاني وأنا مضطر بحكم عملي لا يعتبر حجاً صحيحاً ومقبولاً، أسر لي شيخنا عوض الله صالح بأن لا أستمع لذلك الهراء وأنني موعود بالأجر طالما أن المنادي ناداني دون سواي "لماذا هيأ لك القدر أنت بالذات أنت تكون هنا في موسم الحج بالتحديد"؟ ونصحني بأن أتبع مراسم الفريضة بالدقة المطلوبة وأن أتوجه بكياني لأداء المهمة على خير وجه. وقد أخذت بنصيحته.

ولما كنا نقيم معاً في خيمة الحكومة "بمني" كان مولانا الشيخ عوض الله دائم النصح لي بذبح "فدية" كلما لاحظ أنني أتيت أمراً كنت أسافر لجدة لتسلم االدواء للحجاج من الخطوط الجوية السودانية، أو أبدي ضيقاً بسوء الإجراءات أو أغتاب أحداً في شكل دعابة.. كان كل ذلك يقابله "ذبح" سمين أقبل عليه بنفس راضية لإكمال حجتي على أتم وجه وفقاً لنصيحة مولانا، إلي أن أتي يوم شهد مباراة بين الهلال والمريخ بالسودان.. وكان العم أحمد يس – المريخي الأصيل-حريصاً على معرفة النتيجة فطلب إلي بذل الجهد لمعرفة النتيجة فقلت له "اقسم لك أن المريخ سيفوز" وهنا أنبرى مولانا الشيخ عوض الله قائلاً " عليك بإثنين من الخراف لأنك تقسم على شيء هو في علم الغيب بالنسبة لك، و"الفدية" الثانية لأنك قلت أن المريخ هو الغالب وهذا فيه إثم كبير".. وضحك الجميع..! وأدركت أخيراً أن كل الخراف التي ذبحت راحت هدراً وكانت من أوابد مولانا – الذي كان صديقاً لوالدي – والذي عرف بمقالبه "رحم الله ذلك العالم الجليل".

وكانت فترة عملي بالسعودية فرصة تدربت خلالها على خبايا العمل القنصلي سيما وقد صادف وجودي تخويلنا منح الجنسية أثر صدور قانون لها لأول مرة في تاريخ السودان.. وكان تم قبل ذلك بفترة تعديل وصنعى الوظيفى واعتبارى سكرتيرا ثانيا منذ التحاقى بالخارجية تنفييذا لقرار لجنة قبول الدبلوماسيين – ومعى العم عوض حسين مسئول الجوازات – في تزويد المستحقين لها طبقاً للمعايير وقد تعرضت كثيراً لإغراءات الرشوة من بعض رعايا غرب أفريقيا!!

## المعونة الأمريكية:

كان السودان ضمن دول أفريقية ثمانية اجتمعت فى أكرا للتشاور حول القضايا الأفريقية ومستقبل أفريقيا.. الخ. وكان مؤتمر أكرا الذى شاركت فيه بلادنا بوفد رفيع قاده المحجوب وكان إلى جانبه زميلنا مصطفى مدنى وآخرون... كان المؤتمر مقدمة لمنظمة الوحدة الأفريقية بعد بضع سنوات. وشهدت تلك الفترة بروز قضية المعونة الأمريكية كقضية بارزة وضاغطة على مسار الحياة السياسية فى السودان... تباينت أقوال المفكرين والكتاب والسياسيين بشأنها بين رافض لها ومؤيد.. وسرعان ما انتقل الشقاق إلى أروقة الأحزاب المؤتلفة والتى كان حزب الشعب الديمقراطى بقيادة الشيخ على عبد الرحمن – الوزير البارز والمؤثر – تظاهره فئات كبيرة من قطاعات المجتمع المدنى وجماعات اليسار من الرافضين والداعين إلى رفضها باعتبارها جسراً يصل النفوذ الأجنبى من خلالها إلى بلادنا، بينما كان رئيس الوزراء وحزبه مؤيداً لها وحريصاً عليها لما تنطوى عليه من فوائد اقتصادية جمة على بلادنا.. ورؤى أن يخضع الأمر إلى قرار من الجهاز التنفيذى ( مجلس الوزراء ) وأن تضطلع وزارة الخارجية بالدراسة وإعداد توصية بشأنها وأحيل الأمر إلى الإدارة السياسية لدراستها وتقديم توصيات بشأنها للجهات المسئولة فى الوزارة.. أنفقنا جهداً مثابراً وصبوراً فى دراسة القضية من جوانبها كافة.. والتمسنا المشورة لدى كل جهة معنية اقتصادية كانت أو قانونية.. واستمزجنا رأي الإدارات المختصة بالخارجية وسفاراتنا بالخارج.. وظلت الإدارة محل ضغوط من سائر القوى السياسية بل ومن أعضاء الخارجية نفسها.. كنا نواصل عملنا اليومى فى الأمسيات وكثيراً ما كنا نفاجأ بأحد الوزراء يلج الإدارة ويتحدث إلى رئيسها ثم يخرج من جيبه قصاصات من مجلات ويوافى بها سيادته عساها تكون عوناً فى تكوين الرأى.. ثم نفاجأ أحياناً بمن يدعو رئيس الإدارة لمقابلة رئيس الوزراء (السيد عبد الله خليل) الذى ينتظر داخل عرينه أمام الوزارة ثم يعود السيد عبد الكريم وهو يحمل بعض الدوريات والأوراق التى تعزز من وجهة نظر المؤيدين لقبول المعونة.

أسوق ذلك لأدلل على أن قادة العمل الوطنى كانوا يحفظون للخدمة المدنية جلالها واحترامها.. لم يشاءوا أن يتخذوا قراراً سياسياً يلقى بآثاره على السودان انطلاقاً من نوازع الهوى السياسى والحزبى.. وكان بإمكانهم فعل ذلك ولكنهم رأوا إخضاع القرار لأجهزة الخدمة المدنية المعنية والتى تمثل توصياتها عاملاً أساسياً فى اتخاذ القرار.. وهى أمانة جعلت الكثيرين من رجال الخدمة المدنية – فى مواقف مشابهة – يستشعرون عظم المسئولية التى يتحملون أعباءها ويعملون جاهدين أن يكونوا كفاءاً لها.

## انقلاب عبود:

ثم توالت الأحداث خلال ذلك العام وسرت حمى الانقلابات العسكرية بدءاً بانقلاب باكستان ثم سقوط حلف بغداد الداوى أثر انقلاب عبد الكريم قاسم فى العراق.. وسرت العدوى إلى أكبر الأقطار الأفريقية مساحة، والذى يعتبر فى نظر كثير من الأفارقة – وحركات التحرير ساعدها وملاذها.. وفى نظر الكثيرين من العرب جسر تلاقيها مع أفريقيا ومخزون غذائها المدخر.

كان السيد عبد الكريم قد تم نقله إلى الأمم المتحدة وسافر مصطفى إلى لبنان قائماً بالأعمال لديها.. وتم اختيار السيد عبد الله الحسن– سفيرنا لدى غانا رئيساً للإدارة السياسية وأوكل إلى أمر الاضطلاع بتصريف شئون الإدارة حتى قدومه.. كان أمر الانقلاب حدثاً ضخماً فى تلك الأيام..فوجئنا فى اليوم التالى باللواءين حسن بشير وعروة يأتيان للوزارة ويجتمعان بالوكيل الدائم فى الطابق العلوى.. سرعان ما التحق بهم السفراء الأجانب المعتمدون بالسودان الذين تمت دعوتهم على عجل.. ثم أعلن عن تكوين مجلس الوزراء وتم اختيار الأستاذ أحمد خير وزيراً للخارجية.. ووجدنا فى ذلك عزاء لنا بفقد الرجل النفيس محمد أحمد محجوب بمبادراته وقدراته وتميزه ورعايته وروحه الأبوية.. جاء الأستاذ أحمد خير مسبوقاً بصحائف عامرة بالمواقف الوطنية ورصيد مشهود من النضال الذى لاقى فيه سجنا وعنتاً.. وكنا نتابع أيامه فى مصر حين انشق عن وفد الأحزاب يومها والتحق بالطلائع الوفدية بقيادة د. محمد مندور

فى مصر.. ثم عودته لقيادة الحملة ضد مؤسسات الاستعمار ومشاريعه فى واد مدنى والتى كنا نمشى فى ركابها كلما أتيح لنا ذلك.. وفوق كل ذلك مبادرته التاريخية باقتراح قيام مؤتمر الخريجين. بدا منذ الوهلة الأولى عزوف السيد أحمد خير عن أساليب الدبلوماسية بمفهومها التقليدى العتيق.. لم يكن يعطى لطقوسها من مظهر كثير اهتمام.. كان يؤمن بأن الدبلوماسية تبدلت مفاهيمها بعد الحرب العالمية الثانية وصارت دبلوماسية الشعوب.. دبلوماسية المؤتمرات.. كان ينادى بإخضاع الدبلوماسية لضرورات الحاجة الداخلية.. وبدا كثير الاعتزاز بالدور الذى اضطلع به سلفه المحجوب فى وضع أسس راسخة لمسار الدبلوماسية ومن إنجاز فى إبراز اسم السودان فى المحافل الدولية وبمهارته فى مغالبة الصعاب التى كانت تعترضه من حزبه ومن مناوئيه. وبدا لنا أن أحمد خير كان نصيراً للشباب من ناشئة الدبلوماسيين.. يرمى بهم إلى أكثر المواقف خطرا حتى يخيل إلى المرء أنه كان يخاطب المستقبل وينأى بنفسه عن قيود الماضى والحاضر.

جاء السيد عبد الله الحسن وقصد إلى موطنه فى كسلا للاطمئنان على ذويه شاء القدر أن يعوض أيامنا فى الإدارة السياسية سابقاً بانضمام اثنين من أصدقائنا وزملائنا فى الدراسة والذين تم استيعابهم فى ذات العام بوزارة الخارجية إلى الإدارة السياسية وهما الصديقان مهدى مصطفى الهادى وجبارة عبد الرحمن.. كانت تربطنا صداقة متينة يعزز منها توجه سياسى ومزاج اجتماعى واحد.. كنا لا نكاد نفترق على تلك الأيام.. نقضى سحابة يومنا بالوزارة ننصرف خلالها لأداء عملنا بروح الفريق الواحد ثم ننطلق إلى شقة صغيرة كانت تخصص للمحظوظين من الموظفين من الأجانب إلى جانب عدد محدود من السودانيين وكان مجاورة لنادى الضباط ( مكان العمارة الكويتية اليوم ) خصصت إحداها لى والأخرى للأخ سحلول السكرتير للإدارة الاقتصادية، لتعويض الخارجية حصة فى عقارات الدولة ولطبيعة عملنا.. كننا ننطلق إلى هناك ثلاثتنا فنعود إلى الوزارة مساء فى كثير من الأحيان.. وأننى لأذكر تماماً أننا كنا نحتفل مع أحد زملائنا بمناسبة قرانه وامتد بنا السهر بين

الأصدقاء وبعض الزملاء القدامى وغناء إبراهيم عوض حتى انتصف ليل الخرطوم حيث ذهبنا معاً لنمضى الليل فى شقتى الصغيرة.

## قصة الاعتراف بالصين الشعبية:

فى صباح يوم الجمعة ( ٢٠ نوفمبر ٥٨) جاءنى السائق محجوب يحمل رسالة من الوكيل يدعونى للحضور إلى الوزارة.. لم يكن أمراً مألوفاً أن يستدعى العاملون أيام العطلات سيما وكان هناك نوبتجية يتعاقبون على السهر ليلاً.. بادرنى الوكيل بالسؤال عما كنت أعرف مكان زملائى فى المكتب السياسى فقلت له بل أعرف أماكن إقامتهم وتحركاتهم ومكان تواجدهم فى تلك اللحظة طلب إلى أن أرسل فى طلبهم على التو.. وجاء مهدى وجبارة وقد بدا الارتباك ظاهراً على محياهما. هنا طلب إلينا الوكيل إعداد مشروع للسياسة الخارجية للثورة الجديدة.. تساءلنا عن المبادئ أو الخطوط العامة للسياسة التى سوف تلتزمها الثورة كى تعد البيان على هديها.. قال مداعباً بابتسامته المحببة "لو كانوا يعرفون لما لجأوا إلينا!" ثم أردف انطلقوا واكتبوا بياناً تتوخون فيه أدبيات السياسة الخارجية المعروفة والسارية مثل إخضاع السياسة الخارجية لموجبات التنمية والتزاماتنا العربية والأفريقية وانتمائنا لمجموعة عدم الانحياز بدورنا فى المنظمات الإقليمية والدولية إلى غير ذلك.. هيا.. وعلى قدر الأهل العزم تأتى العزائم.. وأردف مذكراً ما تنسوا تكتبوا ما يعن لكم وقلمى الأحمر جاهز قبل نقل البيان لأهل الحل والعقد. كان الجميع يضمر مشاعر محبة وتقدير للسيد محمد عثمان يس واطمئنان لوطنيته وكفاءته المهنية العالية وتفانيه فى تطوير الوزارة.

بدأنا فى وضع عناصر البيان وجرى نقاش حولها.. وبدأت فى صياغته.. كنت أجلس إلى مكتبى ممسكاً بالقلم وإلى جوارى مهدى وجبارة يبادر كل منا بإملاء رأى أو فكرة وفجأة، ونحن فى معرض إثبات التزامات الوضع الجديد إقليمياً ودولياً بادر الأخ مهدى باقتراح يفضى بإدخال جملة تنص على أن حكومة الثورة " تعلن منذ هذه اللحظة اعترافها بحكومة الصين الشعبية" قابلنا

ذلك بنظرة عتاب فلم يكن الوضع يحتمل المزاح.. وبدأنا نناقش الأمر واتفق رأينا على وضع الفقرة ولهم أن يحذفوها.. وكنا نجد فى كلمات السيد الوكيل تشجيعاً لنا وتحريضاً على أن تكتب كل ما يعن منا... أمضينا نهار ذلك اليوم فى الوزارة انتظاراً لقدوم الوكيل فى المساء لعرض مسودة البيان عليه.

وفجأة دخل علينا الصديق يس معنى ومعه معاون يحمل جهازاً للتسجيل (لم يكن التليفزيون قد ولد بعد ) فأفضى إلينا بأن توجيهاً صدر من السيد طلعت فريد وزير الإعلام وقتها للتوجه على عجل إلى وزارة الخارجية لتسجيل بيان السياسة الخارجية. بدا الأمر محيراً لنا بالفعل.. كيف يذاع البيان قبل أن يجيزه الوزير ثم مجلس الوزراء؟ لم نكن ندرى أن الوزير كان يتخذ طريقه للوزارة.

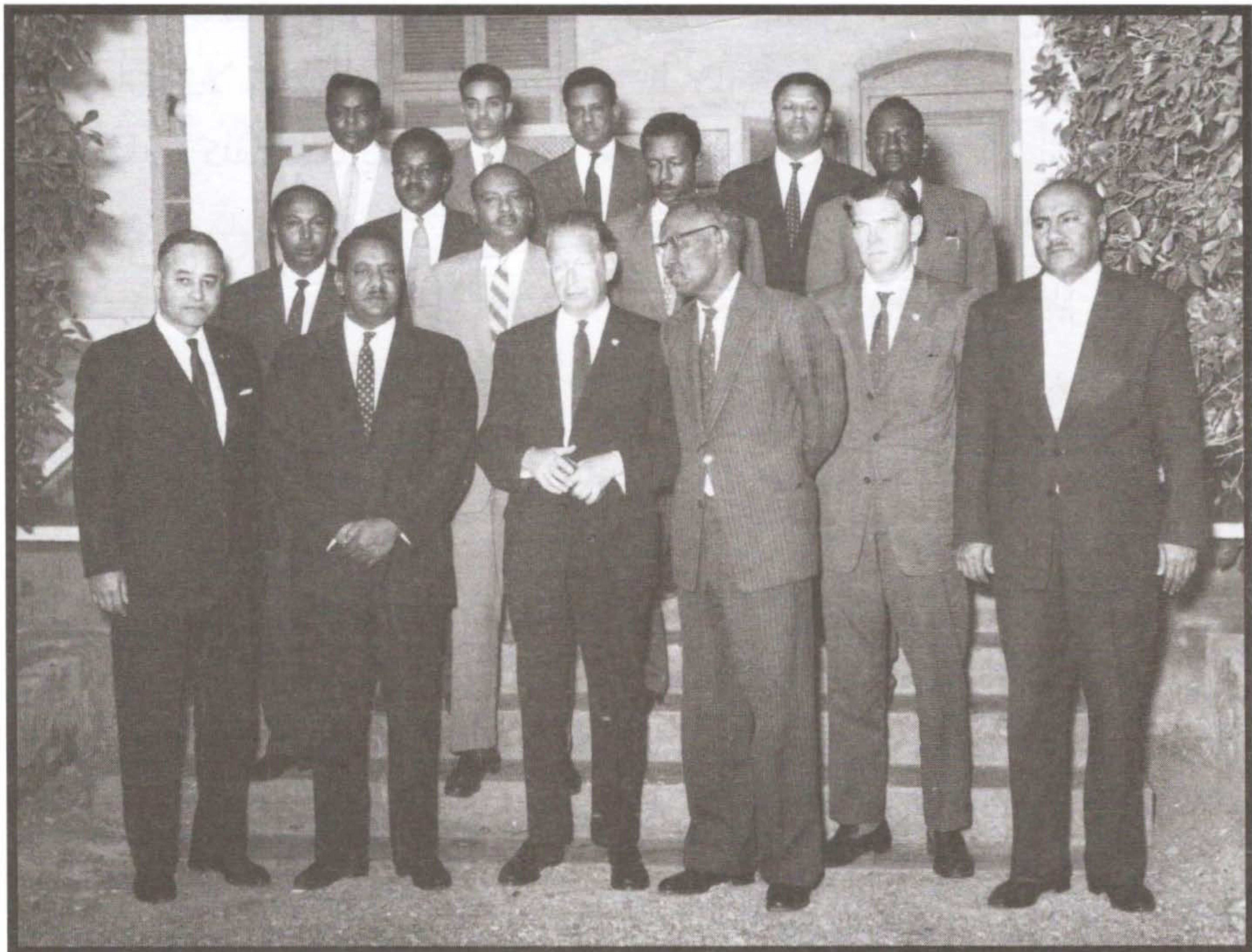
بدأ توافد بعض مساعدى الوكيل والذين وافيناهم بالبيان فعكفوا على دراسته ثم فجأة ظهر الوزير أحمد خير وكان الوكيل ومساعده عاكفين على قراءته فدفعوا به إليه.. وكان للسيد أحمد خير أسلوب متفرد فى الإطلاع على ما يقدم إليه.. كان يستوعب صفحة كاملة بنظرة واحدة تستغرق بضع ثوان.. يعمل قلمه فى مكمن الخطأ.. نحوياً كان أو إملائياً أو جنوحاً فى الرأى.. تسلم البيان وألقى نظرة فاحصة عليه بأسلوبه المتفرد وأمر بإدخال مندوبى الإذاعة لتسجيل البيان. ساورنا نوع من القلق فهمسنا للسيد الوكيل راجين إرجاء التسجيل حتى يطلع الوزير على فقرة هامة تتعلق بالاعتراف بالصين الشعبية وهى خطوة كبيرة لابد أن تخضع لرأى القيادة.. ولكن السيد أحمد خير بدا غير آبه لما سمع.. وأضاف بل قرأتها وتأملتها وتمعنت فى معانيها.. هيا لا تضيعوا الوقت.. وتم التسجيل وران شعور بالدهشة على كل الواقفين وخيل إلينا أن الأخ يس معنى كبيرا لمذيعين عمل على تدارك الموقف يوقف التسجيل فالقى الوزير بيده بعيداً فى عنف واستمر فى تلاوة البيان. هناك لحظات لا يستطيع المرء فيها وصف مشاعره بل وتحديد طبيعة تلك المشاعر.. كان شعورنا مزاجاً من العجب والدهشة والزهو والاعتداد.. عدنا إلى مكتبنا مسرعين وبدأنا نعانق بعضنا وراودنا إحساس بأننا بدأنا رحلة صناعة تاريخ الوطن وتمنينا لو

أتيحت لنا الفرصة أن ندق على أبواب الناس صائحين هذه ثورة أصيلة وليست أمريكية كما كنا نظن أنها ثورة حقيقة ولو كانت مرتهنة لجهة أجنبية لوضعت لها المحاذير.. وأى محاذير تبدو أكثر إلحاحاً من خطوة الاعتراف بالصين الشعبية التى كانت معظم دول العالم بل ودول عدم الانحياز مترددة فى اتخاذها... إذن بدأ النظام فى نظرنا عفوياً خالصاً على أقل تقدير إن لم يكن ثورياً وإلا لما أقدم الوزير على تبنى تلك الخطوة دون الرجوع لقيادتها. على أن هناءنا على الصعيد الشخصى لم يدم طويلاً.. أذ اكتشفنا أن الأمر تمت مناقشته بين السيد عبد الله الحسن – الذى كان قد عاد من كسلا فى الليلة السابقة للحدث وبين عدد من أعضاء مجلس قيادة الثورة بحضور الوزير أحمد خير فى منزل اللواء محمد أحمد عروة والذى كانت تربطه بالسيد عبد الله صلات أسرية. إذن كان الوزير قد قرر إعلان الاعتراف.. ولو لم يجده لحطه بقلمه.. ويبدو أنه تشاور مع القيادة حول الأمر.

وقد حدثنى السيد الوكيل يوماً بأن الوزير دهش فعلاً لوجود تلك الفقرة وأشار إليه فيما بعد أنهم صنعوا من " شفع " الوزارة قالباً واحداً.. يفكرون ويحللون بنسق واحد وكان يدلل على ذلك بتلاقى أفكار المجموعة ورئيسها الذى كان غائباً ولم يلتقوه حتى ذلك الحين!.

أحدث القرار دوياً هائلاً في الداخل وفى المنطقة كلها بل وفى المجال الدولى.. وقد لقيت الخطوة ترحيباً كبيراً فى دوائر المعسكر الاشتراكى وبعض النظم الليبرالية ورأت فيه بعض العناصر الوطنية والشيوعيون على وجه الخصوص بشائر جعلتهم أكثر اهتماماً بتصنيف النظام.. نرى هل كانت بذرة نمت وطرحت وأثمرت على الزمن حتى أتت أكلها تعاوناً بين الحزب الشيوعى وحركة نوفمبرأحياناً؟ وقد سبقت تلك الخطوة ترحيب بعض الجماعات التى جهر بعض زعمائها بتأييد الحركة صبيحة اندلاعها فيما عبر عن ذلك السيد أن على الميرغنى وعبد الرحمن المهدى. كما عززت من حسن الظن لدى جماعات الاتحادين الذى أطربتهم الفقرة الواردة فى بيان الفريق الأول حول مسوغات حركته وفى مقدمتها "إزالة الفجوة المفتعلة بين السودان ومصر". لست بصدد

إجراء تقويم لحركة نوفمبر وأنا أكتب بعد خمسة وأربعين عاماً من اندلاعها جرت مياه كثيرة تحت جسرها شهدت تبدلاً فى المواقف والفلسفات وتطورات فى الموقف الدولى والمحلى خلال السنوات الست التى بقيت فيها ممسكة بزمام السلطة فى بلادنا. ولكن أردت أن أشير إلى واقعة هامة عايشتها وكنت عليها شاهداً لا مشاهداً.



زيارة همرشولد للسودان

من اليمين إلى الشمال (الصف الأمامي)

(١) السفير أمين أحمد حسن (٢)أحمد مساعدي همر شولد

(٣) الوزير أحمد خسير (٤)داج همرشولد

(٥)الوكيل محمد عثمان (٦)المبعوث الشخصي للأمين العام(إلف بونش)

من اليمين للشمال (الصف الخلفي):

السفراء: سر الختم السنوسي- صلاح عثمان هاشم- عبد الله الحسن الخضر- حامد محمد الأمين- محجوب مكاوي- أحمد صلاح بخاري- فضل عبيد- أبو بكر عثمان محمد صالح- صلاح بابكر رزق.

كان الوزير منحازاً للشباب يضعهم ضمن الوفود للمشاركة في المؤتمرات عساهم يكتسبون خبرة ودراية ويتعرفون على قيادات الدول الأفريقية النامية وكلهم من العناصر الشابة مما قد يعينهم لدى عملهم يوماً فى تلك الدول.. وقد كان رأيا صائباً. وتجئ على الخاطر أمثلة وشواهد على ذلك.. ويبدو أن السيد أحمد خير كان عراب النظام وفيلسوفه وقد شهد مكتبه بالوزارة اجتماعات ضمت كبار المسئولين من الضباط والوزراء الآخرين لمناقشة بعض الأمور التى لا تندرج تحت اختصاص الوزارة وكثيراً ما أناط بنا بعضاً من تلك المهام وكلفنا بتقديم العون فى بعض المجالات.. وأذكر أنه انتدبنى للعمل مع السيد محمد أحمد ابورنات رئيس القضاء يوم أن أوكل إليه أمر تعريب القوانين وتحويرها بما يتماشى مع فلسفة الحكم المحلى ويخرج الوطن من قبضته المركزية عبر لجنة تم تكوينها لهذا الغرض ضمت عدداً من كبار رجال الخدمة المدنية والخبراء.. وكنت أمضى أيامى فى مكتب السيد ابورنات أكتب ما يملى على بعدما يقوم بتحويره بمجرد النظرة للمواد الموضوعة أمامه.. لكأنه كان يحفظ المواد عن ظهر قلب.. وقد شدنى السيد ابورنات بدماثته ورقته ودقته.. كنت أجلس يومياً إلى منضدة جانبيه فى مكتبه الفسيح.. بينما يظل يذرع الغرفة جيئة وذهوباً لساعات طويلة ممسكاً بكتاب القانون عاملاً على تحوير المواد دون انقطاع.. وقد أبلى الرجل بلاءاً حسناً فى هذا المجال.. وكان مقرراً أن تقوم اللجنة بطواف على مختلف المديريات فى زيارات ميدانية تعين على وضع الأسس لتطبيق ذلك، لولا انشغالى بأمر قرانى الذى تبعه نقلى إلى القاهرة حيث جاء زميلى سر الختم السنوسى – السكرتير الثاني بالخارجية يومها – خلفاً لى فى تلك المهمة.. وقد رأى السيد ابورنات – لطفاً منه وكرماً – أن ينوه بالجهد الذى بذلته وزميلى سر الختم فى مقدمة الكتاب الذى أصدره فى هذا الشأن.

بدأت ارهاصات " التنقلات" تزحم أفق الوزارة وكثرت التخرصات والتكهنات حول التحركات القادمة.. واستدعاني الوكيل محمد عثمان يس إلي مكتبه حيث بدا الارتياح واضحاً على محياه وبادرني أنه يحمل إلي نبأ طيباً.. بل هديه.. إذ تقرر نقلي سكرتيرا ثانيا للسفارة بلندن.. ولدهشته لم أقابل النبأ

بمشاعر الرضي والارتياح فيما كان يأمل.. إذ سرعان ما أخطرته بأنني كنت أرجو أن يتحقق ما ترامي إلي من البعض حول نقلي إلي القاهرة معدداً ظرفا من الظروف الأسرية التي تدعو ذلك.. كان الوكيل الذي عاش في لندن حينا من الدهر مفتونا بها معجبا بالتطور الحضاري الذي أصابته فنادي على مساعده – السفير أمين احمد حسين في ذلك الوقت.. ناقلا إليه ما جرى فكان العم أمين أكثر دهشة من الوكيل وظل يردد في حيرة "سبحان الله.. سبحان الله". وهكذا تم إستبدال النقل إلي القاهرة اقتناعاً برغبتي وللقارئ أن يتصور فى أي جو كنا نعيش ونعمل!

بدأت في تصفية أعمالي والتعرف على موقعي الجديد من واقع التقارير الواردة من سفارتنا هناك.. وقضيت أياماً أختلف خلالها إلي الإدارات بالوزارة لتدارس بعض الأمور المتعلقة بموقعي الجديد في مختلف الميادين..

وكنت بصدد السعي لتلقي التوجيهات والإرشادات الأخيرة من رؤسائي في هذا الأمر حين صدر قرار من مجلس الوزراء بتكوين وفدين لتمثيل السودان في الاحتفالات التي تقام في كل من الكنغو والصومال بمناسبة نيلهما الإستقلال.. وكان علي أن أكون إلي جانب السيد زيادة أرباب وزير التربية للتوجه للصومال بينما تم اختيار اللواء محمد أحمد عروة عضو مجلس قيادة الثورة لرئاسة الوفد المتجه إلي الكنغو الذي سافر معنا على نفس الطائرة المتجهة إلي نيروبي حيث ينضم إليه اللواء الطاهر عبد الرحمن قائد القيادة الجنوبية.

## وشهدنا إستقلال الصومال:

كانت مدينة نيروبي غاصة بالوفود التي كانت في طريقها إلي كل من الكونغو والصومال لنفس الغرض.. ولما لم يكن لبلادنا تمثيل مقيم في نيروبي يدبر لنا أمر الحجز في إحدى الطائرات المتجهة إلي مقديشو فقد بذلنا جهوداً مضنية لتدبير مقاعد لنا في أي من تلك الطائرات دون طائل وأخيراً وبعد

الإستعانة بسفارة إحدى الدول الشقيقة هناك أمكن – وبعد لأي وجهد – تدبير مقعد واحد استأثر به الوزير بطبيعة الحال. وكان الوزير مهتاجاً وبادئ الغضب على وزارة الخارجية التي لم تتدبر الأمر ولم يشفع لنا ما كنا نذكره به بأن السفر جاء مفاجئاً وأننا قمنا على عجل فضلاً عن عدم وجود تمثيل لنا في تلك الديار.. ولكن الوزير ظل يسوق المذمة للخارجية وكوادرها.. ثم أشار إلي بالعودة على أول طائرة متجهة للسودان.. عدت للفندق وجلست أحدق فى الناس.. مسئولين وصحفيين وغيرهم من أعضاء الوفود الرسمية المتجهة لكل من الكونغو ومقديشو والتى كانت نيروبى محط انطلاق ومعبراً لكل من البلدين.. جلست أتأمل فى وجوه الناس وأحدق فى الشارع الممتد أمامى عبر الفاصل الزجاجى أغالب مشاعر اليأس والقنوط.. أتصور ما يمكن أن يترتب على رجوعى للخرطوم بعد يوم واحد من سفرى لأسباب خارجة عن إرادتى من تقريع وتكدير وتبكيت فى أواسط زملائى.. وفجأة سمعت صوت شخص ينادينى ويدنو منى فإذا به الأخ محمد صالح سفير تشاد بالخرطوم الذى عبر عن سعادته بلقائى.. وما أن علم باعتزامى العودة للخرطوم جراء الملابسات التى أوضحت حتى عبر عن مشاعر الأسى.. وأكد أن إيجاد مقعد فى أية طائرة قاصدة لأى من القطرين الذين استقلا حديثاً دونه خرط القتاد وذكر أنهم مضطرون – وزيره وشخصه – لمرافقة الوزير السنغالى على طائرته الصغيرة الخاصة.. وأبدى الرجل شعوراً طيباً وتعاطفاً تجاه موقفي ووعد ببذل جهد لإيجاد مكان لى فى تلك الطائرة. لم أعر ذلك اعتباراً كبيراً وحسبته ضرباً من ضروب المجاملة والمواساة.. وفى المساء حزمت أمتعتى استعداداً للعودة فى الصباح الباكر فإذا بالصديق التشادى يقتحم غرفتى وينهى إلى فى عبارات لاهثه أنه أمكن تدبير مقعد جانبى على الطائرة الصغيرة الخاصة بالوزير السنغالى..

كانت رحلة شاقة تلاعبت خلالها الرياح العاتية والمطبات بالطائرة إلى أن هبطت بسلامة الله فى مطار مقديشو.. وبدت المدينة رابضة على ساحل المحيط الهندى وتراءت على البعد شجيرات النخيل وجوز الهند.. كان المطار أشبه

بخلية النحل.. مسئولون صوماليون يضعون شارات على صدورهم ويستغرقون فى مراجعة الأوراق التى كانوا يحملون ويتجهون للوفود التى كلفوا باستقبالها والوقوف عليها.. وحشود ضخمة من الصوماليين يطلون من الصالات العلوية يتأملون ذلك المشهد من الغرباء الوافدين.. أفارقة كثيرون يجلسون فى حلقات لم يخف بعضهم تبرمه وسخطه للانتظار الطويل والارتباك الذى اتسمت به مراسم الاستقبال. وقفت إلى جانب الوفدين السنغالى والتشادى الذين قدر لى أن أرافقهما فإذا بى ألمح شخصاً بدا أنه من كبار المسئولين خلال تلك الفترة الانتقالية يترجل من سيارته ويصدر التوجيهات.. أمعنت النظر فإذا به الأخ أحمد دعالة – الوزير الصومالى وزميلى فى حنتوب الثانوية والتى عشنا خلالها معاً فى داخلية أبو غنجة حيث كان الطلبة الصوماليون والحضارمة يرسلون لتلقى العلم فى السودان كمبعوثين ناديت عليه فإذا به يحتضنى فى شوق ويأخذ بيدى إلى قاعة المطار ويقول وهو غارق فى الضحك." جاءتنا برقية من السودان بتشكيل الوفد.. وحرصت على أن أكون فى استقبال وفد السودان الشقيق فإذا بالسيد زيادة يحكى عن المقلب الذى تعرضت له.. واسترسل فى ضحكته العالية قائلاً " والآن هناك مقلب آخر فى انتظارك يا بطل.. وهو أن الجماعة تصرفوا فى الغرفة التى كانت أعدت لك ولا مناص من مشاركتك السيد زيادة السكن فى غرفته.. أنتم تقدرون ظروفنا.. ليس بالمدينة إلا فندقان أكبرهما فندق " جوبا " المخصص للوفود الرسمية تجرى وضع اللمسات الأخيرة فى استكمال بنائه بالرغم من وصول الوفود وإقامتهم فيه. لم أكن سعيداً بما سمعت ورأيت أنه ليس مناسباً أن اخترق خصوصية الوزير بمشاركته السكن فى غرفة واحدة، فضلاً عن الانطباع الذى خلفه حين التقينا لأول مرة والملابسات التى أحاطت بالرحلة، والحنق الذى بدا عليه وسوق العبارات الجافة للخارجية وكوادرها والخشونة التى أبداها فى معاملتى.. لكل ذلك خشيت أن تقود مشاركته السكن إلى احتكاك غير مرغوب فيه. رجوت الأخ دعاله فى عبارات هى للتوسل أقرب أن يعالج الأمر ويدبر لى سكنا ولو فى الفندق الآخر الذى يضم رجال الإعلام والمراقبين من غير الوفود الرسمية..

أبدى استعداداً ووعد بمعالجة الأمر ولكن لم يكن فى نبرات صوته ما يدعو للاطمئنان. ثم نادى على سائقه الخاص لتوصيلى إلى فندق " جوبا ".. وبينما كنت أتخذ طريقى إلى داخل الفندق وجدت نفسى أمام السيد زيادة وجهاً لوجه ويبدو أنه كان فى طريقه للخارج.. نظر إلى فى ذعر.. خيل إليه أنه يرى شبحاً.. تساءل فى حيرة.. كيف أتيت؟ ما الذى جاء بك؟ أصلك ود القلباوى ( شيخ من أولياء الله الصالحين تواترت حكايات عن قدراته على طى المسافات والأمصار فى غمضة عين)!. رويت له ما حدث.. علت وجهه علامات الرضى والارتياح.. ولدهشتى رأيته يحمل حقيبتى بنفسه بإصرار منه متجهاً بى نحو المصعد لتكون فى الغرفة التى سنتقاسم الإقامة فيها خلال إقامتنا.. اظهر الرجل كثيراً من الود.. واكتشفت فيه شخصاً آخر غير الذى حسبت.. دماثة ولطف ومجلس عامر بالقصص والطرائف والنوادر.. ولاحظت أنه يكثر من تلاوة القرآن وراتب الإمام المهدى، ويصر على أداء الصلوات فى مسجد المدينة كلما كان ذلك ميسوراً.. وبعد يومين أفلح الأخ دعا له فى تدبير غرفة صغيرة لى سرعان ما شاركنى فيها أحد قادة تحرير يوغندا يدعى " جون كالى " توفى لاحقاً نتيجة لاحتراق الطائرة التى كان يستقلها إلى موسكو.. وقد حزنت كثيراً لدى سماعى بنبأ مصرعه لما كان يتمتع به من وعى وحس ثورى وكان مدركاً لجذور العلاقات الأفريقية العربية مبشراً بها.

كان لوجود عدد كبير من زملائنا القدامى من أبناء الصومال والذين تسلموا مواقع سامية فى تلك الظروف، أثر كبير فى الإلمام بدقائق الأمور فى الصومال، والخلاف الذى بدت نذره تلوح فى الكتمان والمخاطر التى تحدق بالفطر الوليد.

وفى أمسية هادئة رقت نسائمها دعينا لحضور حفل الاستقلال فى ساحة كبيرة بوسط المدينة صفت عليها وحولها مئات المقاعد.. واحتشد حولها مئات الألوف من المواطنين الذين أتوا من كل فج معبرين عن سعادتهم بالرقص وترديد الأغانى الوطنية.. وكانت مكبرات الصوت تحمل أصوات الخطباء باللغة الصومالية وأحياناً بعربية خالصة، يشيدون بالمناسبة التاريخية مجددين

العهد للشهداء بأن يكونوا أوفياء للمقاصد والأهداف التى تساقطوا دونها وهم يخوضون ملاحم النضال الوطنى.. وفجأة ترامى إلى مسامعنا قرع متقطع على الطبول وقرع أجراس متصل وصوت جهير يدعو الجماهير الغفيرة أن تركن للصمت إجلالاً للحظات قادمات..

.. وبعد ثوان أزفت اللحظة الجليلة الموعودة.. انتصفت ليلة الأول من يوليو عام ١٩٦٠.. سلطت أنوار كاشفة وباهرة على ساريتين متنصبتين فى قلب الساحة.. نزل من إحداها علم الأمم المتحدة التى كانت وصية على البلاد ببطء، بينما كان علم الدولة الوليدة ذى اللون الأزرق والنجمة البيضاء يعلو السارية منطلقاً إلى السماء.. وفى هذه اللحظات حدث ما لم يكن فى الحسبان.. انطلقت تلك الحشود.. بل انطلق أهل الصومال يرددون بصوت هادر كالرعد النشيد الحماسى المعروف "الله أكبر فوق كيد المعتدى والله للمظلوم خير مؤيد".

سرت قشعريرة فى جسدى.. تأملت تمثال الشهيد كمال صلاح الدين الذى أغتيل وهو يرعى قرار الأمم المتحدة حول الاستقلال والذى كان يتوسط الميدان فخيل إلى أن ابتسامة الرضى أضاءت وجهه. والتفت إلى الوزير زيادة أرباب فإذا ببكائه الصامت يتحول إلى نشيج من فرط التأثر.. قفلنا راجعين إلى السودان ومشهد واحد ظل محفوراً فى وجدان كل منا.. مشهد طالما استرجعناه.. السيد زيادة وشخصى كلما التقينا.. زودنا يومها بيقين أن ذلك الشعب الذى عمل الاستعمار جاهداً لطمس هويته لابد عائد إلى جذوره وأصوله.. ولم يطل بنا الانتظار فقد اتخذ الأشقاء فى الصومال مقعدهم فى جامعة الدول العربية.. ولكن الاستعمار تمادى فى محاولاته اليائسة إلى تمزيقه وتطويقه وربما عقاباً له على أمور بينها تلك الفعلة النكراء.

الفصل الرابع

# القاهرة .. محطة الانطلاق الأولى

كان على أن أتجه للقاهرة بالقطار حتى وادى حلفا حيث ننضم إلى أسرتى فى رحلة نستقل فيها الباخرة حتى الشلال ومنها للقاهرة بالقطار.. و لدهشتى ونحن نتجه إلى مقصورتى فى قطار الإكسبريس بمحطة الخرطوم وبرفقتى بعض الزملاء من المودعين أن نشاهد على البعد رجلاً ينتصب واقفاً قبالة إحدى عربات النوم ".. أمعنا النظر فإذا به السيد محمد عثمان يس – الوكيل الدائم لوزارة الخارجية – الذى أتى باكراً ليكون فى وداعى! كان حدثاً مثيراً لم أكن أتوقعه.. وبلغ بى التأثر مداه حتى عجزت عن شكره على تلك اللفتة الكريمة وهو ممسك بيدى مودعاً. كان ذلك المشهد خاتمة رائعة لفترة زاهية ومكرمة أبى رؤسائى ألا أن يطوقونى بها حتى اللحظات الأخيرة. أسوق هذه الواقعة البسيطة لأدلل على دفء المناخ الذي كنا نعمل فيه، والروح التى كانت تسود العاملين بوزارة الخارجية على مختلف درجاتهم. ولا عجب فقد كان بينهم من هو فى قامة السيد محمد عثمان يس بثقافته وكياسته وفكره الخلاق. لقد ظل الرجل يعمل بإخلاص وجد على إرساء قواعد العمل الدبلوماسى وتطويره والارتقاء به، ويعود الفضل إليه فى ارتياد أساليب عمله ورسم مناهجه وتثبيت أركانه.

وظللت طلية رحلتى إلى حلفا أسيراً لذكريات أيامى بالخارجية استرجع تفاصيلها، وأجد متعة فى استدعاء ضروب التشجيع والرعاية التى تعهدنا بها قادتها حتى صرنا أسرة واحدى متجانسة متحابة. وظللت طيلة الرحلة النيلية إلى الشلال ومنها للقاهرة نهباً لمشاعر السعادة وأنا أتطلع للوصول إلى القاهرة كى أعيش فى ربوعها واتمتع بكل سحرها.. رياضها ومغانيها وأضرحتها وأسبلتها ومآذنها وقبابها ومزاراتها ومسارحها ومكتباتها وآثارها الضاربة

بجذورها فى أعماق التاريخ الذى يكاد المرء يتنسم فيه عبق الحضارة، والحداثة وتطورها وألقها.

ولم يكن يعكر صفو هذه السعادة التى استشعرها وأنا أستقل الباخرة سوى خواطر ظلت تطبق على، وأنا أتذكر أن تلك القرى النوبية، الوادعة الجاثمة على ضفاف النيل، سوف يبتلعها اليم خلال خلال أعوام قليلة جراء قيام السد العالى.. كنت الحظ ملامح الحزن الدفين تغطى الوجوه السمراء التى تصطف على ضفاف النيل وهى تلوح للباخرة وركابها القادمين من أعالى الوادى، لكأن تلك الأيدى تلوح مودعة حاضرها الذى سوف تطوى الأيام دقائقه وشيكاً!!! وكنت اتصور أشجار النخيل الباذخة والمنازل التى صفت بعناية وزينت واجهاتها بالتمائم والزخارف تبكى فى صمت.. وتقف مذعورة أمام عنفوان مياه الفيضان وعتوه.. كنت استرجع قول شوقى(يعد تحويره):

قف يتلك "البيوت" فى أليم غرقى

ممسك بعضها من الذعر بعضها.

## القاهرة علي أيام الستينات:

وصلت القاهرة فى صبيحة يوم من أيام سبتمبر ١٩٦٠ فانتابنى شعور بالراحة والسكينة.. وألقيت عدداً من زملائى يستقبلوننى على رصيف محطة "باب الحديد"، بعد رحلة ليلية طوينا خلالها ربوع الصعيد بكامله.

كان بينهم شاب ينم محياه عن انحداره من إحدى قبائل الشمال.. قبيلة الدناقلة العريقة على وجه التحديد.. سرعان ما علمت أنه صديق عبد الرحيم الذى طالما تردد اسمه فى كتب الجغرافيا الحديثة بوصفه نموذجاً لشباب "القولد" ومدخلاً للتعرف على سبل العيش فى شمال السودان. وكان يعمل سائقاً بالسفارة السودانية بالقاهرة.

كانت القاهرة محجاً لحركات التحرير ومزاراً.. كانت قاعدة الانتصار لكل حركات المقاومة وتدعم معاركها ضد قوى الاستعمار حتى قيل يومها أن "مصر"

كان وراء كل علم ارتفع فى ذلك الزمن على امتداد الأرض الأفريقية والعربية. كانت القاهرة تعج بعشرات الزعماء والقادة اللذين لجأوا للعيش بين ربوعها يؤدون دورهم بعيداً عن ملاحقة المحتل وجبروته.. وكان أولئك الثوار محل رعاية الثورة المصرية وحفاوتها.. وكانت القاهرة تضم عدداً كبيراً من السفارات الأجنبية مما جعلها محطة استماع هامة ومركز استشعار للأحداث الدولية القادمة لا غنى عنه،، فضلاً عن دورها فى صناعة الأحداث السياسية المعاصرة.. وكانت فرصة طيبة لنا ونحن نقتحم ذلك المحفل الدبلوماسى الكبير ونعمل على ربط علاقات بأفراده بكل ما يمثله ذلك من إضافة لمعلوماتنا ومعيناً لنا فى أداء مهامنا.

كذلك كانت القاهرة تشهد حركة ثراء ثقافى وفكرى وفنى ملحوظ حيث نشطت حركة التأليف والترجمة والنشر وصنوف الإبداع الأخرى.. تمت ترجمة المئات من روائع الفكر العالمى وعرضه بأسعار زهيدة كى تكون فى متناول البسطاء والأجراء، كما تم بعث أوابد الفكر والأدب العربى القديم وإعادة نشره فى طبعات شعبية لا يتجاوز سعرها بضعة قروش وكانت دور النشر والمطابع تطرح كتاباً كل ست ساعات فى اليوم.. فتأمل! وكانت قصور الثقافة تتناثر على امتداد مدن مصر وأريافها، كما كانت قوافل الثقافة تجوب الحارات والقرى والنجوع. وتحولت بعض أحياء القاهرة ومنتدياتها وباحات فنادقها الكبيرة والمقاهى إلى مراكز إشعاع للمطارحات الفكرية.. وكنا نغشى بعض تلك المرافق أحياناً.. حيث نسعد بالاستماع إلى عميد الأدب العربى طه حسين فى صومعته "راماتان" على طريق الهرم، ونغشى ندوة العقاد فى نزله "بشارع السلطان" بمصر الجديدة.. ونعرج على باحات الفنادق التى كانت ملتقى صفوة من الكتاب والشعراء والفنانين مثل باحات شبرد وسميراميس.. ومقاهى متاتبا وريش وإيزافيتش وعلى بابا وغيرها، أو تقصد بار اللواء بالتوفيقية كى نلتقى بأديب طالما عشقنا كتبه، ومضاء نزاله ونحن صببية.. "الدكاترة" زكى مبارك الذى أثرى المكتبة العربية بأربعين كتاباً مشفوعة بديوان شعر إلى جانب مكتبة تضم أكثر من أربعين ألف كتاب. أما النهضة المسرحية فقد كان أمرها عجباً.. كانت

مصر تشهد نهضة مسرحية خطيرة فإلى جانب المسرح القومى والحديث والعائم ومسرح الجيب والعرائس.. الخ كانت هناك مسارح الريحانى وإسماعيل يس والكسار التى ظلت قائمة بعد رحيل مؤسسيها.. وكانت مسارح الدولة من قومية ونوعية تقدم عروضاً شيقة للمسرحيات العالمية بمختلف مشاربها ومدارسها وتوجهاتها إلى جانب الإبداع المصرى الذى كان يرفع لواءه نعمان عاشور وسعد الدين وهبه ويوسف إدريس والفريد فرج وغيرهم. وكانت أصداء النغم الجميل تعطر أجواء القاهرة على أيامنا تلك، بفيض من الأغانى القديمة الشجية التى جاءت حصيلة لتزاوج عبقرى بين إبداع مؤلفيها وملحنيها.. فكان الكل ينعم بذلك المورد من الغناء والزجل.. كان يخيل للمرء أن تلك الفترة تمثل فصلاً شارداً من رياض العهود الزاهرة على أيام الرشيد والمأمون أو ليالى السحر فى الأندلس، أفلت ليستقر على أرض النيل يعطر شذاه سماوات القاهرة.

## السفارة بالقاهرة والمهام الكبيرة:

تعتبر سفارتنا بالقاهرة من أعرق سفاراتنا وأهمها على الإطلاق.. أنشئت على أيام الإنجليز بوصفها " وكالة " تحولت لسفارة بعد الاستقلال.. كانت أعمالها تغطى أعمال الجامعة العربية وترعى أمر عشرات السفارات الأجنبية المعتمدة بالسودان والمقيمة بالقاهرة.. وكان عليها أن تقوم على تنمية العلاقات الثنائية فى شتى المجالات وتطويرها.. إلى جانب رعاية مئات الألوف من السودانيين المقيمين بمصر والذين تعج بهم بعض أحيائها مثل عابدين وعين شمس.. حيث كان البعض يعمل منذ عهد الملك فى قصورها ومرافقها إلى جانب جماعات كبيرة تعمل ضمن حرس الحدود والرى المصرى والأرصاد الجوية، فضلاً عن الأعداد الهائلة من طالبى العلم وبعض رجال الأعمال.. وكان فى مظاهر الأمانة والجدية فى الأداء ما جعل تلك الجماعات محل حفاوة وتقدير بين أشقائنا المصريين وهو أمر جعل مهمة السفارة لاحقاً أكثر يسراً. كان هناك نفر من السودانيين اضطلعوا بدور بارز حتى أضحوا نفراً من رموز

المجتمع بينهم السيد على البربر – الذى ترشح يوماً للنيابة – والذى عرف برعايته للسودانيين الوافدين بالتعاون مع جدنا المرحوم محمد حسن خليل (الزعيم).. إلى جانب عدد من الرموز التى احتلت مكاناً اجتماعياً مرموقاً من بينهم السيد على البنا، والدرديرى أحمد إسماعيل – نائب الأمن للجامعة العربية – وتوفيق البكرى ود.بخيت أحمد عمر. وأحمد الطيب عابدون وعبد المنعم عبد الحى وجمال السنهورى وبعض رجال الأعمال المرموقين مثل مصطفى أبو العلا وميرغنى ومحمد محمود وأطرافهم بضاحية المعادى، ومحى الدين نصر وعثمان يعقوب وإخوانه والرشيد البربر والنجاتى رزوق ومحمد عثمان المصرى وغيرهم.. وكانت الأندية والروابط السودانية المتعددة تضطلع بدور فى تعزيز روابط التواصل بين أفراد الجالية السودانية، وتبدى تعاوناً مع السفارة فى تيسير مهامها فى ميادين الإعلام عن الوطن، والتعريف بمراحل تطوره، والتبشير بأهداف سياساته ومقاصدها على نحو قومى، ينأى فى أغلب الأحيان عن نوازع الهوى السياسى والحزبى. وكان من إشراقات تلك الأندية أن تحولت الدار السودانية بالإسكندرية إلى " قنصلية شعبية " تضطلع بعمل القنصلية على نحو تطوعى، برزت بينهم أسماء لامعة مثل بيرم ويوسف عباس الذى رأت الدولة تعيينه بعد تعاقب السنين قنصلاً فخرياً ثم قنصلاً معتمداً.

## السفارة في الستينات:

وكان من دواعى سعادتى أن وجدت نخبة مميزة من العاملين بالسفارة بإداراتها الدبلوماسية والقنصلية والثقافية والعسكرية والتجارية والإدارية، وكان يعزز من تلك السعادة أن وجدت نفسى – خلال فترة عملى والتى امتدت ست سنوات، أنعم برعاية اثنين من كبار سفرائنا المميزين المشهود لهم بالكفاءة والمهنية العالية، والرصيد الوطنى المشهود. كان السفير أحمد مختار والذى عملت إلى جانبه خلال فترة عملى طرازاً فريداً من الناس.. بثقافته الرفيعة وتواضعه الجم ولين عريكته، كان حريصاً على رعاية العاملين معه، معنياً بتدريبهم وتطوير قدراتهم.. يطرب لنجاحهم ويأسى لعثراتهم وإذا رأيت

تجاوز الحديث عن ذلك الرجل تاركاً ذلك لصفحات يجدها القارئ فى مكان آخر من هذه الذكريات إلا أننى أجد نفسى مدفوعاً لرواية موقفين للرجل.

كان السيد محمد عثمان يس الوكيل الدائم للخارجية حريصاً على الإحاطة بكل التقارير التى كانت ترد من السفارات خاصة تلك التى يكتبها الدبلوماسيين الناشئون، كما كان يبدى حرصاً على التعليق عليها – كلما ذلك ضرورياً – تصويباً و تقويماً.. أو ثناءاً وتشجيعاً.

.. أذكر أننى كنت بمكتبى بالسفارة حين اقتحم السيد السفير مكتبى على غير العادة – فقد جرت العادة على أن يستدعى السفير أعوانه إلى مكتبه كلما جدت مناسبة.. دفع السفير إلى بورقة فى نشوة ظاهرة فإذا بها رسالة من الوكيل موجهة عن طريقه يسوق التهنئة على أمر وفقنى الله لإنجازه ثم ظل السفير يعيد قراءة الخطاب مرات والدمع يكاد يفر من عينيه فرحاً.. تمثلت فى موقفه ذاك فخار الوالد بأبنه وهو يشهد دلالات تبنى عن إمارات للتوفيق! أى نوع من لناس كان ذلك الرعيل من الرجال!.

وبالرغم من أن الرجل كان رقيقاً هادئاً فى مظهره ومسلكه، فقد كان عاتياً كالإعصار إزاء أى حدث يحسب فيه مساساً بكرامته، أو تسفيهاً لرأيه! أذكر أن العلاقات كانت تمر بمرحلة دقيقة بين البلدين وأخذت بعض الدوائر السياسية والصحفية تنفخ فى "كير" لهيبها.. وكان أن عمد السفير إلى اتخاذ بعض المبادرات لتطويقها دون الرجوع للرئاسة.. فتلاحقت استفسارات الرئاسة وتساؤلاتها، فما كان منه إلا أن أحاطها علماً بأنه متعب ومحبط، وأنه يفضل أن يتمتع بعطلته القصيرة التى كان قد تم التصديق عليها قبل فترة خارج مصر، اعتباراً من غداة ذلك اليوم.. فجاءه رد الخارجية طالباً إليه تحديد المكان الذى ينوى قضاء العطلة فيه عملاً بالنظم المعمول بها، فبعث برد حاد مفاده أنه "سيأوى إلى جبل يعصمه من ملاحقة الخارجية واستفساراتها الفجة ".. حاولنا عبثاً إثناءه عن إرسالها دون طائل. ولدهشتنا جاء الرد " قل لا عاصم اليوم من أمر الله.. إينما تكونوا تدرككم ذراع الخارجية الطويل.. وراك وراك! تمتع بعطلتك متعك الله باسترداد الهدوء الذى نعرف.. ولا تنسى إخوانك من صالح الدعاء"! كانت

البرقية بتوقيع الوكيل.. وللقارئ أن يتصور العلاقة التى كانت تشد الرئاسة برجالها!.

علمنا أن السيد أحمد مختار كان عضواً فى لجنة المباحثات الخاصة بمياه النيل والتى أفضت إلى توقيع اتفاقية ١٩٥٩ بالقاهرة قبل عام من حضورنا.. حدثنا إخواننا بالسفارة أن الوكيل محمد عثمان يس وأحمد مختار كانت لهما تحفظات حول التعويضات الخاصة بأهالى المنطقة التى سوف تغمرها المياه، وظلا يلحان على ضرورة تعديلها فما كان من رئيس الوفد اللواء طلعت فريد إلا أن ذكرهما بأنه يستعمل حقه كرئيس للوفد، وإنه يطلب إليهما الكف عن الحديث حول المسألة، فما كان منه إلا أن سارع وزميله بالانسحاب من المباحثات وقيل أن بعضاً من أعضاء الجانب المصرى عبروا عن تقديرهم وتفهمهم للموقف.. حيث كانوا يعرفوا صدق منطلقهما.

وكان السفير الذى خلفه بالقاهرة والذى عملت معه لفترة قصيرة نسبياً هو الدكتور عثمان الحضرى الذى شهدت السفارة فى عهده توسيعاً ودعماً فى قواها البشرية والمادية.. يعود الفضل إليه فى شراء دار السفير الحالية بالمعادى جراء صفقة ناجحة بكل المقاييس كانت محل إعجاب زملائه السفراء. كان د. الحضرى وديعاً ودوداً.. يشعر كل فرد من العاملين معه بأنه المتصرف فى شئون السفارة وليس السفير وحده، وكان يحرص على التشاور مع العاملين معه فى كل ما ينوى القيام به مهما كان صغيراً.. وكثيراً ما كان يسارع إلى عقد اجتماعات مصغرة للعناصر المعنية للتشاور حول الأوضاع ومناهج العمل بل والتقارير التى ينوى إرسالها، أو لبيع بعض المتعلقات القديمة واستبدالها إلى غير ذلك من أمور صغيرة.. إعمالاً لنهجه الديمقراطى.. وكان د. الحضرى ماهراً فى قراءة الأحداث، نشيطاً فى الحصول عليها من مصادرها ومظانها عن طريق توظيف علاقاته القديمة بمصر، حيث كان يتلقى دراسته بالجامعة، إلى جانب حرصه على إقامة حفلات الكوكتيل والمآدب الرسمية للسفراء الأجانب وكبار المسئولين فى مرافق الدولة والدوائر الصحفية والفكرية. ولقد انتابنى أسف

عميق لأن الأيام لم تمهلنى كثيراً للعمل تحت رعايته والتمرس على يديه فى بعض أوجه العمل الدبلوماسى.

وكانت السفارة تضم نفراً غير قليل من زملائى ومعارفى مما جعل التفاهم بيننا كاملاً، عزز من ذلك علاقات اجتماعية ما انقطعت وشائجها.. وسرعان ما أنضم إلينا زميل أحدث نقله لسفارتنا ارتباكاً لى شخصياً.. هو الصديق أبو بكر عثمان محمد الخير.. فقد جاء يحمل نفس درجتى الدبلوماسية فى نفس السفارة بل يحمل إسماً مطابقاً لإسمى.. شخصاً وأباً وجداً! وكثيراً ما كنا نتعرف على أسرار بعضنا البعض عن طريق المراسلات الخاصة التى يفضها أحدنا عن طريق الخطأ، وحتى الملفات الموجهة من رؤسائنا أخذت تضل طريقها.. وأخيراً رؤى الأخذ بمبادرة تحقق التمييز بين شخصينا عن طريق إضفاء أحد الألقاب أو الأوصاف.. وكان أن اعتمد لون البشرة صفة لكلينا.. فكنت " الأحمر " وكان هو " الأزرق ". وقد عرضتنى هذه "الصفة" أو "اللقب" الذى اقترن باسمى لتفسيرات غير مقصودة خاصة بين الذين كانوا يعرفون طرفاً من توجهاتى اليسارية فى عهد الطلب! وأحياناً كاد هذا التفريق يوقعنى فى بعض المواقف الحرجة.. من ذلك أن الرئيس عبود جاء للقاهرة للمشاركة فى أعمال مؤتمر القمة العربى الأول والذى كرس لمعالجة محاولة إسرائيل تغيير مسار نهر الأردن. كان الجانب السودانى برئاسة الفريق عبود وعضوية عدد من أعضاء المجلس الأعلى والوزراء بالإضافة للسفير السودانى مجتمعاً فى جناح الرئيس بفندق هيلتون حيث كان يقيم الوفد.. ويبدو أن النقاش حول جدول الأعمال استوجب الرجوع إلى خلفية لأحد الموضوعات المطروحة والتى توجد دراسة لها فى ملفات السفارة، اتصل السفير بسكرتيرته بالسفارة طالباً إليها إخطار المستشار أبو بكر "الأحمر" لإرسال الملف على الفور مع موفد خاص.. ويبدو أن الاسم استوقف الفريق عبود حيث بادر بالاستفسار من السيد أحمد خير وزير الخارجية أن كان هذا المستشار هذا ينتمى لأسرة " الأحمر " المعروفة بالسودان.. نفى الوزير أحمد خير ذلك مضيفاً أن " الأحمر" صفة للرجل! ويبدو أن ذلك كان مدعاة لضيق الرئيس عبود فقال فى انفعال " هل بلغ بكم الاستهتار إلى تعيين

دبلوماسيين شيوعيين فى السفارات؟" فرد الوزير مداعباً " والله يا سيادة الرئيس أنا وجدت هؤلاء شغالين فى الخارجية ولست مسئولاً عن تعيينهم " عقب الرئيس عبود " أنا بكره الشيوعية!. والشيوعيين ديل لابد أن.... " وهنا قاطعه اللواء مقبول الأمين فى فزع " يا أحمد.. اشرح الأمر للرئيس قبل أن يوجه بفصل الرجل فيصير توجيه الرئيس قراراً جمهورياً يدفع ثمنه ذلك الشاب المسكين! ويبدو أن الفريق عبود أصاب نوعاً من هدوئه وسكينته بعد أنه تعرف على حقيقة الأمر! ولم أكن أعرف بالواقعة إلا أمسية ذلك اليوم حين حضرت للفندق ووجدت موكب الرئيس عبود يتأهب للانطلاق للوفاء ببعض التزامات برنامجه المعد.. ما أن لمحنى حتى ترجل من سيارته ووضع يده على كتفى فى رفق وقال بلهجة أبوية " معليش يا أبنى.. أعذرنى! كنت عاوز أخش فى ذنبك". وقفت حائراً مذهولاً لما سمعت حتى أمسك أحد مراقفى الرئيس عبود من صغار الضباط بيدى، وشرح لى حقيقة الأمر ووافانى بالواقعة التى أودرت. وكان أعضاء السفارة يمثلون نماذج متباينة من الناس ولكن جواً من المودة والتجانس كان يسودهم.. لم نعرف أمر " الاحتكاك " الذى طالما شهدته بعض السفارات الأخرى بين " الملحقيات " التى تتبع الوزارات المركزية التى بعثت بهم، وولاية السفير ورئاسته باعتباره حامل العلم ورمز السيادة.. وكان الكل يعمل على مد الجسور بين السفارة وجماعات السودانيين المقيمين التى كثيراً ما كانت تتسم بضروب التوتر والشكوى فى سفارات أخرى..

وإذا كان الانسجام والتجانس يضحى مفهوماً لدى العاملين باعتبارهم ينتمون إلى جيل واحد، فقد انسحب هذا على العاملين معنا من " الكبار " الذين ينتمون إلى جيل سابق.. وكان يعبر عن ذلك جيل الأعمام التجانى على وحسين عبود. كان العم التجانى على يشغل منصب الملحق الثقافى بالسفارة.. وعرف بإلمامه الواسع بتاريخ وزارة المعارف والقيادات التى تعاقبت على تسييرها ومراحل تطورها، كما عرف بإلمامه الواسع بأنساب الناس وعشائرهم وبطونهم.. وكنا ننظر إليه باحترام وتقدير.. ورغم أنه كان قد تخطى الستين إلا أنه كان يحمل قلباً ثائراً عامراً بالتمرد على السلطة القائمة يومها.. كان لا يخفى

عداءه لحكومة الفريق عبود.. وكان قادة النظام – وحلهم من أصدقائه وتلامذته – يعرفون ذلك ويقابلونه برضى وسماحة.

حدثنا زملاؤنا الذين سبقونا بالعمل فى السفارة أنه طالما دخل فى مساجلات ساخنة مع بعض رجال ذلك العهد – وكانوا كثيرى التردد على مصر – عقب توقيع اتفاقية مياه النيل بين البلدين والتى تجيز إغراق بعض مناطق النوبة، وعايرهم بأنهم لم يدرسوا الأمر بتعمق وأنهم ما تشاوروا مع أهل المنطقة بل أهملوا رأى قياداتهم، بل أهملوا قول كل ناصح أمين حتى من بين القريبين منهم.. وقيل أنه كان يعنى بذلك الدكتور العلامة التجانى الماحى الصديق الأثير للفريق عبود والذى عرف بحبه وهيامه بمصر وشعبها، حين تحدث إلى الرئيس عبود قائلاً "ماذا فعلت بوطنك وحضارته وتاريخه؟ هل هناك قائد يقوم على محو أعظم شاهد على حضارة شعبه؟ إن الشعوب تنفق الملايين تنقيباً فى جوف الأرض بحثاً عن شواهد تنبى عن عراقتها وحضارتها.. ألا تعلمون أن حكومتكم أقدمت طائعة على إغراق جزء هام من حضارة النوبة العريقة التى كانت سابقة للحضارة الفرعونية، وأن بعض ملوكها حكموا شمال الوادى منذ آلاف السنين قبل الميلاد؟".

كنت فى بعض الأوقات مسئولاً عن فتح الحقيبة الدبلوماسية الإسبوعية القادمة من الخرطوم ومعالجة محتوياتها وتوزيعها دفعاً لاختصاصات الإدارات المختلفة. وكانت الطائرة السودانية التى تصل القاهرة قبل منتصف النهار تتأخر أحياناً فأظل بانتظارها بالسفارة بعد انصراف العاملين.. ولم يكن يحرص على البقاء فى السفارة لساعات بانتظارها سوى شخصين وهما التجانى على وحسين عبود – الملحق بالسفارة والذى كان يتمتع بدماثة الخلق والطيبة – كانوا ينتظرون للإطلاع على صحف الخرطوم حيث لم تكن الإذاعة مسموعة بالقاهرة، ولم يكن التليفزيون السودانى قد ولد بعد.. وكان حرص كليهما ينبع من منطلقات متباينة.. أحدهما ينشد أخباراً مطمئنة والآخر يبحث عن مظان تبشر بقرب نهاية النظام.. كانا يقبلان على انتزاع الصحف من الحقيبة انتزاعاً.. وكثيراً ما كنت أتلصص وأنا أعالج المكاتبات – النظر إلى قسمات الوجهين

فأقرأ ما تحمل تلك الصحف.. حين يتكدر وجه أحدهما أعرف أن الأمور لا تسير على ما يشتهى، وحين تبدو دلائل الارتياح على وجه الآخر أدرك مغزى ذلك. رحم الله الرجلين كليهما.. فقد نعمنا بزمالتهما وافدنا منهما كثيراً..

## في رحاب العمل العربي المشترك:

كانت فترة عملى غنية بتجاربها.. أفدت منها كثيراً كان على أن أعاون السفير فى تصريف شئون الجامعة العربية فى كل مناشطها وأن أنوب عنه فى حضور الاجتماعات التى تعقد بمصر وخارجها.. كما كان علىَّ أن اضطلع بشئون الصحافة والإعلام إلى جانب المساهمة فى الناحية السياسية.. وقد اتاحت لى طبيعة العمل أن أتعرف إلى كثير من الدبلوماسيين العرب – الذين كانوا يمثلون بلادهم بصفة دورية فى تلك الاجتماعات وغيرهم من الوفود، كما فتحت إلى آفاقاً رحبة لربط علاقات مع رجال الصحافة والفكر خاصة شباب الصحفيين الذين ارتقى بعضهم فى سلم الصحافة ليتولى المسئولية فى تلك الصحف لاحقاً.. وكانت اجتماعات الجامعة بلجانها ومجالسها الوزارية والفنية تتواتر فى غير انقطاع. كانت وزارة الخارجية التزمت خلال تلك الفترة بسياسة التقشف والضغط على المنصرفات وأصدرت توجيهاً بأن تقوم السفارات بالخارج بتمثيل السودان فى المؤتمرات التى تنعقد فى دائرة تمثيلها كلما كان ذلك ممكناً. وهكذا استنفذت تلك الاجتماع جزءاً كبيراً من وقتى.. وكثيراً ما كنت أكلف بحضور اجتماعات تعنى بأمور فنية تخرج عن دائرة عملى مثل " اتحاد مهندسى الإذاعات العربية " "ووسائل مكافحة المدخرات ".. إلى غير ذلك. وكثيراً ما كنت أسافر لتمثيل بلادى فى اجتماعات المكاتب الدائمة لمقاطعة إسرائيل والتى تمتد كل دورة منها لثلاثة أسابيع متصلة.. وشاركت فى دوراتها التى انعقدت فى كل من القدس وبحمدون وعنابة ( بالشرق الجزائرى) ودمشق وشتورا.

## العناية أدركتني ونجوت من موت محقق:

بعض اجتماعات الجامعة واكبتها أحياناً ملابسات وظروف نشير إليها خطفاً.. منها أنه تقرر فى عام ٦١ عقد اجتماع طارئ لمجلس جامعة الدول العربية على مستوى وزراء الخارجية بالدار البيضاء.. وتقرر أن يقود وفدنا السفير أحمد مختار – والذى كان يقضى عطلته فى جزيرة " رودس" باليونان.. وبالفعل تم إخطار السفير بالشخوص إلى المغرب على أن أنضم إليه هناك. كانت السفارة تفتقر إلى رصيد من النقد الأجنبى. ولما كان الوصول إلى المغرب يحتم السفر عن طريق باريس فقد أخطرت سفارتنا هناك بمقابلتى بالمطار وتزويدى بمبلغ لمقابلة نفقات الوفد. ورؤى أن يقوم بالمهمة أخى د. متوكل أحمد أمين – المستشار الثقافى بباريس والتى تربطنى به صلة قربى ورحم. وكان الأخوة بالخطوط الجوية السودانية قاموا بإجراءات الحجز لى من القاهرة لباريس ومنها إلى الدار البيضاء على الطائرة الفرنسية "كارفيل". وتلقينا فى آخر لحظة – وعشية سفرنا اتصالاً من أمانة الجامعة ينهى إلينا تأجيل الاجتماع بناءاً على اقتراح من الأردن. وهكذا تخلف السيد جوزيف أبو خاطر – سفير لبنان – وبعض المستشارين – وكنت بينهم عن السفر فى آخر لحظة.

كانت جريدة الأخبار اليومية توضع عادة بالسيارة كل صباح اتصفحها وأنا فى طريقى من دارى للسفارة.. وما أن ألقيت نظرة على عناوينها حتى ألجمت المفاجأة لسانى!.. كان المانشيت الرئيسى ينبئ عن سقوط الطائرة الفرنسية ماركة كارفيل بذات الرقم وهى فى طريقها من باريس إلى الدار البيضاء ومصرع جميع ركابها البالغ عددهم مائة وأربعين شخصاً، وكان بينهم بعض الأصدقاء بينهم صديقنا صالح الشرقاوى – الدبلوماسى بالسفارة المغربية – والذى تمكن من العثور على مقعد فى الطائرة هو وأسرته بعد أن توفرت بعض الأماكن على الطائرة جراء تأجيل الاجتماع وسارع لحضور مناسبة أسرية.

.. كان القليل من زملائنا بالسفارة يعرف تفاصيل الرحلة، بينما كان الأخوة بالخطوط الجوية السودانية برئاسة الأخ ميرغنى عمر يلمون بدقائقها، وما كانوا يعلمون بالظروف التى أجلت سفرى، وما أن علم زملائى بالسفارة بجلية الأمر حتى فاض بهم مكتبى ومكتب الوزير المفوض السيد عباس الدابى وهم يهنئون بالسلامة ويوزعون الحلوى فى سعادة تنم عن مشاعر نبيلة وصادقة، فى الوقت الذى ألجمت فيه المفاجأة الأخ ميرغنى وأعوانه بمكتب الخطوط الجوية السودانية وهو يسمع صوتى بعد أن هزهم نبأ سقوط الطائرة فاجتمعوا فى جو من الحزن يتدبرون وسيلة لإبلاغ السفارة بما تناهى إليهم. ترك ذلك الحادث آثاراً كثيرة على قناعتى وهزنى كثيراً وأنا أردد " قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ".. ولعل هذا كان سبباً وراء اختيارى اسم " إيمان " لمولودتى الأولى التى ولدت بعد أسابيع.. ولم يكن ذلك لضعف فى إيمانى أو وهن، ولكن تعبيراً عن الاطمئنان لتصاريف القدر " قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ".. أصبحت كلما تذكرت الحدث وملابساته أردد:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم.. فالمخاوف كلهن أمان!

على أن ذلك ما حال دون تعرضنا لمواقف أخرى مثلت ضغطاً على أعصابنا فقد شاء القدر أن أكون شاهداً فى أيام قادمات وأنا اضطلع بمهامى المتعلقة بالجامعة العربية على بعض المواقف الحزينة.. شهدت مصرع السيد حابس المجالى بالأردن على مقربة منا. على مشارف مبنى البريد من عمان.

## اجتماع تحت حراسة الدبابات:

... وكان من بين الاجتماعات التى ظلت تجئ على خاطرى دهراً اجتماع لمجلس الجامعة عقد فى شتورا بلبنان فى أغسطس من عام ١٩٦٣ - عقب انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة – بدعوة من الحكومة الانفصالية الجديدة.. كانت " شتورا " حبيبة إلى نفسى أفئ إليها كلما واتتنى فرصة، وكنا نسعد بعقد اجتماعاتنا فيها مثل اجتماعات اللجنة الدائمة لإعلام وأجهزة

فلسطين وغيرها.. حيث السهل المنبسط والذى تمتد عبره مزارع الكروم التى تمتلكها الراقصة بديعة مصابنى.. وكنا نسعد بالأمسيات التى يعطر أجواءها السيد نجيب حنكش - الأديب والزجال اللطيف ( مدير الفندق ) فى أمسيات سامرة. ولكننا انكرناها هذه المرة ونحن نرى تلك البقعة الحالمة من أرض البقاع تتحول إلى ثكنة عسكرية تحيطها الدبابات والمدرعات من كل جانب ويقف أمام مداخلها جنود أشداء مدججون يدققون فى هوية كل قادم..

وكان الجو فى داخل الجلسات محموماً شهد سجالاً عنيفاً وقولاً غليظاً اضطلع به ممثلو ذلك العهد فى سوريا.. كان الوزيران خ ك (و) أ.م يقودان حمل ضارية ضد مصر ورئيسها بأسلوب ما عهدته أروقة الجامعة ومضابطها.. ساقوا المذمة إلى الرئيس المصرى وعلت أصواتهم تصفه " بالخائن " و" أبو جهل " و"أبو رغال " والذى لا يساوى كعباً من " كندرة " يدوسها مجرم عربيد.. وكانت تقدم خلال تلك المرافعات الصاخبة بعض المعروضات من المتفجرات وقطع السلاح التى زعموا أن مصر زودت بها بعض السوريين للإطاحة بالنظام الجديد. ولم يكن الوفد المصرى طعماً سائغاً لتلك الدعاوى، فجاء بوفد قوامه أكرم ديرى وجادو عز الدين وهما سوريان وحدويان كانا وزيرين خلال فترة الوحدة إلى جانب مراد غالب - السفير المصرى الذى بقى فى لبنان دهوراً كان خلالها يتمتع فى بوزن يؤهله للمشاركة فى توجيه الأحداث بها.. وذهبت محاولات كل الوفود لتصفية الخلاف وتهيئة مناخ صحى للتعايش أدراج الرياح.. كان وفدنا يقيم فى الطابق المجاور للوفد السورى فى الفندق، ولم نكن نخطئ النظرات الغاضبة والمتحفزة إن لم أقل " المتوعدة " التى يرمقنا بها رجال الأمن السورى القائمين على حماية وفدهم، كلما مررنا بهم ونحن فى طريقنا إلى قاعة الاجتماع باعتبارنا حلفاء لمصر.. وهو المكان الوحيد الذى كان مسموحاً لنا لارتياده مخافة أن تصيبنا طلق نارى طائش، أو مكروه فى ذلك الجو الذى يشبه ساحة المعارك. وفجأة حملت الأنباء فرار الملحق العسكرى المصرى ببيروت ( زغلول ) ولجوئه إلى سوريا وهو أمر جعل الوفد السورى يبشر بأنه

سيضع اعترافات الرجل فى وصف مخازى النظام وتآمره خلال الجلسات القادمة..

اعتبر العقلاء أن مثل هذه الأمور لن تزيد الأمر إلا تعقيداً، وأن الجلسات تسير نحو هاوية من شأنها أن تعصف بكل جهد خير يستهدف التضامن وتصفية الخلافات.. فأعلنت مصر انسحابها من الجلسات.. وعدنا إلى القاهرة لنفاجأ بعد فترة بأنباء عن اختطاف الملحق العسكرى المصرى الذى لجأ إلى المعسكر الآخر وإعادته إلى مصر فى ملابسات مثيرة!

## مفارقات في اجتماعات الجامعة:

ومثلما شهدت اجتماعات الجامعة جلسات عاصفة أحياناً شهدت بعض الوقائع التى تدعو للدهشة.. إذ أورد بعض المشاركين فى مؤتمرات القمة بالدار البيضاء – وكنا مرافقين للرئيسين الأزهرى والمحجوب والتى كانت جلساتها وقفاً على عدد محدود من المسئولين لم نكن بينهم – أن الرؤساء انفقوا وقتاً طويلاً فى التوصل إلى الاسم الصحيح للجزائر: أهو الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية أم الديمقراطية الشعبية حيث علت أسهم "واو العطف" فى بورصة الجدال، كما جرى نقاش آخر حول لقب أمير الكويت الذى ينبغى اعتماده فى المضابط أهو "الشيخ" أم "الأمير". وهل تكتب الاسم الرسمى فى المضابط "الكويت" أم "دولة الكويت"!.

كذلك شهدت مصرع السيد وصفى التل – رئيس وزراء الأردن بمصر.. كنا عائدين إلى فندق "شيراتون" – الذى خصص لإقامة الوفود فى اجتماعات مجلس الدفاع المشترك وكان وفدنا برئاسة اللواء خالد حسن عباس – وزير الدفاع يومها – وفخر الدين محمد نائب وزير الخارجية وشخصى بعد حضور جلسة تحدث خلالها السيد وصفى التل بموضوعية حديثاً مستفيضاً آسراً وبليغاً، شارحاً موقف بلاده، أعقبه غداء عمل أقامه السيد محمود رياض – الأمين العام للجامعة العربية بمقر الجامعة – وسارت السيارات المقلة للوفود فى موكب

تنطلق تباعاً إلى حيث نقيم. وما أن ترجلنا أمام الفندق حتى دوت طلقات الرصاص وتناثر الزجاج وعلا الصراخ ورأينا الرجل مسجى مضرجاً بدمائه فى باحة الفندق وكان مشهداً حزيناً ظللت استرجعه فى فزع وأسى لفترة طويلة.

بدا للجميع خلال بعض الفترات أن الأمة العربية انفرط عقدها حيث تباعدت الثقة بين النظم التى وصفت " بالتقدمية " والأخرى التى عرفت "بالرجعية" اعتصم كل بموقفه وسرعان ما تعطلت لغة الكلام والقول الرشيد، وتحولت وسائل الإعلام إلى سوق يحفل بالقول النابى والمذمة والتجريح.. وكاد اليأس يستبد بكل حادب ومشفق.. وكانت إسرائيل تعمل فى صمت على استغلال ذلك المناخ للمضى فى تنفيذ مخططاتها..

وفجأة وعلى غير انتظار جاءت دعوة الرئيس عبد الناصر الجهيرة للقفز فوق الخلافات والتلاقى فى قمة عربية يشهدها ملوك ورؤساء الدول العربية لدراسة الوضع العربى الخطير، والتصدى لمحاولة إسرائيل لتحويل مجرى نهر الأردن، بكل ما ينطوى عليه ذلك من مخاطر تمتد آثارها لمن يلحق من أجيال.. تلك القمة التى مثلت علاقة فارقة فى ساحة العمل العربى المشترك بتوقيتها ومقاصدها ونتائجها..

## القاهرة بيت للقمم:

انعقد أول مؤتمر قمة عربى فى العقود الأخيرة بالقاهرة بمشاركة جميع الملوك والرؤساء العرب، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة فى مسار العمل العربى وتضامن أطرافه.. تبعه بعد شهور مؤتمر ثان للقمة عقد بالإسكندرية فى نفس العام وتلاحقت اجتماعاتها فأثمرت نتائج طيبة ومرضية فى أغلب الأحيان.. وكان من حظى أن أشارك فى أعمال عدد منها حتى بعد أن تركت موقعى بسفارتنا بالقاهرة.. شاءت الظروف أن أكون ضمن وفد السودان برئاسة الفريق عبود لمؤتمرى القمة الأول والثانى، كما رافقت السيد سر الختم الخليفة – رئيس

وزراء حكومة أكتوبر – إلى أول مؤتمر لرؤساء الحكومات العربية – إلى جانب اختيارى ضمن أعضاء الوفد السودانى برئاسة الرئيس إسماعيل الأزهرى لمؤتمرى القمة فى كل من الدار البيضاء والرباط ثم قمة اللاءات الثلاثة بالخرطوم (٦٧) ثم قمتى الرباط (٦٩) والقاهرة (٧٧) برفقة الرئيس نميرى. وجاءت تلك المؤتمرات حافلة بالكثير مما يستحق الذكر والتنويه.. أرجو أن أعكف على سرد وقائعها فى فترة مواتية.. على أننى لخصت رؤيتى حول سياسات القمة ونتائجها ضمن حوارات موجزة مع بعض الصحف العربية كما انعقدت بالقاهرة فى نفس العام (١٩٦٤) مؤتمر للقمة الأفريقية وقمة أخرى لدول عدم الانحياز.

قلت سابقاً أن مشاركتى فى الاجتماعات والمؤتمرات واللقاءات التى تمت خلال عملى فى فضاءات العمل العربى المشترك والتى عقدت فى كثير من المواقع على امتداد الوطن العربى هيأت لى فرص طيبة لعقد صداقات مع عدد من الشباب العربى الذى كان يعمل فى ذلك الإطار حيث كنا تتلاقى خلال تلك الاجتماعات ونتبادل الرأى فى أروقتها خارج الجلسات. نمضى الوقت معاً كلما انعقد الاجتماع خارج دولة المقر.. وكانت بيننا مجموعة ألفت بينها الرؤية المتجانسة والمزاج السياسى الواحد فالتزمنا تفكيراً يقضى بعقد لقاءات راتبة أحياناً ومتقطعة فى بعض الأحيان. كنا حريصين بوجه خاص على عقد لقاء جماعى عقب كل خطاب يلقيه الزعيم عبد الناصر.. نعيد قراءته معاً نتأمله.. نتملى مقاصده.. نحلله، ونتبادل الرأى بشأنه. كما كنا نلتقى بصفة راتبة كل يوم أحد عقب صدور أهرام " الجمعة " لنجرى دراسة متعمقة للمقال الأسبوعى للكاتب الكبير النافذ محمد حسنين هيكل فى بابه الأشهر " بصراحة".. نتدارسه ونستشف دلالاته، ونستشرف مستقبل الأحداث من خلال سطوره.

وطالما التقينا – خارج ذلك الإطار – مطلع كل شهر نتابع معاً الحفل الشهرى لأم كلثوم وهى تشدو بصوتها الغرد الطروب.

.. ظل حبل الود بينى وتلك المجموعة ممدوداً إلى أن تفرقت مسالكنا وتباعدت ركائبنا. اضطلع بعضنا بمهام سامية فتولى قيادة العمل الصحفى أو

السياسى فى بلده، بينما ارتقى بعضنا فى مساره المهنى ليتولى مسئوليات دستورية رفيعة. ولكن وقد الأمل الذى ربط بيننا ما خبت جذوته، فطالما استرجعنا - كلما ضمنا لقاء - أيامنا تلك فى حنين ومتعة.. لقاءات طالما أعطتنى دفعاً معنوياً هائلاً تتضاءل دونه عوامل الإحباط والانكسار على نحو ما نشهد فى أيامنا هذه..

كنت قد ذكرت فى مقدمة هذه الذكريات أن " الصدفة " لعبت دوراً فى مسار حياتى العملية.. أذكر واقعة نقف شاهداً على ذلك خلال اجتماعات القمة العربية الثانية التى انعقدت بقصر " المنتزه " بالإسكندرية والذى كان مقراً صيفياً للملك فاروق، فأجرت الثورة بعض الإصلاحات على جوانبه واتخذت منه بيتاً لذلك الاجتماع التاريخى وفاءاً للمناسبة وإجلالاً له واطلقت عليه اسم فندق "فلسطين".

كنا ضيوفاً على العشاء على مائدة الرئيس جمال عبد الناصر والذى أقامه على شرف الملوك والرؤساء والوفود المشاركة.. جلس الملوك والرؤساء على مائدة رئيسية مطلة على حدائق القصر، وتناثرت الموائد التى تحلق حولها أعضاء الوفود والمسئولون المصريون ورجال الصحافة العربية والأجنبية.. أذكر أننى - والصديق كمال داوود (السفير لاحقاً) كنا نجلس إلى مائدة ضمت بعض أعضاء الوفود سرعان ما انضم إلينا الصحفى البريطانى الشهير " جون أوسمان " والذى طالما اشتكى من عدم تمكينه من زيارة السودان وقد اقترح على - تعويضاً عن الزيارة المرتقبة فى ذلك الطور - أن أهيئ له لقاءاً مع وزير الخارجية السودانى الأستاذ أحمد خير، باعتباره شخصية طريفة مثيرة للجدل.. وانصرفنا لمناقشة بعض الشئون الدولية والعربية وما يمكن أن يسفر عنه المؤتمر.. ولاحظت أن أحد الشبان الذين ضمتهم مائدتنا ظل صامتاً ولم ينطق بكلمة واحدة وبدا ساهماً ينم شروده عن أن أمراً يشغل باله. وقد عن لى أن أسأله عن الوفد الذى ينتمى إليه فأجاب باقتضاب " الطاهر الزبيرى ".. المرافق الخاص للرئيس أحمد بن بيللاً". أخذت أعبر عن إعجابنا وفخارنا بثورة المليون شهيد وشعب الجزائر، وعن بعض أصدقائى هناك الذين قدر لى أن أعمل معهم فى المجال

الدبلوماسى، أو التعرف إليهم خلال اجتماعنا فى " عنابة " بالشرق الجزائرى، فى إطار اجتماعات المكتب الرئيسى لمقاطعة إسرائيل، ثم زياراتنا للجزائر العاصمة ولقاؤنا بالرئيس بن بيللا فى شقته المتواضعة بفيلا جولى، وما لمسناه فيه من زهد وتواضع إلى غير ذلك. بدا لى أن الرجل ما كان يأبه لما كنت أقول ولما وقفت مودعاً تبادلنا البطاقات الشخصية كما جرت العادة.

مرت الأيام وكانت الجزائر محط أنظار العالم بتجربتها الثورية الفريدة فى مجالدة المستعمر وإجلائه، وكانت الاستعدادات تجرى لعقد المؤتمر الأسيوى الأفريقى على أرضها حيث أقيمت مدينة كاملة لتكون مقراً لجلسات المؤتمر وإقامة الوفود، كما بدأت الاجتماعات التحضيرية للمؤتمر وكنت عضواً فى وفدنا.. كان بن بيللا ملء السمع والبصر وتوقع الكثيرون أن يعزز انعقاد المؤتمر على أرض بلاده وبرئاسته – فيما كان متوقعاً – من مكانته بين زعماء العالم.. وفجأة تواترت الأنباء عن حدوث انقلاب فى الجزائر أطاح بالرئيس بن بيللا وحكومته فى ١٩ يونيو ٦٥.. قبل أسابيع فقط من انعقاد المؤتمر.. وأخذت تفاصيل الحركة الانقلابية تترى حيث علم أن قائد الانقلاب هو العقيد هوارى بومدين الذى شارك فى مؤتمر رؤساء الحكومات قبل أسابيع قليلة والذى رافقت خلاله السيدين سرالختم الخليفة رئيس الوزراء والمحجوب وزير الخارجية وبعض الوزراء.. ولفت نظرى على وجه الخصوص ما جاء فى تفاصيل الحركة الانقلابية من أن الذى اقتحم غرفة الرئيس بن بيللا واقتاده من مرقده إلى المعتقل لم يكن سوى العقيد الطاهر الزبيرى.

كانت الحكومة قد قررت إنشاء سفارة بتونس علي أن يقتطع كل ما يتعلق بإنشاء السفارة من مخصصات مالية وكوادر رؤى انتدابها من سفارة القاهرة.. عدنا للقاهرة حيث تفجرت ثورة أكتوبر فى السودان، وتوقفت جهودنا لفتح مكتب فى تونس يغطى كلاً من الجزائر والمغرب كما كانت توصى الحكومة التى أطاحت بها حكومة الثورة، وترددت إرهاصات حول تحويل السفارة إلى الجزائر عوضاً عن تونس، وتوطيداً للعلاقة التى كانت حكومة أكتوبر تعتزم تعزيزها مع ثورة الجزائر بزعامة أحمد بن بيللا وهو أمر قوبل بقلق وعتب عبر

عنه الأخوة التونسيون والمغاربة وكلاهما كان قد بادر بفتح سفارة فى بلادنا، خلافاً للجزائر التى لم يكن لها وجود سياسى. وكنت أقضى عطلتى بأم روابة حين ترامت إلى الأنباء حول اعتزام السودان تغيير خطته بشأن التمثيل فى شمال أفريقيا على النحو المقترح. وقد اعتزمت أو أوضح رأيى فى هذا الشأن للمسئولين بالحكومة لدى عودتى للخرطوم.. ولحسن الحظ تم استدعائى بواسطة مجلس ريفى أم روابة للسفر للخرطوم على عجل، ومقابلة الوزير الشفيع أحمد الشيخ بمبنى مجلس الوزراء، والذى انهى إلى اختيارى لمرافقة الوفد المسافر للقاهرة لحضور مؤتمر وزراء الحكومات العربية برئاسة سر الختم الخليفة وعضوية وزير الخارجية السيد المحجوب، وعدد من المسئولين من وزراء حكومة أكتوبر كالسيد عبد الكريم ميرغنى وأحمد سليمان وأزبونى منديرى – وزير النقل وزميلى فى الدراسة بالجامعة إلى جانب آخرين.. وأشهد أن الأخ أزبونى منديرى لعب دوراً مؤثراً فى تعزيز جهود حكومة أكتوبر فى تسيير البواخر بين الشلال ووادى حلفا، بعد أن مضت حكومة الفريق عبود إلى تطويق مواطنى حلفا، الذين صمموا على البقاء فى أطراف الصحراء فى ظروف قاسية توجهت يومها باعتزامها نزع القضيب الحديدى الذى يربط حلفا ببقية أجزاء الوطن.. آثار أزبونى الأمر بإلحاح حين دعاه الرئيس عبد الناصر إلى منزله فى لقاء خاص.. وقد لقى الأخ الوزير حفاوة بالغة وأحاطت به جماعات النوبيين المقيمين بالقاهرة وحملته على الأعناق تهتف له فى مشهد عاطفى طاغ، حالما بلغها نجاح الوزير فى مهمته باستئناف الملاحة بين البلدين الشقيقين بتوجيه مباشر من الرئيس عبد الناصر.

## أولئك أسلافى فجئني بمثلهم:

كانت أيامى بالقاهرة حافلة بالذكريات.. رأيت أن أسوق أحداها لما تنطوي عليه من نماذج للقيم الرفيعة التي كان يلتزمها قادة العمل الوطني في الماضي.

السيد محمد نور الدين سياسى ارتبط اسمه بقضية الوحدة بين السودان ومصر.. كان يدعو لها بإصرار وعناد.. كانت مدخلاً له لارتياد العمل الوطنى.. ضحى من أجلها فى تجرد وزهد.. ترك منصبه الكبير (وكيل البنك الأهلى المصرى بالسودان) ليتفرغ للعمل الوطنى.. داعياً لها ومبشراً بمقاصدها.. من الزعماء القلائل الذين ذاقوا مرارة الاعتقال.. قاد المظاهرات ضد الإنجليز وتعرض لطلقات الرصاص.. خاض الانتخابات مع حزبه الذى كان يرفع شعار الاتحاد مع مصر، وكان سعيداً حين اكتسح حزبه الانتخابات وتمت تسميته وزيراً فى أول حكومة وطنية.

.. ولما رأى حزبه أن يحتضن دعوة الاستقلال من داخل البرلمان – لاعتبارات ليس هذا مجال الوقوف عندها – آثر أن ينسلخ من الحزب مع نفر من رفاقه وأسسوا حزباً موالياً لمصر وداعياً للوحدة معها.. أنفق كل ما لديه وكل عون تلقاه من مواطنين ودعاة فكره فى سبيل إعلاء رايات الوحدة.. ولما دالت دولة الأحزاب بقيام انقلاب الفريق عبود عام ١٩٥٨ تقطعت به أسباب الحياة.. جاهد فى سبيل توفير قوت عياله.. وكان موته قصة تداولتها مجالس العاصمة وتوارثتها الأجيال.. خرج جنازه من منزل صغير فى أحد المساكن الشعبية وسار وراء نعشه بعض رفاقه الذين ظلوا على مبدئه وما بدلوا.

كانت رحلته للقاهرة تحكى أحد فصول هذه السيرة وتعكس مجاهداته فى سبيل الوصول إلى لقمة العيش دون تفريط فى كبرياء أو اعتداد.. هبط نور الدين القاهرة واستأجر سكناً متواضعاً فى أحد أحياء القاهرة.. كان قد قرر إنشاء شركة لتصدير اللحوم السودانية إلى مصر والسعودية.. وقام بدراسات جدوى كثيرة فهبط القاهرة يلتمس شريكاً من جماعات المستثمرين.. بل كانت مطامحه ترقى إلى إشراك القطاع العام المصرى فى ذلك المشروع إذا كان ذلك ممكناً أمضى شهوراً عساه يصل إلى مبتغاه دون جدوى.. فقد ظلت البيروقراطية تقيد خطاه.. وكان يمضى يومه بين المصالح والوزارات حتى ضاق بالأمر وضقنا.. وأشفقنا عليه.. فتساءلنا لماذا لا يلجأ لبعض الشخصيات

النافذة فى الدولة المصرية وكان يوماً طهراً لها وحليفاً فى تلك الدعوة لوحدة البلدين ولكنه أنكر علينا تقديم ذلك الرأى بل أبدى ضيقاً به..

وذكر بأنه رأى عامداً أن يتحاشى هذا الأمر حتى لا يظن خصومه أنه جاء يستجدى جزاء لدوره ومواقفه فى فضاء العمل الوحدوى.

مات الصاغ صلاح سالم وأعلن عن قيام مأتم له فى ميدان التحرير وفى مسجد عمر مكرم على وجه التحديد، وطلب إلينا مرافقته لتقديم العزاء فى رجل قدم الكثير من أجل قضية الوحدة مع السودان.. صحبناه – الصديق أحمد محمد نور- القنصل بالسفارة وشخصى. كان الميدان غاصاً بالناس.. واحتل السرادق حيزاً كبيراً فى قلب الميدان.. وضم كبار المسئولين.. من أعضاء مجلس قيادة الثورة يتقدمهم الرئيس جمال عبد الناصر والوزراء ورجال القوات المسلحة والدبلوماسيين ورموز المجتمع المصرى.. كان الجو بارداً.. وكان صوت المقرئ محمد رفعت يعطر أجواء المكان بأى الذكر فى أداء يخلب الألباب وما أن انتهى من قراء الجزء حتى رأينا العم نور الدين والذى كان يجلس بيننا فى الصفوف الخلفية، ينهض ويتقدم فىّ خطو سريع مخترقاً الصفوف إلى حيث كان يجلس الرئيس عبد الناصر.. كان طبيعياً أن تسارع فرق أمن الرئيس إلى الالتفاف حول الرجل وأن ترين حالة من الاضطراب فى السرادق.. التفت الرئيس عبد الناصر يستطلع الأمر.. وأمعن النظر فيما يجرى! وقف فجأة صائحاً " سى محمد.. سى محمد.. اتركوه.. " وجاء عبد الناصر وقبل الرجل وسأله معاتباً على مسمع منا جميعاً.. أنت هنا.. مش عيب ما تسألشى علينا؟ واقتاده حيث أجلسه إلى جانبه فى ود وحفاوة ويبدو أن العم " حدثه " بمشروعه وما يلاقيه من عنت نادى على السيد كمال الدين حسين وهمس فى أذنه.. وعلمنا من العم نور الدين أنه أوصاه بلقياه والتعرف على تفاصيل مشروعه وأن يقدم له كل عون ممكن.

.. شاءت الظروف أن يسافر السيد كمال الدين حسين فى رحلات داخلية..وخلال تلك الفترة جاءتنى برقية عاجلة عبر اللاسلكى من أبنه توفيق بالسودان يطلب إلى إبلاغ أبيه بأن أمه فى حالة صحية حرجة، وأن عليه أن يتوجه إلى السودان على الفور.. أبلغت الرجل بالأمر، وأوضحت أن هناك

طائرة متجهة للسودان عشية نفس اليوم، ولكنه ذكر أنه لا يستطيع السفر لانشغاله بأمور هامة تتعلق بالمهمة التى جاء من السودان لإنجازها.. ثم اتصل بى هاتفياً صبيحة اليوم التالى كى أزوره وأنا فى طريقى للسفارة.. فاجأنى الرجل بأنه لا يستطيع السفر لأنه ظل يقيم فى تلك الشقة خمسة أشهر دون أن يتمكن من سداد إيجارها فضلاً عن أنه لا يملك ثمن التذكرة إلى جانب بعض الأمور الأخرى!

وطلب إلى البحث عن مبلغ ألف جنيه مصرى ليوفى بالتزاماته. كنت سكرتيراً بالسفارة ولم يكن لدى أو لدى أى زميل بالسفارة مثل ذلك المبلغ. حيث كانت السفارة حينها محطاً للقادمين ومزاراً، وكنا ننفق كل ما لدينا فى القيام على المرضى من أهلنا الفقراء الذين يتقاطرون بالبواخر والطائرات دون انقطاع فضلاً عن التزاماتنا تجاه أصدقائنا القادمين. جلست حائراً فى مكتبى إلى أن جاء الفرج.

كان الأخ المرحوم الشريف حسين الهندى يقيم فى القاهرة طيلة فترة حكم الرئيس عبود وكانت له أعمال مع تجار الإبل.. وكان كثير التردد على السفارة.. وكان من عاداته أن يصعد إلى الطابق الثاني ويتجه إلى مكتبى ماراً بمكتب اللاسلكى ليتبادل الحديث مع صديقه وزميله القديم فى الحزب العم محمد شريف شاطر، ثم ينادى على عامل البوفية كى يوافيه "بقهوته" فى مكتبى. دخل الشريف ووجدنى حائراً حزيناً.. وكان الرجل لماحاً. لم أشر إليه فى بادئ الأمر بالموضوع سيما وأنا أعرف أنه والعم نور الدين كانا خصمين فى السياسة وعلى طرفى نقيض، منذ أن ترك نور الدين حزبهم، وأنهما لم يلتقيا طيلة بقاء نور الدين بالقاهرة، فضلاً عن أن نور الدين طلب إلى أن يظل الأمر سراً لا أفضى به لأحد. طلبت من الشريف حسين أن يسلفنى ألف جنيه لأمر غالب وقاهر.. نظر إلى طويلاً وفتح حقيبته، ولدهشتى كانت مليئة بأوراق البنكنوت الجديدة وقال لى.. أعرف أنك مستقيم فى حياتك.. لست عربيداً ولا سكيراً ولا مقامراً.. وأعرف تعففك. ولكن لابد أن هناك أمراً جليلاً دفعك إلى هذا الطلب.. وبعد إلحاح منه لم يكن بد من موافاته بجلية الأمر.. مد الرجل

بصره عبر النافذة إلى الأفق البعيد، فى أطراق حزين ثم التفت إلى قائلاً بصوت كسير وخفيض ولكن بلهجة حاسمة وهو يفتح حقيبته هذا ضعف المبلغ الذى طلبت.. خذه ولكن بشرطين.. أولهما أن لا يرد.. وثانيها أن لا يعرف نور الدين بمصدره ثم أقسم بجزم بأن تسرب الأمر يعنى أننى أتعمد الإساءة إليه، وأنه سيكون آخر عهد أو لقاء أو كلام بيننا.. ووصل الصديق القنصل أحمد نور بناءاً على استدعائى له بالتليفون ليكون جزءاً من هذا المشهد وشاهداً عليه. سافر العم نور الدين وهو لا يدرى مصدره وحسبها ديناً لابد من الوفاء به ولعله ذكر الرقم فى أوراقه ومتعلقاته قبل أن توافيه المنية.

أردت بهذه الواقعة أن أشير إلى العلاقة التى كانت تربط ذلك الجيل من رواد الحركة الوطنية.. إلى أى مدى تعمقت بينهم العلاقة وكيف عرفوا أدب الخلاف الذى يرعى القيم المتأصلة فى شعبنا النبيل ويتجافى أسباب التشفى.

.. هذه القصة ظلت سراً دفيناً لا يعرفه إلا أنا والأخ أحمد محمد نور.. ولعلى ذكرتها لزميلى د. مدثر عبد الرحيم الذى جاء يقدم برنامجاً إذاعياً عن رواد الحركة الوطنية الأوائل فأشار إليها دون ذكر للأسماء.. باعتبارها تمثل سراً دفيناً.. واستأذنت أخى صلاح نور الدين فى نشرها بعد انقضاء أكثر من أربعين عاماً فوافق على نشرها..

## الجامعة العربية بين قادح ومادح:

أمضيت جزءاً كبيراً من سنوات عملي بالقاهرة أعني بشئون الجامعة العربية في إطار واجباتي الدبلوماسية فيما قلت.. وقد خرجت بإنطباعات حول دور الجامعة في حراسة آمال الأمة العربية والإنتصار لمقاصدها.. ولست أجد تعبيراً عن تلك الإنطباعات يختلف عن ما وافيت به إحدى صحف الخليج يوماً حين ذكرت أنه من العسير أن تجري تقييماً لدور الجامعة العربية دون الإشارة إلي ظروف نشأتها والأهداف التي أريد لها أن تحققها والوسائط التي تحكم مسار عملها.

الرأي الشائع أن حصيلة إنجاز الجامعة في هذا المضمار تبدو متواضعة. صحيح أن الجامعة نشأت في أعقاب الحرب الكونية الثانية حيث كانت الجماهير العربية تعبر عن أشواقها لتحقيق الوحدة العربية ورأت في وجودها أداة من شأنها أن تبحر بها إلي مرافئ ذلك الأمل، خاصة وأنها جاءت (قومية) في تكوينها من حيث العضوية، ولكن علينا أن نذكر بالمثل أن هناك من لم يكن حفياً بمولد ذلك الكيان الجديد الذي رأى فيه شبهة وفاء لبادرة عبر عنها الأجنبي بوضوح وأداة لامتصاص ذلك الشعور الغلاب و(كبحه) في قوالب تحد من إنطلاقه، كذلك جاء ميثاق الجامعة ينبي عن مولد كيان أقرب للتحالف الهش بين دول مستقلة ذات سيادة يستهدف مجرد التعاون في بعض المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية عوضاً عن جهاز إتحادي يلبي مطامحها.



مع بعض السياسيين خلال زيارة السيد على الميرغنى للقاهرة في أوائل السينات السيد محمد عثمان الميرغني والسادة محمد نور الدين والشيخ على عبد الرحمن وده محي الدين صابر وأخرين.

والمتأمل لمثل هذه المنظمات لابد أن يدرك أن نجاحها رهين بإرادة الأطراف المكونة لها. الجامعة العربية إذن هي ظل للواقع العربي بكل طموحاته وتعقيداته وإرادة الدول المكونة لها.. نتأثر بذلك الواقع سلباً وإيجاباً. وتبعاً لذلك يرى الكثيرون أن مجرد وجودها فيه تذكير بقضية الوحدة والتلاحم والتضامن رغم المتغيرات والصراعات بين الأطراف المكونة لها، ورغم تداعي بعض المنظمات النظيرة والكيانات العربية الصغيرة، وهذا يبدو إيجابياً في حد ذاته ولعل ذلك يعود إلي أن الجامعة استطاعت أن تجعل من القضية الفلسطينية قضية محورية يلتف حولها الجميع دون الإقدام على التصرف فيها خارج إطارها. وبرأيي أنه حان الوقت الذي يتعين فيه على القائمين عليها وعلى المثقفين العرب ومراكز البحوث أن يتوفروا على دراسة التجربة.. يفيئون إلي الإيجابي فيه فيؤكدون عليه، وعلى السلبي فيتداركونه. ولابد من طرح سؤال مهم.. هل تفي الجامعة بتكوينها وميثاقها وأجهزتها وأنماط مناشطها وفلسفتها الحالية بمعالجة التبعات التي أفرزتها المتغيرات الدولية الهائلة؟ أم حان الوقت كي تبادر الجامعة إلي إستنباط الوسائل التي من شأنها تكريس قضية التوحيد عوضاً عن التعاون الهش في زمن صار فيه الاتحاد الراشد والتجمع الحميم في كيانات ضرورة حياة وبقاء وما عادت فصلاً من فصول الأدب السياسي، خاصة وأننا نواجه اليوم قضايا من نوع جديد مثل قضايا التقنية والغذاء والمياه والطاقة والمعلوماتية والعولمة إلي غير ذلك من أمور ينبغي أن تأتي في مقدمة الهم العربي.. وأمتنا العربية تملك مفاتيح قد تتيح لها وضعاً مميزاً في عالم اليوم لو أحسن استغلالها.. فالأمة العربية هي الإمتداد الجغرافي الأعظم على إمتداد قارتين.. والأمة العربية هي الإطلالة الأرحب على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهادي وتمثل أحد شرايين الإتصال الحيوية.. والأمة العربية هي الكثافة السكانية العظمى والقدرة الاقتصادية الأعلى والثروات الظاهرة والمطمورة الأبقى وفي مقدمتها النفط والذهب والحديد، فضلاً عن مصادر المياه المتعددة والأراضي الزراعية الشاسعة التي تمثل أملاً للحاضر والمستقبل، وهي رصيد حضاري هائل ومهبط للأديان السماوية. لقد قدر لي أن أشارك في عدد من

مؤتمرات القمة التي تباينت الأفكار بشأنها.. ومثل هذه المؤتمرات في نظري لا تعدو أن تكون ضرباً من ضروب الدبلوماسية الجماعية أو ديبلوماسية الأطراف المتعددة التي شهدها العالم خلال العقود الماضية، ولكنها تتميز بطبيعة تكوين أطرافها. وفي رأيي أنه يمكن أن تأتي لقاءات القمة بنتائج طيبة إذا أحسن الإعداد لها.. خاصة وأن الرؤساء والحكام – في عالمنا النامي – يمثلون مرجعية السلطة وقوتها ومكمن قرارها وهو أمر يجعل البت في الأمور على نحو قاطع أمراً ميسوراً.

لقد التأمت أول قمة عربية بالقاهرة في يناير ١٩٦٤م في ظروف تميزت بحدة الصراع بين الأنظمة العربية مما جعل الجامعة في حالة من العجز والشلل خاصة بعد أن أعلنت مصر والعراق مقاطعتها لأنشطة الجامعة ولعل ذلك الواقع العربي أغرى إسرائيل بإعلان سياستها الخاصة بتحويل مسار نهر الأردن.. الأمر الذي جعل الرئيس عبد الناصر يطلق الدعوة إلي عقد قمة عاجلة لتجاوز الخلاف والإحتشاد لمقابلة ذلك الخطر الوشيك.. وكان مردود اللقاء إيجابياً.. فقد أمكن تطويق الحرب المستعرة بين الأطراف العربية وإلتزام الخطط الكفيلة بمواجهة المخطط الإسرائيلي في هذا الشأن.. ولعل نجاح تلك القمة جعل الملوك والرؤساء يتفقون مبدئياً على انعقادها دورياً ويضعون إطاراً لمؤتمراتها في قمة الإسكندرية الثانية التي انعقدت بعد أشهر قليلة في نفس العام.. وتوالت إجتماعات القمة وكانت حصيلتها إيجابية في كثير من الأحيان خاصة في مجال تسوية النزاعات بموجب ميثاق التضامن العربي الذي استحدث في قمة الدار البيضاء عام ٦٥... وإذا كانت قمتا القاهرة والدار البيضاء قد أرستا قواعد ثابتة للتضامن العربي فإن قمة الخرطوم التي انعقدت عام ١٩٦٧م أفضت إلي نتائج مدهشة أشاعت بوارق الأمل في ليل الهزيمة الحالك وأبقت جذوة الصمود حية لدى شعوب الأمة العربية حيث تم إعتماد ما عرف يومها (باللاءات الثلاثة) والتي ربما كانت ضرورة في ذلك الحين، حفاظاً على وحدة الصف، كما تم إعتماد دعم سخي لدول المواجهة وعزز من إيجابياتها تصفية الخلاف المصري السعودي حول قضية اليمن على هامش تلك القمة..

وتواترت إيجابيات القمة ببروز الكيان الفلسطيني كياناً ممثلاً للشعب الفلسطيني ومعترفاً به إلي غير ذلك.

على أن هناك من كان ينعي على تجربة القمة افتقارها للتواتر المحكوم بقواعد تنظيمية ثابتة ضمن إطار تنظيمات الجامعة العربية نفسها على النسق المعمول به في بعض المنظمات مثل منظمة الوحدة الأفريقية التي يتخذ من مؤتمر الرؤساء السنوي جزءاً من الكيان التنظيمي للمنظمة. هناك من ينعى على (القمة) افتقارها للوسائل الخاصة بالمتابعة التي تكفل تنفيذ قراراتها وفي هذا يشيرون إلي قرارها بجعل اجتماعاتها حولية واجتماعات رؤساء الوزارات في مواقيت محددة.. كما يشيرون إلي اهتمام مؤتمر القمة في عمان بصفة خاصة والتي اعتمدت خطة تقدمت بها المنظمة العربية للثقافة والعلوم تستهدف القضاء على الأمية في الوطن العربي بحلول عام ١٩٩٥م لم تجد المتابعة. هذه أمور أسوقها من الذاكرة ولكن الشيء المؤكد أن الجميع يتفقون أن الإعداد الكافئ والمثالي لمؤتمرات القمة يبدو أمراً لا غنى عنه كما أن إدخال مؤسسة الرئاسة أو القمة داخل التنظيم المكون للجامعة والحرص على إنجازها حولياً أمر ينطوي على أهمية كبيرة إلى جانب إعطاء الأمين العام للجامعة صلاحيات أوسع تطلق يده وتمكنه من المبادرات. سمعنا أن هناك جهوداً تبذل لتعديل ميثاق الجامعة العربية واستنباط الوسائل التي تمكن من إنطلاقها إلي آفاق تتكافأ ومطامح الأمة العربية.. حسن هذا ولكنه يسير ببطء شديد ولا يبدو أنه يلقى اهتماماً كافياً من الدول العربية. إن الجامعة العربية – فيما لمست – غنية بالدراسات العلمية التي تتناول الواقع العربي في كل جوانبه.. كما أن وثائقها واضابيرها حافلة بالمقترحات والإستراتيجيات التي تطال مجالات الاقتصاد والثقافة والاجتماع والأمن والسياسة وغيرها من الأمور التي توافرت عليها المنظمات القومية المتخصصة المنضوية تحت لوائها. وهناك من يرى أن الجامعة تجاوزت حرفية الميثاق في مجال الدفاع حين عمدت إلي طرح فكرة مجلس الدفاع المشترك وتطوير فكرة دعوة مجلس الجامعة في حالة تعرض أحد أعضائها

لإعتداء خارجي بإعتبار أن الاعتداء على أية دولة عضو في الجامعة هو اعتداء على سائر أعضائها.

يكثر الجدل هذه الأيام حول جدوى الجامعة.. وحفلت كتابات المثقفين وأهل الرأي من المعنيين بالعمل العربي المشترك بأمر الجامعة وهم يرون مجموعات أخرى ظهرت بعدها إلي الوجود تحرز تقدماً طيباً ومساراً حثيثاً نحو غاياتها.. بعضهم ينادي بالغائها بعد إنحسار المدى الوحدوي وتساقط التكوينات العربية التي كانت ترفد الجامعة، بينما ينادي آخرون بضرورة الإسراع بمراجعة ميثاقها ومناهجها وأساليب العمل فيها.. بينما ينزع آخرون إلي أن الجامعة ينبغي أن تكون أداة لصنع الرخاء الذي يغذي الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية المتمثلة في خلق قاعدة اقتصادية متينة عوضاً عن الإنصراف إلي دهاليز العمل السياسي الذي لم يجد قتيلاً طيلة السنوات التي طغت فيها الناحية السياسية على مناشطها، خاصة بعد ظهور بعض الحقائق المفزعة عن التجارة البينية بين الدول العربية وعن رؤوس الأموال العربية الضائعة فيما تشير تقارير الجامعة نفسها.. ولعل في ما تقدم به الدكتور الجويلى ما يستحق النظر حين أقترح تجميع كل الطاقات العربية العلمية لوضع خريطة اقتصادية شاملة لكل الدول العربية بمختلف عناصرها من مواد خام وأجواء طبيعية ومناخ وإيد عاملة ورأسمال وفير وموقع موائم يكون مقدمة لوضع مشروعات عربية إنتاجية.. زراعية وصناعية وتجارية نودع وفقاً لدراسات الجدوى في ظل قانون استثماري واحد ومنطقة حرة. وهي أمور بادرت بعض المنظمات العربية تحت الإقليمية إلي الدعوة لها يوماً. ولعلها تضحي أكثر إلحاحاً اليوم في ظل واقع عربي يهدد بآثار وخيمة.. ولكن ترى هل من سبيل إلي ذلك دون توفر (الإرادة) لدى القيادات العربية؟؟؟ ترى هل تملك – جلها إن لم تقل كلها (الإرادة) نفسها.. نظرة عابرة على ما يجري اليوم يسوق إجابة لا يطالها الباطل!

الفصل الخامس

# ( فى أرض المليون شهيد )

## اختياري سفيراً بالجزائر

شاءت الأقدار أن تستقر الأوضاع فى الجزائر تحت قيادة بومدين – والذى لم تكن الأوساط الليبرالية والثورية حفية بمقدمة ولا راضية عن انقلابه والذى قابلته بالكثير من مشاعر الريبة والشك فى دوافعه باعتباره انقلاباً أطاح بنظام ثورى له إسهاماته المشهودة فى مناصرة حركات التحرير، ورفع لواء مبادئ العدالة والاشتراكية، ويقف عليه أحد أبطال حركات التحرر فى العالمين العربى والأفريقي.. وما كان فى مقدور البعض فى بلادنا مراجعة الحسابات وتأجيل الخطط لفتح السفارة جراء تغيير النظام السياسى.. إذ تولت الأحزاب الحكم وصار المحجوب رئيساً للوزراء الذى أبقى على قرار تحويل البعثة إلى الجزائر وترقيتها إلى مستوى السفارة، وتم ترشيحى كأول سفير للسودان.

كان أمر إنشاء السفارة أمراً عسيراً، وتصورت أن المهمة قد تستغرق معظم الفترة التى كنت سأقضيها هناك للانصراف إلى تدبير مقر للسفارة واختيار الموظفين، وإيجاد سكن لهم، وارتياد أساليب للعمل انطلق منها إلى التعرف على البلد الذى أنا قادم إليه ودراسة واقعه وارتياد الميادين التى تبدو مواتية للتعاون والوسائل التى ينبغى إتباعها إلى غير ذلك. صحيح أننى زرت الجزائر حين شاركت فى اجتماعات المقاطعة فى الشرق الجزائرى، وزرتها لاحقاً ضمن وفدنا لحضور المؤتمر التحضيرى للمؤتمر الأفريقي الأسيوي والذى كانت تجرى الخطوات لإعداده ولكنها كانت زيارات خاطفة استغرقت المهام التى سافرت من أجلها معظم وقتى.

وأذكر أننى تمنيت لو أعفيت من تلك المهمة وبقيت بالقاهرة التى عرفت وأفلحت فى إنشاء بنية أساسية كنت عنها راضياً لمجالات عملى وعلاقاتى..

وكنت قد أصبحت الرجل الثانى فى السفارة بعد أن تمت ترقيتى إلى درجة الوزير المفوض خلال ثورة أكتوبر ضمن آخرين.

## في الجزائر:

تلقيت أوراق اعتمادى الموقعة من الرئيس إسماعيل الأزهرى ومعها خطاب من المحجوب للرئيس بومدين.. وتوجهت فوراً إلى هناك لتقديمها. وكان برفقتى الزميل كمال داوود. كانت التجربة الأولى بالنسبة لى التى أتولى فيها منصب السفير.. ونصحنى الزملاء بالإعداد الجيد ليوم تقديم أوراق الاعتماد.. فاشتريت سترة سوداء داكنة إلى جانب لوازم أخرى تليق بالمناسبة.. كما اشتريت ربطة عنق فضية بثمن باهظ من مطار أورلى بباريس – وأنا فى طريقى للجزائر. أحسن مدير المراسم ومعاونوه استقبالى ووفادتى حيث تم إخطارى بأنه تقرر أن أقوم بتقديم أوراق اعتمادى للرئيس بومدين بعد يومين.. نزلت بفندق " سان جورج " ووضعت سيارة من الرئاسة تحت تصرفى، كان الموعد المضروب لتقديم أوراق اعتمادى يقترب ولم تتم موافاتى ببرنامج تقديم أوراق الاعتماد الذى يزود به السفراء عادة مكتوباً، بل لم تتم حتى إحاطتى شفوياً بتفاصيله أو موعده على وجه التحديد، حاولت الاتصال فتلقيت ما يطمأننى بأنه سأتلقاه وشيكاً..

## لا وقت للبروتوكول:

فى اليوم المحدد وقبل الموعد المضروب جاءنى مدير المراسم وأفضى إلينا – أنا ومرافقى – بالخطوات التى ينبغى إتباعها وكانت مبسطة وخالية من كثير من مظاهر والبهرجة والتعقيد التى ألفنا وشهدنا وتوقعنا.. وحين توسطت القاعة الكبرى فى قصر الشعب رأيت الرئيس بومدين بزى عمل عادى دون ربطة عنق، ووقف إلى يمينه السيد عبد العزيز بوتفليقه وزير الخارجية وإلى يساره الأمين العام لرئاسة الجمهورية ( السيد جلول ) والذى صار جاراً فى السكن فى مقبل الأيام ألقيت خطابى المكتوب الذى صيغ بالأسلوب الدبلوماسى

التقليدى ورد عليه الرئيس بخطاب خلا تقريباً من الأسلوب النمطى وكان بالخطاب الثورى أشبه.. ثم انتقلنا إلى ركن قصى من القاعة لنتحادث ونتعارف كما جرت العادة.. وقد تولد لدى شعور خلال تجربتى القصيرة والملابسات التى اعتورت تقديم أوراقى أنهم عازفون عن التعامل النمطى وأنهم يعملون على اتخاذ كل ما يثبت ثوريتهم وعزوفهم عن الشكليات.. أو هكذا توهمت.. وما أن جلسنا حتى بادرت الرئيس بومدين " قدمت إليك.. أيها الأخ الرئيس أوراق اعتمادى ممثلاً للدولة السودانية وشرفت بإلقاء خطابى الرسمى وقاءاً لمقتضيات عملى. وإذا أذن لى الأخ الرئيس سأبادر بالتحدث إليه بوصفه المناضل هوارى بومدين، لأفيده أننى أجئ إليه معبراً عن أشواق شعب شقيق يهفو لربط علائق راسخة ونافعة معكم.. وأننى لأطمع أن تنظروا إلى طيلة بقائى معكم كمناضل يؤمن بما تؤمنون، لا سفيراً أجنبياً فى بلد أجنبى.. بل أننى لأطمح فى رعاية مناضل كبير وأعوانه من المناضلين لمناضل صغير جاءكم ممثلاً لشعب وليس لنظام، يقترب من تجربتكم النضالية ومساركم على طريق التقدم ليوافى بها قومه ".. بدا الارتياح واضحاً على قسمات وجهه وتبسم وزيره بوتفليقه ثم انصرفت وزميلى كمال داوود بعد إنجاز تلك المهمة التى بدت بسيطة هينة وخالية من كل تعقيد. كان على أن أعمم خطاباً لكل السفارات أنقل إليها رسمياً أمر تقديمى لأوراق اعتمادى، وأحمل إلى زملائى السفراء تطلعى إلى تعاون وثيق معهم كما جرت العادة وأن أبدأ فى القيام بزيارات لكبار المسئولين والسفراء.. لم يكن لدى ما يعين على الاضطلاع بذلك حتى فوجئت بأخ كريم يطلب لقائى فور رجوعى إلى الفندق، فإذا به الأخ فيصل الصالح سفير دولة الكويت الذى رحب بى وذكر أنه يتصور ما ينتظرنى من أعباء، فى غياب مقومات سفارة لى وأنهى إلى أنه يضع إمكانات سفارته تحت تصرفى لتصريف الواجبات السريعة والملحة. تلقيت تلك اللفتة من رجل لم تربطنى به سابق معرفة وبالفعل أنجزنا ما كان ينتظرنا من مهام عاجلة مثل تعميم رسائل الأخطار بتقديم أوراق الاعتماد وتحديد المواعيد مع المسئولين إلى غير ذلك من مقر سفارة الكويت الشقيقة.

وقد رأينا أن تقتصر زيارتنا على عميد السلك الدبلوماسى هناك سفير فرنسا، وبعض السفراء العرب والأفارقة ووزير الخارجية والأمين العام لجبهة التحرير ومفتى الجزائر. كان على أن أذهب إلى الخرطوم وخوض معركة توفير الاعتمادات لإنشاء السفارة، وتسيير العمل بها وربما اختيار موظفين، لذلك فكرت أن انتهز فرصة بقائى فى الجزائر خلال الأيام البسيطة التى أقضيها فى إنجاز الزيارات، وإجراء مسح عسانى أجد مكاناً مناسباً اتخذه مقراً للسكن أو السفارة، ولكن سرعان ما اكتشفت أن هذا دونه فرط القتاد. مدينة الجزائر تقع بين البحر والجبل.. مكتظة بالمبانى الفاخرة التى أقامها الفرنسيون بأسلوب ما عاد فيه متسع للمزيد.. وعند خروج الاستعمار وهروب جالياته فى عشايا انتصار الثورة دخل الثوار الجزائريون فاستولوا على المساكن بأسلوب عفوى وغير منظم، فصارت ملكاً بل وحقاً مكتسباً لهم، مما مثل مشكلة معقدة للحكومة الوليدة، عرفت بمشكلة "الأملاك الشاغرة " والتى كونت لها وزارة خاصة، حين تعذر على الحكومة إخراج المناضلين واستيعابهم فى أماكن أخرى.. ولعل هذا ما فسر إقامة الرئيس من بيللا فى شقة فى فيللا جولى خلال زيارتنا له.. كنا وزميلى كمال داوود نتجول فى أرجاء مدينة الجزائر بالعربة التى خصصتها لنا الرئاسة.. مررنا يوماً بفيللا فاخرة أشار إلينا سائق السيارة الأخ "قائد" بأنها منزله الذى يقيم فيه.

## البحث عن مقر للسفارة:

كان لقائى بالمسيو غورس – سفير فرنسا بالجزائر وعميد السلك الدبلوماسى بها ودوداً ترك أثراً طيباً فى نفسى.. كان الرجل ملماً بدقائق السياسة العربية والشأن الجزائرى، وكان صديقاً لعدد من المفكرين والساسة العرب.. وكان الرجل لماحاً ذكياً إذ سرعان ما انتقل إلى الحديث عن بعض الأمور التى تصور أنها تمثل مصدراً لقلقى وأنا بصدد إنشاء سفارة جديدة. وأبدى تعاطفه معى، واستعداده لتقديم عون فى إيجاد مقر لسفارتنا الوليدة. وقد اكتفيت بزيارة عميد السلك الدبلوماسى وبعض السفراء العرب قبل أن

أعود إلى القاهرة تأهباً لعودتى للإقامة فى الجزائر بعد تلك الزيارة الاستطلاعية التى أعقبت تقديم أوراق اعتمادى والتعرف الخاطف على طبيعة المشاغل والقضايا الإدارية التى تنتظرنى.. وعدت للجزائر بعد نحو من شهرين مزوداً بما استطعت " انتزاعه " من اعتمادات من وزارة المالية بعون مقدر من زملائى وأصدقائى من العاملين فيها.. ثم وقع اختيارى على أحد الموظفين الأكفاء فى سفارتنا بالقاهرة هو السيد محمد سليمان عيسى والذى كان يعمل سكرتيراً للسفير بالقاهرة كى يساعد فى إنشاء السفارة والبقاء للعمل بها انتظاراً لموافاتى بأحد الدبلوماسيين – بعد أن تعذر انتداب الأخ كمال داوود للعمل معى لحاجة السفارة بالقاهرة لمواصلة دوره المقدر هناك إلى جانب أحد المعنيين بالشئون المالية ليكتمل الملاك الوظيفى الذى جرى اعتماده لنا.

اتخذت من أحد الفنادق مقراً مؤقتاً للسفارة واتخذت من فندق آخر مقراً لى وأسرتى وانطلقنا فى أداء مهمة إنشاء السفارة.. وأخيراً رأيت الانتقال إلى شقة صغيرة فى أحد الأحياء الراقية بالمدينة كان يشغلها دبلوماسى كويتى رفيع ريثما أعثر على سكن معقول.. وكانت الشقة صغيرة وضيقة تقع فى أعلى مبنى فى الجزائر تعرف "بعمارة البرج " وكان يقيم بها عدد من الدبلوماسيين الأجانب كما كانت تقيم فيها المناضلة الجزائرية المعروفة جميلة بوحريد..

.. سرعان ما جاء الفرج من زميلى سفير فرنسا الذى حمل إلى بشرى العثور على فيللا صغيرة يمتلكها أحد مواطنيه تصلح سكناً مؤقتاً أو مقراً للسفارة وتمادى فى كرمه حين أشار إلى بترك أمر مبلغ الكراء – إذا لاقت الفيللا قبولاً – حتى يقوم هو بالتفاوض نيابة عنى.. كانت صغيرة ولكنها جميلة فى منطقة راقية وهادئة تضم معظم السفارات ووقع اختيارى على اتخاذها مقراً للسفارة إيذاناً بانطلاق العمل.. فقمنا – بعد إتمام ما يقتضيه الأمر من إجراءات – بتأثيثها وانطلق علم السودان يرفرف فى فضاءات الجزائر بصفة دائمة لأول مرة فى التاريخ.

لم يكن بالجزائر جالية سودانية، بل لم يكن بها إلا سودانى واحد هو الأخ منصور خالد والذى كان يعمل بمكتب اليونسكو هناك وكان يعد العدة لمغادرة الجزائر بعد أن تم نقله إلى باريس.. وأشهد أنه أبدى استعداداً لتقديم كل عون خلال الفترة القصيرة التى قضاها هناك.. تعاقبت الشهور وأمكننا الفراغ من توفير كل ما نحتاجه لتأثيث السفارة وتوفرت لدينا ذخيرة متواضعة من المعلومات عن الجزائر استقينا بعضها من مظانها وبعضها من أحاديث السفراء الذين قمت بزيارتهم – جرياً وراء التقاليد الدبلوماسية.

كانت المجموعة العربية حية ومتماسكة وظل السفراء العرب على اتصال دائم يجتمعون ويتدارسون هموم العمل بل وهموم أمتهم وكان ذلك هو شأن السفراء الأفارقة القليلين فى ذلك الوقت، وكان مكتب الإعلام الثقافى " المصرى " بإشراف الإعلامى القدير أحمد مهابه يضطلع بنشاط بارز ومشهود فى عقد الندوات وتنظيم المحاضرات حول مختلف الموضوعات..

## أول وفد رسمي ( معارض للحكومة)!!:

كانت وسائل الإعلام تتحدث عن " ندوة الربيع " التى قرر الرئيس بومدين عقدها فى الجزائر بحضور ممثلين عن الأحزاب التقدمية وقادة الفكر الاشتراكى فى المنطقة لمناقشة الأوضاع.. لم توجه الدعوة للحكومات. وانكبت مرافق الدولة وأجهزتها تتأهب لذلك الحدث الذي صار محوراً لوسائل الإعلام، تتابع الاستعداد وتنقل برامج اللقاء، وتتسابق فى إيراد أسماء الوفود والشخصيات المشاركة في المؤتمر وكان ضمنها وفد السودان الذى ضم فى عضويته عدداً من إخواننا فى المعارضة مثل الشيخ على عبد الرحمن والشفيع أحمد الشيخ ( اللذين تخلفا عن الحضور لأسباب طارئة) والأخوة عبد الخالق محجوب ومحمد إبراهيم نقد وعز الدين على عامر وعمر مصطفى المكى ومحمد سليمان وأمين الشبلى وفاروق أبو عيسى وغيرهم من رجال الحزب الشيوعى والذى كان نشيطاً فى معارضة النظام فى السودان. بدا الأمر محيراً بالنسبة لى فى بادئ الأمر.. ذلك أن أول وفد يأتى لمقر سفارتى كان وفداً معارضاً للحكومة، ولكنه يضم عدداً

من قادة العمل الوطنى فى السودان فضلاً أن بينهم عدداً من أصدقائى وأن موقفهم السياسى لا ينبغى أن يحول دن المسارعة لاستقبالهم فى المطار وعونهم وتكريمهم وحضور طرف من جلسات الحوار متى وجهت لى دعوة.. ثم أخذت أقلب النظر فى الأمر باعتبارى ممثلاً للدولة هناك.. هذه الدولة التى يناهضها ويحاربها الأخوة القادمون.. وأن السفارة وتسخير مقدراتها لخدمتهم وتيسير مهمتهم ربما كان محل عتب أو تعذير من المسئولين.. وفى حقيقة الأمر لم يشغلنى أمر لقائهم أو استضافتهم فى دارى المتواضعة، فذلك أمر مسلم به يندرج تحت العلاقة الشخصية ولطالما سعينا ووقفنا على شخصيات كثيرة معارضة طيلة عملنا فى الخارجية بل أننا كنا نسارع لاستقبال المحجوب وغيره من رجال الأحزاب – (بصفة شخصية) خلال فترة حكم الرئيس عبود – فندعوهم إلى ديارنا ونصحبهم فى تجوالهم ونرتاد مجلس المحجوب العامر الذى كان ينظم فى بهو شبرد كلما هبط القاهرة والذى يرتاده كبار الكتاب والصحفيين والفنانين والسياسيين. وأخيراً أهتديت إلى حل بدد حيرتى. فالرجال القادمون هم ضيوف على الرئيس بومدين.. والرئيس بومدين هو رئيس الدولة التى أمثل فيها بلادى.. والمؤتمر يعقد برعايته ورئاسته ومقاطعته تعنى مقاطعة رئيس الدولة الذى قبل اعتمادى لديه.. واستعرضت الحفلات التى كان يقيمها الرؤساء على شرف رؤساء بلاد لم تكن بعض الدول لديها يمثلها سفراء أو يعترفون بها، ولكنهم كانوا يلبون دعوات الاستقبال والمآدب الرسمية التى يقيمها الرئيس على شرف الضيف الزائر وإن كانوا يتجاوزون دعوة الرئيس الضيف فيمتنعون عن الحضور.

وهكذا كنت وأعضاء السفارة فى مطار الجزائر فى استقبال إخواننا القادمين وكنا إلى جانبهم طيلة فترة إقامتهم.. رعاية وعوناً وشاركنا فى الجلسة الافتتاحية التى دعى لها السفراء – وكان الوفد وبعض الأخوة من الوفد المصرى – يمضون الوقت فى السفارة..

## الشيخ ( النافذ) يتوعدني:

جئت مبنى السفارة باكراً ذات صباح.. وإذا بى أسمع صياحاً وشجاراً مع الحراس على باب السفارة. واستطلعت الأمر فإذا بالحارس يخطرنى بأن شيخاً سودانياً يصر على لقائى دون إبطاء.. وقد رفض الإفصاح عن أسمه أو هويته أو الغرض من الزيارة.. فأمرتهم بالسماح له بالدخول.. وإذا برجل ربع القامة أسمر البشرة يلبس قفطاناً ويضع " مكاوية " على رأسه، يدخل علىّ ويبادرنى متسائلاً " هل هذه سفارة السودان أم سفارة روسيا.. أنظر إلى العلم الذى يرفرف على تلك السارية.. هل ترى فيه منجلاً أو مطرقة؟" ثم أخذ الرجل يرغى ويزيد ويتوعد وأنا أحاول تهدئته عسانا نتعرف إلى الموضوع ولكنه أبى وتمادى فى تهديده مقسماً أن يتجه رأساً من المطار إلى منزل الرئيس الأزهرى ليتقدم بشكوى ضدى ولم ينس إمعاناً فى التهديد الذى كثر بأنه عضو فى لجنة الحزب الحاكم. فشلت كل محاولاتى في تهدئته وابتلعت كل الإهانات التى كان يرسلها اعتباراً لسنه ومقامه.. وأخيراً نفذ صبرى وأحسست بجلال الكرسى الذى أجلس عليه فأمرت بإحضار الشرطى الذى يقف على باب السفارة لإلقاء القبض عليه وأمرت مساعدى على مسمع منه بالاتصال بالسلطات لاعتقاله وترحيله. وأخيراً ربما توجس الرجل من نتائج ذلـك، فهدأ وتحدث إلى منفرداً مبدياً اعتذاره ذاكراً أنه عز عليه أن يرى سفارة السودان وقد أضحت وكراً للشيوعيين.. وقد علمت بعد فترة أن الرجل عضو نشط فى حزب الرئيس الأزهرى وأنه قدم شكواه للرئيس أزهرى والذى أوضح له أنه لا يتدخل فى شئون وزرائه، ونصحه بمقابلة وزير الخارجية باعتباره المسئول ثم علمت أن المحجوب ألقى عليه درساً قاسياً أكد له ثقة الوزارة فى سفرائها وأنها لا تتلقى تقارير عن مسلكهم وأدائهم من " السوق العربى " وحذره من مغبة مثل ذلك المسلك.

انفض سامر ندوة الربيع وعاد الوفد إلى أرض الوطن مخلفاً وراءه صدى طيباً لمساهمته ومداخلاته الحية فيما شهدت وسائل الإعلام.. وأخذت تلوح

فى الأفق بوادر أزمة بين مصر وإسرائيل تصاعدت خلالها عبارات الوعيد والتهديد.. ولم يكن ذلك أمراً غير مألوف.. شعرت ببعض الإعياء ورأيت أن أتمتع بعطلتى المحلية التى سبق أن وافقت الخارجية عليها.. وسافرت وأسرتى إلى أسبانيا عسانا نصيب شيئاً من الراحة بعد ما لاقينا من مشقة وجهد فى إنشاء السفارة.. كانت الأيام العشرة التى أمضيناها هناك كافية لتزيل ذلك العناء.. مارسنا حياتنا بتلقائية وعفوية طالما افتقدناها زماناً.. وهناك التقيت يوماً برجل يسير ومعه زوجتة بزيها السودانى اللافت- وكان ذلك حدثاً نادراً فى تلك البقاع على أيامنا تلك.. وعلمت أنه جاء للمشاركة فى مؤتمر "للسبرانتو" ( اللغة العالمية ) وأن اسمه الدكتور عبد القادر مشعال وهو اسم طالما تردد فى مجال العمل الطلابى حين كانت الكلية تقود المظاهرات المناهضة للاستعمار ومشاريعه.. فنشأت بيننا علاقة نمت على مرور الأيام وزاد من متانتها علاقة قديمة ربطتنا بشقيق زوجته المهندس سيد عبد الله – رحمه الله –. انفضت العطلة القصيرة الهانئة الهادئة التى أمضينها فى أسبانيا وما أن اخذت مقعدى فى الطائرة الجزائرية وأنا فى طريق العودة حتى تناولت صحيفة "الشعب" فإذا بعنوان يتصدرها بالخط العريض "عبد الناصر يغلق شرم الشيخ ومضيق نيران فى وجه الملاحة الإسرائيلية".. أدركت بطبيعة الحال خطورة ما تنطوى عليه تلك الخطوة.. وعجبت للوهلة الأولى أن يتخذ الزعيم المصرى تلك الخطوة التى طالما عايره خصومه بسماح بمرور السفن الإسرائيلية عبر قناة السويس وتحدوه أن يغلق ميناء السويس فى وجه الملاحة الإسرائيلية، ولكنه طالما ساق الحجج – خلال المؤتمرات وفى خطاباته المفتوحة عن الأسباب التى تجعله لا يقدم على مثل تلك الخطوة الخطيرة. وتصورت ما ينتظرنا – نحن السفراء العرب- من أيام قاسية تتلاشى دونها، الراحة التى أصبنا خلال رحلتنا القصيرة وصرت أردد قول أبى الطيب وأنا فى طريقى إلى الجزائر.

وكان رجائى أن أعود ممتعاً. فبات رجائى أن "أعود" مسلماً!..

## نذر حرب ٦٧ تلوح في الأفق..

لاحت نذر الحرب وتطايرت التهديدات من شتى العواصم تشى عن ما كنا عليه مقبلين.. كانت الجزائر تحفل بكل مظاهر الابتهاج.. الناس يعانقون بعضهم بعضاً فى الشوارع والحارات. وقف الفصحاء يبشرون الناس بدنو الساعة التى طالما انتظرها العرب.. وكانت تذكى من حماستهم خطابات المشير عامر النارية التى تتحدث عن قوة العرب التى ما أغفلوا فيها حتى رباط الخيل.. وسرعان ما غطت صور عبد الناصر جدر المنازل وأعمدة الكهرباء، وكان السفراء العرب يستقبلون بالهتاف والتصفيق من قبل المواطنين.. وبدأت الحرب واهتزت الجزائر.. خرج الناس إلى الشوارع شاهرين أسلحتهم.. يطلقون أعيرتها أحياناً فى الهواء ابتهاجاً وتعبيراً عن التضامن.. وبدأت الإذاعة تبث الأناشيد وتنقل أنباء المعارك الجارية فى فخار وسعادة.. وتلقى السفراء إخطاراً بأن يكونوا عصر ذلك اليوم فى بوابة قصر الشعب.. ومن هناك شهد الناس موكباً قوامه عدد من السيارات تعلوها أعلام الدول العربية تشق طريقها عبر شوارع المدينة بين صيحات الترحيب والابتهاج.. وسار الموكب حتى تجاوز أطراف المدينة فابتلعته غابة كثيفة من غابات الصنوبر.. والكل فى دهشة إلى أن بلغ مكاناً اصطفت فيه فيالق الجند وكتائبها.. وفجأة ظهر الرئيس هوارى بومدين وكان بادى التأثر.. والقى خطاباً سياسياً مؤثراً على تلك الكتائب التى كانت متجهة إلى الجبهة حيث ذكرهم بماضيهم الحافل فى ساحات المعارك وإقبالهم على الفداء، وزغاريد الأمهات حين كان يأتيهن نبأ استشهاد أبنائهن.. وعبر عن مشاعر الغبطة التى يستشعرها كل جزائرى إزاءهم، باعتبارهم جزءاً من الجحافل التى يقوم عليها تحرير فلسطين.. وقال لهم ليكن شعاركم " النصر أو الاستشهاد ".. تعالت صيحات الجند وتعالت أصداء التهليل والتكبير.. وهز الغابة رجع أزيز الرصاص الذى أطلقه الجند فى الهواء.. وبكى بعض السفراء من فرط التأثر.. وقف الرئيس بومدين طويلاً يرقب جنوده وهم يمضون فى طابور حماسي رائع، تحف بها العربات المدرعة حتى تواروا عن الأنظار. كان مشهداً مؤثراً يجل عن الوصف والتبيان..

## الجزائرون يتعجلون النصر:

وفى اليوم التالى علا صراخ المذيعين وهم يسوقون البشرى بالانتصار الذى حققته جيوشنا على أرض المعركة وينقلون أبناء الطائرات التى تتساقط.. تجاوزنا الموقف ومضت الساعات ولم يسمعوا عن سقوط تل أبيب.. فاستبطأ بعضهم الأمر الذى كان يمثل فى نظرهم أمراً محتوماً.. وسرعان ما بادر أحد المذيعين يزف البشري. " سقطت تل أبيب وفر الصهاينة وأخذ أحفاد صلاح الدين يلاحقونهم من ركن إلى ركن ".. اندلعت المظاهرات والمواكب وملأت شوارع العاصمة فى حى القصبة وتوقفت حركة السيارات فى شارعى مراد والعربى فرحاً وابتهاجاً.. وانطلق الرصاص يصم الأذان.. وما هى إلا بضعة أيام حتى عرف الناس الحقيقة فلم يصدق البعض.. وعمت مشاعر الحسرة والانكسار أرجاء المدينة.. وانطلق المواطنون على غير هدى منكرين غير مصدقين.. وبكى الشيوخ على أسوار المساجد.. ووقف الكثيرون ساهمين تلفهم الحيرة ومظاهر الانكسار.. كانت سفارات بعض الدول الشقيقة هدفاً لاعتداء بعض المتطرفين فأغلقت أبوابها على دبلوماسيين لم يكونوا أقل حزناً.. ولم يكن يعصمهم من ذروة الغضب الجارف إلا العسكر وقفوا حراساً أمام سفارتهم وسكنهم.

ووجد الناس فى إعلان عبد الناصر بوجود شواهد على تدخل أمريكى فى الحرب ما خفف عنهم الأسى وسكن بعضهم إلى ذلك.. فتعالت صيحات تطالب بالثأر وقطع العلاقات مع أمريكا.. وطالب الجزائريون بفتح باب التطوع أمامهم للذهاب إلى الجبهة والثأر من إسرائيل ومن يدعمها.. كان السفراء العرب يتجمعون باستمرار فى دار أحد السفراء يناقشون ويحللون فى أجواء تغلب عليها مظاهر الأسى والقنوط حتى ظهر الرئيس عبد الناصر فى التليفزيون يعلن تحمله للمسئولية كاملة ويعلن عن تنحيه عن السلطة والقيادة.. نسى البعض وقار وضعه وموقعه.. وانطلق يعدو تجاه الشارع صارخاً مستنكراً فى عبارات هستيرية.. وحملت أنباء القاهرة وقفة الشعب المصرى التى تعلن

تمسكها بزعيمها ودعوتها له بالبقاء قائداً لهم حتى تتم إزالة آثار العدوان.. وكان فيما أبداه الرئيس ناصر وفى ما بدا من حيوية الشعب المصرى الصامد الصابر ما بعث الطمأنينة فى النفوس..

## قمة الخرطوم.. وموقف الجزائر:

تلقيت برقية " رمزية " عاجلة.. تحمل دعوة للرئيس بومدين للمشاركة في اجتماع قمة عربية عاجلة تعقد فى الخرطوم لدراسة الموقف.. لم يكن ميسوراً لقاء الرئيس بومدين الذى لف الغموض مكان تواجده.. واستدعيت إلى الخارجية على عجل للقاء الوزير.. دخلت على الأخ بوتفليقة فى مبنى وزارة الخارجية فى حى "الحيدرة" فى مساء يوم مطير فأنكرت ما شهدت.. كان حزيناً كسيف البال.. بادئ الإعياء.. خيل إلىّ أنه بذل جهداً خارقاً حتى تمكن من الوقوف لتحيتى ويبدو أنه ظل فى مكتبه منذ اندلاع الحرب وسرعان ما علمت أنه رافق الرئيس بومدين إلى القاهرة فى زيارة خاطفة غير معلنة.. وأسر إلى بما لم أكن أعرف عن تفاصيل الموقف وهو يغالب الدموع.. وامتد اللقاء نحواً من ساعة. وافيته بدعوة السودان. ولكنه لم يبد حماساً للفكرة.. بل قابلها بفتور واضح ذاكراً أن الجزائر لن تشارك فى اجتماعات قمة. وذكر بأنه سيعرض الأمر على الرئيس بومدين والقيادة للبت فى الأمر.. ورأيت أن أقول له مشجعاً بأن السيد محمد أحمد المحجوب – رئيس الوزراء – والذى كانت تربطه به علاقة صداقة ومودة.. حريص كل الحرص على مشاركة الجزائر وأنه يعول على التنسيق مع الجزائر ومعه على وجه الخصوص لوضع مبادرة تساعد على انتشال الأمة العربية من مهاوى الوضع القائم.. وأخيراً تم إبلاغى بأن الجزائر ستشارك فى قمة الخرطوم بوفد يقوده السيد بوتفليقة وأن الرئيس بومدين لن يتمكن من الحضور.

ذهبت إلى الخرطوم لأكون فى استقبال الوزراء فى القمة التى كان لقراراتها التاريخية ما أحيى الأمل فى النفوس وزودها بشئ من الطمأنينة.. كان فى القرارات التى اتخذت، ومظاهر التضامن التى تبدت وروح التضحية

والإيثار التى عبرت عنها مواقف بعض الدول ما كان يبشر بمرحلة جديدة وجادة على سبيل انتزاع ما سلب.

عدنا إلى الجزائر وصار السفراء العرب والمسلمون أشد تماسكاً.. كثرت لقاءاتهم وأحيت التطورات الأخيرة موات الأمل فى نفوسهم وانتهزوا فرصة قدوم شهر رمضان ليجعلوا منه مناسبة لتعميق التواصل ومناقشة الأحداث.

كان الشيخ محمد متولى الشعرواى ضمن أعضاء بعثة الأزهر هناك، وكانت تربطه صلات خاصة بسفارتى السعودية والسودان حيث كان صديقاً أثيراً لأحد أعضاء السفارة (المستشار مبارك الهادى).. وكان دائم التردد علينا فى السفارة وفى منازلنا وبدأ نجم الداعية الكبير يلمع فى سماء الجزائر حتى أكثر الرئيس بومدين من دعوته لإلقاء مواعظه على كتائب القوات المسلحة.. وذاع صيت الشيخ الجليل.. بعلمه الغزير وحضوره الطاغى وطلاوة حديثه.

انتهزنا فرصة قدوم رمضان واتفقنا على أن نقيم إفطاراً دورياً راتباً يستضيف خلاله أحدنا سائر السفراء العرب والمسلمين – وكان عدد السفارات الإسلامية الآسيوية والأفريقية كبيراً وقتها – إلى جانب بعض الوزراء الجزائريين.. على أن يتبع الإفطار درس يلقيه فضيلة الشيخ الشعراوى ويقوم بالترجمة سفير السعودية – الراحل رياض الخطيب – وكان حجة فى اللغات – وهكذا مضت تلك الأيام وزادت من تلاحمنا ومن توثيق عرى الإخاء بيننا وبين مجموعة الوزراء الجزائريين.. وكثيراً ما كنا نتبع ذلك بمناقشة الأوضاع التى تهم أقطارنا والعالم من حولنا.

## سفراء السودان وفيتنام وكوريا وكوبا مع أبناء الشهداء:

أذكر أن جرس الهاتف رن فى دارى ظهيرة أحد الأيام فإذا بالمتحدث ينهى إلى أن ضابطاً سيعرج على منزلى بعد وقت قصير.. دهشت وإذا بسيارة تقل ذلك الضابط تنطلق بى حتى تجاوزنا حدود المدينة وأنا فى حيرة من أمرى ولم تكن فى إجابات الرجل ما يشفى الغليل حول مقصدنا.. وفجأة انحرفت

السيارة وانطلقت بين الأدغال والغابات وقد تملكنى وجل وذعر.. حتى تناهت إلينا أصوات أطفال وصبايا عن بعد.. وإذ بنا فى قلب ساحة تغص ببعض الفتيان يتوسطهم عدد قليل من الرجال يفترشون سجاداً على الأرض.. أمعنت النظر فإذا بالرئيس هوارى بومدين جالساً وهو يلاطف بعض الأطفال وإلى يمينه جلس رئيس الأركان الطاهر الزبيرى الذي تعرفت إليه يوما خلال العشاء بالإسكندرية والذي قام باعتقال بن بيلا بنفسه وأودعه السجن خلال الانقلاب الذي قاده في يونيو. إلى جانب سفراء كوريا الشمالية وفيتنام وكوبا! عشت فترة من الزمن أتابع أهازيج الصغار وحنو الرئيس بومدين عليهم يتملكنى شعور بالعجب والدهشة مما أرى.. وزادت حيرتى بوجودى – دون زملائى السفراء الآخرين بين ذلك الجمع الذى لا أعرف له هدفاً. حتى وجدت من يهمس فى أذنى بأن ذلك الجمع يضم أبناء شهداء الثورة الجزائرية وكان الرئيس بومدين يحرص على لقائهم كل عام.. وما أن نقل التليفزيون ذلك الحفل حتى أشاع الحيرة والدهشة فى الوسط الدبلوماسى.. وإذا بالتليفون لا يكف عن الرنين وإذا ببعض أصدقائى من السفراء العرب يأتون لاهثين يريدون تعليلاً لما رأوا أو سمعوا، وما كان المسئول بأكثر علماً من سائليه.

تعاقبت الأيام والشهور ونحن نشهد كل يوم جديداً على سبيل معركة البناء التى انصرفت إليها القيادة الجزائرية بعزيمة وتصميم وتستوقفنا شواهد على عظمة ذلك الشعب الغنى بتراثه النضالى والمعتز بهويته العربية والإسلامية وسيشهد التاريخ للرئيس هوارى بومدين أنه كان رائداً فى مجال التعريب، وإرجاع الشعب الجزائرى إلى أصوله التى حاول الاستعمار الفرنسى طمسها بكل الوسائل.. واشتد أوار المعركة بينه وبين الذين شربوا من معين تلك الثقافة الفرنسية فأخذت أنباء المعركة الصامتة تتناقلها مجالس الدبلوماسيين ورأى البعض تحت الرماد وميض نار لاح أوارها.. وأخذت الجزائر تسجل انتصارات مشهودة على الصعيد الدبلوماسى حتى صارت رقماً فى المحافل والمنظمات الدولية وصوتاً قوياً مسموعاً.. وفجأة وفى هذا الجو المليء بالتفاؤل دعى السفراء إلى اجتماع عاجل بالخارجية حيث تم اقتيادهم تجاه منعطف "العفرون"

حيث فوجئوا بآثار معركة وحطام سيارات وهياكل سيارات محترقة وحطام مدرعات وآثار دماء لم تجف.. وعلمنا أن ما نشاهد لم يكن إلا الفصل الأخير لمعركة قادتها السلطة لحسم التمرد الذى قاده رئيس الأركان.. العقيد الطاهر الزبيرى والذى تمكن من الفرار! عقدت الدهشة ألسنتنا وكان حزنى على وجه الخصوص كبيراً لما كان يردده الرجل من عبارات مخلصة فى حق القيادة والثورة وتوجهاتها، ثم علمنا بأن أجهزة الدولة كانت تراقب الاتصالات التى كانت تقوم بها بعض العناصر وتابعت ذلك وانتظرت تحركهم وتم اختيار ذلك المنعطف للانقضاض عليهم.. كانت الأحداث فى الجزائر تسير فى تواتر مضطرد.. وكانت مظاهر الحيوية والتطور تغرى بالإسهاب فى الحديث ولكنى أوثر أن أقف فى المحطة الأخيرة "لأنهى بها حديثى عن فترة عملى فى ذلك البلد الحبيب إلى نفسى، حين رأت الدول الأفريقية أن تتخذ من الجزائر بيتاً لعقد القمة الأفريقية ٦٨.



أول حفل استقبال للسفارة لدى وصولي الجزائر
ويظهر في الصورة السيد عبد العزيز بوتفليقه وزير الخارجية (١٩٦٦).

## السودان في القمة الأفريقية بالجزائر:

ضم وفد السودان الذى كان يقوده الرئيس إسماعيل الأزهرى رئيس مجلس السيادة والسيد محمد أحمد المحجوب رئيس الوزراء نحواً من أربعين شخصاً يتقدمهم الشيخ على عبد الرحمن وزير الخارجية وإلى جانبه عدد كبير من الوزراء والسفراء والنواب وكبار الصحفيين إلى جانب بعض الساسة، وكان الشيخ على عبد الرحمن قد بكر بالحضور للمشاركة فى مؤتمر وزراء الخارجية الذى يسبق انعقاد القمة عادة توطئة لبحث جدول الأعمال وإعداد التوصيات والذى يمتد انعقاده لنحو من أسبوعين.

كانت تربطنى بالشيخ على عبد الرحمن علاقة أسرية قديمة.. كان صديقاً لوالدى كما عمل مناوباً لعمى فى مجال القضاء الشرعى وكنت أشعر بأننى التقى مع فضيلته فى كثير من أفكاره وكانت تشدنى على وجه الخصوص نظرته المتقدمة لأمر العلاقة مع مصر.. وكان طبيعياً أن يلمس ذلك التقدير خلال الأيام التى أمضاها معنا.. كان بادئ الإعجاب بحزب جبهة التحرير الجزائرية فأسر لى ذات يوم بأنه – وبصفته الشخصية فقط – يطلب إلى أن أهيئ له اجتماعاً مع قيادة ذلك الحزب حتى يطلع على مناهجه ونظم عمله عساه يفيد منها بتطوير حزب الشعب الديمقراطى الذى كان يرأسه. وبالفعل كان الأخ محمد شريف مساعديه كريماً فى قبول دعوة للعشاء أقمتها فى دارى مع نفر من أعوانه كانت قاصرة عليهم.. وجرى نقاش أثمر دعوة الشيخ على إلى مقر الحزب وأجراء حوار مع القيادات وانتقاء المراجع والكتيبات التى تتضمن ما كان يريد، وجاء وفد الرئيس ونزلوا جميعاً فى قصر الصنوبر الذى يبعد قليلاً من العاصمة.. وبدأ اجتماع الرؤساء والقادة.. وسارت الأمور هادئة واضطلع الوفد بمهامه على نحو جيد بالرغم وأن عضويته ضمت أنماطاً ومشارب مختلفة من الناس وأن رموز قيادته المتمثلة فى الرئيس إسماعيل الأزهرى ( وطنى اتحادى) ورئيس الوزراء المحجوب ( أمة ) وزير الخارجية الشيخ على ( شعب ديمقراطى) كانوا يبدون انسجاماً خلافاً لمظاهر النزاع بينهم فى السودان ولكن

هكذا كان السودانيون فى الخارج على تلك الأيام.. يقفون صفاً واحداً خارج الوطن.. ويحرصون على تقاليده وأعرافه.

## تلقيت أنباء الثورة.. وأنا في طريقي لمأتم أبي:

كنا مدعوين على الغداء ظهر يوم ٢٢ مايو ١٩٦٩ مع من زميلنا سفير مصر على شرف السيد حسن صبرى الخولى – الممثل الشخصى للرئيس عبد الناصر– والذى جاء على طائرة خاصة يحمل رسالة من الرئيس ناصر للرئيس بومدين.. فوجئت وأنا أتأهب لحضور المناسبة بالزميل مبارك الهادى – مستشار السفارة يومها والسفير لاحقاً – يقدم لى رسالة لاسلكية فإذا بها تحمل إلى نبأ وفاة والدى بالسودان.. غالبت مشاعر الحزن والألم وبدأت البحث عن طائرة تقلنى إلى السودان ( وكان ذلك أمراً صعباً حيث كانت الرحلات تتم كلها عن طريق أوروبا ).. ويبدو أن الزملاء والسيد الخولى على وجه الخصوص والذى كانت تربطنى به علاقة تقدير ومودة لاحظوا غيابى فأمر السفير بعض أعوانه للاتصال بى يستعجلون حضورى.. ولما علموا بالنبأ جاءوا معزين بعد الغداء ثم بادر السيد الخولى بدعوتى لمرافقته فى طائرته الخاصة التى كان مقرراً لها أن تعود بعد ساعات..

انخرطنا فى نقاش طيلة الرحلة عن الأوضاع فى بلادنا وقد شجعتنى صراحته التى طالما ألفت – على توجيه نقد لبعض توجهات السياسة المصرية فى السودان واحتضانها لجماعات ينقصها التصور الفكرى لما يمكن أن تكون عليه العلاقات فى زمن لم تعد العاطفة فيه عنصراً مؤثراً، وتمنيت لو قاموا بالدعوة إلى مؤتمر كبير يضم المثقفين وأهل الرأى والتجربة السياسية من المصريين والسودانيين لمناقشة أمر العلاقات اعتبارها قضية استراتيجية تهم البلدين تقوم على أساسها علاقة صحية.. وجدت الصديقين عبد الكريم ميرغنى والأخضر الإبراهيمى فى مطار القاهرة حيث أمضيت ساعات قليلة معهم وانطلقت إلى الخرطوم لاستقل القطار المتجه لأم روابه عصر يوم ٢٤ مايو ١٩٦٩ بعد أن تم إعداد حجز لى وأسرتى. ولما كان هناك عدد من أهلنا

ومعارفنا مسافرين على نفس القطار حيث تم استئجار عربة كاملة ( بالدرجة الرابعة ) لاستيعابهم للتعزية، رأيت أن أبقى بينهم تاركاً المكان المخصص لى فى القطار.. وفجأة والقطار يقف فى محطة " ربك " فى صبيحة اليوم الثانى سمعنا صياحاً، فإذا بالناس يتحلقون فى جماعات وإذا بنا نعلم أن انقلابا قاده العقيد جعفر نميرى أطاح بالسلطة وما أن ذكرت أن نميرى كان زميلاً لى حتى أحاطت الجماهير بى من كل جانب.. كان بيننا بعض الحزبيين والنقابيين وبعض الشباب التقدمى الذين قابلوا النبأ بحذر طغت عليه مظاهر السلبية، باعتباره تقويضاً للنظام الديمقراطى الذى كانوا بعض سدنته.. وما أن أعلن عن التشكيل الوزارى حتى أظهر الشباب التقدمى حماسة وتأييداً بل بادر بعضهم إلى تلاوة برقية باسم ركاب قطار الغرب يؤيدون فيها تلك الخطوة وقد تم إرسالها عبر بريد إحدى المحطات.. وعلمت أنها كانت ضمن البرقيات الأولى التى أذيعت تأييداً للثورة.

طغت الأحداث على ما عداها طيلة أيام المآتم بأم روابه التى عرف أهلها بعشقهم للعمل السياسى البصير المتفتح.. وكانت مظاهر الترحاب بادية على الغالبية منهم رغم أن بعضهم كان من قادة الأحزاب فى تلك المنطقة.. ولكن يبدو أن البعض رأى فيها انتصاراً لما تنبئوا به حين كتبوا رسالة شهيرة إلى زعامة الحزب الوطنى الاتحادى ينعون فيها مظاهر الشقاق التى أخذت تتسم بالعنف، وطغيان نفوذ الطائفة على الحزب.. ويعلنون فيها تجميد نشاطهم.. تلك البرقية التى وقعها قادة الحزب الاتحادى فى المنطقة ( وقيع الله – وعبد الرحمن سليمان – خليل محمد صالح – محمد الحسن شاع الدين – الطيب حسن عبد الرحمن – عمر عثمان – وغيرهم ).

عدت سريعاً إلى الجزائر للالتحاق بسفارتى حتى اضطلع بدورى فى تقديم الوضع الجديد وشرح مقاصده إلى غير ذلك للمسئولين هناك.. كانت الرسائل تأتينا عن طريق سفارتنا بباريس وكان الاتصال بين البعثتين متواصلا لا ينقطع.. كان د. منصور خالد يومها فى باريس وقد أفادنى أنه تلقى برقية من السيد محجوب عثمان – وزير الإرشاد يومها – يدعوه للخرطوم

تشاورنا حول ما يمكن أن ينطوى عليه ذلك الاستدعاء وعن ما يمكن أن يكون الموقف الذى يتخذه إذا جرى بتكليفه بوظيفة أو مهمة إلى غير ذلك.

## مهرجان الثقافة الأفريقي:

.. وسرعان ما بلغنا نبأ اختيار الصديق منصور وزيراً للشباب، وبعد أيام جاءنا منصور على رأس وفد تقله طائرة كاملة للمشاركة فى المهرجان الثقافى الأفريقى الأول فى الجزائر وهى مناسبة جرى الإعداد لها طويلاً.. وكان وفد السودان كبيراً ضم عدداً من الفنانين فى مقدمتهم محمد وردى ومحمد الأمين شرحبيل والفنانين التشكيليين عثمان وقيع الله والصلحى وشيرين والماحى والشعراء والكتاب وفرق الفنون الشعبية وجل ما يمكن أن يعكس التطور الفنى فى بلادنا بمختلف ضروبه. وعقد مؤتمر للثقافة فى إطار المهرجان وأختير السودان ممثلاً فى رئيس وفده الدكتور منصور خالد مقرراً للمؤتمر الذى تواصلت جلساته وحفل بالصراع بين المحافظين والليبراليين بين ممثلى الدول الأفريقية. كان الأخ منصور يتعجل الرجوع للوفاء بما كان ينتظره من مهام فى رسم استراتيجية العمل بالوزارة خلال ولايته.. وكان يستغرق فى العمل من مكتبى حيث تم الاتصال ببعض الذين رأى اختيارهم مساعدين للعمل معه وبينهم الأخ أحمد عبد الحليم الذى كان مبعوثاً بالمملكة المتحدة لتولى منصب الوكيل، والأخ محمد البشير مدير الرعاية الاجتماعية بمشروع الجزيرة وألمح إلى أنه فكر فى "اختطاف" المسئول الإدارى فى السفارة محمد سليمان والذى شده بكفاءته وسافر منصور بعد أن خلفته فى موقع المقرر العام للمؤتمر حيث شهد مساجلات حادة وساخنة اتهمنى خلالها رئيس المؤتمر ( الوزير السنغالى) بالتآمر مع الوفد الجزائرى وتعديل التوصيات وتوعد بتقديم شكوى لحكومتى.

تلقيت تكليفاً بأن أتوجه إلى تنزانيا لأكون ومعى الصديق الراحل محمد عمر بشير الذى كان قد عين سفيراً للخارجية ومشرفاً على الإدارة الأفريقية لتكون برفقة الوزير فى اجتماع هناك.. وقد سافرت إلى تنزانيا – عبر أدريس أبابا – عن طريق لندن حيث كان فى استقبالى الصديق سيد أحمد الجردلو

والذى كان يعمل سكرتيراً بسفارتنا هناك، وأنهى إلى أن السيد محمد عثمان يس غادر لتوه لندن أثر وفاة طفلته المريضة.. وكان الحردلو بادى العجب من رباطة جأش السيد محمد عثمان وثباته حين أنهى إليه المستشفى وفاة طفلته.. إذ توجه إلى البيانو الذى كان قابعاً فى صالون السفير جمال محمد أحمد حيث كان يقيم والذى كان بالسودان، بعد ترحمه على فلذة كبده.. أخذ يعزف لحناً حزيناً تبعه بالتغنى بصوت عال رائعة الجليل "عازه فى هواك" ثم تشعب بنا الحديث خلال الرحلة من مطار هيترو إلى مكان إقامتى بتلك الليلة عن مآثر السيد محمد عثمان وشخصيته المتفردة وعادت بنا الذكريات إلى سنوات مضت هبط حينها السيد الوكيل القاهرة ساعياً لنشر رائعته "باليه الشاعر" حين أقمت حفل عشاء على شرفه دعوت له نفراً من الأدباء المصريين والمفكرين بينهم الشاعر أحمد رامى الذى كان يشرف على مجلة الرسالة والذى اضطلع بنشر قصيدة الخورى التى أجرى السيد محمد عثمان مقارنة لها بإحدى سيمفونيات بيتهوفن. كان معنا الحردلو والذى كان طالباً بكلية الآداب – حيث كانت ليلة قاهرية عامرة بحوار فكرى رائع.. تساءل السيد محمد عثمان عن ذلك الفتى الذى شده بمداخلاته الحية فأمسك به وقال له "مكانك وزارة الخارجية أيها الشاب.. لن تقلت منا".. وكانت بداية لرحلة التحاق سيد أحمد بالخارجية ووجد فى السيد محمد عثمان نصيراً فى مغالبة كثير من العوائق حتى تم التحاقه بعد استيفاء الشروط. وقد أورد الأخ الحردلو تلك القصة فى مقال بجريدة الصحافة وهو فى معرض "حديث الذكريات".

توجهنا إلى دار السلام بعد انتهاء أعمال المؤتمر إلى نيروبى لنستقل أى طائرة متجهة للخرطوم.. كان الأخوة الذين حفل بهم مجتمعنا فى دار السفير محمد ميرغنى مبارك يفاضلون بين أنواع الطائرات التى كان علينا أن نستقلها والمسار الذى تتخذه فقلت مخاطباً زميلى السفير "لماذا لا تطلب إليهم إيجاد طائرة تتجه من كينيا للسودان عن طريق القاهرة".. فضحك الجميع. وشاءت الصدف أن نستقل طائرة سوفيتية إلى الخرطوم حالت الظروف الجوية دون هبوطها فى المطار فواصلت رحلتها إلى القاهرة. كان عبد الخالق محجوب منفياً

بالقاهرة وكان الصديق محمد عمر بشير حريصاً على لقائه.. حاولنا أن نتعرف إلى مكانه عن طريق الأخ أمين الشبلى - السفيرلدى الجامعة - أو الزميل على يس قبلى - القائم بالأعمال يومها - دون جدوى.. وأخيراً وبعون مقدر من الأخ أحمد حمروش أمكن تدبير لقاء معه بشقته في الجزيرة. كنت أعانى رهقاً شديداً جراء الظروف التى أحاطت بالرحلة وأخذ الإخوان محمد عمر وعبد الخالق ويبدو أن علاقة خاصة وحميمة كانت تشدهما، يواصلان النقاش الذى شهدت طرفاً منه قبل أن أستأذن عسانى أصيب بعضاً من الراحة فى إحدى الحجرات.

عدت للجزائر لأتلقى رسالة خاصة حملتها الحقيبة بتوقيع الوكيل الصديق عبد الله الحسن الخضر ينهى إلى أن رئيس الوزراء ووزير الخارجية السيد بابكر عوض الله كلفه بأن ينقل اقتراحاً يقضى بنقلى للقاهرة لأعمل معاوناً للسيد الدرديرى أحمد إسماعيل الذى رشح سفيراً بمصر والذى رهن موافقته بانتدابى للعمل معه.. بدا الأمر غريباً ومدهشاً.. وكنت أكاد ألمس دهشة الصديق عبد الله بن ثنايا السطور فبعثت برد جاء حاداً مذكراً بأن ما يطلبون قد يكون سابقة دبلوماسية قل نظيرها.. إذ كيف يعمل سفير قدم أوراق بلاده فى بلد ما رجلاً ثانياً فى سفارة ما.. مذكراً بأن ذاك أمر لا أرضاه لنفسى ولا أحسب أن المسئولين يرضونه لى.. وجاءتنى رسالة رقيقة تشرح ملابسات الأمر والدوافع التى أملته وكانت زاخرة بالمعانى التى لامست غرورى!

## في الأمم المتحدة.. وأزمة حول خطاب السودان:

تلقيت برقية للانضمام إلى أول وفد سودانى للثورة لحضور اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة بنيويورك إلى جانب السيد بابكر عوض الله وفاروق أبو عيسى - الوزير بمجلس الوزراء - والسفير فخر الدين وخليفه خوجلى - المسئول الحزبى البارز وأبو بكر عثمان الخير وعدد آخر من الزملاء.. تلقينا دعوة لعشاء عمل على مائدة السفير فخر الدين - ممثل السودان الدائم للأمم المتحدة - لنتدارس الخطوط البارزة للخطاب الذى

سيقوم السيد رئيس الوفد بإلقائه على الجمعية العامة.. وما أن جلسنا حتى أخرج السيد بابكر خطاباً معداً واخذ فى تلاوته باعتباره الخطاب المقترح.. كان الخطاب قاسياً حاد العبارة يحفل بالهجوم على الولايات المتحدة والقوى الاستعمارية ويتوعدها بضربات قاسية تعيدها إلى رشدها وتتهم النظم الرأسمالية بأنها وراء كل الشرور التى ترين على الوضع الدولى إلى غير ذلك.. أخذ الأخوة الدبلوماسيون يتبادلون النظرات فى دهشة، فتساءلت بكل احترام عن ما إذا كان الذى نسمعه هو الخطاب المقترح، وعما إذا مطلوباً منا أن نعبر عن رأينا، وأن نقترح بعض التعديلات على صياغته ومضمونه، فقاطعنى سيادته بحده "تعديلات"؟ تعديلات إيه، يجب أن تعرف أن ما سمعت لا يمثل خطاباً مقترحاً ولكنه الخطاب الذى تقرر إلقاؤه والذى يمثل نبض الثورة.. هذه ثورة تعبر عن فكر أهل السودان ولا مجال فيها لترف الموظفين".

ابتلعت ما بدا أنه إهانة وأومأ لى الصديق فخر الدين – بهدوئه ووقاره وحكمته – أن ألتزم الهدوء والصمت فى هذا الطور. ثم جرى نقاش ومداخلات من الأخوة فخر الدين وعلى أبو سن وغيرهم وانتهوا إلى تشكيل لجنة ثلاثية من الحاضرين– لدراسة الخطاب وقبل السيد رئيس الوزراء تلطيف بعض عباراته والذى جاء أقل حده وقسوة! وقد حاول صديقنا الوزير فاروق أبو عيسى أن يحملنا على قبول بعض ما ورد فيه بأسلوب مهذب ودود.. قبلنا وقلنا يومها " لعل له عذراً وأنت تلوم! ".. لابد أن الخطاب وضعته جهة قوية وخفية.. لا ندركها!.

## في قمة الرباط العربية:

كنت بنيويورك حين تلقيت برقية عاجلة من رئاسة الوزارة تحمل توجيهات بالتوجه إلى الرباط للانضمام للوفد الرئاسى لبلادى والمشارك فى اجتماعات مؤتمر القمة العربى التى التأمت بعد شهور قليلة من اندلاع ثورة مايو، وكانت فرصة للقيادة الجديدة للتعرف على الملوك والرؤساء العرب وطرح فكرها وتوجهاتها ورؤاها للقضايا العربية الماثلة ولعلها كانت فرصة لمحو

الأثر السلبى الذى تركته مشاركة السودان فى دورة المؤتمر الإسلامى بالمغرب التى سبقتها بشهور قليلة والتى اتخذت فيها الثورة الوليدة موقفاً حاداً تجاه ما وصفته بالنظم الرجعية فى العالم الإسلامى.. وبينهم الملوك الذين " إذا دخلوا قرية أفسدوها ". وكانت ثورة مايو يومها تستشعر عنفواناً وعتواً تقف على قيادتها بعض عناصر اليسار المتطرف.. ويبدو أن بعض تلك النظم رأى فى انعقاد القمة العربية منبراً لتصفية حساباتها مع الثورة الجامحة فى السودان. ذلك أننى توجهت من نيويورك إلى الرباط عبر باريس حيث كان علىّ أن أبقى بضع ساعات كى أدرك الطائرة المتجهة إلى الرباط.. ولاحظت أن السلطات الفرنسية كانت تتخذ إجراءات أمنية صارمة وتدقيق فى هوية كل المسافرين إلى المغرب والذين تم احتجازهم فى مقصورة واحدة فسيحة فى مطار " أورليه ".

لمحت على البعد صديقى القديم كامل حسن محمود والذى طال عهدى به فقد غادر السودان منذ فترة ضارباً فى مسالك العمل الصحفى بالخارج – علمت خلال حديثنا أنه فى طريقه للرباط لحضور القمة العربية فى " مهمة إنسانية " دافعها الوفاء لصديق صحفى اختفى فى ظروف غامضة، وأنه مرافق لزوجته إلى الرباط عساها تلتمس عوناً من العاهل المغربى فى معرفة مصير زوجها أثر شائعات انطلقت حول مصيره.. ففميا أشارت بعض الأنباء إلى أنه مازال معتقلاً فى غياهب السجن فى ظروف قاسية ترددت أنباء أخرى حول تصفيته فى ظروف غامضة – ورغم إدراكى للدوافع الخيرة التى جعلت الأخ كامل يتخذ ذلك الموقف إلا أننى كنت أخشى أن تفجير مثل هذه القضية فى الصحافة المغربية وعلى هامش المؤتمر الذى يضم عدداً من الكارهين لثورة السودان ربما كان أمراً ينطوى على آثار سالبة لبلادنا.. وبالفعل سألت الأخ كامل أن كان من الخير معالجة الأمر فى إطار سودانى عوضاً عن نشره على الملأ فى مثل تلك الظروف.. وبالرغم من شعورى بأن الأخ كامل لم يكن حفياً بالنظام الجديد أو مؤيداً له إلا أنه وافقنى على ما ذهبت إليه مذكراً بأن أسرة الصحفى محمد مكى بذلت جهداً خارقاً مع المسئولين لإحاطتهم بحقيقة الأمر

دون طائل.. وأن ما يهم أسرته هو معرفة مصيره وملابسات اختفائه. ولكن أمكن تطويق الأمر بحكمة الأخ فاروق حمد الله




مع الوزير فاروق أبو عيسى للأمم المتحدة(سبتمبر ١٩٦٩)
ويظهر بالخلف السفير عمر الشيخ وقنديل إبراهيم المستشار الاقتصادي.

## إلي طرابلس علي طائرة عبد الناصر:

انتهت أعمال القمة في الرباط وقرر الوفد التوجه إلي ليبيا والتي فجرت طلائع ضباطها ثورة الفاتح من سبتمبر قبل نحو من ثلاثة أشهر لعقد لقاء بين الرؤساء عبد الناصر والقذافي ونميري.. إذ بدا واضحاً للمراقبين أن الثورتين الوليدتين (مايو والفاتح من سبتمبر) كانتا نبتاً للفكر القومي الذي سعى عبد الناصر إلي التبشير به والدعوة إليه.. وأن ثورة يوليو كانت مصدر إلهام لهما في كثير من الجوانب، حيث كانت تلتقي معهما حول شعارات تحرير الوطن

العربي من النفوذ الاستعماري، وتحقيق الديمقراطية بجناحيها السياسي والاقتصادي عن طريق قيام نظام اشتراكي ينهض بالمواطن اجتماعياً ويحقق أمانيه في العزة والكفاية والعدل ثم تحقيق الوحدة.

وإذا كانت بعض العناصر المؤثرة في قيادة الثورة في بلادنا بدت غير حفية بمسألة "الوحدة"، والتعبير عن ذلك بصوت خافت غير جهير، فإن مصر بدورها كانت تبدي بعض التحفظ الصامت أحياناً إزاء بعض الخطوات الجامحة التي اعتمدتها مايو في بعض مراحلها الباكرة مثل الإعتراف العجول بألمانيا الشرقية، والموقف المتطرف الذي إلتزمه السودان في قمة الرباط الإسلامية في خريف ١٩٦٩م والذي بعث مواجع الخلاف من مراقدها، حيث شن وفدنا هجوماً كاسحاً على الرجعية وفي وقت كانت مصر تعني بحماية النواة التي حرص الكثيرون على إرساء دعائمها لخلق التضامن العربي وتعزيز أركانه، وإلتزام "وحدة الصف" شعاراً للمرحلة عوضاً عن "وحدة الهدف" سيما وأن دولاً مثل السعودية ودول الخليج كانت على مقدار الأمل حيث سارعت إلي دعم مصر في أريحية واضحة خلال مؤتمر الخرطوم.. أتيت في سطور سابقة على مؤتمر القمة العربي في ديسمبر ٦٩م الذي انعقد بالمغرب ولما لمسته أن خلل الرماد "وميض نار يوشك أن يكون لها ضرام" بين قادة الثورة الذين يحمل الكثيرون منهم توجهاً قومياً ناصرياً، وآخرون يظاهرون الفكر الشيوعي ولا يبدون حفاوة بالتوجه القومي وكان مؤتمر القمة العربي بالرباط فرصة كي يلتقي قائد الثورة وأعوانه بالقادة العرب في ذلك المحفل الكبير، و أن يطرحوا فكر الثورة بأسلوب مرن من شأنه تدارك أي انطباع سلبي تركته بعض المواقف السابقة.. بل كان فرصة طيبة يلتقون خلالها بقائد ثورة يوليو وقائد الثورة التي اندلعت في ليبيا قبل شهور. وما كانت وقائع مؤتمر القمة وأجواؤه تتيح بطبيعة الحال فرصة مواتية لعقد لقاءات بين الرؤساء لمناقشة واقع الثورات الثلاث ومستقبلها، وعليه رؤى أن يتوجه الرؤساء الثلاثة إلي ليبيا فور انتهاء أعمال القمة. وقد بادر العقيد القذافي بالسفر إلي طرابلس ليكون في استقبال الزعيمين والتمهيد للمحادثات المرجوة.

كنت أتأهب للعودة إلي مقر عملي بالجزائر بعد انتهاء أعمال القمة حين تم إستدعائي للقاء الرئيس نميري الذي كان مجتمعاً إلي أركان وفده، وتم إخطاري بالإنضمام للوفد المتجه إلي ليبيا في الصباح الباكر مع الرئيس وأعضاء الوفد على الطائرة الخاصة بالرئيس عبد الناصر التي كانت تقل عدداً من أعوان الرئيس المصري، حيث جرى تبادل للرأي بين قادة البلدين حول بعض الموضوعات التي ينتظر طرحها خلال الاجتماع الوشيك.. ولابد لي هنا من الإشارة إلي الشائعة السخيفة التي جرى تداولها من أن اشتباكاً تم خلال الرحلة بين الرئيس نميري والصحفي هيكل.. فبالرغم من تهافت هذه الشائعة التي روج لها بعض رجال الإعلام فإن ما لمسته شخصياً من شأنه دحض مثل هذه القالة الرخيصة.. قد يكون للأستاذ هيكل أراؤه بشأن إنضمام السودان لأي تكتل وحدوي عربي في ذلك الطور تأسيساً على وقناعته بخطر ذلك على وحدة السودان الذي يضم أشتاتاً من الناس، ينحدرون من أعراق متباينة وهي أفكار عبر عنها علانية في بعض مقالاته وأحاديثه. ولكن ذلك لم ليصرفه قط إلي الإنتقاص من قدر أشقائه في السودان أو سوق المذمة لقادته، بل لمست شخصياً ما يدحض ذلك خلال دعوة إفطار رمضاني في داره المطلة على نيل الجيزة على شرف الرؤساء الثلاثة وعدد محدود من أعوانهما كنا له شهوداً. لذلك أستطيع أن أؤكد أن ذلك الصحفي الأشهر لم يكن يوماً كارهاً لبلادنا أو كائداً لقادته.

هبطنا طرابلس وكان مشهد الاستقبال يجل عن كل وصف، حيث كانت الكتل البشرية تكاد تغطي كل شبر من أرض المطار وتمتد حتى مشارف القصر الذي يبعد نحو عشرة كيلومترات.. كان مشهداً لا نظير له حتى خيل للمرء أن الشعب الليبي بأكمله تداعى لإستقبال القائدين عبد الناصر ونميري – سيما وكانت تلك أول مناسبة يزوران فيها ليبيا بعد إندلاع ثورة الفاتح. كانت الكتل البشرية الحاشدة لا تتيح مجالاً للتحرك وأدى تدافعها لسقوط الكثيرين جراء الاختناق.. كانت الجماهير ترفع أعلامهما وتهتف بصوت هادر مرحبة بثورتي يوليو ومايو.. ثم تتبع ذلك بهتاف قوي منظم "الوحدة.. الوحدة".. كان مشهداً

مهيباً لن أنساه ما حييت.. ظل الهتاف يتواصل على أنغام الطبول طيلة إقامة الوفود.. حيث تحلقت حول قصر الضيافة – الذي أمكننا الوصول إليه بمشقة وعسر شديدين بعد أكثر من ساعتين من هبوط الطائرة.

ولقد بلغ التأثر ببعض القادة الليبيين – وبينهم أعضاء مجلس قيادة الثورة – إلي الإنخراط في البكاء والنشيج.. وساق ذلك المشهد العاطفي البعض إلي إقتحام بعض الكتل البشرية وإتخاذ مكان بينها وترديد الهتاف معها.. ولقد ظل المشهد على ما هو عليه طيلة ساعات الليل.. حيث بقيت الجماهير تتحلق حول القصر ترفع بنودها وتدق طبولها وتردد هتافاتها غير عابئة ببرد الشتاء ولفحات رياح ديسمبر القارصة، التي عملوا على مغالبتها بالمواقد التقليدية وإشعال النار على امتداد الميدان المحيط بالقصر.

## اللقاء التاريخي بين ناصر ونميري والقذافي:

أصاب الرؤساء شيئاً من الراحة وبكروا إلي عقد اجتماع مغلق كان وقفاً عليهم، ثم إنضم إليهم عدد من أعضاء وفودهم حيث كان إلي جانب الرئيس نميري كل من السيدين فاروق حمد الله – عضو مجلس الثورة ووزير الداخلية – والسيد فاروق أبو عيسى – وزير الخارجية. وشاءت الصدفة أن نكون ضمن عدد محدود من أعضاء الوفدين الآخرين نجلس في الصفوف الخلفية نقوم بأعمال السكرتارية.. نشاهد ونسمع ونراقب ونسجل أحياناً ما كان يجري أمامنا في ذلك اللقاء التاريخي والذي امتد لساعات طويلة حيث كان مخصصاً لمناقشة قضية الوحدة بين الأقطار الثلاثة.

استهل الرئيس عبد الناصر اللقاء بحديث عن حفاوة مصر وشعبها بإندلاع الثورتين اللتين تمثلان إضافة مشهودة للقدرات العربية، وتحدث طويلاً عن المشهد العربي والمناخ الدولي السائد والتحديات التي تواجه الأمة العربية، والمهام الجسام التي تنتظرها خلال تلك المرحلة.. ولم يكن يفسد ذلك الحديث الشائق سوى إصداء هتافات الجماهير بالخارج بين حين وآخر تتعجل إصدار

بيان إعلان الوحدة.. وكان بعض رفاق العقيد القذافي يغادرون القاعة أحياناً للتلويح للجماهير، وإرسال إيماءات تبشر بدنو الوحدة، وبث الطمأنينة إلي نفوسها وربما إلهاب مشاعرها كي تواصل التعبير عن مطلبها بقوة وإصرار.

بدأ أن الرئيس عبد الناصر لم يكن في عجلة من أمره وإنه لم يكن ميالاً إلي القفز فوق المراحل بغية الوصول إلي غايات دون الإعداد لها، وقد ذكر بأن الواجب الملح في تلك المرحلة هو تأمين الثورتين اللتين لم يمض على قيامها سوى بضعة شهور، وتحدث عن ضرورة تمكين أمر الوحدة الوطنية ووضع برامج تلبي رغبات الجماهير وآمالها في التنمية والكفاية وخلق المجتمع العادل وتحريره من كل أنماط الإستغلال إلي غير ذلك. ثم عرج على إجراء توصيف الواقع السوداني ووضعه الجغرافي حيث يتخذ الإستعمار بعض الركائز الخفية في عدد من الأقطار التي تحده، وواقعه الذي يحفل بالتباين العرقي والفوارق الدينية والقبلية والطائفية وغير ذلك من مهددات وحدته الوطنية. مثل الحرب المستعرة في الجنوب، وجيوب الإقطاع التي لن تستسلم إذا أضيرت مصالحها مما يجعل أمر تكريس الوحدة الوطنية يعلو على ما عداها.

تحدث عن الثورة الليبية مذكراً بأن تطهير التراب الليبي من القواعد الأجنبية الأمريكية في طرابلس والبريطانية في بنغازي يبدو واجباً ملحاً، مذكراً بأن مرحلة التحرر ينبغي أن تسبق أمر الوحدة في تلك الظروف.. ناقلاً تجربة الثورة المصرية التي حددت أهدفها وإنطلق سعيها عبر أنواء ومؤامرات وتحديات هائلة، ذاكراً أنها لم تتعجل أمر الوحدة بالرغم من أنها تمثل ركناً من الثالوث الإستراتيجي الذي يحكم فلسفة الحكم فيها.. مؤكداً أنهم لم يكونوا يتعجلون ولوج تلك الأهداف قبل أن تتضح الظروف المؤاتية، فبدأوا بتحرير الأرض ولم يعمدوا إلي إعلان المبادئ الإشتراكية إلا بعد تسع سنوات من قيام الثورة.. وتساءل عن لهفة الثورة الوليدة في ليبيا للمناداة بالإشتراكية في تلك الظروف وتصميمها على إعلان الوحدة على ذلك النحو من الإلحاح.. وأشار إلي أن إعلان الوحدة مع سوريا جاء بضغط من القيادة السورية وعززتها رغبة شعبية بالرغم منه.

تحدث الرئيس عبد الناصر في تفصيل حول رؤاه لقضية الوحدة مؤكداً إيمانه بأن ما يجمع بين الشعوب الثلاثة يمثل أرضية صلبة لخلق كيان وحدوي راسخ حدد مقوماته ودواعيه في إسهاب، وأكد أنها ستظل أملاً عزيزاً وسامياً وهدفاً لا نكوص عنه، ولكن الأماني لا تخلق كياناً يكتب له البقاء، ولا بد من أن تتوخى واقع أقطارنا بل واقع العالم من حولنا.. وانتقاء الأساليب والوسائل التي يمكن أن تنتهي بنا إلي تحقيق آمالنا بإعتبارها رديفاً لتلك الغايات ولا يمكن الفصل بينها، مذكراً بفلسفة مصر في هذا المجال والتي ضمنها الميثاق بأن الغايات مهما كانت سامية ستظل ضرباً من الأماني إذا لم تتكافأ الوسائل شرفاً مع تلك الغايات.

جاء حديث الرئيس عبد الناصر مفصلاً إستغرق نحو ساعة كاملة. ولابد من الإعتراف أن ما أوردت لا يعتمد على وثيقة مكتوبة ولكنه حصيلة لما وعته الذاكرة وأنا أكتب بعد أكثر من ثلاثين عاماً.

تحدث العقيد نميري والرائد فاروق حمد الله وأبو عيسى مؤمنين ومؤيدين للحديث العلمي الرصين الذي استهل به الرئيس عبد الناصر الاجتماع مشيدين بصراحته ووضع تجربته الثرة أمامهم، وتبصيرهم بما قد يكون بعضه خافياً عليهم، واعتبروا حديثه عن الواقع السوداني تشخيصاً وافياً كما تحدثوا عن التحديات التي تواجه الثورة الوليدة.. وأفاضوا في تفصيل ما أشار إليه الرئيس عبد الناصر حول التحديات الداخلية وإتفاقهم مع عبد الناصر والقذافي حول الأهداف والغايات التي ينبغي إستشرافها، ولكن وفق خطى محسوبة غير عجولة مؤكدين أن مسارعتهم للإنضمام إلي أي كيان وحدوي خارجي في هذا الطور قبل تحقيق أسباب الوحدة الوطنية في الداخل بل وقبل حل قضية الجنوب، سيكون عبئاً ثقيلاً على كاهل الكيان الوليد وهو أمر لا يرضونه تحدثوا عن قضية الجنوب والظروف التي نشأ فيها التمرد، والأيدي الخفية التي كانت تعمل على إذكاء إواره بعد أن تم التمهيد له بسن قوانين من شأنها التفريق بين أبناء الوطن الواحد، وخلق تمايز اجتماعي بين سكان الجنوب والشمال، وتغذية الفوارق الإثنية بين الأشقاء، وحرمان أبناء الجنوب من فرص

التعليم والعلاج بل سائر حقوق المواطنين المتكافئة، وعبروا عن خشيتهم بأن يكون موضوع الجنوب (لغماً) مخبوءاً يستهدف وحدة بلادنا شعباً وأرضاً جراء مخطط يستهدف تقسيم السودان الشاسع والواعد بالخيرات الظاهرة والمطمورة، وبوضعه الإستراتيجي الذي يجعل منه أحد ثغور الأمة العربية وبوابته التي يتحقق من خلالها التلاحم والتلاقح بين العرب وأفريقيا، وأكدوا أنهم يعتبرون أن الوحدة هي قضية قدر ومصير وأنها خيار إستراتيجي لا نكوص عنه ولا تراجع، ولكن إقدام السودان لخوض عمارها رهين بتحقيق وحدته الوطنية وصلابة جبهته الداخلية، متحدثين بإفاضة عن الدوائر الداخلية التي تتربص بالثورة الوليدة منذ أيامها الأولى، للإنقضاض عليها كما دلت الشواهد والأحداث. بدت خيبة الأمل واضحة على وجه العقيد القذافي ورفاقه، وتساءلوا إن كان ما سمعوه يمثل إنتكاسة من القادة وردة عن المبادئ التي أعلنوا عنها منذ إطلاق ثوراتهم. تحدث العقيد القذافي وعبر عن حيرته ودهشته بعبارات آسية وحزينة ثم قال في كلمات واجفة ومتقطعة وهو يخاطب الرئيس ناصر " تعلمنا منك مبادئ القومية العربية والإيمان بأسباب وحدة هذه الأمة.. ولما انتصرت ثوراتنا وبتنا على مشارف بلوغ أسبابها نراك تتحدث عن مخاطر الإقدام على حياضيها " تبسم الرئيس عبد الناصر في سماحة وهو يتحدث عن اعتزازه بحمية العقيد القذافي وحماسته وصدق توجهه ثم أخذ يعزز وجهة نظره التي ساقها قبلاً والتي يبدو أن الوفد السوداني وجد فيها تعبيراً عن واقعه وفكره بأسلوب ربما كان أكثر بلاغة وإحاطة وأبعد أثراً.

## إعلان ميثاق طرابلس:

وأخيراً رؤى أن يذاع بيان على الجماهير الملهوفة والمحتشدة بالخارج يبشرها بأن الرؤساء متفقون على أمر الوحدة وأنهم اتفقوا على إعداد ميثاق يسمى "ميثاق طرابلس" يتضمن الإتفاق على الوحدة وإطار بلوغها على أن تستكمل المحادثات في الخرطوم بعد أسابيع قليلة حيث تقرر أن يشارك الرئيسان عبد الناصر والقاذفي السودان احتفالاته بذكرى استقلال السودان.

وبالفعل جرى إعداد بيان يصنع إطاراً عاماً للأهداف التي اتفقت الثورات الثلاث على تحقيقها، وخلافاً لما يعتقد الكثيرون لم يتعد البيان المذكور الذي سمي (ميثاق طرابلس) صفحة واحدة أتت على الإطار العام وإيجاز للمبادئ. رافقت الوفد عائداً للخرطوم لمتابعة المفاوضات التي تقرر إجراؤها خلال أيام.

## ناصر والقذافي بالخرطوم:

وصلت الخرطوم للمشاركة في اجتماعات القمة واستدعيت إلي إجتماع عاجل بالقصر برئاسة المقدم بابكر النور وزير التخطيط والذي كان مسئولاً عن الملف الاقتصادي.. وهناك التقيت لأول مرة منذ قيام الثورة الرائد أبو القاسم هاشم سكرتير مجلس قيادة الثورة إلي جانب عدد من زملائي الدبلوماسيين مهدي مصطفى وعز الدين حامد وعمر عباس عجبنا الذين كانوا يعملون بالقصر وعدداً من وكلاء الوزارات والسياسيين ومجموعات من الفنيين.. جرى نقاش حول ميثاق طرابلس وأهدافه البعيدة والقريبة والمشروعات التي يتعين اعتمادها في ذلك الطور هلت بشائر ذكرى الإستقلال وحل الضيفان الكبيران بالخرطوم التي خصتهما جماهيرها بحفاوة وحماس شديدين.. وكان جرى إعداد برنامج حافل لهما شملت وقائعه لقاءات شعبية واحتفالات رسمية كان أبرزها اللقاء الجماهيري الذي أعد لهما في أستاد الخرطوم الذي ضاق على سعته بالجماهير التي غطت كل شبر من أرضه وتسلقت الأسوار وأعمدة الكهرباء المحيطة.. ثم سرعان ما تدافعت الجموع لتقتلع الأبواب وتخترق سياج الحراسات، واندفعت إلي داخل الأستاد للتمتع برؤيا القائدين والاستماع إليهما، بأسلوب كاد ينذر بكارثة محققة حيث جدت سيارات الإسعاف في نقل العشرات من الذين تساقطوا جراء الزحام. تحدث العقيد نميري مرحباً بالضيوف ومذكراً بالأهداف التي قامت ثورة مايو من أجل تحقيقها ثم أعلن قرارات مجلس قيادة الثورة القاضي بمصادرة ممتلكات بعض رجال القطاع الخاص وتأميم العديد من المرافق والمؤسسات.. وربما لم يكن الرئيس ناصر حفياً بتلك القرارات فيما علمنا.. عزر ذلك الظن ما عبر عنه خلال اللقاء

الثلاثي من قبل بطرابلس حول وجوب إلتزام الخطى المتأنية المحسوبة في مسعى للثورات لتحقيق إستراتيجيتها التي تستهدف الوصول إلي مشارف التحرر والإشتراكية.

ويبدو أن العقيد القذافي لم يكن حفياً بها بالمثل لأنه اعتبرها شاهداً على ما كان يتردد حول محاولة الشيوعيين السيطرة على ثورة مايو.. حرص أن يعبر عن هواجسه في الخطاب الذي ألقاه مؤكداً أنه بإندلاع ثورة مايو "سقط اليمن وسقط اليسار" بإعتبارها ثورة وطنية أصيلة في مراميها، قومية في منطلقاتها.. وشن هجوماً مبطئاً على الشيوعيين ومقاصدهم ومراميهم، فيما جاء خطاب الرئيس عبد الناصر متوازناً يعكس عن وعي لواقع الشعب السوداني وخصائصه.. وكان في مجمله دعوة لإرساء قواعد حقيقية للوحدة الوطنية والإنطلاق بالثورة نحو تحقيق غاياتها بأسلوب بصير ورزين. وكان برنامج الزيارة حافلاً بوقائعه.. الأمر الذي حال دون عقد الاجتماع الثلاثي الذي كان تقرر عقده، ورؤى طبقاً لذلك عقد اجتماع بالقاهرة خلال أسابيع قليلة لدراسة الأمر ورؤى أن تتقدم كل من الدول الثلاث برؤيتها التي ينبغي إلتزامها في مسعاها لتحقيق الوحدة.

وما إن عاد الرئيسان بعد مشاركة شعبنا احتفاله بذكرى الاستقلال حتى ابلغت بأمر تعييني سفيراً في ليبيا. وأعترف بأنني استشعرت نوعاً من الرضى إن لم أقل الزهو أن أكون أول سفير لثورة مايو لدى ثورة الفاتح مثلما كنت أول سفير لها لدى ثورة المليون شهيد. كان علي أن أعود إلي الجزائر لتصفية أعمالي وتوديع زملائي واستئذان رئيس الدولة ووداعه فيما تقضي التقاليد والأعراف الدبلوماسية.

## الباب الثاني: السفارة في ليبيا محطتي الثالثة

غادرت موقعي القديم مخلفاً ورائي ذكريات حلوة ورائعة خلال عملي في أرض الجزائر حيث كنت أتمتع برعاية حانية من قياداتها وشعبها الوفي.

وكما قدر لي أن أزور الجزائر ثلاث مرات – قبل تعييني سفيراً بها – شاءت الأقدار أن أعود إليها أربع مرات بعد تركي لها.. كانت أولاها حين شاركت في احتفالاتها بذكرى الثورة وكانت الثانية ضمن جولاتنا الماكوكية في رحلة التضامن العربي، ثم زرتها مبعوثاً شخصياً لرئيس الجمهورية لرؤساء شمال أفريقيا والسنغال في مهمة تتعلق بعلاقاتنا المتوترة مع الجارة أثيوبيا في ذلك الحين.. وكانت آخرها الرحلة التي رافقت خلالها الرئيس ونائبه للمشاركة في تشييع جنازة الرئيس بومدين.. حيث سافرنا على عجل في جو عاصف مطير، لنهبط الجزائر لحظة تحرك النعش التي حملته الجماهير على الأعناق وسارت به عدة كيلومترات وصولاً إلي مقابر الشهداء.. التقيت في تلك المناسبة الحزينة أصدقاء قدامى.. بكينا معاً فقد قائد عربي سيظل عطاؤه لشعبه وأمته ماثلاً ومشهوداً على مر الزمان.

## قدمت أوراق اعتمادي داخل مصلحة حكومية:

كان علي أن أسافر إلي ليبيا لتصريف أعمال السفارة هناك.. ولم تكن ليبيا في الواقع غريبة علي، أمضيت فيها أسابيع عديدة حين أوكل لي أمر الإشراف على جناح السودان في معرض طرابلس الدولي خلال عملي بالقاهرة مطلع الستينات، فضلاً عن الصلات التي كانت تربطني بكثير من شبابها ودبلوماسييها خلال مشاركتنا في اجتماعات الجامعة العربية ولجانها على مدى سنوات.. كما أن محادثات طرابلس المتواترة جعلتني أتعرف على نفر من قادة العهد الجديد.. وكنت أنظر إلي مهمتي بتفاؤل شديد تأسيساً على التوجه الفكري العام لثورتي مايو وسبتمبر. ولعل هذا ما جعل العقيد معمر القذافي يسوق لي عتاباً حين

قدمت أوراق اعتمادي على النمط التقليدي، حين وقفت أمامه ألقي خطاباً مكتوباً حول علاقات بلدينا، ورؤيتي للمهمة التي كنت قادماً على أدائها.



تقديم أوراق اعتمادي للعقيد القذافي عام ١٩٧٠

لم يشأ العقيد أن يرد على خطابي كما يقضي العرف، بل أمسك بيدي ودعاني لتناول القهوة وجرت دردشة عن الأحوال بالسودان إلي غير ذلك من أحاديث سيارة. وكنت لاحظت أن حفل تقديم أوراقي تم في إحدى المؤسسات الحكومية التي كان العقيد يقوم بزيارتها وتفقدها (ولعلها مؤسسة السجون) وأنها تمت في غرفة تعج بالكراسي والمناضد المتناثرة، وبحضور شخص واحد هو صالح بو يصير - وزير الخارجية.. كانت بلادنا محط اهتمام الإعلام الليبي وقد أنفقنا جهداً كبيراً لتلبية الطلبات المتواثرة لتلك الأجهزة للتحدث عن بلادنا والروابط التي تشدها إلي ليبيا، والآفاق التي يمكن أن يبلغها البلدان في نطاق ميثاق طرابلس الوحدوي. وكان علينا خلال عملنا في طرابلس أن نقوم

بدعم السفارة، والإرتقاء بأساليب عملها حتى تكون كفاءاً بالمهام الجليلة المرجوة ودعمها بالكوادر البشرية المقتدرة وتطوير قدراتها، وكان يعمل إلي جانبي الأخوة الرشيد أبو شامة وعصام حسن وعباس المعتصم ومحمد عبد الدائم (السفراء لاحقاً) بالإضافة إلي مستشارية ثقافية برعاية الراحل حسين محمود وعدد من العاملين في مجال الجوازات والشئون الإدارية والقنصلية.. وأمكننا توسيع مبنى السفارة الكائنة في قلب طرابلس (حي قاردن سيتي) حيث أمكننا ضم إحدى الفيلات التي تمت مصادرتها من الإيطاليين لمبنى السفارة حتى باتت رحبة فسيحة.. كانت هناك جالية سودانية ضخمة تضم إلي جانب العمال والموظفين والفنيين وفي مقدمتهم مجموعه كبيرة من المعلمين المتميزين ونخبة من الأخوة الذين تسنموا مراكز رفيعة خلال تواجدهم الطويل في ليبيا بينهم الشيخ عبد الغني المستشار بالقصر وأحمد عباس العبيد معاون وكيل الداخلية والمهندسين المرموقين حامد شداد ومحجوب البدوي ومحمد محمود وأخوانه، وكانوا يمثلون مرجعاً لبيوت الخبرة في مجال المقاولات والإنشاءات، وعبد الحميد الطرابلسي وعابدون إلي جانب كوكبة من العلماء والخبراء مثل الدكتور عبد الله أحمد عبد الله ود/ محمد سعيد بيومي وغيرهم من أساتذة الجامعات وعبد الرحمن عبد الله الخبير بالأمم المتحدة وغيرهم من الذين لا تسعفني الذاكرة بإيراد أسمائهم، ولعل تعاقب السنين ووهن الذاكرة يشفع. وكان على خلال تواجدي في طرابلس أن أشارك في اجتماعات قمة دول الميثاق وحضور بعض لجانها في العوّاصم الثلاث، إلي جانب المشاركة في إجتماعات دول التصدي والصمود الذي اختار السودان أن ينضم إلي مجموعتها، والتي تضم بضع دول تسمى دول الطوق والمواجهة الداعمة للقضية الفلسطينية. وتميزت فترة عملنا خلال تلك الفترة بمجافاتها لكل الضوابط المراسيمية التي تحكم العمل الدبلوماسي. فقد كانت رؤية الأخوة الليبيين أن البلدين يمثلان رقعة من نسيج واحد، وأنهما ليسا بحاجة لمثل تلك المظاهر. وقد تمثل ذلك في الإتصالات التلفونية المباشرة بيننا وبين أعضاء مجلس قيادة الثورة أو الزيارات التي يؤدونها لنا في مبنى السفارة أو دار السفير.. وأنني لأذكر أنني

كنت أقوم مذعوراً في جنح الليل أحياناً على رنين التليفون. لأتلقى رسالة عاجلة تنهي إلي أن العقيد معمر قرر السفر إلي الخرطوم بعد ساعات، وكان علي أن أعد نفسي لمرافقته على طائرته الخاصة، دون أن نجد فسحة من الوقت لإخطار المسئولين في الخرطوم إلا في اللحظات الأخيرة، وبعد تحليق الطائرة في الأجواء السودانية مما كان يحدث إرباكاً لأخواننا في مراسم الدولة وملاماً وعتاباً من الرئيس نميري.. وكان العقيد معمر القذافي يتابع ما يجرى في السودان ويتخير المناسبات التي تعقدها القيادة السياسية هناك ليجتمع مع الجماهير في لقاءات مفتوحة، للمشاركة فيها ومخاطبتها أحياناً بأسلوب مباشر، إعتماداً على أن الشعبين يمثلان كياناً واحداً وأن الثورتين هما توأم وأن ما يقوم به هو حق له بل واجب تمليه تلك الوشائج، وأنني لأذكر الخطاب المرتجل الذي ألقاه على جماهير أمدرمان من خلال لقاء شعبي مفتوح حيث تحدث مبشراً بالفكر الوحدوي، حاثاً الجماهير على العمل الجاد لبلوغ مراقيه وتجاوز كل (الأصوات المتخاذلة)، ومغالبة التحديات التي تقعد بالسودان عن بلوغ أسبابها مثل (القوى الشيوعية) وبعض السياسيين الجنوبيين، مذكراً بالفوارق الكبيرة بين الجنوب والشمال وداعياً بأسلوب صريح ومباشر إلي فصل الجنوب، حتى يتمكن السودان من الوفاء بإلتزاماته في المحيط العربي خاصة في مجال الوحدة.. وكاد الخطاب يمثل أزمة بين قادة البلدين. وأنا أكتب اليوم بعد أكثر من ثلاثين عاماً لا أجزم إن كان الدور الليبي المشهود في دعم حركة (التمرد) لاحقاً استطراداً لذلك الفكر، أم أنه كان يندرج تحت محاولة إسقاط مايو وقياداتها بإعتبار أن قادتها كانت تسوق (الذرائع) لعدم الإقدام على إتخاذ خطوات نحو الوحدة رغم قناعتها – بأن الشعب السوداني كان وحدوياً بغالبيته!! وهكذا بقيت في طرابلس أمارس عملي سفيراً لبلادي لديها، وأقوم في نفس الوقت بالمشاركة والإعداد لإجتماعات قمة دول ميثاق طرابلس والمشاركة في حضور جلساتها في العواصم الثلاث.. وقد رؤى في مراحل لاحقة أن تسمى كل دولة من الدول الثلاث مندوباً دائماً لها لدى الميثاق بدرجة وزير يكون مقره طرابلس وقد قرر مجلس قيادة الثورة إختياري لذلك المنصب بجلسته المنعقدة في نوفمبر

عام ٧٠ ولكنني اعتذرت عن قبول المنصب الوزاري مقترحاً أن أبقى سفيراً في ليبيا على أن أقوم بأعمال دول الميثاق في نفس الوقت دون تلقي أية مخصصات إضافية وذلك منعاً للتضارب مع عمل السفير الذي سيتم تعيينه.

## تباين الرؤي حول الوحدة:

كان الرؤساء الثلاثة قد قرروا – فيما ذكرنا سابقاً خلال تواجدهم بالخرطوم عقد اجتماع بالقاهرة لدراسة موقف كل طرف بتقديم فلسفته ورؤاه لقضية الوحدة والمناهج التي يتعين بلوغها لإستشرافها. وقد أعد السودان مذكرة على هدي المبادئ العامة التي سبق أن عبر عنها خلال أول لقاء للقادة الثلاثة في طرابلس.

وكانت المذكرة التي قدمها السودان تتضمن رؤيته لقضية الوحدة والأساليب التي ينبغي إتباعها والتي تقوم على إزالة التناقصات بين أطراف التكامل في رؤاها للقضايا الدولية، والتقريب بين مناهج العمل الوطني وتحقيق الوحدة الوطنية داخل كل قطر بإعتبارها مقدمة ضرورية لتحقيق أية وحدة إقليمية. وجاءت المذكرة في مجملها ضافية تقترح أسلوب (التكامل) والخطوات المتدرجة أسلوباً لتحقيقها وفق خطوات محسوبة وصولاً للوحدة الدستورية، فيما كان الأخوة الليبيون يتعجلون قيام وحدة سياسية فورية أولاً لأسباب ومبررات أوضحوها.. وكثيراً ما اشتجر الرأي بين السودان وليبيا على نحو كاد يهدد بقاء الكيان الوليد.. ولكن كان لوجود الرئيس عبد الناصر دور مشهود في تطويق الخلاف والتقريب بين وجهات النظر ومداخلاته التي ينظر إليها طرفا الخلاف بإحترام وتفهم- اعتماداً على تجاربه ومكانته – مما شكل عاملاً هاماً في الوصول إلي صيغة تم بموجبها التأكيد على الثوابت واعتزام دول الميثاق تحقيق الوحدة بأسلوب قاطع وصريح، وانتقاء أسلوب بلوغ أسبابها على هدي دراسة متأنية وبصيرة لواقع أقطارنا والواقع الدولي، على أن تتواصل اجتماعات القمة.. وبالفعل شهد فندق شيراتون بضعة اجتماعات للرؤساء في هذا المجال، التي كنت أشارك فيها لما انطوت عليه من آثار ليس على دول الميثاق ولكن

على المنطقة العربية بكاملها.. وقد أفردنا للأمر جزءاً ثانيًا من هذه الذكريات تحت عنوان ( فى فضاء التكامل ).

## في مؤتمر القمة العربي:

استدعيت إلي القاهرة للإنضمام للوفد السوداني لمؤتمر القمة العربي لمعالجة التطورات على الجبهة الأردنية جراء النزاع الأردني الفلسطيني فيما عرف بأحداث (أيلول الأسود) حيث تم إستعراض شامل للوضع تقرر على أثره تشكيل وفد للسفر إلي عمان برئاسة الرئيس نميري، على أن يرافقه السادة الباهي الأدغم وسعد العبد الله وآخرين وقد رافق الرئيس نميري كل من الأخوة فاروق أبو عيسى ومهدي مصطفى وعبد العزيز النضري سفيرنا إلي لبنان وعمان، وبقيت والأخوين محمد سليمان وأمين الشبلي نمثل السودان في المؤتمر في خلال سفر الوفد.. عاد الرئيس نميري مصحوباً بياسر عرفات الذي انتزع من بين أزيز الرصاص واحتدام المعارك بأسلوب جسور، وكان الحدث محوراً لأنباء الوكالات والصحافة العالمية والتي احتشد مندوبوها في تواتر واضح للقاء الرئيس نميري وإجراء لقاءات معه وكان لوصول الملك حسين تتويجاً للجهد الخارق والمضني الذي بذله الرئيس عبد الناصر في تهدئة الوضع سيما بعد وصول عرفات وأمكن إعادة الأمور إلي مسارها وأثمر الجهد الخارق الذي بذله.

## رحيل عبد الناصر:

تقرر أن أصحب الوفد إلي الخرطوم صبيحة اليوم التالي بعد اختتام اجتماعات القمة، ولكن جاءت برقية من اللواء خالد حسن عباس ترجو أن يرجئ الرئيس عودته حتى عصر ذلك اليوم بناءاً على طلب الجماهير، حتى تتمكن من الإعداد للقاء شعبي يعبر عن اعتزازها وفخارها بالدور الذي اضطلع به قائدها وهكذا في عصر يوم ١٩٧٠/٩/٢٧م غادرنا القاهرة وكان الرئيس المصري في وداع الرئيس نميري والذي كان آخر المغادرين قبل أمير

الكويت – وكنت والأخوين فاروق أبو عيسى ومهدي مصطفى نجلس في المقصورة الأمامية للطائرة وكنا نتابع من خلال النافذة الرئيسين وهما يتحدثان ثم يقبلان بعضهما البعض مودعين، ثم يعاودان الحديث والوداع لعدة مرات. كنا على تلك الأيام كلنا من محبي عبد الناصر ومريديه.. أذكر أنني كنت أتابع المشهد وأنا أردد قول أبي الطيب (زودينا من حسن وجهك مادام فحسن الوجوه حال تحول) وكان رفيقا الرحلة يستغرقان في الضحك وهما يتابعان ما كنت أقول. صعد الرئيس إلي الطائرة وكلفنا مهدي وأنا بإعداد خطاب يلقيه على الجماهير في اللقاء المنتظر بعد أن تداولنا جميعاً حول المحاور الرئيسية للخطاب كما جرت العادة.. لاحظت أن الرئيس كان يلح علي أن تبرز بشكلٍ واضح الدور الحاسم الذي اضطلع به الرئيس عبد الناصر، بإعتباره استطراداً لمواقفه المنتصرة أبداً لقضايا الأمة العربية. وما أن أهبطت الطائرة حتى ابتلعتها الجماهير وانتزعت الرئيس انتزاعاً وحملته على الأعناق في تعبير بليغ عن اعتزازها بالدور الذي اضطلع به.

سار الموكب حتى ميدان الأمم المتحدة الذي كان يغص بالجموع الحاشدة. كنت متعباً أشكو من إرهاق شديد وإعياء فتوجهت إلي بيت قصي من بيوت أقاربي يعصمني من الطوارق والزائرين، عدت على إثره إلي دار شقيقي (الذي كان مسافراً) بعد منتصف الليل واستغرقت في نوم عميق.. وفي الصباح الباكر أفقت على حركة وإصداء بكاء وطرق عنيف على باب الدار فإذا بي أمام أحد الأعمام يسر لي في عبارات آسية متقطعة خبر وفاة الرئيس عبد الناصر وينطلق لا يلوي على شيء. كان الصراخ يصم الأذن. وإذا بمن يخبرني بسفر الرئيس والوزراء وقادة العمل الوطني إلي القاهرة ليلاً وخرجت إلي الشارع لأرى مشهداً هو بفزع القيامة أقرب.. كانت الخرطوم بشيبها وشبابها.. رجالها ونسائها.. أصحائها ومقعديها، تملأ الشوارع باكية حزينة.. كان الناس يعانقون بعضهم بعضاً وينخرطون في بكاء ونحيب لا ينقطع.. وانطلقت المواكب في عفوية ترفد الموكب الرسمي المتجه للسفارة المصرية للعزاء بقيادة أبو القاسم محمد إبراهيم.. كان طبيعياً أن ينعكس الحدث على دول الميثاق بشكل

خاص.. وقد أشفق الكثيرون على مصيره بعد غياب عبد الناصر.. وبالفعل تمت الدعوة لإجتماع عاجل لقادة الدول الثلاث تمت دراسة الآثار التي يمكن أن تترتب على غياب عبد الناصر، والتحديات التي يمكن أن تواجه دول الميثاق وتم استبعاد كل خلاف نظري حول مفهوم الوحدة وانتقاء مشروعات محددة لتشكل نواة لإنطلاق المسيرة تحت قيادة موحدة تضم الرؤساء الثلاثة.

وسرعان ما أبدت سوريا عن رغبتها في الإنضمام لدول الميثاق.. ولكن فوجئنا بعد فترة قصيرة بدعوة سوريا إلي وجوب وضع مرجعية لدول الميثاق واقترحت تشكيل قيادة سياسية رباعية موحدة لوضع دستور لقيام إتحاد رباعي سياسي برئاسة وأجهزة موحدة.. ولما كان هذا التوجه مناقضاً للفلسفة التي إلتزمتها السودان منذ البداية والتي تقضي بإرجاء ذلك حتى نكفل أموراً يعينها، فقد رأى الإنسحاب من مجموعة دول الميثاق.. وبعد لأى أمكن إقناع السودان بالبقاء بين تلك المجموعة بصفة (مراقب) حتى يتابع ما يجرى من خطوات تجعله منسجماً مع الأطراف الأخرى ولاحقاً بها متى زالت الدواعي التي حالت دون مشاركته.. وهكذا صرنا نشارك في اجتماعات دول الميثاق بصفة مراقب فنشارك في مناقشات دستور الإتحاد وسائر مناشطه.. وكلها أمور رأيت أن يأتي تفصيلها في جزء قادم من هذه الذكريات. أذكر أن ليبيا دعت إلي إجتماع عاجل يعالج الأحداث التي وقعت في إحدى دول المغرب العربي في صيف عام ١٩٧١م والموقف الذي ينبغي إتخاذه في هذا الشأن. عقد الإجتماع بمدينة مرسى مطروح بحضور الرؤساء السادات والأسد والقذافي وقد أناب الرئيس نميري الرائد زين العابدين عبد القادر – عضو مجلس التخطيط الأعلى لدول الميثاق – لحضور الاجتماع والذي كان مقرراً أن يطوي أعماله في جلسة واحدة ولكن استمرت الاجتماعات ليومين كاملين أمضيناهما فى جدل ونقاش متصل فى إقناع أحد الرؤساء الذى كان مصراً على أن تقوم الدول الثلاث بإجراء عسكرى انتصافاً لمحاولة الانقلاب الذى تم إجهاضه.

## انقلاب هاشم العطا وتداعياته:

عدنا للقاهرة في منتصف الأسبوع الثالث من شهر يوليو ١٩٧١م وعكفنا على إعداد تقرير متكامل يأتي على وقائع لقاء مرسى مطروح كي يحمله الرائد زين العابدين ويضعه أمام مجلس قيادة الثورة.. وقد ألح على الصديق زين العابدين أن أرافقه للخرطوم كي نضطلع بتلك المهمة ثم أعود للقاهرة لتكملة الإجازة التي كنت أقضيها هناك. ولما كان موعد الإحتفال بذكرى ثورة يوليو فى مصر بدا وشيكاً فقد اقترحت على الأخ زين العابدين أن يبقى ثلاثة أيام كي يمثل السودان في تلك المناسبة قد لاقت الفكرة قبولاً لديه، وبالفعل تحدث للرئيس هاتفياً ولكن الرئيس أشار عليه بالقدوم لأنه قرر أن يحضر للقاهرة بنفسه لحضور المناسبة. وهكذا حمل الأخ زين العابدين التقرير وتوجه للمطار في منتصف نهار ١٩/٧/١٩٧١م حيث كنا في وداعه. توجه رأسا من المطار إلي منزل الرئيس الذي كان بإنتظاره مع عدد من زملائه أعضاء مجلس القيادة.. وفجأة تم تطويق الدار وتم إعتقال الرئيس وزملائه وبينهم الرائد زين العابدين القادم لتوه من القاهرة – حيث تواترت أنباء الإنقلاب الذي قيل أن القوى الشيوعية قد دبرته بقيادة الرائد هاشم العطا والذي تسلم السلطة بموجبه.

ما إن تلقيت النبأ حتى سارعت إلي دار السفارة بالقاهرة حيث بذلنا والسفير الراحل محمد سليمان وآخرين جهداً للقاء اللواء خالد حسن عباس الذي كان قادماً لتوه من يوغوسلافيا في طريقه إلي السودان، على رأس وفد يضم السادة أحمد سليمان ومحمد عبد الحليم – وزير المالية يومها وآخرين، عسانا نعقد اجتماعاً نتدارس فيه الوضع دون طائل.. فقد تردد أن الوفد منهمك في عقد اجتماعات مع المسئولين في القيادة المصرية.. ورجح كثيرون أنهم غادروا القاهرة إلي طرابلس على الطائرة الخاصة لأحد رجال الأعمال السودانيين والذي كان يزور القاهرة، وقد عرف بدعمه لثورة مايو وصداقته للرئيس نميري هو الدكتور خليل عثمان.. الرجل الذي ترك بصمات باقية في تاريخ الاقتصاد السوداني الحديث، بإقامة أول مصانع للنسيج وعدد من

المصانع الأخرى، والذي كان عراباً لصناعة السكر في السودان ويعود إليه الفضل في قيام أضخم مصنع للسكر وهو مصنع سكر كنانة.. تبشيراً وإتصالاً بدوائر التمويل ودعماً.

حملت الأنباء دحر الإنقلاب وعودة نميري للحكم.. سرى النبأ وسرعان ما خرجت جموع الشعب المصري إلي الشوارع تهتف وتعبر عن سعادتها في تلاحم مع أشقائهم السودانيين.. وانطلقت إذاعة القاهرة تبث الأناشيد الحماسية، وتصدرت الأنباء عودة النظام الشرعي للحكم ودحر الإنقلاب وخرجت الصحف تحمل تعليقات تحمل ترحيب مصر الرسمية والشعبية بما حدث.

قررت أن أقطع إجازتي وأعود لمقر عملي بليبيا، والتي كانت سعيدة بطبيعة الحال بما حدث، تأسيساً على موقفها الثابت المعادي للشيوعيين، وإيمانها بأن الشيوعيين في السودان كانوا يمثلون حجرة عثرة في سبيل إتمام وحدة السودان ومصر وليبيا.. ولعل ذلك كان دافعاً لها لإجبار الطائرة التي كانت تقل بعض قادة الإنقلاب على الهبوط في الأرض الليبية. حاولت الإحاطة بالظروف التي اعتورت الحدث لدى عودتي، ووقفت على الكثير مما كان خافياً علي بل وجدت من حدثني بما كان يدور بين الاسرى من قادة الحركة خلال احتجازهما بليبيا – والذي كان مرصوداً ومسجلاً – والذي اتضح من خلاله أن أحدهما لم يكن حفياً بالحركة وأنه لم يكن طرفاً في الإعداد لها بل يجهل عنها الكثير.. ولقد بدا لكثير من المراقبين أن الدور الذي اضطلعت به القيادة الليبية خلال الأحداث في الانتصار لثورة مايو وعودة الرئيس نميري إلي سدة الحكم، من شأنه أن يعزز العلاقات بين البلدين، بعد أن شابها بعض الفتور نتيجة لموقف السودان من رفض قيام اتحاد دستوري فوري بين دول الميثاق..

وبالفعل انعكس ذلك في حركة الوفود رفيعة المستوى والمحادثات التي لم تنقطع بين المسئولين في البلدين.. وقد بدا للكثيرين أن الأحداث التي أعقبت تقليم أظافر الحزب الشيوعي، والذي كان يمثل القوة الرئيسية في محاربة الوحدة

داخل النظام في رأي البعض، وما تبعه من انتخابات لرئاسة الجمهورية أحرز خلالها نميري فوزاً (كاسحاً)، وإعداد أول دستور للسودان وإبرام إتفاقية أديس أبابا التى وضعت حداً للحرب في الجنوب، تمثل كلها خطوات هامة على سبيل استقرار الوطن واستشراف أسباب الوحدة الوطنية.. وعليه أخذ الأخوة في ليبيا يلحون على أن يفكر السودان في العودة إلي حياض دول الميثاق لإنتقاء الدواعي التي أقعدت بالسودان عن الإنضمام. وكان من رأي السودان أن إتخاذ مثل تلك الخطوة لابد أن يأتي بمباركة الرغبة الشعبية عبر المؤسسات التي يعكف على الإعداد لها وبالفعل جاءت الدعوة لمئات من أبناء وبنات السودان بمختلف مشاربهم وأفكارهم وتوجهاتهم للمشاركة في مؤتمر جامع وسعت عضويته فئات المجتمع كافة، بكل أطيافه وفصائله، للإضطلاع بوضع "ميثاق للعمل الوطني" يحكم مثار السودان مستقبلاً، ويرسي المناهج والأطر التنظيمية التي ينبغي انتقاؤها..

وقد بدأ ذلك المؤتمر التاريخي أعماله بنقاش عام ومستفيض حول تلك الأمور تبعه تكوين لجان تتدارس الشئون الخارجية والاقتصادية والتنظيمية إلي غير ذلك توطئة لتقديمها للمؤتمر.. وأذكر أنه كونت لجنة للشئون الخارجية عقدت رئاستها للدكتور منصور خالد وتمت تسميتي مقرراً لها.. وشهدت اجتماعات اللجنة مساجلات ومناظرات حادة بين تيار القوميين والماركسيين الذين تخلوا عن حزبهم القديم إثر محاولة الإنقلاب.. وأخرى بين (العروبيين) والأفريكانيين حول هوية السودان.. والاشتراكيين والإسلاميين حول نهج الحكم. وأخيراً، أمكن التوصل إلي صيغة إرتضاها الجميع وأجازها المؤتمر، بإعتبارها ثوابت للسياسة الخارجية والداخلية لبلادنا، وأفرد لها أبواباً ثابتة في ميثاق العمل الوطني.

تلقيت إخطاراً بنقلي إلي رئاسة وزارة الخارجية بالخرطوم رئيساً للدائرة العربية التي توليت إدارتها بعد رحلة خاطفة إلي ليبيا لتصفية أعمالي ووداع المسئولين هناك بعد قضاء زهاء العامين فيها كانت من أكثر الفترات إزدهاراً في مجال العلاقات بين البلدين اللذين ربطت بينهما وشيجة ميثاق طرابلس،

واللقاءات المتواترة بين قيادة البلدين والمسئولين فيها ومسعاهما لإرتياد الآفاق التي من شأنها دعم تلك العلاقات وتطورها.. ولا أدعي أن ذلك كان نتاجاً لجهدنا ولكن كان لأهداف ودواعي الثورتين أثر كبير في ذلك.. وقد شاء الرئيس القذافي ورفاقه في مجلس قيادة الثورة خلال فترة عملى أن يخصوني – بوصفي سفيراً للسودان والثورة التوأم – برعاية حانية .وعطف مشهود سأظل أذكره ما حييت.

كانت وزارة الخارجية قد تم نقل مكاتبها من مقرها القديم علي شاطئ النيل إلي إحدى العمارات الضخمة في قلب الخرطوم.. كنت سعيداً بعودتي للعمل برئاسة الوزارة ولقاء بعض زملائي القدامى واستعادة ذكرى الأيام الجميلة التي قضيتها في بداية عملي الدبلوماسي. وكان يعاونني في تصريف الشئون العربية بالوزارة كل من الأخوة سيد شريف وعثمان السمحوني وأبو زيد الحسن (الذين صاروا سفراء في مراحل لاحقة). كانت فترة عمل مثمرة أمكن خلالها وضع دراسات حول القضايا العربية الماثلة، ووضع إطار لمناهج العمل في تلك الدائرة الوليدة.. واذكر أنه تم اختيارى وزميلى عبد المجيد الحاج الأمين وعزت الديب ضمن وفد السودان للاجتماع التمهيدى للمؤتمر الإسلامى بجدة برئاسة الصديق موسى المبارك – وزير مجلس الوزراء فى ذلك الحين – وقد اتسمت الجلسات بالحدة والجدال المتصل.

لم يكن أمر اعتماد النظم واللوائح الخاصة بالمؤتمر ولا الاعتمادات المالية أو المشاكل العالقة مثل قضية كشمير أو الجزر الثلاث تمثل بؤرة للنزاع بقدر ما كان أمر وضع معايير تحكم عضوية المؤتمر يمثل بنداً ضاغطاً.. وكانت العديد من الدول قد بادرت لطلب العضوية.. تعددت الاجتهادات.. كان هناك من يقوم بتعريف الدولة الإسلامية بأنها التى تلتزم النهج الإسلامى فى الحكم بينما كان آخرون يعرفونها بأنها التى تقطنها أغلبية مسلمة وكان آخرون يرون أنها الدول التى تضع " الإسلام " ضمن أسمها الرسمى، بينما كان يقترح آخرون أن تكون وقفاً على الدول التى يمثل الإسلام مصدراً أساسياً من مصادر التشريع فيها. كان من رأى السودان " الثورة " أن تكون العضوية وقفاً

على الدول التى تقطنها أغلبية مسلمة شريطة أن لا تكون الدولة المعنية عضواً فى حلف عسكرى مع إحدى الدول الكبرى.. وقد لقى الاقتراح مساندة وتأييداً لما ينطوى عليه ذلك من " عزل " لا يران تحت قيادة " الشاه " الحليف الأساسى للغرب وإسرائيل فى المنطقة والذى كان ينخرط فى نزاع مع " أبو ظبى " حول ملكية الجزر الثلاث ( طنب الكبرى والصغرى وأبو موسى ) ترك أمر اتخاذ حول الأمر برمته للقادة فى اجتماعهم الوشيك.

كانت فترة عملى بالإدارة العربية قصيرة وممتعة.. ولكن سرعان ما تم اختيارى أميناً عاماً لرئاسة الجمهورية حيث كان على أن أنتقل إلى موقعى الجديد بالقصر الجمهورى.




وفد السودان للمؤتمر التمهيدي الإسلامية(٧٢) برئاسة الوزير الراحل موسى المبارك وفي الخلف السفراء أبو بكر عثمان وعبد المجيد الحاج الأمين والمستشار عزت الديب.

الفصل السادس

# في رئاسة الجمهورية

كان الصديق مهدى مصطفى يضطلع بمهام الوزير لرئاسة الجمهورية.. وكانت الأمانة العامة لرئاسة الجمهورية تتخذ من المبنى المطل على شارع الجامعة مكتباً للرئيس وسكرتاريته والسيد بابكر عوض الله وعوض عبد الرازق ومحمد خليل (الشماسة) اللذين كانا يعملان بمكتب السيد بابكر. وقد شهدت تلك الفترة التى أعقبت اندحار حركة هاشم العطا محاولات لتطويق كل الآثار التى ترتبت على سيطرة الشيوعيين على مسار الثورة خلال عام ونصف.. وبدا للمراقبين أن الذين يدينون بمبادئ القومية العربية بمختلف مدارسها أخذوا يحكمون قبضتهم على مرافق الدولة بالإضافة إلى بعض العناصر الوطنية المستقلة التى لا تدين بالولاء لأى حزب أو حركة عقائدية..

وشهدت تلك الفترة أول انتخابات لرئيس الجمهورية وإعداد أول دستور دائم فى تاريخ السودان، كما شهدت توقيع اتفاقية السلام التى وضعت حداً للحرب فى جنوب الوطن، كما شهدت انفتاحاً على العالم الخارجى وتواترت وفود الصداقة والاستثمار على بلادنا، أثمر بعضها عن تشييد بعض المرافق العريقة مثل قاعة الصداقة بعون صينى، ومجلس الشعب بقرض رومانى والمجمع التقنى بعون كورى إلى غير ذلك. وعلى ذكر انتخابات رئاسة الجمهورية هناك من حدثنى بأن الاقتراح بترشيح الرئيس نميرى لرئاسة الجمهورية جاء بمبادرة من بعض الأخوة من أعضاء مجلس قيادة الثورة.. ولعل الشعبية الكاسحة التى حققها الرئيس نميرى بدحر حركة الشيوعيين وانتزاع الجماهير للرئيس من غيابات السجن إلى موقع الرئاسة مرة أخرى فى مشهد تاريخى جعل البعض يبادر إلى تقديم ذلك الاقتراح باعتباره يقوى من وضع الثورة.. وقيل أن الرئيس نميرى لم يكن مبالاً لذلك ولكن إصرار زملائه دفعه دفعاً لقبول

الترشيح مذكراً إياهم بأنه إذا قدر له أن يأتي بتفويض شعبى فإنه سيقوم بحل مجلس قيادة الثورة وأنه سيتخذ القرارات وفقاً لرؤياه.

أذكر أن تلك الفترة شهدت تحركاً للرئيس نميرى على الصعيد الخارجى (الدول الغربية بصفة خاصة) وسط تقدير عالمى لمواقفه وإنجازاته بحل قضية الجنوب وجعل التنمية فى مقدمة اهتمامه فضلاً عن ضرب أكبر حزب شيوعى فى منطقتى الشرق الأوسط وأفريقيا وقدر لى أن أكون ضمن وفد الرئيس إلى بريطانيا فى رحلة كانت مزاجاً بين الزيارة الرسمية والخاصة.. كان الوفد يضم عز الدين السيد وجمال محمد أحمد وبونا ملوال وعمر محمد الطيب ( وكان رئيساً لجهاز الأمن القومى يومها) وآخرين. وإننى إذ أقف قليلاً عند محطة هذه الزيارة فلأنها ارتبطت بأثر عاطفى عميق فى نفسى لما لقيناه من تكريم وحرارة استقبال.

## غداء خاص علي مائدة الملكة:

وقد رأت الملكة إليزابيث – ملكة بريطانيا – أن نقيم دعوة غداء خاصة اتساقاً مع طبيعة الزيارة فى قصر بكنجهام، أقتصر على عدد محدود جداً من أسرتها.. زوجها وأبنها وبناتها وخمسة أعضاء من الوفد السودانى. فوجئنا لدى وصولنا للقصر وتقديم التحية للملكة برجل يقف فى ركن قصى من القاعة وإلى جانبه سيدة مسنة.. لم يكن الرجل إلا مستر براون – ناظر مدرسة حنتوب الثانوية على أيام دراسة الرئيس نميرى بها.. حال جلال الموقف دون اندفاعنا لعناق استاذنا القديم الذى كنا نكن له حباً جماً.. ودار خلال الغداء حديث عام تناول زيارة الملكة للسودان وزيارة الأميرة آن وداعبت الملكة السيد جمال محمد أحمد الذى قدم أوراق اعتماده لها أكثر من مرة.. ثم جرى حديث عن اتفاقية أديس أبابا والتى أثنى عليها المتحدثون وكان أكثرنا مداخله فى الحديث أخونا بونا ملوال.

## المستر براون يبكي أيامه في حنتوب:

وصلنا فندق الدوشتسنر " العريق حيث كنا نقيم وكان الرئيس نميرى بادى التأثر لتلك اللفتة التى جعلت الملكة تدعو شخصاً من خارج القوائم الرسمية والدستورية لغداء على مائدتها مما يمثل تكريماً كبيراً.. جرى نقاش حول المأدبة الملكية والخصوصية التى اتسمت بها. جاء أحد الحراس ليهمس فى أذن الرئيس بأن المستر براون وعقليته يلتمسان لقاءه.. نهض الرئيس وسعى ركضاً إلى حيث كان بروان حيث ضمهما عناق طويل.. وإذا بالرجل ينخرط فى بكاء حار مردداً جملة واحدة بلا انقطاع " أنا فخور بك يا جعفر.. أنا فخور بك " والحق أن أمر دعوة الملكة لأحد رعاياها للغداء على مائدتها أمر نادر الحدوث! هدأ الرجل قليلاً ثم أخذ يروى كيف جاءته بطاقة الدعوة الملكية مع رسول خاص فى قريته، وكيف كان شعوره وشعور أهل القرية الذين تداعوا إلى حيث كان يقيم ينشدون يقينا بأن الشائعة التى غطت سماء القرية حول دعوة الملكة كان أمراً صحيحاً وليس مجرد شائعة.. وكيف أن البطاقة علقت على ميدان يطل على إحدى الكنائس ليراها الناس.. يتفحصونها ويلمسونها ويطلقون الآهات.. ثم أخذ المستر براون يسألنا بنفاذ صبر عن بعض زملائه من تلاميذه القدامى.. وكان يحفظ عن ظهر قلب أسماء نوعين من طلبته.. النابغين منهم والذين عرفوا "بالشقاوة".

أخذ يسألنا عن " عبده " – سائق اللنش الموصل من مرساه بحنتوب إلى مدنى.. وعن " مصطفى " قارع الأجراس وعن " على " صاحب البوفيه حتى الحاجة التى تبيع "المريسة" تحت الشجرة فى أقصى الغرية حيث يقصدها العمال والعاطلون ونفر قليل جداً من الطلبة الأشقياء وعن " جيلى " رئيس السعاة الصارم وعن "حمودة" الحلاق!.. سأل عن زملائه من الأساتذة السودانيين ماذا فعلت بهم الأيام وعن أشياء وتفاصيل ظلت عالقة فى ذهنه رغم تعاقب السنين وكان فخوراً بلقيا الرئيس مرفوقاً بأحد تلاميذه.. أخذت الذكريات تنثال على خاطره فعاوده الحنين إلى أيامه بحنتوب التى واكب بناءها ودفعها

وتطويرها حتى استوت على سوقها، فأضحت راية خفاقة فى ميادين العلم بالسودان وانطلق يبكى بحرارة فى مشهد مؤثر لم نر مثيلاً له، إلا فى الدعوة الكبيرة التى أقامها المعاشيون البريطانيون والذين خدموا بالسودان حيث كانوا يعقبون على الخطاب الذى ألقاه نيابة عنهم سير جيمس روبرتسون بكلمة "YES" يطلقونها بأسلوب "كورالى" تعبيراً عن موافقتهم وكان بعضهم يمسح دموعه تأثراً.

قلت أن دعوة الملكة إليزابيث للمستر براون – إمعاناً فى تكريمها للرئيس كانت مفاجأة لنا مثلما كانت مفاجأة للرجل.. على أننا كنا نرى فيها دلالات تتجاوز مظاهر التكريم. فهى تنطوى على اهتمام بالضيف وبالتالى تقصى سيرته وتوجهاته ورغباته. أذكر أننا كنا يوماً برفقة الرئيس فى زيارة رسمية لأحدى العواصم الغربية.. وما أن انتهت الزيارة وعدنا لمقر إقامتنا حتى وجد كل عضو فى الوفد "لفافة" وضعت بعناية.. وهى عبارة عن "هدية" على نحو ما تفعل الكثير من الدول. ولدهشتنا كانت هدية كل عضو فى الوفد تنسق مع هوايته.. من كان يهوى التصوير زود بكاميرا حديثة متطورة.. ومن كان يهوى الصيد وجد فى لفافته بندقية صيد ثبت فوقها تلسكوب.. ومن يلعب "الطاولة" كانت هديته علبة نرد. إن ذلك يعنى أن أى مبعوث أو سفير أو مسئول يهبط تلك الديار فى مهمة رسمية تكون أدق المعلومات عنه متاحة للرئيس.. أما نحن فلا نأبه لذلك.. هناك طرفة بأن مبعوثاً من الصين الشعبية هبط بلداً عربياً لم يكن يعترف بالصين الشعبية فى زيارة استطلاعية.. ما أن دخل المبعوث على الملك حتى أخذ يكيل الشتائم للشيوعيين الملاحدة – ظناً منه أن الماثل أمامه هو سفير الصين الوطنية!!

شمل برنامج زيارة الرئيس لبريطانيا زيارة بعض الكليات والمواقع العسكرية وكانت فرصة طيبة لنا لنصيب شيئاً من الراحة وربما "التسوق".. وتهيأت لنا فرصة حضور جلسة لمجلس العموم البريطانى فما صادفت هوى فى نفوس كثير من أعضاء الوفد لما اتسمت به من مظاهر الفوضى والتهاتر.

وفى ختام الزيارة رأى المستر إدوارد هيث - رئيس الوزراء - أقامة حفل وداع خاص على شرف الرئيس ورفاقه فى مقره ( رقم ١٠ - دواتق ستريت).

.. كان حفلاً مريحاً - أخطرنا قبله بالتحلل من الأزياء الرسمية وكان المستر هيث ينطلق للجلوس بين الموائد التى صفت بلا ترتيب.. يطلق النكات فى خفة دم عرف بها، يبادر إلى انتزاع أحدى آلات النفخ من الفرقة التى كانت تعزف لحناً هادئاً فى ركن القاعة.. فينطلق يعزف فى إبداع.. شجعنا ذلك الجو المرح والدافئ على أن نتحدث دون قيود أو حذر.. وكان الجميع انخرطوا فى مجموعات يتطارحون الطرائف والنكات والحكايات الاجتماعية والسياسية الخفيفة. أذكر أن الرجل الجالس إلى جوارى سألنى عن انطباعاتنا حول زيارتنا لمجلس العموم.. ثم تحدثنا عن ديمقراطية وستمنستر والأحزاب البريطانية فلم اخف إعجابى بحزب العمال وأوضحت له أن جيلنا كان مشدوداً لأفكار ذلك الحزب سيما وأنه كان ينادى بالاشتراكية وأن مفكرين عظماء كانوا ينتمون إليه أمثال الدوس " هكسلى " وهـ.ج ويلز، وأرنولد ثوينبى وبرنارد شو وغيرهم.. صار الرجل يتحدث فى احترام لتاريخ ذلك الحزب.. ثم يبين أن الرجل لم يكن إلا أحد عثاة المحافظين!

## المهمة السامية... لقاء بالمحجوب والعم صالح:

وقعت حادثة خلال تلك الزيارة استأذن القارئ فى الوقوف لديها. استدعانا الرئيس نميرى - الأخ عز الدين السيد وشخصى - بعد منتصف الليل إلى جناحه بالفندق.. وذكر أنه يعلم أن السيد محمد أحمد المحجوب رئيس الوزراء السابق - يقيم فى لندن مستشفياً، كما ترامى إليه أن السيد صالح عثمان صالح - رجل الأعمال العريق - يقيم هناك أيضاً بعد الغبن الذى استشعره جراء الهجمة الظالمة عليه بمصادرة أملاكه والإساءة إليه. طلب إلينا أن نذهب إلى المحجوب لإخطاره بأن الرئيس علم بمرضه وأنه يطلب أن يعوده للاطمئنان على صحته.. وذكر أنه كلفنى شخصياً بذلك لعلمه المسبق بصلتى الوثيقة بالمحجوب الذى كان وزيراً لنا وأباً روحياً.. كما كلف الأخ عز الدين

بالتحدث مع السيد صالح - باعتباره " دنقلاوى " شأنه شأن الرئيس والسيد صالح.

خرجنا وعز الدين ونحن نستشعر سعادة غامرة برأى الرئيس وتكليفه لنا بهذه المهمة السامية ورأينا أن نذهب كلانا للرجلين عسانا نتعاون فى شرح مقاصد الرئيس وتلطيف الجو الذى توقعنا أن يكون عدائياً بعض الشئ.



الرئيسان نميرى وشاوشسكو يوقعان في بوخارست الاتفاق بإنشاء مقر مجلس الشعب (المجلس الوطني) بأم دريان- في الصورة د. منصور خالد وزير الخارجية وإبراهيم منعم منصور وزير المالية وعز الدين وبونا وآخرين.



في لندن(وستمنستر) الرئيس نميرى وبعض النواب
ويبدو السفير بلندن أحمد صلاح بخاري وإلى اليمين الكاتب وبونا ملوال (بالزي الوطني)
وعمر محمد الطيب (رئيس جهاز الأمن القومي).

ذهبنا للمحجوب فى شقته وتحدثت إليه بفحوى الرسالة وبنية الرئيس زيارته للاطمئنان على صحته.. تحدث عز الدين عن المرحلة التى تتطلب التفاف كل العناصر الوطنية والمخلصة وفق برنامج أو مصالحة يتفق عليها. صمت المحجوب طويلاً ثم اعتدل فى جلسته موجهاً حديثه لى:

"لقد صدمت اليوم فى سلامة تقديرك للأمور.. كأنك لم تتعلم شيئاً من "البروتوكول" الذى علمناك إياه فى الخارجية.. كيف تطلب منى أن أوافق على زيارة النميرى لى هنا.. تعلم أننى رجل يتنفس الديمقراطية، ويرى فيها الحل الأمثل لكل قضايا الوطن، وسيظل ما يفعله النميرى ورفاقه بتقويضهم للنظام الديمقراطى نقطة سوداء فى سجل تاريخ الوطن.. وأننى نذرت بقية عمرى

لمحاربة مايو متى عدت للسودان. ولكن النميرى يزور لندن بوصفه رئيساً لجمهورية السودان.. يحمل علم بلادى وجلالها.. وعلى أن أحيطه بالاحترام اللائق بصفته هذه.. وأن معركتى معه سوف تكون داخل السودان لا خارجه. أنقل للرئيس نميرى رغبتى أنا فى زيارته وله أن يدعو من يشاء من وسائل الإعلام! وبالفعل جاء المحجوب للقاء الرئيس الذى وثقاه بصورة فوتوغرافية.. ثم اتجه إلى الصحفيين ذاكراً المعانى الذى أشرت إليها سابقاً، ثم انخرطا فى لقاء كان وقفاً عليهما.. وقد هزت هذه الحادثة الأخ إدريس حسن رئيس تحرير الرأى العام فكتب تحت عنوان "الكبار يظلون كباراً" رأيت أن أضمها للأوراق الملحقة بهذه الذكريات. "عشنا وشفنا" بعض الناس يستنصرون بالقوى الأجنبية لغزو بلادهم تحت ذريعة تخليصهم من نظام ما.. فتأمل!

كان العم صالح حفياً بنا وكانت له معرفة سابقة بعز الدين، وما أن علم أننى ابن لأحد أصدقائه الذين عمل معهم بالتجارة يوماً ( وربطت بينهما علاقة محبة ومودة) حتى تهللت أساريره ودمعت عيناه. أصغى الرجل لما حمله عز الدين وبدا لنا أنه كان يحس بمرارة لا قرار لها – وهو محق دون شك – لصنوف المذمة والتجريح الذى لحقت به وأسرته خلال سنوات الهياج والتطرف.. وأبدى اعتراضه على الرجوع إلى السودان طالما بقيت مايو فى السلطة.. وأخيراً وبعد جدال امتد وقتاً طويلاً وافق على العودة بشرطين أولهما: أن ينشر اعتذار فى الصفحات الأولى لجميع الصحف الصادرة فى السودان عن كل ما لحق به وأسرته من تطاول وتهافت والتأكيد بالقول الصريح بأن كل ما ورد بشأنه هو محض افتراء. وثانيهما أن يكون موعد عودته للسودان مفتوحاً وليس مقيداً بموعد معين.. بعد شهر.. بعد سنة.. بعد عشر سنوات لا يهم.

رأينا أن الرجل محق فى كل ما ذهب إليه، وقررنا أن نحمل ذلك للأخ الرئيس ولكن فجأة دخل أحد أبنائه أو أخواته – لا أذكر – وما أن علم بمقاصد الزيارة وما انتهت إليه حتى ثار وتحدث فى انفعال ظاهر مقسماً بأن

شيئاً من ذلك لن يحدث، ولن تقبل قط اعتذاراً من أناس لا يحترمون أقدار الناس ومكانتهم.. وهكذا أخفقت المحاولة.

## الرحلة إلي رومانيا: قصيرة ومثمرة:

توجه الرئيس والوفد المرافق من لندن إلي رومانيا لتتويج المحادثات المضنية التي كانت جرت مع الجانب الروماني بشأن تشييد مقر مجلس الشعب إلي جانب ترقية العلاقات الثنائية في سائر المجالات.. وقد لحق بالوفد الإخوان د. منصور خالد وإبراهيم منعم وزير المالية حيث تم اتفاق حول الأمر. كانت المفاوضات شاقة كادت تنتهي إلي إرجاء التوقيع قبل أن يتدارك الرئيس الروماني الأمر وتم التوقيع النهائي في آخر لحظة بينما كان الوفد يحزم أمتعته ويتأهب للسفر. قام مبنى مجلس الشعب شامخاً أنيقاً على ضفاف النيل الأبيض في عين المكان الذي اقترحه السيد محمد عثمان يس يوماً ليكون مقراً لقاعة الثقافة والفنون التي طالما حلم بها وبشر.

## لجنة إعادة النظر في المصادرة والتأميم:

شكلت لجنة للنظر في أمر المصادرات والتأميم التي جرى إعلانها على عجل خلفت آثاراً ضارة على مصالح بعض المواطنين وعلى الاقتصاد السوداني برمته.. جرى تشكيل اللجنة بقرار جمهوري تم بموجبه اختيار القاضي المرموق عبد المنعم الزين النحاس رئيساً لها. دعمت بعناصر مختارة من الاقتصاديين ورجال التجارة والخارجية والإصلاح الإداري والجمارك والأمن وديوان المراجع العام وبعض الجهات المعنية الأخرى. وقد باشرت اللجنة أعمالها بإجراءات متأنية وصبورة أتاحت فرصة سماع الشهود والاستعانة بالمؤسسات العامة والوزارات المعنية لمراجعة المستندات ومكنت أصحاب الشركات والأعمال التجارية المصادرة من مخاطبة اللجنة ومناقشة أعمالهم ودراسة المستندات والدفوعات المقدمة منهم. وكانت محل دراسات دقيقة حول كل حالة حتي إذا فرغ منها وافانا بها رئيس اللجنة كى ترفع للرئيس الذي

يعمل النظر في توصياتها مع مجموعة من مستشاريه ووزرائه.. وفي حالة إجازتها يتم أفراغها في قرار جمهوري يتبعه استدعاء من يهمه الأمر لإبلاغه بما تم.. كانت اللجنة تؤدى عملها – تحت القسم وبسرية تامة.. وكثيراً ما فوجئ بعض الذين ردت بضاعتهم إليهم فقابلوا الأمر بمشاعر مختلفة. كان أول الذين نظرت اللجنة فى أمرهم وأصدرت توصية بشأنهم أحد إخواننا التجار. ما أن جلس أمام الرئيس الذى طلب منى تلاوة القرار الجمهورى – كالعادة – حتى هجم على الرئيس مقبلاً رأسه وانخرط فى نشيح وبكاء.. فالرجل كان يحس بأن ظلماً بينا حاق به، وهو أمر أثبتت اللجنة صحته. أما الحادث الثانى فيتعلق بأحد التجار الذى استدعيناه.. جلس معى بالمكتب ريثما يؤذن له بالمثول أمام الرئيس.. حاولت القيام بفروض الضيافة ولكنه تمنع قائلاً " أن آخر مرة شربت فيها قهوة مع الرئيس كانت عام ٦٨ " ولما أبديت دهشتى لأن الرئيس تسلم الحكم عام ٦٩ أردف " نعم.. الرئيس الأزهرى.. ما فى رئيس غيره " انصرفت لدراسة الملفات التى وضعت أمامى ولكنه قاطعنى " الأخ من وين " قلت" من حلفا ولكن والدى تاجر يعمل فى صناعة الزيوت بأم روابه وهو فلان " بدت علامات الارتياح على قسمات وجهه ولكنه باغتنى " أنت ود ناس أصليين.. إيه رماك تعمل مع "الشرَّامة" ديل!

مثلنا أمام الرئيس وأراد الرئيس أن يبدأ اللقاء بعبارات مجاملة قائلاً " يا حاج.. ما أظن أننا التقينا قبله كده ".. رد الرجل " بل التقينا حين كنا معتقلين بكوبر وجئت محفوفاً بالعساكر ووجهت لنا الإساءات والشتائم " أشار إلى الرئيس بقراءة القرار الجمهورى القاضى بإرجاع ممتلكاته وسأله " إن شاء الله تكون مبسوط " ولكن الرجل أجاب بالنفى ذاكراً أن أمولاً كانت بالخزينة وكميات ضخمة من الأقمشة لم يرد لها ذكر.. جماعتك عايزين يلغفوها"!

بدا أن صبر الرئيس أخذ فى النفاذ.. فوقف معلناً " اللقاء انتهى.. أذهب مع الأمين العام وناقش معه هذه الصغائر "!

وكما أنهت لجنة إعادة النظر فى المصادرات والتأميمات عملها على نحو مدقق، نجحت رصيفتها لجنة إعادة المفصولين من الخدمة والتي شكلت برئاسة السيد مهدي مصطفي فى إعادة المئات من المفصولين عن الخدمة إلى عملهم ونقل آخرين والابقاء علي أوضاع من ثبتت بينات علي مجافاتهم للوائح الخدمة العامة.. وكان الرئيس قد أعلن عن تشكيل هذه اللجنة في لقاء جماهيري بمدينة كوستي حيث ذكر أن الثورة جاءت لإعلاء رأيه العدالة وأنها ما جاءت لتعاقب الأسر بجريمة أبنائهم.

عقد مؤتمر للمثقفين في أكتوبر ١٩٧٢م تحت شعار دعم الاتجاهات الفكرية القادرة علي تحديث المجتمع والارتقاء به، حفل بالدراسات القيمة والبحوث الجادة التي قام بإعدادها نفر من أميز المثقفين السودانيين تناولت الخلفية التاريخية والحضارية للثقافة والمثقف، ودور المثقف في العمل العام، وأزمة الثقافة والمثقف السودان، أعقبتها مداولات وأفكار سرعان ما طواها النسيان. أذكر أن الرئيس كان مهتماً بالمؤتمر وقبل أن يكون راعيا له. بل أنه أعلن فى كلمته عن قراره بإنشاء أكاديمية قومية للاضطلاع ببعض المهام، بينها تشجيع الدراسات القومية في مختلف المناشط الموجهة نحو حل القضايا المحلية والقومية، إلي جانب تشجيع البحوث الميدانية والنظرية الهادفة إلي تطويع معطيات الفكر والبحث العلمي للواقع السوداني ومتطلبات التنمية وإثراء الفكر المحلي ورصد جوائز تقديريه تمنحها الدولة علي شكل هبات سنويا للنابغين والباحثين في هذا المجال.

هذا وقد تولى بعض الباحثين والقائمين علي أمر المؤتمر مواقع سامية ومؤثرة في مرافق الحكم فى فترات لاحقة. علي أن أمر الثقافة في السودان أضحي أمراً محيراً إذ قام التنظيم السياسي فيما أذكر بعقد مؤتمر آخر لم يترك أثراً يذكر. ولعل الجهد المشهود الذي بذله د. إسماعيل الحاج موسي حين كان مسئولاً عن الثقافة يمثل إنطلاقة بارزة في هذا المجال.. حيث شهد السودان مهرجاناً أمتد أسابيع استضاف خلالها عددا من المفكرين والشعراء العرب وبعض الفنانين فى مختلف ضروب الفن، وعقدت مسابقات أثمرت عن

اكتشاف مواهب طيبة مازالت ترفد الغناء السوداني وبعض ضروب الفنون الأخرى. ورغم تلك المحاولات فما زال الناس يتحدثون عن غياب منهج واضح يرتقي بالثقافة السودانية بل ما زالوا يتنادون لمناقشة أزمة الثقافة السودانية علي نحو ما كنا نفعل قبل خمسين عاما!!.

## دعاني الرئيس للغداء.. وقرر إعفائي في المساء:

كنت أشارك في اجتماعات لجنة إعادة المفصولين المنعقدة في الجناح الجنوبي من مبنى رئاسة الجمهورية حين تلقيت إستدعاء من مكتب الرئيس الذي كان يجلس مع الأخوان د. جعفر بخيت ود. منصور خالد.. كان البشر يعلو وجوههم وأمامهم سجل أنيق صفت بداخله الأوراق بعناية ولم يكن ذلك السجل إلا "مشروع الدستور" الذي اضطلعا بالدور الأكبر في إعداده والذي أجازه مجلس الشعب قبل قليل حيث تم رفعه لرئيس الجمهورية توطئة لإقراره وإصدار المراسم الجمهورية الخاصة بذلك.

تحدث الرئيس إليهما معبراً عن ارتياحه لإتمام تلك المهمة التاريخية منوهاً بالجهد الهائل الذي بذلاه في إعداده وتقديمه وإجازته.. تحدث بأنه سوف يقوم بدراسة ومراجعة المشروع مع الهيئة الوزارية لمكتبه من غير الوزراء الذين شاركوا جميعاً في المداولات بشأنه في مجلس الشعب بحكم وظائفهم.. وكان يعني بذلك الصديق أحمد بابكر عيسى الأمين العام لمجلس الوزراء وشخصي حيث كان كلانا في درجة نائب وزير (وزير دولة على أيامنا تلك) ولم يكن ميسوراً لنا بحكم وضعنا الدستوري حضور جلسات المجلس والمشاركة في مداولاته – ما أن إنصرف الزميلان منصور وجعفر حتى اقترح الرئيس أن أرافقه إلي داره للغداء معاً وتبادل وجهات النظر حول خطوات مراجعة المشروع وأسلوب الاحتفال بإجازته بشكل نهائي وأردف – إمعاناً في إغرائي – اليوم الحاجة عاملة ملاح "جرجير بالقراصة" وكان في الأمر إشباع لفضولي وإغراء لم أكن لإعتذر عنه..

كان الرئيس قد تلقى دعوة من نقابة السكة الحديد لزيارة عطبرة.. ونقابة السكة حديد فيما هو معروف تعد أكبر نقابة عمالية في بلادنا وتتمتع برصيد هائل من التاريخ النقابي والنضالي في معركة الإستقلال، بل أفرزت عدداً من النقابيين الذين اشتهروا بالصلابة مثل سليمان موسى والشفيع أحمد الشيخ وقاسم أمين وعبد الله بشير ومحمد الحسن والحاج عبد الرحمن ودهب عبد العزيز وغيرهم، وقد اقترحت على الرئيس أن لا يعمد إلي إجراء أي تعديل على مشروع الدستور المقدم إليه من نواب الشعب.. وأن يعمل على توقيعه خلال المهرجان الشعبي التي كانت النقابة تعد له.. وأن يعلن في خطاب أنه رأي تكريماً للنواب الذين توافروا عل إعداده وإجازته والذين يمثلون الإرادة الشعبية، وتكريماً لنقابة السكة الحديد بماضيها الحافل العريق، وتكريماً لذلك الدور الخالد في تاريخ السودان، فإنه إنصياعاً لكل تلك المعاني فإنه يقدم على توقيع أول دستور في تاريخ الوطن ثم يقوم بالتوقيع في تلك المناسبة أمامهم بالفعل لقيت الفكرة قبولاً لديه وكلفني بإعداد خطاب "ناري" على حد تعبيره أشار إلي بعض قسماته حتى يقوم بإلقائه خلال رحلته إلي عطبرة بعد أيام وأشار إلي بمرافقته لعطبرة ضمن الوفد المرافق.

كانت الصحف تشير إلي احتمال حدوث تعديل وزاري وشيك.. بل أن الصحفي الأستاذ محمد الحسن أحمد أورد بعض ملامحه.. وكان الرئيس أكد خلال اللقاء أنه ربما يصدر تعديل وزاري بعد التوقيع على مشروع الدستور وإصدار المراسم الجمهورية المتعلقة به.. مما يعني أن حدوثه لن يتم قبل العودة من عطبرة.

كنا في مساء ذلك اليوم ضيوفاً على الأخ عز الدين السيد – الذي كان يحتفل بقدوم مولود جديد. وكان مجمعنا يضم عدداً من الوزراء وكان طبيعياً أن يكون التعديل الوزاري الوشيك محوراً للحديث.. ولكني قلت لهم بثقة العليم بخبايا الأمور أن ما تتناقله الصحف لا يعدو أن يكون ضرباً من التخرصات. أن التعديل لن يتم قبل نحو من أسبوع مؤكداً أن ما أقول لا يعد ضرباً من التخمين وأنني أحدثهم ولدي الخبر اليقين وسترون!!! امتد بنا السمر.. وليالي الصيف

في بلادنا تغري بالسمر في الميادين الخضراء المكشوفة والليالي المقمرة والنسمات اللطيفة.

عدت إلي داري فإذا بي أسمع قرعاً على الباب.. خرجت استطلع النبأ فإذا بأحد أعضاء سكرتارية الرئيس نميري (ولعله الأخ السيد حسين صالح عبد العظيم) يسلمني خطاباً مغلقاً من بين الخطابات الكثيرة التي كان يحملها، وينطلق بسيارته العسكرية التي كان يقودها أحد الجنود.

أطلعت عليها في عجل فإذا بها تفيد بأن نميري بوصفه رئيساً للوزراء قد تقدم بإستقالة حكومته إلي السيد رئيس الجمهورية وأنه تم تبعاً لذلك إعفاء جميع شاغلي المناصب الدستورية.. أذهلتني المفاجأة.. وفي الصباح كنت هدفاً لتقريع زملائي الذين غضب بعضهم لأنهم حسبوا أنني كنت أخادعهم، ولما أكدت لهم أنني فوجئت مثلهم تماماً، ذكر لي أحدهم – ولعله الصديق د. عون الشريف قاسم– بأن الخطابات المعنونة للوزراء صادرة من مكتب الأمين العام لرئاسة الجمهورية (أي مكتبي ).. وعجبت وتأثرت كثيراً!!

## التعديل الوزاري.. الشيوعيون أول من يعرف!

كان يوماً شديد الحرارة حين اقترح على د. يوسف بشارة أن نقوم بزيارات لبعض زملائنا الذين تم إطلاق سراحهم.. وقصدنا دار زميلنا صلاح مارزى –وكان وكيلاً للإسكان حين جرى اعتقاله بتهمة القيام بنشاط شيوعى وبينما نحن نغادر داره نادى أحد إخواننا من الأطباء على د. يوسف وتحدث إليه لبعض الوقت.. عاد يوسف والذى كنت انتظره فى عربته وذكر لى أن الرجل أخطره بأن التشكيل الوزارى الجديد سيعلن مساء ذلك اليوم وأننى والأخ مهدى سنكون خارج التشكيل.. ولم أفاجأ بذلك ولكن المفاجأة تمثلت فى صدور التشكيل لاحقاً مطابقاً لما أشار إليه ذلك الشخص.. وتيقنت أن العناصر الشيوعية مازالت تتغلغل فى جهاز الدولة.. وبالفعل علمنا أن إحدى

الطابعات نقلت ورقة الكربون التى طبع عليها التشكيل قبل صدوره بقرار جمهورى إلى قيادة الحزب الشيوعى.

قصدنا دار الاتحاد الاشتراكى فإذا بالأخ خليفة خوجلى.. وكان مسئولاً فى الحزب – يخطرنى بأن الرئيس سأل عنى أكثر من مرة ووجه بأن أقابله فى الأمانة العامة لمجلس الوزراء على التو.. وبينما كنت أهم بمغادرة المبنى قابلنى الأخ عبد الله الحسن الخضر وأفادنى بأنه عائد لتوه من مقابلة الرئيس الذى اسند إليه وزارة الداخلية. وصلت إلى الأمانة العامة لمقابلة رئيس الجمهورية فوجدت معه المرحوم النذير دفع الله رئيس مجلس الشعب والصديق خلف الله الرشيد – أمد الله فى عمره. شرح الرئيس ملابسات إجراء التعديل الوزارى والذى اضطر إلى إجرائه على عجل للقضاء على الشائعات والتساؤلات وتخرصات الصحف.

وتساءلت عن صدور المراسم من مكتبى وفى غيابى أجاب سيادته أن الذى شجعه هو وجود أحد زملائنا من الوزراء، وكان وزيراً وهو قانونى كان نفوذه واضحاً للجميع بعد أن أحكم قبضته على مفاصل الدولة وتزايد نفوذه على نحو ملحوظ.. فأبديت ملاحظاتى حول قرار إعفاء الوزارة باعتباره غير متسق.. فقد ذكر أن رئيس الوزراء تقدم باستقالة حكومته لرئيس الجمهورية ولم ينص على أن رئيس الجمهورية قبل الاستقالة.. كما لم يأت ذكر لمن يتولى تصريف أعمال الحكومة فى خلال فترة الفراغ الذى نشأت عن إعفاء الحكومة وقد جرت العادة أن ينص على أن يكلف الوزراء بالبقاء فى أماكنهم حتى يتم تشكيل الحكومة أو تكليف الوكلاء بتصريف أعمال الوزراء حتى لا يحدث فراغ. ثم أن حل الرئيس لمكتبه وهو بصدد إجراء مشاورات هو أمر لا يحدث كثيراً.. وكلها أمور تنم عن العجلة التى تم بها الأمر

ولدهشتى قال الرئيس: هل تقول ذلك لأننا قلنا أن " فلاناً " صاغ القرار.. أنت تعرف أنه قانونى ضليع، وأرجو أن لا يكون ما بينكما دافعاً لقولك هذا!. كان الرجل المذكور فى طليعة المثقفين فى السلطة ولكن مجالس النميم التى طالما صنفت الناس على أساس مذهبى جعلت منا خصمين.. وهو أمر يجافى

الواقع. كان أخاً كريماً وزميلاً قديماً.. كنا نتبادل المكاتيب على عهد الطلب.. صحيح أننا ما التقينا كثيراً على مبدأ أو نهج.. ولكننا - بالرغم من ذلك – ما تباعدنا ولا تباغضنا. انصرف السيدان النذير وخلف الله وبقيت مع الرئيس الذى ذكر أنه رأى أن يعرض على موقعاً أستطيع من خلاله خدمة الناس.. منصب المحافظ.. أبديت اعتراضى وذكرت أن كل عمل ينبغى أن يتوافر فيه عنصرا الرغبة والاستعداد.. وأننى افتقر إلى العنصرين.. ثم تحدث إلى عن ترشيح البعض لى محافظاً لكردفان! اعتذرت ورشحت بدورى الأخ أحمد صلاح بخارى – سفيرنا بلندن – لذلك المنصب لما يتمتع به من قدرات ( وكان منصب المحافظ يعادل درجة وزير). وبالفعل اتصل على الفور بالأخ حسين سيد أحمد مدير المكتب التنفيذى بالخارجية للاتصال به لاحاطته بالاختيار مبدئياً.. جرى نقاش انتهيت خلاله بأننى أفضل أن أعود إلى حيث أتيت.. سفيراً بالخارجية.. ابتهج الرئيس وأذكر أنه التفت إلى خريطة العالم التى تغطى حائط مكتبه طالباً إلى أن اختار أى موقع أريد.. شكرته وذكرت أنى سأناقش الأمر مع د. منصور وزير الخارجية. وفى ظهر أحد الأيام أوردت الإذاعة السودانية نبأ يفيد بموافقة حكومة يوغسلافيا على ترشيحى سفيراً لديها.. ولم يكن لدى علم بذلك البته! وهكذا ودعت عملى برئاسة الجمهورية وعدت سفيراً بالخارجية بعقد مؤقت رغم أننى من بناتها، لأن المنصب الوزارى يحتم إنهاء الخدمة و الإحالة بالمعاش. تقبلت ذلك بروح طيبة.. وكنت خلال عملى فى رئاسة الجمهورية أتمتع بدرجة " نائب وزير " أو وزير دولة على أيامنا هذه، وكان هناك ثمانية من زملائى يتمتعون بنفس الدرجة وهم السيدة نفيسة أحمد الأمين وفخر الدين محمد ومحمود جادين ومبارك سناده وبانقا الأمين ومصطفى جيش وبونا ملوال إلى جانب أحمد بابكر عيسى وشخصى.

وهكذا تم اختيارنا سفراء أحمد سليمان وعثمان عبد الله وأنا بعقود مؤقتة!.

## وداعاً رئاسة الجمهورية:

تركت الأمانة العامة لرئاسة الجمهورية بعد فترة عمل امتدت عامين تعرفت خلالها إلى الرئيس نميرى عن قرب. كان نميرى زميل دراسة على عهد الطلب فى حنتوب، ولكن ظروف الحياة باعدت بيننا. حيث ضرب كلانا فى فجاج الأرض.. ما التقينا إلا بعد نحو من عشرين عاماً أثر تفجير ثورة مايو بقيادته وكنت أعمل وقتها سفيراً تحت علم بلادى بالخارج.. وما أن وقع الاختيار على لهذا الموقع - بعد عامين من اندلاع الثورة - حتى تعرفت عن كثب على بعض الجوانب البارزة فى شخصيته..

كان نميرى على تلك الأيام فى أوج عنفوانه وفتوته.. كان يملك طاقة هائلة للعمل المتواصل.. حيث يأتى للقصر ( الأمانة العامة ) فى الصباح الباكر ثم يمضى بقية يومه فى مكاتبه المتناثرة لتصريف الأعمال التى يضطلع بها فى مجلس الوزراء أو القيادة العامة للقوات المسلحة.. ويعود ليمضى الساعات الأولى من المساء فى الأمانة العامة لرئاسة الجمهورية - شأن سائر المسئولين فى الدولة الذين يعودون لمواصلة عملهم خلال ساعات المساء - ثم يعرج على الاتحاد الاشتراكى بوصفه رئيساً له وأميناً عاماً فى نفس الوقت، لإجراء لقاءات وعقد بعض الاجتماعات.. وكثيراً ما كان يمضى الساعات الأخيرة فى المساء متفقداً بعض المرافق الخدمية. ولعل حبه للعمل الميدانى هو الذى دفعه للقيام بزيارات عمل إلى سائر أقاليم السودان وحواضره وقراه القصية. كان يجد متعة فى اللقاء المباشر بالجماهير والتحدث إليها مبشراً بفكر الثورة، معززاً الأفكار والمبادئ التى تطرحها، مستنفراً إياها كى تهب لتعزيز حملات مكافحة العطش وتطوير الريف وجهود مجالس الآباء والمعلمين فى إنشاء المدارس والمعاهد ومحاربة الأمية.. وكانت الجماهير تهب إلى لقاءاته فى حفاوة وشوق لما أتسمت من " حميميه " وبعد عن الموجبات المراسمية الجامدة.. وتجد فى بساطته وصراحته ودفء أحاديثه وتلقائيته بعضاً من ذاتها.. كان يجلس إليها ويأكل معها ويتبسط فى حديثه مع شبابها، ويتحدث مع قادتها " وأهل الحل والعقد

فيها " بتوقير واحترام.. وكان فى تلقائيته وجسارته ما يلهب حماستها ويعزز من تعلقها به باعتباره قائداً من طراز جديد وفريد من ذلك أنه كثيراً ما كان يتقافز أمامها إلى سقف القطارات ليخاطب جموعها الحاشدة التى طالما اكتظت بها ميادين المحطات وساحاتها..

ويذكر الكثيرون واقعة ظل الناس يتناقلونها طويلاً حيث استوقفت موكبه الجماهير الحاشدة فى إحدى المناطق كى ترحب به فى لقاء خارج إطار برنامجه فى إحدى قرى الجزيرة نهار يوم شديد الحرارة.. احتشدت الجماهير تحت ظل شجرة تقيهم لفحة الرمضاء، بينما غصت الساحة بالألوف من الواقفين تحت الهجير. جئ بكرسى له كى يخاطب الجماهير من فوقه.. فإذا بهم يفاجأون به يقفز فى رشاقة وخفة إلى أعلى الشجرة التى كان يستظل بها " المحظوظون " وينطلق مخاطباً البسطاء الذين احتشدوا تحت لهيب الشمس على مد البصر.. كان الناس يتناقلون مثل هذه الواقعة – على بساطتها – كى يستدلوا بها على بساطة الحاكم وتواضعه.. فيما كان البعض يسوق شواهد أخرى تنهض شاهداً على جسارته وشجاعته، على نحو ما حدث خلال إحدى زياراته المتعددة لدارفور حين خصته إحدى القبائل باستقبال كبير حيث صفت الجياد الصافنات فى استعراض بديع أخاذ جرى على أثره سباق بين فرسان القبيلة.. فوجئ الحاضرون برئيسهم يسارع إلى استئذان أحد الفرسان وامتطاء فرسه والانطلاق بها بين المتسابقين بأسلوب ينم عن دربة ودراية. كان الرئيس يجد متعة فى لقائه بالجماهير والبقاء وسط جموعها يستشعر "أمومة" و"أبوة" حرم منها دهراً، فى تجاوز لكل فروض البروتوكول الذى طالما ضاق بها. حدث مرة أن كان فى زيارة لإحدى مدن كردفان.. وكان فى طريقه سيراً على الأقدام مع علية أهل المدينة ووجهائها قاصدين الميدان الشعبى لحضور لقاء جماهيرى والذى لا يبعد كثيراً عن منزل "المفتش" الذى كان يقيم غداء على شرفهم.. اعترض طريقهم سور من القش (صريف) فتحاماه مرافقوه من كبار رجال الدولة وعملوا على الالتفاف حوله، فإذا بالرئيس يقفز عالياً فى الهواء متخطياً السور. وهو أمر شد الناس فاختلطت عبارات الإعجاب بزغاريد النساء! كانت مثل هذه الأمور الصغيرة

جسراً يصل نميرى بقلوب الناس البسطاء الذين كانوا يجدون فيها تعبيراً عن بعض القيم التى نشأوا عليها مثل البساطة والشجاعة والأصالة.

وأننى لاعترف بأننى لمست شواهد على أصالته وتجرده وجسارته وزهده خلال فترة عملى معه على أيامنا تلك.. فبالإضافة إلى ما لمسته من حبه لهذا الوطن وتفانيه فى العمل على تطويره والارتقاء به ما وسعه الجهد، كان نفوراً من أبهة السلطة ومظاهرها.. وما كان معنياً ألبته بأى نفع أو كسب يعود إليه. أذكر أنه تلقى كثيراً من الهدايا خلال زياراته المتعددة التى قام بها للخارج خلال أعوام الثورة الأولى، كما تلقى العديد منها خلال زياراته للأقاليم تعبيراً عن الحفاوة والتقدير كما جرت العادة.. كان يأمر بإيداعها فى مخازن القصر باعتبارها قدمت إليه بوصفه رئيساً للسودان وليست لشخصه. أذكر أن الأخ مهدى مصطفى وزير رئاسة الجمهورية يومها رأى – فى معرض مسعاه لتحديث أساليب العمل وضبطها – أن أمر بتشكيل لجنة لجرد محتويات القصر وتفاصيل مخزوناته، فإذا بنا نفاجأ بعشرات المقتنيات من الذهب الخالص والخناجر والساعات التى رصعت بالأحجار الكريمة إلى جانب " البيلوهات " التى صنعت من المعادن القيمة والعاج والأبنوس والمرمر مكدسة فى غير ترتيب، كان جلها يمثل الهدايا التى قدمت للرئيس. وقد رؤى يومها إقامة "معرض هدايا الشعب " فى ميدان أبو جزير فى قلب العاصمة، حتى يتمكن الشعب من رؤيتها، بعد تعزيزها بشواهد تشير إلى إنجاز الثورة.. وقد أوكل أمر الإشراف عليه للوزير المبدع عمر الحاج موسى وزير الإعلام يومها، والذى كون لجنة من الفنانين التشكيليين والمختصين بالديكور والمتمرسين فى إنشاء المعارض وغيرهم من الخبراء الذين وقفوا عليه فتم إخراجه على نحو أخاذ ورائع. أذكر أننا نقلنا للرئيس اقتراحاً من الأخ عمر بأن يبادر إلى القيام بطواف خاطف حول المعرض قبل افتتاحه رسمياً للوقوف على انطباعاته وملاحظاته وربما مقترحاته. رحب الرئيس بالفكرة ثم أخذ يبحث فى جيوب بزته العسكرية عن حافظة نقوده، ليخرج من ثناياها ورثة صغيرة باليه صفراء من فرط القدم راجياً أن يعكف أحد الفنانين على نسخها ووضعها فى إطار فنى

كى تكون فى واجهة زوار المعرض.. كانت الورقة تحمل كلمة واحدة هى "الصبر". ذكر الرئيس أن الورقة عزيزة على نفسه وأنها ظلت فى الحافظة يحملها لأكثر من ثلاثين عاماً، ثم روى لنا قصتها فى حديث حزين ومؤثر لا أرى حرجاً فى إيراده: ذكر أنه تخرج من الكلية الحربية واختيرت مدينة شندى كى تكون محطاً لعمله.. فأبى والداه – من فرط سعادتهما – إلا أن يكونا فى وداعه بمحطة الخرطوم حيث تعرضا لحادث مرورى مؤسف لدى رحلة عودتهما لأم درمان.. بلغه النبأ فور وصوله وأعدت عربة خاصة لعودته حتى يكون إلى جوارهما بمستشفى الخرطوم.. فوجئ لدى وصوله بوفاة أحدهما بينما كانت الحالة الأخرى حرجة.. ما أن دخل الغرفة ورأى والده حتى فاضت روحه إلى بارئها.. ذكر أن الفاجعة هزت مشاعره هزاً وتهاوت أطرافه وعجزت عن حمله فاتخذ من جدار الغرفة متكئاً وهو ينخرط فى بكاء ونشيج.. وفجأة وقعت عيناه على ورقة صغيرة باليه على أرض الغرفة، والتقطت عيناه كلمة " الصبر " فزودته بشحنة عالية من التحمل والثبات واليقين، فالتقطها وظل محتفظاً بها.. وبالفعل خطت الكلمة فى صورة إبداعية واجهت زائرى المعرض لبهائها ورونقها، وصار رواد المعرض يتأملونها دون أن يدركوا دلالتها أو دواعيها..

وكان نميرى زاهداً متعففاً لم يكن المال أو الكسب يمثل أحد همومه وشواغله.. أذكر أن مدير أحد البنوك هاتفنى يوماً وتحدث إلى بأسلوب ينم عن الحرج الشديد بأن الرئيس أرسل شيكاً لسحب مبلغ ثلاثين جنيهاً من حسابه المودع لديهم، وأن الرصيد المتبقى لا يكاد يغطى قيمة الشيك. أمكن معالجة الأمر وتطويقه وسرعان ما استدعيت سكرتيرته الخاصة – السيدة خديجة الشبلى – فأصدرت إليها تعليمات بأن لا ترسل شيكاً من الرئيس قبل عرضه على تفادياً لمثل ذلك الموقف. أردت بهذا أن أشهد بأن الرجل لم يكن يهمه إلا صون المال العام وكان يضيق بأية مخصصات توضع من المال العام لمقابلة مخصصات منصبه، وكنا نعمل جاهدين لإقناعه بأن مثل تلك المبالغ الزهيدة مرصودة فى موازنة الدولة ونصت عليها لوائح مخصصات الرئاسة وهى خاضعة للمراجعة.

وبقدر ما كنت حزيناً وأنا أكتب هذه السطور بعد ثلاثين عاماً وأنا أرى اليوم الرئيس نميرى يغالب الظروف كى يكفل لأسرته حداً أدنى من وسائل العيش الكريم، بقدر ما استشعر سعادة وفخاراً لما ينطوى عليه ذلك من دلالة على عفة الرجل ونزاهته وطهارته، باعتبارها رداً على الشائعات الفجة والسخيفة التى ظل بعض السفهاء يروجون لها بين الناس، حول تعديه على أموال الدولة واكتنازه الملايين خلال ولايته التى امتدت لستة عشر عاماً.. حتى أوضحت المراجعة والبحث المدقق فى كل وثائق القصر وأوراقه زيف وبطلان كلمات خرجت من أفواههم أملاها الحقد والافتئات.. "كبرت كلمة تخرج من أفواههم أن يقولون إلا كذباً!".

ولمست أصالة الرجل فى احترامه وتوقيره لأساتذته ومعلميه القدامى. أذكر أننا فكرنا فى اختيار وكيل للأمانة العامة للرئاسة بعد أن توسعت دائرة أعمالها وتشعبت.. قدمت لائحة للرئيس تتضمن أسماء بعض الذين رأيت ترشيحهم لملء المنصب، مشفوعة بنبذة عن كل واحد منهم.. وفجأة تهللت أساريره وهو يرى اسم الأستاذ عبد الباقى محمد - أستاذه القديم - بين المرشحين، وما أن علم أنه يعمل حالياً مساعداً لوكيل وزارة التربية حتى طلب التحدث إليه عبر الهاتف يدعوه إلى لقياه فى القصر.. وأذكر أن الرئيس كان يشعل سيجارة خلال استغراقه فى مراجعة بعض الأوراق التى وضعت أمامه بانتظار وصول السيد عبد الباقى، الذى ما أن أخطر بوصوله حتى سارع إلى إطفاء سيجارته فى جزع واضطراب وحمل المطفأة بعيداً وهرع لاستقبال ضيفه على باب المكتب.. ثم أخذ يتحدث مع أستاذه القديم باحترام ما أخطأناه... وأبدى تفهماً للظروف التى لم تمكنه من تولى الموقع. ولطالما ردد أستاذنا القديم عبد الحليم على طه قصة احترام الرئيس لأساتذته فى تأثر بالغ، حيث ذكر أن الثورة رأت فى أيامها الأولى تكريم أهل العطاء من رجال الوطن فى حفل أقيم بالمسرح القومى بأم درمان.. وكان الرئيس يتوسط المنصة الرئيسية بين المشرفين على الحفل الذين كانوا ينادون على كل من يراد تكريمه، ليعلق الرئيس وساماً على صدره.. يروى أستاذنا أنه ما أن نودى على اسمه حتى بادر الرئيس

بمغادرة المنصة وسار خطوات للأمام ليقابله فى منتصف الطريق خلافاً لما هو مألوف.. وظل أستاذنا عبد الحليم يروى الواقعة فى تأثر بالغ. وتجئ على خاطرى حادثة طريفة فى هذا المجال.. إذ التقيت يوماً أستاذنا النصرى حمزة برفقة أحد أبنائه لعله الدكتور محمد النصرى.. وما أن بادلنى التحية حتى بادر بسؤالى عن أن كنت مازلت أعمل معلماً بالمدارس الثانوية، أفاده نجله بأننى أعمل أميناً لرئاسة الجمهورية مع الرئيس نميرى تساءل بأسلوبه المحبب عن طبيعة عملى وعما إذا كنت مسئولاً عن وزارة بعينها.. وأوضح له د. محمد إننى اعتبر مستشاراً للرئيس فتساءل أستاذنا " هذا عمل مريح.. وهل تتقاضى راتباً على الاستشارة "؟ ثم رأى أن يحملنى رسالة إلى الرئيس يطلب فيها تعيينه مستشاراً لديه ثم أضاف: ولكن أبلغه بأن لى شرطين أولهما أن أتقاضى راتباً لا يقل عن مائة ألف جنيه شهريا ( وكان مبلغاً أسطورياً بمقاييس تلك الأيام ) أما الشرط الثانى فهو أن أقول له " غلط.. غلط ".. فى كل أمر يستشيرنى فيه! وضحكنا. وحملت الوصية للرئيس صبيحة اليوم التالى وكنت أعرف مدى حب أستاذنا له.. فقد كان نميرى مولعاً بمادتى العلوم والرياضيات التى كان يلقنها أستاذنا النصرى لتلامذته ومبرزاً فيها فصلا عن صداقة تشده لأبنه عبد العزيز.. وما أن ذكرت الواقعة للرئيس حتى استغرق فى الضحك.. واقترح زيارة استأذنا القديم فى داره لننعم بظرف حديثه ونفيد من تجربته وعلمه كما أفدنا منها ونحن صبية فى مقتبل العمر.

ولاحظت خلال تلك الفترة أن الرجل كان يعمل جاهداً لإشراك أكبر عدد من الكفاءات للإسهام فى معركة بناء الوطن وتقدمه، والذى كان يمثل هاجساً له وهما. وخلافاً لما يعتقد بعض الناس فإنه قام باختيار عدد من الوزراء والقيادات أحياناً اعتماداً على معلومات تشير إلى كفاءتهم دون سابق معرفة شخصية بهم.. بل حدثنى بأنه يحتفظ بمفكرة تحوى العديد من الأسماء فيكلف أجهزته عادة بالتحرى عنها لملء بعض المناصب الرفيعة اعتماداً على معلومات تشير إلى أهليتهم وجدارتهم لملء تلك المواقع.

أذكر أنه طلب إلى يوماً الاتصال بأحد قدامى القضاة المرموقين سابقاً، كي أدعوه للقياه بمبنى الأمانة العامة مساء ذلك اليوم.. هو القاضى محمد يوسف مضوى.. وأذكر أن السيد محمد جاء إلى مكتبى قبل الموعد المحدد بوقت قصير والدهشة تعلو محياه جراء تلك الدعوة المفاجئة، والتى أوضحت له عدم معرفتى بدواعيها.. رافقت الزائر إلى مكتب الرئيس المجاور وبدا أنهما لم تلتقيا من قبل.. ابتدر الرئيس الحديث موضحاً أنه سمع الكثير عن أمانة ضيفه وكفاءته وطهارته، وأن الرأى استقر على اختياره لتولى منصب رفيع يعتبر من أسمى المناصب فى جهاز الدولة، وهى رئاسة مجلس الشعب القومى ( البرلمان ) الذى سيضطلع بوضع أول دستور دائم فى تاريخ السودان، ثم مضى فى تعداد الاعتبارات الأخرى التى جعلته يلجأ لاختياره. بدا الارتياح واضحاً على وجه القاضى مضوى فتحدث فى عبارات مزاجها التأثر الشديد شاكراً للرئيس ثقته ومعبراً عن اعتزازه بتلك الثقة ثم عبر فى عبارات رقيقة عن أمله فى أن يتفهم الرئيس الظروف التى تضطره للاعتذار عن قبول المنصب، باعتباره نشأ فى السلك القضائى وتمرس فيه، وأنه لا يكاد يتصور العمل خارج دائرته، إلى جانب بعض الظروف الشخصية والصحية التى أوردها.. أذكر أن الرئيس عبر عن إعجابه بأمانة الرجل ذاكراً أنها المرة الأولى التى يعرض فيها منصباً رفيعاً على أحد، فيعتذر عن قبوله.. وتمنى أن يكون الكثيرون على هذا النحو من الأمانة والاعتداد وقد بادر زميلنا السفير حسان المصباح إلي نشر الواقعة فى صحيفة الرأى العام اعتماداً على الرواية التى أسلفت.

الفصل السابع

# العودة للبيت القديم

## تعييني سفيرا بيوغسلافيا:

كانت السفارة بيوغوسلافيا إحدى أعرق سفاراتنا... وقد أتخذ لها مقر فى قلب العاصمة بلغراد – تلك المدينة الساخرة الرابضة على ضفاف نهر الدانوب – بينما اختير أحد القصور العريقة بيتاً للسفير.. كان قصراً منيفاً تحيط به حديقة واسعة وتطل واجهته على ميدان فسيح من النجيل الأخضر، بينما كانت منطقة " ديدنى " التى يقع فيها القصر تتميز بشوارعها الواسعة وميادينها التى تزخر بأشجار السرو والصنوبر.. ويبدو قصر الرئيس تيتو شامخاً بين مبانيها الأنيقة.. وقد انتهز العميد عثمان حسين والذى سبقنى للعمل هناك مباشرة فرصة اعتزام الرئيس نميرى القيام بزيارة يوغسلافيا فانتزع اعتمادات كبيرة من وزارة المالية لتأثيث ذلك القصر على نحو رائع... فاستورد الأثاث ومستلزمات الدار من بعض الأقطار الأوروبية المجاورة كما استقدم بعض المتخصصين الذين أشرفوا على ديكورات الدار حتى أضحت تحفة مكتملة الجوانب... وأننى لأذكر أن عدداً من زملائى سفراء الدول الأخرى كثيراً ما لجأوا إلينا لاستعارة بعض الصحاف وأوانى الكريستال خلال الحفلات التى يقيمونها.. وكان طاقم السفارة يتكون من بعض الدبلوماسيين المتميزين بينهم الأخوة الطيب أحمد نصر وإبراهيم حمرا وصلاح محمد على وعلى حمد إبراهيم ( السفراء لاحقاً ) بينما يشرف على الشئون الثقافية والعسكرية صديقان قديمان هما توفيق إسحق ومنير حمد.. والحق بالطاقم الدبلوماسى بالسفارة الأخ أبو قرجه محمد كنباى – المسئول عن مكتب مقاطعة إسرائيل... وفاءاً لقرار الجامعة العربية القاضى بتبعية ممثليها لسفارات الدول التى ينتمون إليها بوصفهم ملحقين تجاريين... وقد تجاوز أخونا أبو قرجه مهامه ليقدم عوناً

مشهوداً لدفع العمل بسفارة بلاده.. وكان يتولي تصريف الشئون الإدارية الأخ سيد محمد عبد المجيد – أحد الإداريين المخضرمين.

كانت يوغسلافيا حاضرة مجموعة دول عدم الانحياز وكان تيتو واحداً من أعظم السياسيين المعاصرين الذين تبدو بصماتهم جلية فى هذا المجال وكان طبيعياً أن يكون هناك حضور مكثف لمعظم دول العالم مما أهلها لتكون مقراً لمجموعة دبلوماسية كبيرة

كانت تربطنا بيوغوسلافيا علاقات طيبة وقوية امتدت منذ منتصف الخمسينات وتنامت حين صار البلدان عضوين مؤسسين لمجموعة دول عدم الانحياز وصياغة أهدافها ومواثيقها.. وقد انعكس ذلك على العلاقات الاقتصادية التى زادت رسوخاً خلال حكم الرئيس عبود حيث أضحت مركزاً لتدريب الطيارين السودانيين الذين كانوا نواة لسلاح الطيران السودانى كما انخرط البلدان فى إنشاء الخطوط البحرية السودانية وإنشاء عدد من المصانع فى بلادنا مثل مصنع أسمنت ربك ومصانع البصل والكرتون والألبان... وقد عزز من ذلك الزيارات المتبادلة بين رئيسى البلدين حيث قام الرئيس عبود بزيارة إلى يوغسلافيا وامتدت تلك العلاقة وتبادل الزيارات إلى عهد مايو لاحقاً حيث شهدت العلاقات نقلة نوعية أثر قيام نهج مؤسسى وضع بعناية حتى أرتاد التعاون بين البلدين آفاقاً رحبة..

كانت العلاقات تشهد تحركاً نشطاً على المستوى الدبلوماسى والوزارى والرئاسي.. لعب فيه المستر " درندش " سفير يوغسلافيا بالسودان دوراً مؤثراً ومشهوداً.. وكان المذكور من قدامى المحاربين ومن المحببين للسودان وأهله.. وقد أفلح فى عقد علاقات اجتماعية واسعة مع مختلف قطاعات المجتمع واستغل فرصة علاقة صداقة ربطته بالرئيس تيتو كي يحصل على تفويض منه باتخاذ ما يرى من خطوات لتطوير العلاقات.. فضلاً عن أن الرئيس تيتو نفسه كان محباً للسودان وأهله حيث حظى باستقبال وحفاوة خلال زياراته، خاصة فى دارفور التى حفته باستقبال إسطورى حيث أصطف الألوف من الفرسان

على صهوات جيادهم لتحيته وتسابقت فرق الفنون الشعبية لتقديم رقصاتها وأهازيجها وتوج كل ذلك بإهدائه عدداً من خيرة الجياد الأصيلة... كما أمضى الرئيس تيتو فى زيارة لاحقة وقتاً لممارسة هوايته فى الصيد.. وقد أبدى حرصاً على أن يستقبل كلاً من الرئيسين عبود ونميرى بحفاوة مماثلة حين هبطا أرض بلاده زائرين.

## لقاء مع تيتو في مخبئه القديم:

كان الرئيس تيتو حريصاً على إحياء ذكرى الثورة التى اضطلع بقيادتها ضد القوات النازية فى عين الموقع الذى اتخذ منه مقراً ومنطلقاً لمحاربة الأعداء.. كان حريصاً على إحياء تلك الذكرى الحبيبة على نفسه فى عين المنزل المتواضع.. وهو منزل عتيق ومتواضع يقع على ربوة أحد الجبال النائية فى منطقة بعيدة عن بلغراد العاصمة... وقد ترك المنزل على الحال الذى كان عليه دون أن تطاله يد التعمير بحصيره المتهالك وأرائكه العتيقة التى صنعت من جذوع الشجر وجدرانه التي تصدعت بعض أركانها وتساقط طلاؤها بفعل الزمن.. كان مكاناً متواضعاً بائساً ولكنك تتنسم فيه عبق التاريخ وعراقته... كان الوصول إلى ذلك المكان عسيراً إن لم يكن خطيراً.. سيما وأن الذكرى كانت تحل خلال فصل الشتاء حيث يكسو الجليد كل شئ.. وكان على السيارات أن تتسلق الجبال فى حذر وترفق بعد أن تلف السلاسل الخشنة حول إطاراتها.. وكانت " المراسم " تبادر عادة إلى تخصيص حافلات ضخمة يوكل أمر قيادتها لسائقين مهرة لنقل السفراء إلى ذلك المكان القصى الموحش لتهنئة الرئيس تيتو بحلول تلك الذكرى العزيزة على نفسه وشعبه.. وتناول العشاء على مائدته.. ولما كانت دعوة الرؤساء – فيما تقضى التقاليد الدبلوماسية أوامر واجبة النفاذ – فإن الكثيرين كانوا يمتثلون للواقع يداخلهم شعور بالفضول والوجل فى آن! وقد يعمد البعض إلى التحايل بالسفر إلى خارج البلاد أو "التمارض".

وصلنا إلى ذلك المكان بعد رحلة تحسسنا فيها طريقنا فى جو مطير لا تسمع فيه إلا صفير الريح وقصف الرعود وظلام دامس يبدده وهج البروق

أحياناً.. وكانت تسمع على البعد أصوات بعض الحيوانات الشاردة فى جوف الغاب... اتخذنا طريقنا إلى ذلك البيت عبر مسالك متعرجة زلقة يجعل تساقط الثلوج منها مغامرة حقيقية، وصلنا منزلاً بنى من الحجر واللبن فألقينا الرئيس تيتو يتوسط قاعة فسيحة فى صحن الدار زودت أركانها بوسائل التدفئة والوقود التقليدى، وقد أرتدى الزى العسكرى الذى كان يتزين به خلال الحرب وقد تحلق حوله نفر من رفاقه المناضلين وجلهم يقف على أعتاب الشيخوخة.. كانوا سعداء يعبون من أكواب النبيذ الأحمر التى صفت قواريره أمامهم وحولهم.. يستغرقون فى ترديد أناشيد الثورة وأهازيجها فيستبد الطرب بالبعض فينهض متكئاً على زميله ليعبر عن سعادته برقصة هادئة... ثم حان موعد تقديم السفراء للرئيس تيتو.. وما أن قدمونى إليه بوصفى سفيراً للسودان حتى أمسك بيدى طويلاً واسترسل فى الحديث عن حبه للسودان وشعبه وقيادته.. ثم يلتفت إلى رفاقه ليرسل عبارات ربما فى ذات المعنى باللغة السربوكرواتية التى يتحدثون بها... ثم التفت الرئيس إلى وقال ضاحكاً: " إن درندش – السفير اليوغسلافى لدى شعبكم الصديق محب لبلدكم وأهلها... وطالما حاول إقناعى بتقديم العون لبلدكم النامى فقلت له أنتم معشر السفراء تحسبون أنكم عباقرة هذا الزمان.. تعرفون ما لا يعرفه الرؤساء.. ثقوا أن حبى لكم يتجاوز ما ظل يوافينى به السفير حتى لو ظل يكتب حتى نهاية الكون.. ثم حملنى تحياته الحارة لصديقه نميرى وشعب السودان العظيم. تأثرت كثيراً للعبارات الحارة والوقت الذى خصنى به – قياساً بالآخرين من السفراء الآخرين والذين لا يتجاوز تقديمهم التحية... كان ذلك المشهد حديث زملائى من السفراء ونحن فى طريق العودة بعد أن تناولنا عشاءنا الذى اقتصر على الشواء الحار من لحم الصيد والضان والذى كان يجرى إعداده على مقربة منا علي الفحم فى جو من المرح ومجافاة لكل مقتضيات البروتوكول والتصنع.

انقضى عامان انطوت معهما صفحات مشرقة ومضيئة من العمل المثمر والذى لا يخلو من متعة.. أمكن بفضل تعاون الدبلوماسيين العاملين معى إرساء مناهج واضحة للعمل كما أمكن قيام اللجان المشتركة وتصاعد فى مجال

التبادل التجارى والثقافى.. واعترف بأننى أفدت كثيراً من العمل فى ذلك البلد الجميل والذى استطاع أن يؤلف بين أعراق وأصول وثقافات متباينة ويخلق منها كياناً موحداً نتدرج فى إطاره جمهوريات باختصاصات محددة.. نتعايش فيه ديانات ثلاث.. وتتحدث لهجات متعددة صيغت لها لغة واحدة تمثل أكبر أقاليمها سربيا وكرواتيا.. كان تيتو قائدا فذا تابعت تجربته وهو ينطلق فى آفاق شائكة المسالك وهو يدعو ويعمل من أجل رفع ألوية عدم الانحياز، وتحرير الشعوب النامية من هيمنة القوى الكبرى التى اتسمت معاملته لها بالرزانة والتعاون المتكافئ الخلاق.. وقفت على تراثها العريق ومرابعها الساحرة ومستقبلها الواعد. وأننى إذ أكتب اليوم واسترجع ما حل بذلك البلد الجميل أجد نفسى ميالاً إلى القول بأن ما حل بها لا يعدو أن يكون تصفية لحسابات قديمة من بعض الدول التى لن تنسى ما حل بمصالحها ونفوذها جراء قيام حركة عدم الانحياز بكل ما انطوت عليها أهدافها من تهديد لوضعها المميز على تلك الأيام. وتعود بى الذاكرة إلى أيامى الأولى حين تم اختيارى سفيراً لبلادى بها وقادتنى سلسلة الزيارات التقليدية لزملائى لزيارة زميلى سفير بريطانيا قصد التعارف والتعرف على الوضع هناك... سألت السفير " كيف يكون برأيك الوضع فى هذا البلد فى حالة غياب الرئيس تيتو؟ " ضحك السفير قائلاً " قبل عقود وسنوات بعيدة جئت إلى هنا ملحقاً بالجيش البريطانى وكانت مهمتى محاولة التعرف على إجابة للسؤال الذى طرحتم.. وها أنا اليوم أعود بعد عشرات السنين سفيراً هنا ولدى مهمة واحدة هى الإجابة على نفس السؤال؟

## سفيرهم.. وعيه غائب وهواه يقظان!

يقودنى حديث السفير إلى الوقوف عند واقعة حدثت مع سفير آخر فما أن قدمت أوراق اعتمادى حتى انخرطت فى القيام بسلسلة من الزيارات التقليدية التى يقوم بها السفراء عادة للمسئولين ورصفائهم من السفراء المعتمدين بادئاً بعميد السلك الدبلوماسى – وهو فى غالب الأحيان يكون أقدم السفراء فى

البلد المعين ثم يتبع ذلك بالسفراء وفق الترتيب الذى تضمه القائمة الدبلوماسية المعتمدة.

أذكر أننى حين وصلت يوغسلافيا كانت أصداء الجريمة الآثمة التى أودت بحياة السفير الأمريكى بالخرطوم ونائبه على أيدى بعض المتطرفين الغلاة على أرض بلادنا مازالت أصداؤها تتردد فى كل مكان... وكان أن ألقى القبض عليهم – وكلهم من المتطرفين الفلسطينيين وتقرر تقديمهم للمحاكمة.. فى ذلك الجو، جاء موعد القيام بالزيارة التقليدية للسفير الأمريكى والذى أختار أن تتم الزيارة فى داره عوضاً عن مبنى السفارة كما جرت العادة.. استقبلنى الرجل فى غرفة واسعة ضمت بعض قطع الأثاث التى تناثرت على جنباتها.. واخذ يحدثنى عن تلك الدار وبعض ما حفلت به من لوحات ومقتنيات. وفجأة بادرنى بسؤال مباغت عن الخطوات التى تنوى بلادنا اتخاذها إزاء "الإرهابيين" الذين أقدموا على قتل الدبلوماسيين الأمريكيين فى بلادنا، فأجبته بأنهم رهن الاعتقال توطئة لتقديمهم للمحاكمة.. قاطعنى: أى محاكمة تقول؟ لابد من تنفيذ حكم الإعدام عليهم.. لابد من إعدامهم! أوضحت له طبيعة تكوين الدولة ومؤسساتها التى تعمل فى استقلال تام ممثلة فى الأجهزة التنفيذية والتشريعية والقضائية.. وأن الدولة لا يحق لها التدخل فى أحكام القضاء حتى لو أرادت.. ولدهشتى قال فى لهجة هى للتهديد والوعيد أقرب " أخشى أن تدفع بلادكم ثمناً باهظاً إن لم تقم بإعدامهم "!.. دهشت وقلت متسائلاً هل "يعنى" السيد السفير ما يقول؟ أجاب مؤكداً.. أردفت: إذن هل "يعى" السفير ما يقول؟ أجاب بأنه يقدم النصح لتلافى ما قد يترتب على اتخاذ أية خطوات تتسم بالرفق على أولئك المجرمين " وعبر عن تعاطفه مع بلادنا وأنه يعبر عن تمنياته الشخصية بأن لا تتخذ موقفاً قد يعرضها لهزة غير مرغوب فيها ".

لم أشأ أن أنقل ما دار لرئاسة الوزارة لاعتبارين. يتمثل أولهما فى أننى كنت أدرك حرص بلادنا وسعيها الدائب والدائم لتنمية العلاقات مع أمريكا والانطلاق بها إلى آفاق تتكافأ وطموحها فى ذلك الشأن.. وثانيهما أننى قدرت أن السفير فى ذلك الموقف ربما كان ينطلق من اعتبارات عاطفية إزاء مقتل

اثنين من زملائه الدبلوماسيين وهو تعاطف كنا نحس به – نحن السودانيين – أيضاً، به بل كنا نستشعر مرارة تجاه ذلك الحدث الذى تم على أرض بلادنا التى لم تعرف عبر تاريخها الطويل مثل تلك الأعمال وفى لحظات تاريخية رأى الإمبراطور هيلاسلاسى أن يكون بيننا ليشاركنا الاحتفال بتوقيع أول اتفاق يضع نهاية عن الحرب فى الجنوب.. فضلاً عن قناعة معظم الناس بأن مثل تلك الخطوات تضر بالقضية الفلسطينية ضرراً بليغاً.

تعاقبت الأيام والأسابيع تلقيت خلالها دعوة لحضور حفل استقلال تلك الدولة الذى يحل بعد أيام.. وشاءت الأقدار أن تجرى محاكمة الجناة خلال تلك الفترة وأصدرت المحكمة حكماً يقضى بإنزال عقوبة السجن عليهم وتسليمهم لمنظمة التحرير الفلسطينية لتنفيذ الحكم.

كنت فى دارى حين جاءنى فى إحدى الأمسيات رسول يحمل رسالة مختومة بالشمع الأحمر حسبتها لأول وهلة صادرة من إحدى الدوائر الرسمية فى الدولة، فإذا بها صادرة من السفير المعنى بتوقيع الرجل الثانى (المستشار) فى السفارة المعنية، ينهى إلى فيها أن السفير كلفه بإبلاغى بأن الدعوة الموجهة لى ولأعضاء سفارتى لحضور حفل الاستقلال قد تم سحبها وأن السفير حريص على أن لا أعتبر أن هذه الخطوة موجهة لى بصفتى الشخصية التى يحمل لها كل تقدير بقدر ما هى احتجاج على مسلك بلد يشجع الإرهاب " ولا يراعى الأصول المتعارف عليها ولا يحترم القوانين والأعراف الدولية ويعمد إلى حماية القتلة".

فوجئت تماماً بما جاء فى الرسالة التى تلقيتها فى ساعة متأخرة من المساء فيما أوردت.. قضيت ليلتى أرقاً أتدبر الخطوات التى ينبغى التزامها انتصافاً لكرامة بلادى على نحو فورى وقبل إبلاغ المسئولين بالخرطوم بالواقعة على أن لا تتسم تلك الخطوة بأى شطط يفسد مساعى المسئولين لتقوية العلاقات مع تلك الدولة وتنميتها. وبالفعل عقدت اجتماعاً مغلقاً صبيحة اليوم التالى بأعضاء السفارة ووافيتهم بما حدث ملحاً على أن يظل الأمر فى طى الكتمان الشديد لما قد ينطوى تسريبه من آثار سالبة على مساعى المسئولين فى بلادنا.

وقد تم جمع بطاقات الدعوات التى تلقاها أعضاء السفارة لردها مشفوعة بالرسالة التى رأيت أو أوجهها إلى السفير المعنى.. ثم استدعيت السكرتير الثالث بالسفارة ( وهى أدنى درجة دبلوماسية بالسفارة) وأمليت عليه رسالة تحمل توقيعه موجهة للسفير المعنى ينهى إليه بأن السفير أحاط علماً بسحب الدعوة وأنه لن يشارك فى الاحتفال. ولكن السفير لا يستطيع أن يتفهم تجاوز زميله لحدود مهنته كى يسوق المذمة لدولة أخرى، وأن السفير إذ يرفض كل ما جاء فى هذا الشأن لا يستطيع أن يتفهم أن الإجراء ليس موجهاً لشخصه دون بلاده التى يستمد كرامته منها، ومن الطبيعى أن يرفض أى مساس بها. ثم أحطت الخارجية برسالة "شفرية" بتلك الخطوة. أتبعت ذلك باجتماع مغلق مع سائر المبعوثين العسكريين السودانيين والذين كان عددهم يتجاوز العشرين من المبعوثين الذين يتلقون دراسات عليا فى الطيران والبحرية والذين كانوا يتمتعون بعضوية نادى تلك الدولة، وهو ناد اجتماعى كانوا يرتادونه كل مساء ووافيتهم بما تم مشدداً على إحاطة الأمر بالكتمان الشديد.. فسارعوا بوضع بطاقات الدعوة التى تلقوها لحضور الحفل أمامى لردها وإعلانهم مقاطعة الحفل والنادى فى موقف وطنى رائع لم يكن غريباً عليهم.

ما أن تلقت الخارجية رسالتى بالواقعة وملابساتها حتى أصدرت تعميماً لكل سفاراتنا بالخارج تستفسر عما إذا كانت تلقت إخطاراً بسحب الدعوات التى وجهت إليها للمشاركة فى إحياء ذكرى استقلال تلك الدولة، فتلقت نفياً من سائر السفارات مما يعنى أن تصرف الرجل كان تصرفاً فردياً أملته نوازع الهوى والتعاطف مع إسرائيل.. وهذا حقه دون شك ولكن شريطة أن لا تؤثر مثل تلك العاطفة على عمله الرسمى.. ولم يكن أمراً مدهشاً حين قرأت بعد سنوات قليلة تصريحات له غير منصفة للعرب بوصفه سفيراً لبلاده فى إسرائيل!.

شاءت الأقدار أن أكون فى مهمة رسمية فى أمريكا بعد تعيينى وزيراً ضمن وفد رئاسى بعد سنوات.. وكان أن أنقسم الوفد إلى مجموعات عمل بينها لجنة سياسية مثل الجانب السودانى فيها الأخ الرشيد الطاهر – نائب

الرئيس ووزير الخارجية حينها وشخصى - إلى جانب بعض المسئولين البارزين فى وزارة الخارجية الأمريكية وكانوا يتمتعون بفطنة وكياسة ألفت بيننا خلال المباحثات.. جاءت الواقعة على خاطرى فرويتها لأحدهم.. ضحك كثيراً مؤكداً أنه لم يسمع بتلك الواقعة رغم بقائه فى الإدارة السياسية لفترة طويلة مضيفاً لابد أن يكون ذلك تصرفاً شخصياً من السفير.. ومضى يشرح لى انتقاء السفراء والذين يأتى كل رئيس بعدد منهم - إعمالاً لحقه فى انتقاء الأشخاص المؤهلين للقيام بمهام محددة فى بعض الأحيان. وقد تأكد حدسى بل والنتيجة التى توصلت إليها وزارة الخارجية فى حينها والتى كانت راضية لما اتخذت من خطوات.

أوردت هذه الواقعة بإيجاز شديد لسببين أولهما أن السيد على حمد إبراهيم (السفير اللامع فيما بعد) والذى كان يعمل ضمن طاقم سفارتنا ببلغراد خلال تلك الفترة كتب عن تلك الواقعة فى صحيفة الرأى العام قبل سنوات حيث رأى فيها مشكوراً موقفاً ينبغى تسجيله، وثانيهما أن أذكر ناشئة السلك الدبلوماسى بأن كرامة الوطن تعلو على كل اعتبار.. صحيح أن مهمة الدبلوماسى هى تنمية وتجسير العلاقات مع الغير ولكن كسب ود تلك الدول - خاصة القوية منها - لا يأتى بالاستخذاء والهوان و " الانبطاح "، بقدر ما يأتى بالتعامل مع الآخرين بكرامة واعتداد وندية. ولنا فى تجربة نهرو وعبد الناصر مع الدولتين العظميين يومها أسوة حين كان يتلقيان عوناً ودعماً منهما يفوق ما يتلقاه غيرهما من الموالين والتابعين وتابعى التابعين!.

## المرأة السودانية تأبي الرفاه.. العفاف يحميها:

كانت العلاقات بين بلدينا تسجل فتحاً جديداً بفضل تحرك المسئولين فى الدولتين كلتيهما فتم تكوين لجنة اقتصادية عليا مشتركة تنتظم سائر المعنيين فى ذلك المجال لأول مرة، وتم انضمام مزيد من البواخر لأسطول البحرية السودانية وتكاثرت أعداد المبعوثين فى الجامعات والمعاهد العسكرية، وتقاطرت الوفود الوزارية وكان بينها وقد كبير برئاسة السيد وديع حبشى وزير الزراعة ضم كل

المسئولين فى وزارة الزراعة والغابات بمختلف تخصصاتهم زاروا خلالها مختلف الجمهوريات والأقاليم اليوغسلافية، وأرسوا دعائم راسخة للتعاون فى ذلك المجال وكانت تلك الزيارة خطوة هامة فى نقل تجربة زراعة بعض المحاصيل الزيتية مثل عباد الشمس إلى بلادنا. كما أمكن ربط علاقات على الصعيد السياسى بين الاتحاد الاشتراكى ورابطة التحالف الديمقراطى اليوغسلافى ( والتى تردد أنها كانت الملهم لكلا التنظيمين فى مصر والسودان فى كثير من جوانبها النظرية ومناهجها التطبيقية).. وأننى لأذكر واقعة فى هذا المجال. إذ هبط وفد سياسى بقيادة السيدة نفيسة أحمد الأمين عضو المكتب السياسى للاتحاد الاشتراكى لإجراء مباحثات حول تبادل التجارب وتعزيز التعاون بين التنظيمين السياسيين.. وقد تم إعداد برنامج حافل للوفد يزور خلاله معظم الجمهوريات اليوغسلافية توجت بزيارة لسواحل البحر الأدرياتيكى الساحر والذى يعتبر قبلة للسائحين من شتى بقاع الأرض. وصلنا ميناء " بولا " التى اضطلعت سلطاتها المحلية بإعداد برنامج للوفد. ولما كانت " بولا " هى مركز لصناعة السفن ولما كان الإعداد يجرى لتسليمنا الباخرة " أم درمان " لدى زيارة وزير النقل وشيكاً، سارعت إلى مقر الشركة المعنية لمناقشتهم حول شروط التسليم والتعاون فى جدولة المبالغ التى يتعين دفعها مقدماً وصلاً لاتصالات سابقة قبل أن أراجع البرنامج المعد للوفد السياسى الذى أخذ طريقه للفندق الذى كان مخصصاً لإقامته.

عدت للفندق لأجد السيدة نفيسة تجد فى البحث عنى.. عرضت علىّ برنامج الوفد الذى تسلموه للتو وكان يحتوى ضمن فقراته على رحلة بالباخرة إلى عدد من الجزر الساحرة على الإدرياتيكي كان من بينها المرور على جزيرة يتدافع السائحون لزيارتها لتفردها وغرابتها وهى جزيرة " العراة ". أبدت السيدة نفيسة دهشتها واستياءها الشديد لوضع تلك الفقرة ضمن وقائع البرنامج وأكدت أنها ستعمد إلى مقاطعة الزيارة بأكملها إن لم ترفع تلك الفقرة من برنامج الزيارة.. أحسست لحظتها بالفخار لذلك الموقف الذى لم يمكن غريباً على المرأة السودانية.. فقد لمست ذلك وبلوته خلال معايشتى لبعض الأخوات

خلال دراستنا فى المرحلة الجامعية وفى ساحات العمل العام مثل الزميلات خالدة زاهر وفاطمة طالب وفاطمة أحمد إبراهيم وعزيزة مكى ونفيسة المليك وحاجة كاشف وآمال عباس وسعاد إبراهيم أحمد وسعاد الفاتح وسعاد إبراهيم عيسى ومحاسن جيلانى وفاطمة عبد المحمود وبخيته أمين وأسماء البشير وأمينه إمبابي وثريا الدريري وزينب الفاتح، وغيرهن كثيرات من اللائى تعرفت إلى إنجازهن بطريقة غير مباشرة عبر وسائل الإعلام، وآخريات من غير اللائى أشرت لبعضهن من العاملات فى المنظمات الوسيطة خاصة خلال فترة عملنا بالاتحاد الاشتراكى.

سارعت إلى السفير درندش سفير يوغسلافيا بالخرطوم والذى ظل مرافقاً للوفد منذ وصوله طالباً رفع تلك الفقرة من برنامج الزيارة فأبدى دهشة بالغة قائلاً " إن وفود الدول النامية تعمل بإلحاح لوضع زيارة تلك الجزيرة ضمن برنامجها لغرابتها وطرافتها وتفردها وإنه هو الذى ناضل من أجل وضعها ضمن البرنامج.. وأبدى أسفه للحرج الذى سوف يسببه سحبه أمام رؤسائه.. ثم أردف " ولكن ذلك أفضل من أن أتخذ خطوة تعتبرونها خارجة عن تقاليدكم فأجد نفسى مذبوحاً أمام قبة المهدى بأم درمان، وأن يكون إسمى ضمن المكتوبين فى اللائحة المنصوبة فى جامع الخليفة فرددت مازحاً " ذلك شرف لن تناله يا درندى.. فاللائحة المنصوبة فى جامع الخليفة تتضمن أسماء الشهداء.. وأنت نصرانى (حطب النار) وفوق ذلك " شيوعى ".. فضحكنا.

عكفت وأنا أترك عملى فى يوغسلافيا على إعداد تقرير ختامى متكامل عساه يكون عوناً لمن يخلفنى من الزملاء، تناولت فيه نبذة موجزة عن التاريخ الحديث لذلك البلد ومراحل تطوره وإمكاناته ووضعه الدولى وعلاقاته مع بلادنا والأشواط التى بلغها والمجالات التى يمكن أن ترتادها إلى غير ذلك من أمور.. جاء التقرير فى حجمه وتبويبه أقرب إلى " الكتيب ".. أرفقت به قائمة سريه بالشخصيات النافذة فى النظام اليوغسلافى.. توجهاتها ومزاجها ودائرة بأصدقاء بلادنا. وافيت الخارجية بالتقرير وأودعت نسخة منه بخزانة السفارة.

وقد رأى د. منصور خالد – وزير الخارجية أن يوجه بنعيمه على السفارات بالخارج عساه يكون مرشداً طيباً لتقارير "التسليم والتسلم".. وجاء ذلك جزاءاً وفاقاً أشاع فى النفس مشاعر الحمد والرضى.

## اختياري سفيرا لفرنسا.. معتمداً فى سويسرا والفاتيكان

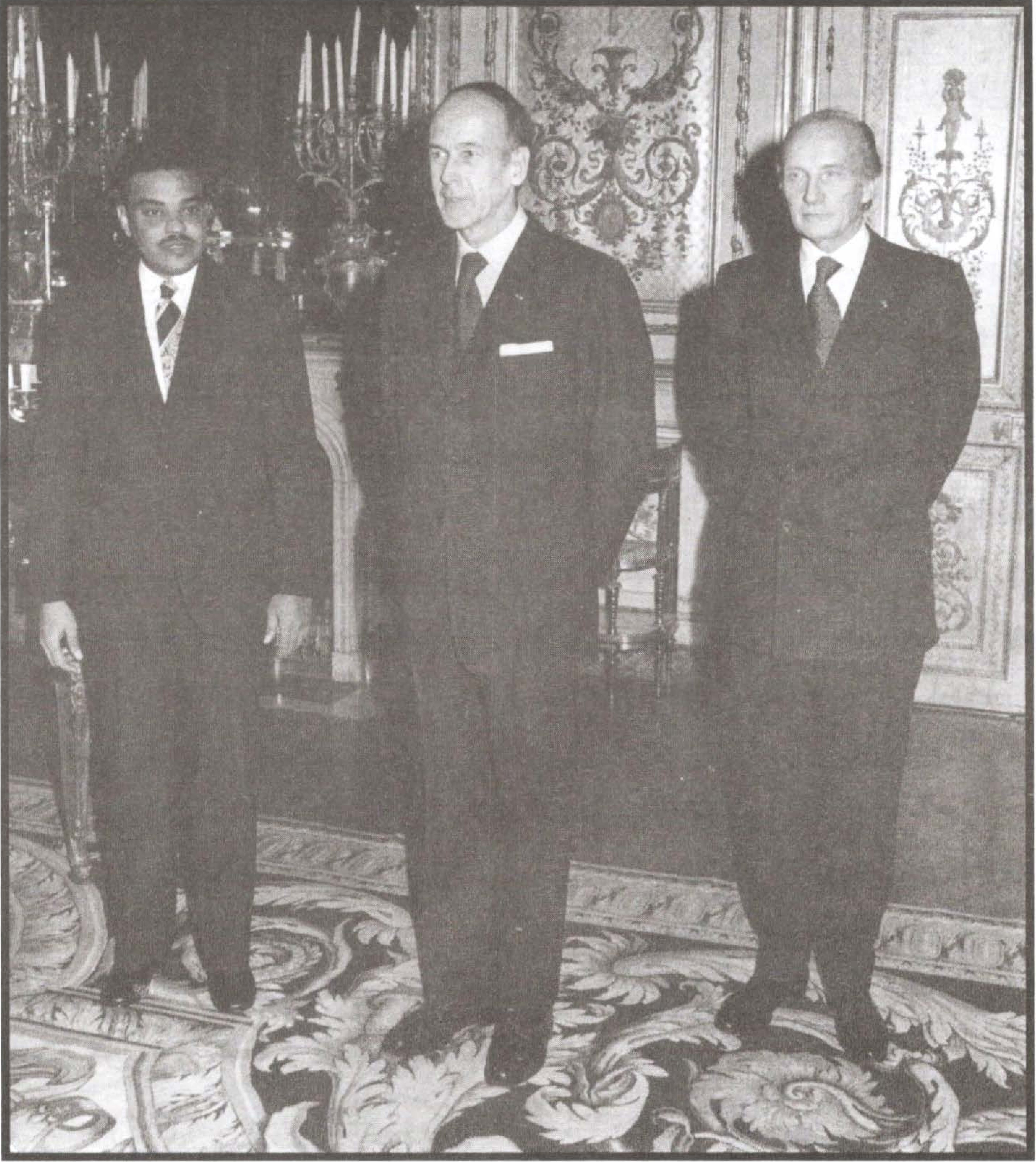
وصلت باريس بعد أن عرجت على لندن وكان جميلاً أن أرى بين المستقبلين إلي جانب بعض الرسميين الأخوين محمد عبد القادر بافقية سفير اليمن الديمقراطية وأحمد عبد العظيم وكان مستشاراً ثقافياً بالسفارة وكلاهما كان زميل دراسة بحنتوب.



استقبال الرئيس نميرى خلال زيارته لفرنسا عام ١٩٨٠

كانت السفارة تتخذ من إحدى الشقق مقراً لها في شارع فيكتور هوجو في أحد أحياء باريس الراقية ولكنني علمت أن مالك العقار ظل يلح في استرداد عقاره لحاجته إليه، وتراكم مستحقات الإيجارات لفترة طويلة، كما أن الدار كانت بحاجة إلي تجديد شامل تتفق وتنامي العلاقات بين البلدين حيث تم إرساء أسس لتعاون خلاق في شتى المجالات تمثل بعضها في إبرام إتفاق تنقيب للذهب في شرق السودان، وآخر لتطوير التعاون في مجال السدود خاصة في مشروع خزان ستيت وإجراء محادثات بشأن تقديم العون في دفع العمل بقناة جونقلي إلي غير ذلك فضلاً عن تكاثف وصول المبعوثين السودانيين لفرنسا لتلقي دراسات عليا في سائر فروع المعرفة.. ولاحت فرصة لإعداد أول زيارة لرئيس سوداني لفرنسا بعد أن تقاطرت زيارات بعض الوزراء السودانيين لإرتياد مجالات جديدة للتعاون. كان بالسفارة لدى وصولى ثلاثة من الدبلوماسيين المميزين هم السادة علي محمد علي والفاتح إبراهيم حمد الذي تلقى تعليمه بفرنسا ويعتبر من أكثر السودانيين إلماماً باللغة الفرنسية والسادة محمد عثمان بابكر وعصام الوجديري. وكانت الجالية قوامها بعض المبعوثين والعاملين باليونسكو مثل الدكتور بشير البكري الدبلوماسي العريق والذي يعود الفضل إليه في إنشاء أول سفارة لنا بباريس، والأخ أحمد الطيب عابدون (والذي لحق بنا بعد فترة قصيرة) سفيراً للجامعة العربية بباريس.. وكان ضمن أفراد الجالية بعض إخواننا الذين يقومون على حراسة ورعاية قصور أمراء الخليج الكثيرة في باريس والتي يرتادونها خلال الصيف. قدم لتحيتي بعد أيام من وصولي رجل كهل ربع القامة أشقر الشعر أنست خلال حديثي معه خفة الظل – أوضح أن اسمه عثمان صالح (الدنقلاوي)... لم يكن يتحدث العربية وكان يخاطبني بالإنجليزية وعلمت لاحقاً أن والده جاء من دنقلا في بدايات القرن وتزوج إحدى الفرنسيات وأنجب منها ذلك الرجل وأخرى بلجيكية وأنجب منها أخ له غير شقيق في بروكسل. وأنه لم يزر السودان قط كما انقطعت صلته بأسرته التي لا يعرف عنها شيئاً خاصة بعد رحيل والده وهو صغير. ويبدو أنه كان على صلة مع بعض السفراء الذين سبقوني لإرتياده دار السفارة

أحياناً للتقصي عن أي أخبار تشير إلي أهله وأسرته بدنقلا، رغم أنه لا تربطه صلة بالجالية السودانية ولا يعرف أفرادها. كان للرجل وضع إجتماعي مميز إذ كان بين النشطاء الديجوليين ويتخذ من مكتبه المطل على شارع الشانزلزيه – أكبر شوارع باريس وأشهرها على الإطلاق مقراً لنشاطه التجاري.. كان كثير الإهتمام بالسودان وأهله وكنا نحرص على دعوته في كل المناسبات التي تقيمها السفارة بل وتقديمه لكل مسئول سودانى زائر.. صار يعيش معنا هموم إيجاد مقر جديد للسفارة بعد أن استعصى أمر إقامتنا في مقرها الحالي ويعمل على تعزيز الجهود الجبارة التي كان يبذلها زميلنا الأخ الفاتح إبراهيم حمد في هذا الشأن حيث تفرغ للأمر بشكل كلي.. وأخيراً وعلى غير انتظار جاء الفرج حيث حصلنا علي شقة رحيبة أنيقة في أحد أرقى شوارع باريس (أفنيومونتان) والذي كان مقراً لبعض كبرى المؤسسات ومقراً لسفارة وحيدة هي سفارة كندا.. كانت تبعد خطوات من الشانزلزيه ويطالع الزائر من شرفتها مبنى صحيفة الفيجارو الذائعة الصيت.. كان العرض مغرياً ويعود السبب إلي أن مالكة العقار وهي تنحدر من إحدى أسر النبلاء الأرستقراط في فرنسا كانت تقيم في الطابقين الذين يعلوان المقر الجديد وطالما تمنعت عن إيجاره نشداناً للهدوء.. ورأت أن في إتخاذه مقراً لهيئة دبلوماسية يضفي على عقارها الصغير بعضاً من الهيبة والجلال سيما وأن السفارة تعمل ساعات محدود بالنهار لخمسة أيام في الأسبوع.. ويبدو أنها قامت بتحريات قادتها إلي أن مرتادي السفارة محدودو العدد، نسبة لضآلة أعداد الجالية وهكذا أصبنا نجاحاً بتوفيق من الله ظل حديث الأخوة من السفراء العرب والأفارقة وهم يطالعون علم السودان يخفق على شارع ما خفق فيه علم دولة نامية من قبل. وكانت التجربة شاقة ولكن يعزيني أنني صرت من أصحاب السوابق في هذا المجال حيث قمت بإيجاد أو إضافة مقر للسفارات التي عملت بها جميعاً عدا يوغسلافياً.



عقب تقديم أوراق اعتمادي للرئيس جيسكار ديستان.

كانت دار السفير تقع في جادة هنري مارتن في أحد أحياء باريس الراقية تبعد خطوات من منزل أسرة رئيس الدولة جيسكار ديستان والذي اعتاد تمضية عطلته الأسبوعية مع أسرته.. وكان أطفالي يتسابقون لرؤيته صباح كل أحد وهو يمارس رياضة المشي تجاه ساحة التروكاديرو. حين وصلت باريس كانت شقة السكن تتكون من جناح استقبال معقول تم تأثيثه على نحو أنيق، بينما

تكدست في الغرفتين الآخريين عدا – غرفة النوم – آلاف من الكتب والمراجع بشتى اللغات صفت في خزائن وصناديق توطئة لإرسالها للسودان. والحق أن زميلي السفير السابق صلاح عثمان هاشم كان قارئاً ومثقفاً ومفكراً بارزاً على نطاق العالم العربي طالما شهدت له الأوساط الثقافية كان آخرها قبول عميد الأدب العربي د.طه حسين كتابه مقدمة لأحد مؤلفاته واصفاً أياه بأنه مثقف خلاق.. وكان يجيد عدة لغات إلي جانب إجادته العربية فهو يجيد الإنجليزية والفرنسية والروسية والفارسية ولم تصرفه أعباؤه الدبلوماسية عن التواجد المستمر في الحلقات الثقافية في جامعات فرنسا ومنتدياتها. كان يرى أن الثقافة هي الثروة الباقية التي تتضاءل دونها كل إغراءات الوظيفة أو الترقي في السلم الإجتماعي. من الطرائف أن صلاح وكان تم نقله للخرطوم كلف بقيادة وفد السودان لمؤتمر الدول الآسيوية والأفريقية والكاريبية بما عرف بإتفاقيات لومي وصلاً لمشاركته السابقة سيما وقد تم ربط موعد المؤتمر قبل وصولي لباريس.. ورأيت الإنضمام للوفد ومعي الأخ عمر المبارك مساعد وكيل وزارة التجارة الذي جاء خصيصاً لهذا الغرض.. وكنا نقصد بروكسل كل صباح ونعود لباريس فى المساء وقد قدر لنا أن نشهد المداخلات الحية والمؤثرة أحياناً والطريفة للأخ صلاح.. كان يرد على كل مندوب بلغته الأصلية.. الروسية أو الإنجليزية أو الفارسية.. إلخ مما كان يسوق المرح إلى صفوف أشقائنا الأفارقة فسيتغرقون في التصفيق والضحك استحساناً وزهواً.

أذكر أن صديقي القديم مبارك عثمان رحمه – عرج على باريس.. كنا ومبارك وسيد أحمد نقد الله نكون ثالوثاً حميماً على أيام دراستنا بحنتوب وما انقطعت بيننا المراسلات يوماً. ما أن رأى مبارك حال الدار وتواضع أثاثها في الداخل حتى أشقف علينا وساقه الإنفعال إلي إلتزامه بنقل الأمر للرئيس حال وصوله للخرطوم خلال يومين.. مقترحاً أن أقوم بكتابة طلب للخارجية بإعتماد مبالغ لتأثيث الدار وفاءاً لسلامة الإجراء.. وما أن انقضى أسبوع حتى جاءنا التصديق بمبلغ معقول يكفي للتأثيث في بلد غير باريس.. وأخيراً رأينا أن نسافر إلي لندن وأن نبتاع كل ما كنا نبغي من أثاث بعون من الصديق السفير

أحمد سليمان وأن نقف على إحدى شركات النقل البري حتى تم شحنه لباريس التي بلغها في نفس اليوم.. وهكذا باتت الدار في هيئة مقبولة.. قمنا بإستضافة الوفود ورئيس الدولة الذي كان موعد زياته وشيكاً.

## باريس تستقبل أول رئيس سوداني:

وجاءت زيارة السيد رئيس الجمهورية تتويجاً لتلك الجهود حيث رافقه وفد وزاري كبير شمل سائر وزراء القطاع الاقتصادي ووزراء الخدمات وعدد من المستشارين.. وقد هيئت للوفد فرص الاجتماع بنظرائهم الفرنسيين، كما تم عقد اجتماع كبير ضم قيادات العمل الاقتصادي في فرنسا من أصحاب الشركات مثل المسيو بيجو.. وغيره وكانت الزيارة ناجحة بكل المقاييس وقد خص المسيو شيراك عمدة باريس في ذلك الوقت السيد الرئيس بحفل استقبال رائع ومهيب في البلدية دعى إليه علية القوم في تلك المدينة ووصل موكب الرئيس يشق طريقه بين الخيول المطهمة التي يمتطي صهواتها الفرسان في عرض بديع بين جموع الباريسيين الذين استقبلوا الوفد بالهتاف والتصفيق، كما كانت الحفلات التي أقيمت على شرفه باذخة ضمت في كثير منها علية القوم وهو أمر جعل البعض لعله د. منصور يقترح بأن يجئ الحفل الذي كان مقرراً أن يقيمه الرئيس في ختام زيارته على شرف الرئيس الفرنسي في قصر الإليزية والذي كان قد جرى طبع بطاقات الدعوة له بديعاً ومبتكراً. فيه خروج عن النمط التقليدي.

وبالفعل استدعينا مندوباً للعلاقات العامة لإخراجه. لم تقتصر الدعوة على الرسميين من وزراء وسفراء ومسئولين كما جرت العادة بل تعدتها لتشمل قطاعات من المجتمع الفرنسي وهكذا كان بين المدعويين بلاتيني – لاعب الكرة الفرنسي الشهير – وأصحاب محلات كريستيان ديور أشهر العاملين في مجال العطور وجاك فات أستاذ الموضة وبعض الكتاب الفرنسيين والفنانين التشكيلين والممثلات إلي غير ذلك وقد شد ذلك اهتمام الحضور وجاء إخراج الحفل رائعاً حيث شق العاملون بالزي الشرقي الجموع وهم يحملون

الخراف المشوية على بعض الأعمدة المكللة بالشموع على عزف الموسيقى الهادئة حتى بلغ مائدة الرئيسين. ومن الطرائف أننا قدمنا بعض المشروبات السودانية – عوضاً عن الأنبذة وغيرها من صنوف المشروبات الروحية والتي لم تكن قوانين السودان وأعراف سفاراتنا تسمح بها، رغم أننا عليمون بأن النبيذ يشكل بنداً ثابتاً على مائدة كل فرنسي. أذكر أن مشروب الكركدي بلونه الأحمر القاني والذي صب على أكواب الكريستال استوقف بعض المدعويين.. وتساءلوا عن كيفية تصنيع النبيذ الذي يرون أمامهم.. استرسل صديقنا د. عبد الله أحمد عبد الله، وكان وزيراً للزراعة في وصف ذلك النبيذ السوداني وكيفية صنعه.. وصار البعض يتذوقه ويثني عليه.. وسرعان ما بدت على أحدهم آثار النشوة. ضحكنا وعلمنا سطوة الناحية النفسية وسيطرتها على مشاعر الناس.

## ارهاصات المصالحة الوطنية:

كنت في مكتبي صباح أحد الأيام.. وكان إلي جانبي الدكتور منصور خالد نتابع وقائع الزيارة الرئاسية وملامح إخراج الحفل الذي أتيت عليه في بعض السطور السابقة حين رن جرس الهاتف فإذا بالأخ فتح الرحمن البشير يخطرني بأنه قادم لتوه من لندن وأن معه أحد المستثمرين ويحرص على لقاء الرئيس وسألني عن مكان إقامة الرئيس وعن إمكانية مقابلته.. أخطرته بأن الرئيس وأعضاء الوفد سوف يتناولون الغداء في داري ظهر ذلك ودعوته للغداء هو وضيفه بإعتبارها فرصة مواتية ولكنه أفاد بأنه لا بد أن يعود إلي لندن بعد منتصف النهار بقليل.. وقد تناول د. منصور السماعة لتحيته ولعله أفاده بمكان نزل الرئيس وبرنامجه.

ما كنا ندرى يومها أن تلك كانت هي الخطوة الأولى في طريق المصالحة الوطنية والتي توجت بلقاء الرئيس بالصادق المهدي ببورتسودان. فقد جاء السيد فتح الرحمن ينشد موافقة الرئيس المبدئية على ذلك اللقاء الذي أحيط الإعداد له بالسرية ولم يكن يعلم به أعضاء الحكومة وبقية أطراف المعارضة

على حد سواء.. وقد روى الأخ فتح الرحمن وقائع ما تقدم وهو يروي خلفية هذا اللقاء في باريس على شاشة التلفزيون السوداني.

## لأسباب غامضة الرئيس يبكر بالرحيل:

من المواقف التي أرى إيرادها خلال عملي بباريس هو النهاية الدرامية التي انتهت إليها زيارة السيد رئيس الجمهورية الناجحة لباريس. وكان مقرراً – وفق البرنامج – أن تنطلق طائرة الرئيس الخاصة وبرفقته الوفد في تمام الثامنة مساء وكان الرئيس ووفده يتناولون الغداء في داري اليوم التالى.. وفجأة استدعاني الرئيس طالباً تقديم موعد قيامه ساعة كاملة.. بدأ الأمر مربكاً ومحيراً ذلك أن تفاصيل برامج الزيارة كانت قد أعدت قبل قدوم الوفد بدقة تامة.. وأن رئيس الوزراء – المسيو ريمون بار رئيس الوزراء أخطر ليكون في وداعه، وأن الوزراء الذين سيكونون في وداع الرئيس علموا بالموعد ويبدو أن مجرد العثور عليهم – ناهيك إخطارهم بتبديل الموعد بكل ما ينطوي عليه من حرج – بدأ أمراً عسيراً.. ولما رأيت تصميماً من جانب الرئيس استنجدت بالدكتور منصور خالد وزير الخارجية الذي بذل جهداً لحمل الرئيس على تغيير موقفه دون طائل. جرى بحث عن ملاحي الطائرة وتم إخطار مكتب رئيس الوزراء على عجل وكان يوم عطلة .. وانتظم موكب الوفد أمام نزل السيد الرئيس.. صعدت لأدعوه للنزول فإذا بي أجده مستغرقاً في صلاة طويلة.. رفع يديه بعدها وانخرط فيما بدا أنه دعاء متصل، سافر الوفد في رعاية الله وتخلف الأخوة الوزيران بدر الدين سليمان وبشير عبادي للسفر إلي لندن في اليوم التالي لإنجاز مهام تتعلق بأعمال وزارتيهما.. وفي الصباح كان الوزيران معي قبل أن ننطلق إلي المطار لتوديعهما، وفجأة رن جرس الهاتف لأتلقى مكالمة عاجلة من مدير وكالة الأنباء العراقية ينهي إلي فيها أن اضطرابات تجري في شوارع الخرطوم وأن القصر الجمهوري محاصر إلي جانب عدد من المرافق.. وتواترت المحادثات بعضها يحمل ما تناقلته الوكالات وبعضها يتساءل عن الرئيس الذي كان مرفوقاً بالسيد أمبو مدير اليونسكو إلي الخرطوم وكان مقرراً

وصولهم لها ساعات الفجر الأولى.. ولم نجد أي خبر يعيد الطمأنينة إلي نفوسنا.. فلا السفراء القريبون منا في غرب أوربا لديهم علم ولا مراسلو الصحف والوكالات.. أخيراً اتصلت بالقاهرة وعلمت من الأخ السفير أحمد صلاح بخاري أن الطائرة وصلت بسلامة الله المطار وأنه يجري التعامل مع القوات المتمردة وأن الرصاص يسمع في الطرقات المؤدية إلي القصر.. وقد اتضح لاحقاً أن الغزاة كانوا يحركون مدفعاً لضرب طائرة الرئيس لدى هبوطها فى الموعد الذى كان مقرراً ولكن تقديم موعد عودة الرئيس أفسد المحاولة.. تم دحر المحاولة والتي عرفت "بغزو المرتزقة" فيما بعد.. وما أدرى أن كانت صفقة السلاح التي سيرد ذكرها لاحقاً كان مخططاً أن تكون جزءً من الإعداد لذلك الغزو، حاولت أن أتعرف على السر الذي جعل الرئيس يصر على تقديم موعد قيامه دون جدوى.. وقد رفض الرئيس البوح بذلك حتى اليوم!

كانت فترة عملي بباريس مزدحمة مليئة بالمشاغل والمشاكل.. وزاد من ذلك الحصار الذي كنت أحسه جراء عدم التحدث بالفرنسية التي يعتز بها أهل فرنسا والتي تمثل في نظرهم جسر توصيل لا غنى عنه كان الفرنسيون يعتزون بلغتهم ويستشعرون نوعاً من الرثاء لمن يجهلها.. وكان في تواتر زيارات الوزراء وإجتماعاتهم برصفائهم ما فتح أمامي منافذ واسعة للتعرف إلي بعضهم وفي مقدمتهم المسيو روبرت قالية..

## فرنسا وقناة جونقلي:

وكان مشروع جونقلي هو أحد المشروعات الهامة والإستراتيجية للسودان ومصر إذ أنه يعمل على تدبير موارد مائية إضافية للبلدين تتبدد هدراً في المستنقعات.. إذ يحقق إضافة مائية تبلغ ٤ مليار متراً مكعباً سنوياً تقسم مناصفة بين البلدين، كما أنه يوفر تنمية للمنطقة المحيطة به والتي تبلغ ٣٦٠ كيلومتراً ليس أقلها توطين الرحل بالمناطق التي سيتم إصلاحها، مع إيجاد طريق بري دائم يربط ملكال بجوبا مروراً بجونقلي.. والمشروع فيما هو معروف يتكون من

قناة بطول ٣٦٠ كيلو متراً تبدأ من بحر الجبل عند مدينة بور وتنتهي عند إلتقاء نهر السوباط بالنيل الأبيض قرب ملكال.

ويعود اهتمام الفرنسيين بالمشروع لأن تنفيذه أسند لأحد الشركات الفرنسية حيث بدأ العمل فعلاً في أواخر عام ١٩٧٨م. وحصل السودان على قرض من الحكومة الفرنسية يمثل ٧٥% من نصيب السودان في المكون الأجنبي للمشروع بينما تتكفل مصر بدفع نصيبها من مواردها الذاتية.. وتقدر التكاليف الإجمالية لأعمال الحفر مائة وعشرين مليون دولار بخلاف فروق أسعار البترول.. وهناك اعتمادات خصصت لتنمية المنطقة بلغت نحواً من عشرين مليون جنيهاً سودانياً (في ذلك الوقت) وتم إنشاء جهاز خاص لتنمية المنطقة برئاسة نائب رئيس الجمهورية يضم العاملين كافة من أبناء الجنوب.

رؤى أن يقوم وفد برئاسة مسئول كبير إلي السودان لمتابعة الأمر سيما وكانت بعض المعدات وبينها أكبر حفار في العالم تعهدت الحكومة الفرنسيا بنقله من باكستان إلي موقع القناة على نفقتها الخاصة.. وبالفعل عقدت رئاسة الوفد للمسيو قاليه وزير التعاون الدولى والذي تعرفه الأوساط في فرنسا بأنه "أبو القنبلة الذرية الفرنسية" التي امتلكتها فرنسا في عهده حيث كان وزيراً للدفاع على عهد الرئيس ديجول.. كان قاليه صديقاً للسودان محباً لأهله.. يزين مكتبه وداره بالمصنوعات السودانية وبعض لوحات الفنانين التشكيليين في السودان وكان حريصاً على تلبية كل الدعوات للحفلات التى تقيمها السفارة.. وقد طلب إلي مرافقته في تلك الرحلة التي وضع خلالها الرئيس ديستان طائرته الرئاسة الخاصة تحت تصرفه.

## المارسليز في سماوات الجنوب:

كان أعد للضيف الكبير برنامج رائع جرى وضعه بعناية. بدأناه بزيارة لموقع مشروع جونقلى. حلقنا في منطقة جونقلي، وكنا حلقنا فوق منطقة ساد التحليق فوق فضاءاتها فجأة هرج ومرج وأهازيج ورفع الإنجاب وإنشاد النشيد

الوطني الفرنسي.. علمت أنها لم تكن إلا منطقة "فشودة" والتي كانت نقطة فارقة بالنسبة لمحاولات فرنسا السيطرة على تلك المناطق.. لاحظنا لدى هبوطنا جواً نوعاً من الوجوم الذي قابلنا به بعض المثقفين الجنوبيين خاصة طلبة جامعة جوبا. عمل الأخ أبيل ألير لتهيئة المناخ الحميم خلال حفل (الترم ترم) الراقص الذي أقيم في إحدى الساحات حيث علا الغناء والرقص.. أسر إلي الصديق هيلري لو قالي – وكان زميل دراسة لي وقضى معنا وقتاً بالجزائر حين كان وزيراً للعمل على أيام الأحزاب، ثم ضمتنا مايو في رحابها – في أن ثمة شائعة خبيثة انطلقت تشير إلي القيام بمظاهرات ضخمة ضد مشروع قناة جونقلي، وإن كتمان أمر الزيارة حتى آخر لحظة أجهض تلك المحاولات.. عدنا إلي الخرطوم صبيحة يوم مشمس جميل.. كان على الضيف الكبير إجراء بعض المحادثات قبل انطلاقه في المساء إلي بلده. وكان البرنامج يتضمن إقامة عشاء خاص في دار الرئيس حضره عدد محدود جداً من الوزراء.. وكان حفلاً مميزاً حفلت وقائعه بالمفاجآت حيث كانت المائدة عامرة بالأطعمة الفرنسية التي استجلب لها طباخون فرنسيون إمعاناً في إكرام الضيف.. كما جرى نقاش رسمي وحفلت الجلسة بالطرائف والمفارقات.. وأني لأذكر أن المقدم عمر محقر جاء بورقة سلمها للرئيس ذاكراً أن الأخ عمر الحاج موسى طلب تسليمها إليه على الفور.. نظر إليها الرئيس وقال (رحمها الله).. كنت أعشق صوت فريد الأطرش.. ولما استطلعنا الأمر ذكر أن السيدة أم كلثوم انتقلت إلي رحمة الله.. غشيت مشاعر الحزن الحاضرين ولكن سرعان ما تجاوز الجميع الحدث الأليم.. انتهى الحفل وأننى لأذكر أن الرئيس وبرفقته الأخوة الوزراء وآخرين رافقوا الضيف راجلين من منزل الرئيس حتى المطار العسكرى حيث كانت الطائرة الرئاسية رابضة وهى مشاعر قابلها الضيف بتأثر شديد وعرفان.

## مع عصابات المافيا وتجار السلاح:

أخطرتني سكرتيرتي بأن شخصاً اتصل بها يطلب التحدث إلي السفير شخصياً.. وذكرت أنه رفض أن يعطي أية تفاصيل عن أسمه أو هويته كما رفض التحدث إلي أي شخص آخر من ديبلوماسيي السفارة.. وأنه عاود الإتصال في إلحاح ذاكراً بأن الأمر يتعلق بأمر خطير يهم السفير شخصياً ويحسن الإلمام به.

إلتقيت الرجل.. كان لونه الأبيض تشوبه مسحة من الحمرة الخفيفة.. ربع القاعة حسن المظهر يتحدث الإنجليزية بلكنة أهل البحر المتوسط ولكنها إنجليزية طليقة وراقية بشكل ملفت.

إعتذر الرجل عن أية مشقة يكون قد سببها في إلحاحه في طلب مقابلتي، ولكنه قال أن الأمر يهمني بوجه خاص بوصفي سفيراً للسودان. وذكر أن الأمر خطير لذا لم يشأ الإشارة إليه عبر الهاتف وأكد لي حرصه على نقله لحكومتي بأية وسيلة تكفل الحفاظ على سريته وعدم تسريبه.. ذكر أن تسريب الأمر بأي شكل قد يلحق ضرراً شخصياً بي، مؤكداً أنني سأكون هدفاً لجماعته. ذكر أنهم مجموعة من تجار الأسلحة يبيعونها لمن يرغب من حركات التحرير في شتى بقاع العالم أو الحكومات أياً كان لونها،.. وأن عامل الربح والربح دون سواه هو الذي يهم وأنه يعرضه لي لا لأن أمر السودان يهمه.. فهم لا يتعاطون السياسة ولا يتابعون تياراتها.. سيان عندهم السودان ومن يحاربه.. إنهم يقدمون خدماتهم لمن يدفع أكثر.. وبعد هذه المقدمة كرر القول بأنني سأكون الصلة بينه وحكومتي وأن أي إفشاء لمضمونه سأدفع ثمنه غالياً.. ربما حياتي! قالها معتذراً ومؤكداً أنه رسول ينطق بإسم جماعته من مجموعة 'المافيا'. ذكر أن جماعة من المعارضة السودانية بالخارج أبرمت معهم صفقة كبيرة لشراء أسلحة وضعت تفاصيلها ويجري الإعداد لمكان تسليمها في نقطة معينة على إحدى نقاط الحدود السودانية الشاسعة ولعلهم يعدون لتنفيذ مخطط وشيك ضد الحكومة، ولما كان الربح هو دافعهم بل ومعبودهم – كررها مرتين – فإنهم يسعون لجني

المزيد وذلك بموافاة حكومتنا بموعد ومكان التسليم.. فإذا وافقت الحكومة ونجح الكمين الذي قد تعده لدى تسليم السلاح فإنها تربح السلاح بنصف القيمة التي دفعها معارضوها.. وبذا تكون ربحت السلاح مقابل نصف قيمته بينما يكونوا هم قد ربحوا قيمته كاملة من الجهة المعارضة وفوقها نصف القيمة من الحكومة ثم كرر أن حكومتنا تكون ربحت السلاح وربحت تفادي الخطر الوشيك.

أعطاني مهلة لأقوم بالرد مكرراً رجاءه بأن تتم إتصالاتي بالحكومة عن غير طريق الهاتف ومذكراً بأنني منذ تلك اللحظة الرسول والوسيط والهدف لكل ما يترتب على إفشائه. كان السيد جمال محمد أحمد وزير الخارجية يزور لندن وكان تحدث إلي ذلك الصباح ذاكراً أنه سيسافر إلي الخرطوم صباح اليوم التالي.. فكرت في إبلاغه الرسالة عبر رسالة "شفرية" ولكني استبعدت تلك الفكرة لأن الدبلوماسي الذي يتوافر على فك رموزها سيدرك محتواها، وأخيراً تفتق ذهني عن فكرة تكفل ما أريد دون خوف من رقيب.. اتصلت بالأخ جمال وأخطرته بالعربية بأن زوجتي ستتحدث إليه في أمر أسري يختص بالأهل لخصوصيته.. ونقلت إليه زوجتي كل النقاط التي أردت إيصالها "بالرطانة النوبية"، وقد رجوته أن ينقل الرسالة إلي الرئيس شخصياً وذكرته بالعواقب الوخيمة التي تنطوي على تسريبها.

جاءتني برقية رمزية من الخرطوم تطلب لي إرسال التفاصيل بحقيبة خاصة وبإسم شخص معين في الحكومة مذكرين بأنهم يدركون دقة موقفي، وأخطروني بأن الأمر في نظرهم يبدو هاماً وأن مدير الاستخبارات العسكرية يتوافر شخصياً على معالجته مع السيد الرئيس.. كانت عطلة نهاية الأسبوع وتوجهت للسفارة مساء وعكفت على إعداد التقرير في ليلة شتوية ماطرة كنت أسمع تساقط الثلوج على نوافذ المكتب وشرفاته.. وشعرت بوخز حاد كالنصل على صدري بينما تصبب العرق البارد من وجهي.. وأغمى علي لأجد نفسي صباح اليوم التالي نزيلاً بالمستشفى الأمريكي وجسمي تغطيه الأجهزة أجريت فحوصات دقيقة – وبعد ثلاثة أيام – استدعيت لمقابلة مدير

المستشفى الأمريكي مستر ليبترج.. وكان أمريكياً لطيفاً مرحاً طالما داعبني وهو يعودني صباح كل يوم لإجراء الكشف والوقوف على تطور حالتي.. ثم استدعاني إلي مكتبه فألفيت الرجل يراجع بعض الأوراق.. ثم نظر إلي طويلاً وقال "يا سيادة السفير.. أعرف أنك رجل تخطيت الخمسين وتتمتع بمعرفة وثقافة أهلتك لموقعك.. وأنني واثق أنك سوف تستوعب قولي وتتقبله بشجاعة ورضى.. ثم تحدث عن تقدم العلوم الطبية وتطورها مما يجعل أي مرض مقدوراً عليه تماماً – وقاية وتطويقاً في مقبل الأيام.. ثم صمت وأردف ماذا أقول لك؟ واستغرق في صمت طويل.

خيل إلي أنني أعاني من داء عضال ما في ذلك شك.. فإذا به يبدد قلقي قائلاً "إنك – بكل أسف – تعاني من مرض ضغط الدم المرتفع". صحت "ماذا؟ هل هذا كل ما عندك؟" لقد خيل ساعتها أنه قال لي أنك تشكو صداعاً خفيفاً فقد هيأت نفسي لما هو أكبر من ضغط الدم ولعل هذا عين ما عناه الطبيب. ومنذ ذلك اليوم انضم إلي دائرة أصدقائي وافد جديد إسمه ضغط الدم العالي.. أعود لأمر الصفقة.. أشهد الله أنني حتى هذه اللحظة لم أدر شيئاً عن ما تم بشأنها.. وأن كنت علمت أخيراً أن أحد المسئولين الكبار بموقع سيادي أوكل إليه أمر معالجتها.. وكان قد طلب إلي تقديمه للرجل بطريقتي وإعطائه الاسم الرمزي للمبعوث.

## مهام خارج إطار البعثة:

كانت فترة عملي بباريس حافلة بالمهام التي تندرج خارج إطار عملي.. حيث استدعيت لمرافقة الوفد الوزاري التشادي في عهد الرئيس مالوم لإعادة العلاقات بين البلدين على طائرة الرئيس التشادي اعتماداً على سابق صلتي بالعقيد القذافي خلال فترة عملي هناك. كما جاءني تكليف بالشخوص إلي روما لحل النزاع الذي اشتد أواره بين السفير والقنصل العام الذي كان يمثل أمن الدولة والذي كانت تظاهر كليهما الجهة التي ينبع لها كلاهما.. وهكذا جئت ممثلاً للخارجية فيما جاء السيد عثمان السيد – سفيرنا الحالي بأثيوبيا

وكان أحد تلامذتي بخور طقت ممثلاً لأمن الدولة.. وبعد مداولات خارج مقر السفارة أمكن وضع أسس تم بموجبها التأكيد بثوابت لا يجوز إغفالها.. ومنها أن السفير هو سيد السفارة وأن على سائر الملحقين الإنصياع لإرادته وأن من حقه أن يحاسب من ينحرف عنهم عن أصول وأعراف العمل الدبلوماسي وكان أن عقدنا إجتماعاً بسائر العاملين في السنفارة.. سودانيين وإيطاليين وبعد اجتماعات وتحريات وبناءاً على قرارنا أعلن القنصل اعتذاره عن أي تطاول أو شطط يكون قد بدر منه فيه مساس بهيمنة السفير وصلاحياته وأنه يؤكد على صلاحيات السفير ويحترمها.. وقد وقعت وعثمان ذلك البيان وحمله إلي الأخ عمر الطيب بينما وافيت بخارجية بالإتفاق الذى صيغ في عدة بنود، والذي عممته على سائر سفارات السودان بالخارج بإعتباره أساساً معتمداً يحكم تلك العلاقة.



مع العقيد القذافي والوفد التشادي الذي صحبته إلى ليبيا لاعادة العلاقات الليبية- التشادية ويبدو في الصورة الأخ على التركي.

استدعيت لمصاحبة وفد تشادي رفيع إلي طرابلس على طائرة الرئيس معلوم فيما قلت..وقد أثمرت الزيارة عن إعادة العلاقات بين البلدين بعد لقاءين بالعقيد القذافى فى خيمته.

استدعيت لمرافقة الأخ أبو القاسم محمد إبراهيم وفرانسيس دينق لحضور احتفالات سبتمبر في سبها.. فضلاً عن استدعائي لمرافقة الرئيس لحضور جلسة البرلمان المصري السوداني المشترك على أيام المنهاج والمشاركة في إعداد خطاب الرئيس في المجلس وحضور القمة العربية عام ٧٦ إلي جانب الرئيس وزير الخارجية والأخ عبد الماجد خليل والتي أفضت إلي مشاركة القوات السودانية إلي جانب القوات المشتركة على الساحة اللبنانية.. تلك المشاركة التي اضطلعت خلالها بإنقاذ أشقائنا الفلسطينيين في تل الزعتر.. فوق كل ذلك كان علي أن أصرف أعمالي في كل من الإتحاد السويسري والفاتيكان بإعتباري سفيراً غير مقيم لديهما.. وكان العرف الدبلوماسي يحتم المشاركة في مناسباتهما القومية وحضور المآدب الرئاسية التي تقام على شرف الزائرين، بإعتبار أن دعوة الرئيس أمراً واجب النفاذ. من الطرائف أنني كنت أقيم وزميلي الراحل إبراهيم سلمان – مستشار السفارة – في أكبر فنادق "بيرن" العاصمة السويسرية وكان الفندق على بعد خطوات من المبنى الرئاسي الذي سيشهد تقديم أوراق الإعتماد.. وهكذا درجت المراسم السويسرية أن تعد للسفير القادم موكباً جليلاً مهيباً وهو في طريقه لتقديم أوراق إعتماده.. وذلك بإعداد خطة سير طويلة يشق خلالها الموكب بعض الشوارع الرئيسية بالمدينة حتى يعود إلي قصر الرئاسة المجاور للفندق.. وكان استقبال رئيس الدورة للإتحاد السويسري ودوداً..

وأذكر أنني وزميلي قصدنا أحد المقاهي الكبيرة في المدينة ذات مساء ولفت نظرنا رجل يجلس مع بعض أصحابه ولما انتهى قصد إلي دراجة امتطاها وانطلق بعيداً.. كان وجه الرجل مألوفاً ولما أمعنا التذكر انتهينا إلي أنه لم يكن سوى رئيس الدولة الذي قدمنا له أوراق اعتمادنا صبيحة ذلك اليوم.. وكانت رحلاتي للفاتيكان التي كنت معتمداً لديها تتسم بالمناقشات التي تنحصر في

مجملها حول قضية الجنوب وسعادتهم بإتفاق أديس أبابا وحول القواسم التي تجمع بين الأديان ومعاناة الدول الأفريقية والجهد الذي يبذلونه في هذا الإطار.. وكان البابا بولس كثيراً ما يعرب عن حبه للسودان ويحرص على تكريمي بإعتباري سفيراً له.



مع البابا بولس السادس عقب تقديم أوراق اعتمادي لقداسة بابا الفاتيكان.

استدعيت للخرطوم للمشاركة في لجنة مراجعة موقف الدبلوماسيين الذين تم إبعادهم من الخارجية والذين تظلموا من تخطيهم في الترقية.. تلك اللجنة التي ترأسها الراحل قلباوي محمد صالح وكيل الخدمة وجاء قرارها بتكليف من السيد الرشيد الطاهر.. وقد كان حصادها مشهوداً.. وفوق ذلك كان انضمامي للوفد المرافق للرئيس نميري في زيارته للسادات فور عودته من زيارة القدس حيث كنا أول وفد على الإطلاق يقوم بذلك. وقد كان الإنجاز الذي طالما عبرنا

عن سعادتنا به هو استقدام أكبر وفد فرنسي يضم العشرات من رجال الأعمال والصناعة والاستثمار في فرنسا للسودان حيث أعد لهم برنامج حافل زاروا خلاله مشروع الجزيرة وعقدوا اجتماعات مثمرة مع نظرائهم ووضعوا أسس متينة لتعاون اقتصادي خلاق.

كانت فترة عملي بفرنسا زودتنى بدروس قيمة وفي مقدمتها أن "اللغة" يمكن أن تكون نافذة تطل من خلالها على المجتمع ودوائر السياسة، ولا يكفي عون الزملاء من مساعدين يتقنون اللغة أو أصدقاء عرب أو افارقه من سفراء الدول النامية.. اللغة يمكن أن يكون "سجناً" تحول قضبانه دون الإندماج في المجتمع حيث كان الفرنسيون يعتزون بلغتهم ولا يميلون للتحدث بغيرها إلا اضطراراً... وكنت ألاحظ كثيراً من زملائي من سفراء الدول العربية والأفريقية الذين لم يكونوا يتحدثون الفرنسية يشاركونني الرأي.. وهي ملاحظة ركزت عليها في تقريري الختامي للرئاسة وناديت بعدم تعيين أي سفير لا يتحدث الفرنسية في تلك العاصمة الرائعة بالغة الأهمية...

أذكر واقعة حدثت في هذا الشأن حيث تم اختياري وزيراً بعد فترة قصيرة. كنا برفقة الرئيس نجوب أرجاء الوطن العربي خلال رحلة التضامن التي ستأتى على ذكرها.. كنا في عمان نتناول غداء خاصاً في منزل السفير أحمد دياب ونطرق الحديث إلي التنقلات المقترحة في صفوف السفراء والتي كانت ستحدث وشيكاً، فسأل الرئيس عن الشخص المقترح لخلافتي في باريس فأجاب الأخ الرشيد الطاهر وزير الخارجية يومها- بأنه (ع. ع).. كان الرجل من السفراء المميزين ومن الرعيل الأول في الوزارة.. ولكنني عبرت عن العنت الشديد الذي كنت ألاقيه جراء عدم إلمامي باللغة الفرنسية.

وتمنيت لو كان السفير الجديد من الذين يتقنونها. وضربت مثلاً بالدكتور بشير البكري الذي تعلم في جامعات فرنسا وأشرف على إفتتاح أول سفارة لنا بها والذي يعمل وقتها باليونسكو مستشاراً لمديرها.. عبر الكل عن تأييده ولكن رؤي أنه قد لا يكون مناسباً الطلب إلي الرجل ترك ذلك الموقع الرفيع

ليعود سفيراً.. وقد تكفلت بهذا.. وبالفعل أجريت اتصالاً هاتفياً بدكتور بشير مساء نفس اليوم فإذا به يخطرني بأنه جندي نذر حياته لخدمة هذا الوطن من منطلق قومى وأنه على أتم الإستعداد للقيام بهذا الواجب القومي دونما التفات لأية اعتبارات أخرى.. وهكذا تم اختيار دكتور بشير فيما أوكلت لصديقنا الذي كان مرشحاً لباريس إحدى السفارات الكبرى.. وطالما عبر لي عن امتنانه وسعادته بما حدث.

## كنا مع السادات بعد عودته من القدس بساعات

### خلفيات اللقاء.. ووقائعه

كنت أقضي عطلتي السنوية بالسودان وكنت أنوي أن أنفق بعض الوقت في مسقط رأسي بحلفا دغيم بين الأهل والعشيرة وبعضاً آخر بأم روابة بين الأسرة والأصحاب، أعود بعدها إلي الخرطوم لتمضية عطلة العيد ومراجعة بعض الدوائر في الدولة لإنجاز بعض الأمور المتعلقة بسفارتي بباريس، ولكن أمراً جليلاً أفسد كل ما كنت أخطط له إذ أعلن عن قيام الرئيس السادات بزيارة إلي القدس، للقاء المسئولين الإسرائيليين والتحدث إليهم. جاء الإعلان المدوي على غير إنتظار، وعقدت الدهشة والحيرة ألسنة الناس وانقسموا بين مصدق ومكذب. وحانت اللحظة الحاسمة: أذكر أننا تحلقنا حول أجهزة التلفاز نرقب الحدث الخطير ونتابع وقائعه: استقبال السادات ولقاءاته مع المسئولين الإسرائيليين.. وخطابه الشهير من على منبر الكنيست الإسرائيلي إلي غير ذلك. تفرقت الاجتهادات بين الناس وتراوحت ردود الفعل بين الاستحسان والاستهجان. إنخرطنا في جدل ونقاش حول الأمر حتى الساعات الأولى من صباح اليوم التالي. أويت إلي فراشي عساني أصيب قسطاً من الراحة بعد تلك الساعات المضنية المفعمة بالمشاعر المتباينة والضغط العصبي الهائل. وما هي إلا ساعات حتى جاء من يوقظني لينهي إلي أن رسولاً من الرئيس نميري ينتظرني ذاكراً أنه يحمل رسالة عاجلة. وجدت المقدم عمر محقر – سكرتير الرئيس الخاص وصفيه – يبلغني طلب الرئيس نميري لقياه بمنزله بالقيادة العامة على

الفور.. كان الأمر محيراً ومثيراً للدهشة.. ذلك أنني لم أقابله خلال تلك العطلة ولم أكن أحسب أنه يعلم بوجودي في العاصمة، كما أن طلب لقائه في منزله وفي مثل ذلك الوقت الباكر لم يكن أمراً مألوفاً.

قصدت دار الرئيس وألفيته يجلس على كرسي وثير وقد لبس جلباباً فضفاضاً تدلى فوقه (شال) وضع بغير عناية وكان يضع على فمه غليوناً (بايب) وقسمات وجهه متغضنة وقد أحاطت بعينيه هالات سوداء.. كان وجهه ينبي عن رهق شديد. رحب بي بعبارات مقتضبة ثم استغرق في صمت شرود. حسبت لأول وهلة أن الرجل ربما كان يعاني أزمة صحية مباغتة، فطلب إستدعائي كي ينقل إلي توجيهاً بالسفر إلي مقري في أوربا لوضع ترتيبات لعلاجه هناك.. طال الصمت وبادرت متسائلاً: "لعل الأخ الرئيس بصحة جيدة؟" أجاب "صدقني أنني ظللت ساهراً طوال الليلة الماضية لم أذق طعماً للنوم ولو للحظة واحدة". ولما حاولت تقصي أسباب ذلك تجاهل سؤالي واستغرق في النظر إلي الأفق البعيد. وبعد لحظات ذكر أنه أرسل مندوباً لأم درمان لكي يجيء بالأخ مهدي مصطفى.

وما أن وصل مهدي حتى اعتدل الرئيس في مقعده وبدأ حديثه قائلاً " صدقوني أنني ظللت طوال الليل أرقاً مسهداً. كنت أشعر بالأسى والحزن العميق لأنني لم أكن معه.. أقف إلي جانبه.. أشد من أزره.. أشهد العالم معه بأن العرب هم دعاة سلام عادل ودائم وشامل.. وأن كل ما يبغون هو كفالة حقوقهم على نحو ما قررته الشرعية الدولية.. إن الأخ السادات بإتخاذه تلك الخطوة الجريئة والشجاعة وعلى مشهد من سكان الأرض قاطبة ومسمع منهم وضع قضيتنا العادلة – التي تقاصر عن التعبير عنها إعلامنا العاجز الخافت – أمام الكون بأكمله ومن على منبر ما كان ميسوراً لنا بلوغه ولو أنفقنا كل ما نملك.. بل أنه إختزل مئات السنين لتوفير مثل ذلك المنبر الكوني، ثم أخرج ورقة من جيب جلبابه تحوي أهم ملامح الخطاب الذي ألقاه السادات في الكنيست متسائلاً "ألا يمثل ذلك المطالب العربية التي إتفق عليها الجميع في لقاءات القمة دون زيادة أو نقصان؟"، ثم استرسل في إبراز الجوانب الإيجابية

للزيارة منهياً حديثه بأنه رأي – تأسيساً على ما تقدم – أن يبادر السودان بإصدار بيان يحمل تأييدنا لتلك المبادرة المباركة الجسور وأنه رأي تكليفنا بصياغة ذلك البيان بإعتبارنا كنا وزراء معاونين له في رئاسة الجمهورية يوماً.. جرى نقاش حول الأمر وعبرنا عن قناعتنا بأن الخطاب الذي ألقاه السادات أمام الكنيست يجسد في الواقع الثوابت العربية المتفق عليها وأن تلك الرؤية أو الإستراتيجية – إن شئت – تجيز للجميع التحرك في إطارها دون جنوح أو مجافاة. على أننا كنا نرى أن تلك الخطوة قد تكون محل جدل وتباين في الرأي حول الأسلوب أو النهج الذي انتهجه السادات حيث قام بتلك المبادرة بإجتهاد شخصي، وعلى نحو إنفرادي، دون مشورة أشقائه من القادة العرب الذين يرون في القضية الفلسطينية قضية قومية لا يجوز التصرف بشأنها على نحو أحادي. وعبرنا عن خشيتنا من أن يأتي رد الفعل من بعض العواصم العربية ضارياً وعنيفاً، سيما وقد يرى فيها البعض نكوصاً عن مقررات مؤتمرات القمة لما تنطوي عليه من دلالات الإعتراف (دون مقابل) واختيار أسلوب التفاوض والصلح إلي غير ذلك. وكان من رأينا أن نتريث في إعلان موقفنا لبعض الوقت حتى تتضح ملامح الصورة ونقف على بعض ردود الفعل إزاء الحدث سيما وأننا لم نكن مطالبين بإبداء وجهة نظرنا – مظاهرة أو معارضة في ذلك الطور. ولكن يبدو أن الرئيس كان مصمماً على صدور البيان وقد جرى نقاش حول ما إذا كان من الضروري إستلهام رأي الجهات المختصة في الدولة وفي مقدمتها وزارة الخارجية والمؤسسات السياسية حول الأمر قبل إصدار بيان يحمل موقف السودان. وافق الرئيس على دعوة الأجهزة المختصة توطئة لعرض الأمر عليها وإطلاعها على البيان الذي كنا بصدد إعداده.. وبالفعل تمت صياغة دعوة عاجلة لأعضاء المكتب السياسي للإتحاد الإشتراكي والأمانة العامة والوزراء لعقد اجتماع في الحادية عشر من صبيحة نفس اليوم ثم تحدث الرئيس لوزير الإعلام طالباً إبراز الدعوة في صدر نشرات الإذاعة والتلفزيون.

عكفنا – مهدي وشخصي – على إعداد مشروع بيان نؤمن فيه على المبادئ الأساسية التي حملها خطاب السادات أمام الكنيست بإعتبارها تعبيراً

أميناً عن الثوابت التي إلتزمها العرب خاصاً بقضية الجلاء عن الأراضي المحتلة وكفالة حقوق الشعب الفلسطيني وفقاً لما نصت عليه قرارات المجتمع الدولي وأنها وضعت أمام العالم بأسره رغبة الدول العربية في تحقيق تلك المطالب العادلة والمشروعة بأسلوب سلمي ينأى عن مدارك الحرب والإقتتال.. ثم يركز الجزء الثاني من البيان على تأكيد دور مصر الريادي والقيادي في معركتنا ضد العدو الغاصب، ثم تركيز على أن التضامن العربي يمثل ركيزة أساسية في معركتنا نحو بلوغ مقاصدنا وأهدافنا وأن القضية الفلسطينية تعتبر شأناً قومياً قدمت فيه شعوب الأمة العربية – وفي مقدمتها شعب مصر الباسل – الشهداء والتضحيات وأنه يتعين علينا تبعاً لذلك أن نعض بالنواجذ على قضية التضامن العربي وعدم تعريضه لأية هزات أو إنتكاسات ثم ختمنا البيان مذكرين بالمبادئ والثوابت التي التزمت بها الأمة العربية الخاصة بتلك القضية المصيرية.

قام الرئيس بمراجعة البيان ولاحظنا أنه وقف طويلاً أمام بعض العبارات التي جاءت في خاتمة البيان مما يمكن اعتباره استدراكاً لما ورد في مقدمته، ولكنه وافق أخيراً بإعتبار أن ما ورد فيه لا يعدوا أن يكون تعبيراً عن الواقع. إنصرفنا بعد إنجازنا للمهمة وهنا طلب إلي الرئيس المشاركة في الاجتماع المرتقب رغم أنني أفتقر لأي مسوغ يخول لي ذلك، بإعتباري سفيراً بالخارج ولست عضواً ثابتاً في تلك المؤسسات ولكنه أصر على رأيه.

## اجتماع طارئ لقيادات مايو:

تقاطرت القيادات المايوية التي شملتها الدعوة على قاعة الاجتماعات الكبرى بمبنى الإتحاد الإشتراكي وقد اتخذت مقعداً جانبياً إلي جانب بعض مستشاري الرئيس أرقب ما يجري. إستهل الرئيس الجلسة بعرض مفصل عن رحلة السادات إلي إسرائيل في اليوم السابق ووقف طويلاً عند خطابه أمام الكنيست محللاً ومبيناً إنسجامه مع الثوابت والمقررات التي إنتهى إليها الملوك والرؤساء العرب خلال اجتماعات القمة وعن الآثار التي كسبتها القضية على الصعيد الإعلامي ثم تحدث عرضاً عن بعض ما يمكن أن يترتب على تلك

الخطوة الجريئة من تطاول وإفتئات من بعض الأطراف. وكان العرض الشامل الذي وافى به الرئيس الإجتماع ينم عن ميول مبطنة ومستترة تشير لتأييده لتلك الخطوة ولم يأت على ذكر مشروع البيان الذي جرى إعداده.. ربما إعتقاداً منه بأن الإجتماع قد ينتهي إلي تأييد مبادرة السادات على نحو صريح ومباشر يتجاوز صيغة البيان التي رأى أنها تتسم ببعض الإبهام.

إنخرط المجتمعون في نقاش تحليلي هادئ وموضوعي للمبادرة.. أيدها البعض وساق الحجج التي تعزز موقفه مطالبين بإصدار بيان يحمل ذلك التأييد.. بينما إنبرت بعض القيادات البارزة تعبر عن وجهة نظرها مناوئة تعارض الزيارة والكيفية التي تمت بها والآثار المدمرة التي قد تنعكس على قضية التضامن العربي، بل إن بعضهم كان ينادي بإصدار بيان يعلن صراحة معارضة السودان لتلك الخطوة.. وإنني لأذكر أن ذلك التيار كان يقوده بقوة وشراسة الأخوة خالد حسن عباس وأبو القاسم هاشم وزين العابدين وموسى المبارك وإسماعيل الحاج موسى وآمال عباس وعز الدين حامد ويوسف بشارة وغيرهم. استغرق الإشتجار والجدل وقتاً طويلاً حتى ظهر تيار قوي يطلب إرجاء إصدار أي بيان ليومين أو ثلاثة حتى نتبين ردود الفعل داخلياً وعربياً وإقليمياً ودولياً عوضاً عن التعجيل بإصدار بيان ونحن على ذلك النحو من الخلاف وتباين الرأي. وهنا أعلن الرئيس أنه كان جرى إعداد بيان كان يفكر في إعلانه على الاجتماع. وما أن فرغ الرئيس من قراءة البيان الذي جاء متوازناً ومقبولاً حتى علا التصفيق ووقف الأخ موسى المبارك معلناً موافقتهم على تلك الصيغة بينما إستبد الحماس بالدكتور إسماعيل الحاج موسى فقفز من مقعده إلي حيث المنصة التي يجلس عليها الرئيس في محاولة منه لإنتزاع البيان توطئة لإذاعته على الفور. وهنا وقف أحد الأعضاء – لعله المرحوم الدكتور أحمد بدري عضو الأمانة ووزير الدولة للنقل فيما أذكر – وكان من أكثر الأعضاء حماساً لمبادرة الرئيس السادات مؤكداً قبولهم لصيغة البيان بإعتباره تعبيراً عن الأفكار المتداولة مع تقديم تعديل طفيف بأن يترك للرئيس إتخاذ

الخطوات التي يراها ضرورية في ضوء المستجدات. وهكذا إنفض الاجتماع وتحلق الأعضاء في مجموعات يتناقشون ويتجادلون.

ولما كانت دار شقيقي عمر حيث كنت أقيم خلال العطلة لا تبعد كثيراً عن مقر الإتحاد الإشتراكي فقد اقترحت على بعض الأخوة (أبو القاسم وموسى ومهدي وعز الدين وآخرين) أن نذهب إلي هناك لتمضية فترة القيلولة وتناول الغداء معاً.

كان صديقنا موسى يشكو من داء عضال وظل يصارع المرض بقوة الرجال وعزيمة لا تلين.. ما أن وصلنا الدار حتى افترش الأرض واستلقى على ظهره وهو يغالب الألم قائلاً في نبرة يشوبها الإبتسام " يا جماعة والله الرئيس رايح يتخذ خطوة أخرى.. كان يعارض البيان ويعارض إرجاء إصدار أي بيان لا يحمل تأييداً صريحاً وان ما إنتهى إليه الأمر بتفويضه لعمل ما يراه وفقاً للمتغيرات هو الذي حمله على القبول ومضى يقول ضاحكاً " يا أخوانا نميري صديقي وظللت أعمل معه منذ أول لحظة لتفجير الثورة وأنا أقرأ أفكاره صدقوني".

تناولنا الغداء واستغرقنا في غفوة الظهيرة – جرياً وراء عادة أهلنا في السودان. صحوت على صوت قرع شديد على باب الدار فذهبت استطلع أمر الطارق في ذلك النهار شديد الحرارة فإذا بالأخ نديم عدوي – نائب مدير المراسم حينها – يفاجئني وهو يغالب الضحك الشديد بأنه يحمل توجيهاً من الرئيس كي أكون في السادسة من صباح اليوم التالي في المطار العسكري لمرافقته في رحلة إلي مصر للقاء الرئيس السادات الذي كان قد عاد للقاهرة في نفس اليوم. دعوته للدخول عساني أقف على مزيد من التفاصيل حول الأمر ولكنه إعتذر وهو يغالب نوبات الضحك بأن عليه أن يبلغ بعض أعضاء الوفد الآخرين من الذين تم إختيارهم لمرافقة الرئيس. أطلعني على القائمة القصيرة التي تحوي أسماءهم. إقترحت عليه الدخول إلي الصالون ليجدهم بالداخل (ربطة معلم) مما يوفر عليه المشقة. تلقى الزملاء أبو القاسم ومهدي وعز الدين

الرسالة (المفاجأة) وإنصرف الأخ نديم ليشارك في وضع ترتيبات الرحلة. إنخرطنا نناقش الأمر إذ لم نكن ندرك الحكمة في تشكيل الوفد على هذا النحو من رجال يعدون في حساب المعارضين. وبدت لنا الحكمة في إختيار الأخ عز الدين بإعتباره وزير دولة لشؤون مصر بالسودان، أما إختيارنا ففيه إحراج لنا بل أن من شأنه أن يثير بعض الضباب حول موقفنا الذي طالما عبرنا عنه. ورأى بعضنا أنه لابد من الذهاب فوراً إلي الرئيس نلتمس إعفاءنا من تلك المهمة بينما كان للأخ أبو القاسم رأي آخر حيث رجح أن يكون الرئيس قد وضع في إعتباره موقفنا وأراد أن نكون إلي جانبه وهو يستطلع الملابسات التي أدت للزيارة ووجهة نظر السادات كاملة إزاء المبادرة وقد بدأ الأمر مقبولاً فقبلناه.

## أول وفد على الإطلاق يهبط القاهرة بعد الزيارة:

إنطلقت بنا الطائرة الرئاسية الخاصة من طراز ميستير من المطار العسكري صوب القاهرة وكنا بذلك أول وفد على الإطلاق يزور مصر ويلتقي الرئيس السادات غداة وصوله من القدس. ما أن إنطلقت الطائرة حتى أخرج الرئيس من حقيبته بعض التقارير التي تحمل الصدى الباكر لتلك الزيارة وبينها التقرير اليومي الممتاز التي دأبت وزارة الخارجية على تزويد الرئيس به كل ليلة متضمناً وقائع الأحداث الدولية إلي جانب تقرير إعلامي مفصل عكفت وزارة الإعلام بالتعاون مع المكتب الصحفي على إعداده حاملاً كل التعليقات التي حفلت بها الصحافة والوكالات والإذاعات حول الزيارة.. كانت ردود الفعل تحمل مباركة من دول الغرب ومعارضة واضحة واستنكاراً لتلك الخطوة من الجانب العربي وكان ذلك ينذر بإنقسام حاد وصدع على الجبهة العربية.. بدت أمامنا الآفاق معتمة حالكة السواد ولكن الرئيس لم يكن يبدي إهتماماً بما ورد مردداً بأن ذلك أمر عرفناه وعركناه وبلوناه.. تلك سحابة صيف عن قريب تقشع. جرى نقاش حول المهمة والدور الذي يمكن أن يلعبه السودان في تطويق الخلاف والصدع الذي أخذت نذره تلوح. كان من رأينا أن يدلي الرئيس بحديث صحفي يوضح فيه طبيعة الزيارة ومراميها التي تتمثل في محاولة الوقوف

على تفاصيل المحادثات التي أجراها الرئيس السادات خلال زيارته والملابسات التي أحاطت بها والدوافع التي أملتها والنتائج التي يتوقع أن تتمخض عنها. وكان من رأينا أن نترك هامشاً لبلادنا يعطي صدقية لأي تحرك مستقبلي لضم الصفوف دون أن ننحاز لأي طرف بأسلوب مباشر.

حطت الطائرة الرئاسية بمطار القاهرة التي بدت جنباته مزدانة بالأعلام والزخارف ولافتات الترحيب بالرئيس السادات لدى عودته في اليوم السابق.. وكان السادات بإنتظار الوفد على سلم الطائرة محاطاً بعدد محدود من معاونيه. ما إن ترجل الرئيس حتى اندفع إليه شقيقه السادات يحتضنه بقوة مردداً بصوت متهدج غلب عليه التأثر "جعفر أخويا جعفر حبيبي" ثم طوق عنقه بذراعيه وانطلق صوب السيارة التي أعدت لهما بالقرب من الطائرة وانطلقنا بدورنا إلي أحد القصور الرئاسية التي كان مقرراً أن تجرى فيها المباحثات بعد وقت قصير. شاهدت وأنا أهم بركوب السيارة د. بطرس غالي ينتبذ مكاناً قصياً في أحد الأركان وكنت أعرفه خلال تردده على باريس لإلقاء محاضرات أو المشاركة في الندوات بإعتباره مفكراً مرموقاً وأكاديمياً مشهوداً له بالكفاءة. بادر د. بطرس بالقول أنه فوجئ بإختياره وزير دولة بالخارجية قبل يومين ثم فوجئ في نفس اللحظات بإخباره لمرافقة الرئيس السادات في رحلته للقدس.. انصرفنا للحاق بركب السيارات المخصصة للوفد. كان الطريق إلي قصر القاهرة يسبح تحت الزينات واللافتات وأقواس النصر التي تحمل عبارات الترحيب بالسادات القائد العائد وكانت السيارات التي تقلنا محل حفاوة وترحيب وتصفيق كلما التقط المارة العابرون إشارات تدل على تبعيتها لرئاسة الجمهورية.

إلتقى الرئيسان في جلسة مغلقة كانت وقفاً عليهما ولم تدم طويلاً إنضم على أثرها عدد محدود جداً من أعوان الرئيس السادات بينما إنضم للرئيس نميري كل من أبو القاسم هاشم ومهدي مصطفى ومحمد محجوب وعز الدين حامد وشخصي. أبي الرئيس نميري إلا أن يستهل اللقاء بكلمات مؤثرة رأيت أن أنقلها حرفياً من واقع أوراقي القديمة.. بدأ الرئيس حديثه المرتجل على النحو التالي: "إنني سعيد أن أكون على أرض مصر.. درة العرب وموطن العزة

والشموخ كي أتحدث إليكم حول أجرأ مهمة قام بها أشجع قائد للأمة العربية في عصرنا الحديث. إن ما قمتم به من عمل نيابة عن شعب مصر والأمة العربية يجد من السودان شعباً وحكومة ورئيساً كل إعتزاز وفخر. هذا العمل لا يمكن أن يقوم به إلا قائد له من المواهب القيادية ما يجعله يجرؤ على إتخاذ مثل هذا القرار. كان شعور المواطنين في السودان كالعادة قلباً وروحاً معكم في تحركاتكم منذ أن غادرتم أرض مصر ووصلتم إلي القدس وإلي أن أديتم مهمتكم الجليلة. كانوا معكم بقلوبهم هنا أيضاً على نحو ما تجلي في لقاء شعبكم بكم. نحن معكم ومع شعب مصر دائماً وأبداً وسنظل كذلك إلي أن تتحقق للأمة العربية مطامحها وأهدافها.. الشعب السوداني والشعب المصري كيان واحد وتحركهم واحد وإذا تحرك جزء كان تحرك الآخر تلقائياً. ما كنا نحتاج للمجيء لتبيان شعورنا ولستم بحاجة إلي ذلك.. ولكن التحرك العميل في بعض الدوائر يجعلنا بحاجة إلي شرح وتبيان.. العمالة في منطقتنا وقعت تحت تأثير مزايدات مختلفة وهي التي تجعلنا نتحرك سوياً. لك التهاني والتمنيات فيما بدأت، وثق بأننا معك ومع شعب مصر العظيم الذي كان وما زال وسيظل قلعة لكل نضال عربي وأفريقي.. حديثي هذا إليك تأييد وتأكيد".

## السادات يروي وقائع الزيارة وخلفياتها:

رد الرئيس السادات في إنفعال وتأثر ما أخطأنا شواهده: "أولاً أرحب بك أخي جعفر وبالوفد المرافق لكم في بلدكم وإنني جد متأثر لهذا الحديث.. يزيد من أهميته أنه صادر من أخ عزيز وكريم وقائد لشعب حبيب.. والله إنني حين قمت بتلك المبادرة كنت أفكر في الذهاب لأحيط شخصاً واحداً فقط هو أنت! ولكنك كنت يا جعفر دائماً سباقاً للوفاء والقيم ومبادراً للنضال.. لا عدمتك.. نعم لا عدمتك.. أعذرني إنني عاجز عن التعبير عاجز تماماً". ثم مضى الرئيس السادات يقول سأعطيكم صورة لما حدث:

- " كما تعلمون كنا علي أبواب جنيف كي نسوي المشاكل ولكن للأسف نحن كعرب كنا دائماً بارعين في إقامة الحواجز وننحرف نحو شعارات

حماسية كذوب.. نرمي كل خطوة بناءة في البحر. والله لو كانت لنا عزيمة وقوة ذاتية تستطيع هزيمة إسرائيل والدولتين العظميين لأعطيتهم كل جيشي لتنفيذ خططهم. قلت هذا للقذافي وغيره ووعدته بأن أنصبه صلاح الدين الجديد".. ثم مضى يسرد دقائق الموقف مع استشهاد بعض الوقائع الخاصة التي اضطرته على إتخاذ تلك الخطوة مستشهداً ببعض الأمور الدقيقة مما يحسن تجاوزها في معرض هذه الذكريات العابرة.. حسبي أن أقفز قفزاً إلى العناوين التي تناولها حديثه.

- لخص السادات الصراع العربي الإسرائيلي بأنه يقوم في مجمله على الحاجز النفسي والتشكيك في كل رأي ينادي به الطرف الآخر. هذا الحاجز النفسي يمثل برأيه ٧٠% من أصل المشكل بينما لا يتعدى الخلاف الموضوعي نسبة ٣٠%.

- تحدث عن دور الولايات المتحدة الهام والحاسم في قيام إسرائيل ودعمها وفي حل المشكلة تبعاً لذلك وذكر أن دور الولايات المتحدة أضحى مقبولاً لبروز أول رئيس منصف ومتفهم لقضيتنا منذ الرئيس ترومان الذي شارك في إنشاء الدولة العبرية، وأن الرئيس الحالي كارتر هو أول من نادي بحق الفلسطينيين في إيجاد وطن ولما أيدناه في ذلك عايرنا المزايدون بأننا إنهزاميون.

- في أبريل الماضي جلست إلي الرئيس كارتر ساعة ونصف ولمست فيه عزماً صادقاً لإيجاد حل مرض سيما وبدأ أنه يتخذ فكراً منصفاً ورؤية متقدمة واتفقنا يومها على جنيف بعد تحضير كاف يقود إلي الإنسحاب الكامل وكفالة حقوق الشعب الفلسطيني.. و لكن كارتر تحفظ عن الوعد بإقامة "دولة" فلسطينية ولكنه وعد بـ"وطن" قومي للفلسطينيين.. حينها قلت له لا خلاف. سنتفق.

- بعد ثمانية أشهر كان ما اتفقنا عليه يسير بالضبط وفق ما أردنا.. عندها واجه كارتر حملة من الدوائر الصهيونية داخلياً ولكنه ظل صامداً مكرراً

مناداته بالإنسحاب مع إجراء تعديلات طفيفة بالضفة الغربية. زاد الضغط عليه فإقترحت تكوين مجموعة عمل. وافق الآخرون ثم إنسحبوا.

- قلت لابد من تحريك القضية بدلاً من وقوفها عند ذلك المنعطف لا تراوحه لمدة عامين حينها برزت الورقات الأمريكية السوفيتية ثم الأمريكية الإسرائيلية. وقتها بدأت الشقيقة سوريا تزايد رغم أنها طلبت وقف إطلاق النار قبلي بيومين وأنها هزمت باكراً بينما ظللت صامداً حتى تدخلت أمريكا لدعم إسرائيل.
- بدأت أفكر.. شعبي يضيق ذرعاً تحت وطأة الضائقة الإقتصادية.. الضغوط الصهيونية تتزايد.. الدولتنا إستمرأتا حالة الإسترخاء (لاحرب ولا سلم).. الأشقاء يقفون غير مبالين بحرج الوقف ودقته.. الأيدي التي كانت تسارع لدعم قواتنا المسلحة لشراء عتاد متطور كفت عن بسط الأكف.
- كان البعض يبدي تعاطفاً ولا يبخل بالنصح كلما جدت مناسبة.. كان من بين هؤلاء الرئيس شاوشيسكو الذي رأيت أن أقوم بزيارة له أستمع لفكره وأتدبر معه الأمر. تلقيت رسالة قبل الرحلة من الرئيس كارتر يؤكد وعوده مجدداً ويبدي حرصه على عقد مؤتمر جنيف وفق أسلوب معين.
- بعث لي أخي وشريكي حافظ الأسد موفده ناجي جميل وهو يحمل سبعة نقاط يشكو في بعضها وطأة الضغط الداخلي في بلاده وفي لبنان وكنت علمت أن بيغن كان يفكر في عقد إتفاقية مع المارونيين ولكني وقفت حائلاً دون ذلك. كان حافظ يريد أن يبادر الأمريكان بإخراج إسرائيل من الأراضي المحتلة على نحو ما فعل آيزونهاور في نهاية الستينات خلال حرب السويس، ولكن أوضحت له إختلاف الظروف وتبدل الإستراتيجية الأمريكية منذ عهد جونسون الذي عرف بمغالاته في تأييد إسرائيل.. كنت أفضل مؤتمر جنيف بأسلوب يتجاوز الشكليات يمكننا من

الإنخراط في حديث مباشر حول الأمر ولكن يبدو أن حزب البعث القابض على الحكم يومها كان يرى في ذلك ضرباً من الخيانة.

- أجريت محادثات دقيقة مع شاوشيسكو أجرينا خلالها تحليلاً دقيقاً للموقف الدولي والمناهج التي يمكن إلتزامها.. ثم دعوت حافظ الأسد للقدوم إلي القاهرة في أبريل حيث أفضيت إليه بنيتي الذهاب إلي إسرائيل والتحدث إلي الإسرائيليين في عقر دارهم، تم ذلك بحضور مصطفى طلاس وألحت إلي إعتزامي التحدث في مجلس الشعب حول ما كنت أعتزم بأسلوب غامض ومعمق.. جادلوني وقلت لهم "رايح أمشي وأرجع أستقيل". بادر الملك خالد يدعوني إلي الذهاب إليه أو تقديم وعد بعدم الذهاب إلي إسرائيل. رفضت وقلت له أريد الذهاب لوضع حقنا أمام إسرائيل والعالم في إطار مبادئنا الثابتة.

- كان الهم يقتلني.. يأكلني.. ماذا كان بمقدوري أن أفعل.. شعبي يعاني.. إسرائيل مطمئنة تتلقى الدعم من قوى كبرى.. نقاطعها نحن حتى لا نرد على التحية.. ننسحب من المؤتمرات التي تشارك فيها ليخلو لها الجو لترويج أباطيلها.. أهل البترول جالسون لا يتحركون رغم دقة موقفنا.. هم عاوزين تقارير البنك الدولي وتقارير مورغان وستانلي... الخ. وعاوزين ضمانات رغم حاجتنا وموقفنا الدقيق. إستخرت الله وتوكلت عليه وقمت بزيارة إسرائيل.

- لما ذهبت إليهم سألتهم ما تريدون بالضبط؟ قالوا نريد أن نعيش معكم بسلام.. سئمنا الحروب نحن شعب صغير يعد ثلاثة ملايين، أي منزل فيه قتيل أو مشوه حرب ثم قالوا "ما هو الأمن الذي يمكن أن نتفق عليه؟.. قلت الموقف بيدكم لسنا دعاة حرب.. أعطونا حقوقنا.. لا تفكروا في الإحتفاظ بأراضينا.. أرضنا لابد أن تعود ليعم السلام.. الضمانات ممكنة دولياً.. المسجد الأقصى ما زال محتلاً وهذا يهزني ويهز المسلمين جميعاً.. الفلسطينيون تائهون في الداخل وهائمون على وجوههم في الخارج..

مجزءون ومشردون. ينبغي ألا نستمع لصوت المزايدين والمغالين عندنا وعندكم.. فكروا! شعرت بأن الناس في داخل فلسطين كانوا مقدرين لخطورة وجرأة الزيارة.. كانوا بها جد سعداء.

- ذهبت للكنيست وقلت خطابي ثم ضرب بقبضته على الطاولة في إنفعال واضح وهو يقول "أتحداهم أن يقولوا مثل هذا الكلام في بلادهم دع عنك في إسرائيل. كنت قوياً وصريحاً وتوقعت رد فعل معاكس لكنهم قابلوا خطابي بتصفيق حاد.. وجدت الشعب الإسرائيلي مرحباً، كلهم يريد السلام الذي يضمن لهم الأمن والطمأنينة خاصة النساء.. إن شعار الأمن هو الأساس وهو الذي أتى بمناجيم بيغن إلي الحكم. تحدثت إلي غولدا مائير وعازرا وإيزمان (رئيس لجنة الدفاع) بعد أن تحدث كل من بيغن وبيريز معقبين على خطابي. سألني وايزمان لماذا فكرتم في الهجوم علينا قبل أسبوع جاءتنا تقارير عن تحضير من جانبكم للهجوم، أجبت مناوراتنا كانت بالضبط رداً على مناورتكم (TIT FOR TAT). لخصت رأيي خلال المحادثات قائلاً "تريدون الأمن أريحوا أنفسكم لا مساومة حول الأرض المحتلة عام ٦٧م وفي مقدمتها القدس الشريف.. أعيدوا الحق إلي أهله.. استجيبوا لنداء العالم.. إنصاعوا لقرارات الأمم المتحدة.. دعونا نعيش في سلام معاً.. سئمنا مثلكم أنواع الحروب وويلاتها".

- عرضوا علي الجلاء عن سيناء.. ألحوا على ذلك.. ذكروا أنهم مستعدون لتوقيع إتفاق فوري أحمله معي لدى عودتي إلي مصر.. داعبتهم بأنني لا أصحب معي مستشاراً قانونياً. قالوا لي نحن مستعدون بتزويدك بأكبر مستشار بل مستعدون لدفع أتعاب ذلك المستشار. قلت لهم "أنتم تدفعون.. إلعبوا غيرها".. **كرروا عرضهم بالإتفاق على الجلاء عن سيناء خلال إسبوعين على أكثر تقدير..** رفضت وقلت لهم أنا أتحدث عن سلام نهائي وحل للمشكلة الفلسطينية بكاملها.. إذا كان هناك إتفاق نعمله في

جنيف ثم قلت لهم عليكم بإغتنام الفرصة لأنني أتحدث بإسمي وبإسم السودان؟ نحن في وادي النيل نمثل ثلثي الأمة العربية".

- واختتم حديثه الذي إمتد لأكثر من ساعة بإنطباعه عن الإسرائيليين بأنهم ناس معقولين ولديهم إستعداد أكيد لإنهاء المشكلة، ثم قال في تأثر أن الإستقبال الذي خصه به شعب مصر في اليوم السابق لم يشهد له نظيراً طيلة عمله في الشأن العام والذي إمتد لعدة عقود "والله أنا كنت أتوقع معارضة وكنت مقرر الإستقالة ولكن كان لقاء الأمس إستفتاءً على رشد سياستي وصوابها".

عقب الرئيس نميري بأن ما استمع إليه يمثل شرحاً ضافياً ووافياً ولكن الذي يعنينا هنا أكثر هو الحديث عن المستقبل لشعورنا أن هناك حملة تشكيك تلوح بوادرها تمضي حثيثة ومتسارعة إنزلق إليها الجميع حتى بعض الفصائل الفلسطينية. بدأ الكثيرون يتشككون ويخوِّنون منذ البداية. عقب السادات بأنه يبدو مناسباً أن نعطي المتشكيين فرصة ثم نناقشهم موضوعياً في ضوء المتغيرات والتطورات التي ستجد ثم نجتمع معاً لإجراء تقييم للموقف، ويبدو أن الرئيس السادات كان واثقاً بأن ثمار الزيارة ستؤتي أكلها بأسرع ما يتصور البعض من الذين سيدركون سريعاً خطأ حساباتهم.

كان من رأي الرئيس نميري عدم الإنتظار حتى تظهر نتائج المبادرة لأن هناك مستجدات قد تطرأ على الموقف فضلاً عن توقع عقبات يضعها المغالون هنا وهناك وعليه ينبغي إتخاذ خطوة نحو إحتواء المعارضة في مهدها ثم أضاف أن ما سمعناه اليوم يتسم بالمعقولية ولابد أن تفاصيله غائبة عن كثير من أشقائنا العرب.. ماذا لو قمنا بشرح الأمر لهم ودعوتهم لأسلوب التفاوض على نحو جماعي.. ثم تساءل " ماذا لو بعثتم بنائبكم حسني مبارك إليهم للإضطلاع بهذا الدور؟". رد الرئيس السادات مؤمنا على الفكرة مقترحاً عدم إتمامها في هذا الطور بل بعد حين ذلك أن المناخ العربي مشحون بشعور عدائي ليس له ما يبرره وقد غاب صوت العقل في كثير من البلاد العربية، واقترح عقد لقاء

قريب بالخرطوم لتدارس الموقف في ضوء ما قد يستجد من تطورات ليتم تبعاً لذلك الإتفاق على إيفاد مبعوث من عدمه.

وهكذا انتهت المحادثات وعدنا إلي الخرطوم وقد قصدت بإيراد ما تقدم أن أعطي صورة عامة وخاطفة عن طبيعة الزيارة وفكر الرئيس السادات بإقتضاب شديد وفي تجاوز متعمد أحياناً لبعض الوقائع والأفكار والآراء التي تم طرحها خاصة في مجال تقييمه لمواقف بعض الدول الشقيقة.. ثم إنني أحسب أن هذه الزيارة ربما كانت بذرةً نمت وأينعت وأثمرت عن قيام لجنة التضامن العربي التي أسندت رئاستها للرئيس نميري حيث طوف خلالها بعشرين بلد عربي خلال تسعة أيام - شرفنا خلالها بمرافقته - تحدث خلالها مع رصفائه وأشقائه من ملوك ورؤساء تلك الدول بغية تطويق الخلاف بينها وبين مصر فيما سنورد لاحقاً. ذلك التطواف الذي أثمر عن إسترداد الثقة، والتي تقوضت للأسف بعد ذلك بسنوات إثر إتفاق كامب ديفيد والتي شاءت الأقدار وحدها أن يكون وفدنا بقيادة الرئيس نميري أول من يناقش تفاصيلها ويستمع إلي ملابساتها ودلالاتها من راعيها الرئيس جيمي كارتر خلال جلسة إمتدت خمسة وسبعين دقيقة في مكتبه البيضاوي بالبيت الأبيض بواشنطن وضعتنا الصدفة وحدها كي نكون "شهوداً لوقائعها لا "مشاهدين".. وكنا بذلك أول وفد فى العالم يجتمع إلى الرئيس الأمريكى غداة توقيع اتفاق كامب ديفيد والتى نفرد لها باباً خاصاً فى مرحلة لاحقة من هذه الذكريات.

## مفاجأة خلال العشاء:

عدت إلى باريس لاستئناف عملى.. وبعد فترة كان الوزير جمال محمد أحمد في زيارة رسمية لكل من هولندا وبلجيكا.. وقد اقترحنا عليه أن يعرج على باريس في طريقه لتمضية يومين نطلعه خلالهما علي بعض المشاكل المعلقة وتعزيز بعض المبادرات التي كنا نقوم بها وأعددنا برنامجاً بالفعل يمكنه من مقابلة وزير التعاون الدولي - المسيو فاليه - وآخرين إلي جانب عقد مؤتمر صحفي محدود في مقر السفارة يلقي فيه الضوء على اهتمامات بلادنا في تلك الفترة

واهتمامها بتعزيز العلاقات الثنائية إلي غير ذلك رحب بالفكرة وجاءنا بالفعل. كنا على مائدة العشاء بداري حضرها بعض المسئولين ورجال الصحافة وبينهم رؤساء تحرير الصحف والمجلات التي تصدر بالعربية في باريس إلي جانب بعض رصفائهم من الفرنسيين والأفارقة. على أن المناسبة حملت مفاجأة لم تكن في الحسبان! رن جرس الهاتف في داري وكان المتحدث (س.ف) وهو سوداني أرمني صديق للسفارة دائم التردد عليها والاتصال بنا.. وكان من عادته أن يزودنا بالأخبار الدقيقة عن السودان والتي كان يتلقاها عبر محادثته التليفونية اليومية مع شقيقه بالخرطوم حول تطور أعمالهما التجارية.. كانا يتبادلان الحديث عادة باللغة الأرمنية مخافة التنصت ولذا كنا ننتظر حصيلة محادثتهما بترقب لما تحويه من دقائق أخبار المجتمع والسياسة مما لا تستطيع الصحف نشره.. وكان "س" مدعواً للعشاء ويبدو أن أمراً طارئاً حال دون حضوره وحسبت للوهلة الأولى أنه اتصل لينقل اعتذاره ولكنه فاجأني بأن شقيقه أنهي إليه ان التلفزيون السوداني أذاع للتو نبأ تعديل وزاري – كان منتظراً – شمل الوزير جمال، تكتمت على الأمر وأمضينا المناسبة في نقاش أسر خلاله جمال الضيوف – كعادته – بعلمه الغزير ورؤاه الثاقبة وتحليلاته الصائبة. تفرق الجمع وانتحيت بأحد مساعدي الوزير الفرنسي جاليه – والذي كان بيننا – فأبديت أسفي لأن الوزير تلقي للتو محادثة عاجلة للتوجه صباحاً للسودان مما يجعل مقابلته للوزير عسيرة. وهذا ما نقلناه خلال المساء لبعض الصحفيين الذي كان منتظراً حضورهم عصر اليوم التالي.

تلقي "جمال" حين أخطرته بالنبأ - بعد انصراف الضيوف - بهدوء فقلت مواسياً "هذا شجر بلونا المر من ثمره".. تبسم ضاحكاً:" قل يا بني.. بلونا "الأجو" وهي كلمة نوبية تعني الحلو – من ثمره. وأضاف "لقد جربت ذلك يا عزيزي" أما رأيت أن التحرر من المسئولية تجعل الإنسان حرا يذوق حلاوة الحياة لا عليك.. لنذهب أنا وأنت وعارف ابني – وكان معنا – إلي سان جيرمان.. هناك مكتبة يملكها جزائري عساني أبتاع منه عيون "البصائر" للشيخ الإبراهيمي.. قلت له "بل هو عندي في مكتبتي هنا وسأهديه لك. قال إذن دعنا نخرج لنمتع

النفس بمشارب باريس ومقاهيها التي شهدت مولد روائع الأدب الفرنسي قلت تذكرني بأخونا الفنان حسن عطية.. جاءنا مرة ضيفاً على أحد إخواننا الدبلوماسيين.. وظل يلح علينا أنا والأخ محمد التوم التيجاني كل يوم للذهاب للحي اللاتيني حيث كان يجلس في بعض المقاهي التي كان يرتادها توفيق الحكيم وأحمد الصاوي وغيرهما.. يجلس على المقاعد في أوضاع معينة مثلما كانوا يفعلون.. ويستعير بعض كلماتهما وروائعهما وذكرياتهما في تلك الأماكن.. وهو ما أدهشنا حقاً. ولكن جمال قاطعني:" الصديق حسن عطية فنان موهوب ومثقف ولكن عيبه أنه لا يحرس مواهبه.. ولو فعل لأتي بالمعجزات.. قضينا المساء في سمر كأن شيئاً لم يكن!

رحم الله ثلاثتهم.. كان كل منهم فحلاً في فضائه.. فكراً.. وفناً.. وتربية!.

سرعان ما تلقيت نبأ اختيارى وزيراً لرئاسة مجلس الوزراء وكان عليّ أن أترك باريس.. بل العمل الدبلوماسى لانخرط فى الموقع السياسى الجديد.

## وداعا للدبلوماسية:

كانت ليلتي الأخيرة في باريس جياشة بالعاطفة والهم والشجن، لا لفراق تلك المدينة الساحرة البديعة ولا لأنني بت علي مشارف الختام في وزارة الخارجية وفضاءات العمل الديبلوماسي الذي نشأت في رحابه، ولكن لأنه كان علي أن أتولي منصباً وزارياً حسبته جامداً يعني بمشاكل الداخل وقضاياه.. في جهاز يسهر علي متابعة الأداء التنفيذي للوزارات والمؤسسات والتنسيق بين تلك الجهات بأغراضها المتشعبة، ويعني باحكام الربط بينه ومواقع السيادة من جهة والجهاز التشريعي من جهة أخرى.. وفوق ذلك معالجة المسار الحذر والمتداخل مع التنظيم السياسي الذي يلهم السياسات ويقوم بتخطيطها ويحرص دوماً علي إنفاذها وفق تصوره وبعيداً عن تضاريس الواقع. كان الموقع في تصوري هو الأداة التي تعني بالسهر على ترجمة أهداف الثورة الي واقع معاش بل كان المعبر الذي تعول عليه الجماهير لتحقيق أهدافها في احداث

التنمية والتطور وتحقيق الرفاه الذي نشتاقه بواسطةَ الجهاز التنفيذى الذى يمثل عنواناً له.. وهو بذلك حائط الصد لامتصاص تبرم الناس وشكواهم في ساعات الضيق والمحن.

غادرت حفل عشاء أقامه الدكتور محمد البجاوي (عضو محكمة العدل الدولية يومها) لوداعي ضم نفراً من السفراء والأحباب والأصدقاء حينما كان ليل باريس ينتصف،ووجدتني أدلف الي داري في قلب باريس مخترقاً جادة "الشانزليزيه" – أجمل شوارع الدنيا قاطبة – ثم أعرج علي ساحة "تروكاديرو" والتي انتصب علي حواشيها برج إيفل الشهير حانياً وحارساً. أويت الي فراشي مسهداً أرقاً من طول هم بات يعروني.. وسرعان ما ألم بي طائف من ذكرى عهود كادت تنفرط وتنساب مني كانسياب الماء من بين فروج الأصابع.

عاد بي الطائف الي فترة خصيبة من سنواتي بوزارة الخارجية قضيتها بين مجموعة منتقاة من أساتذتي وزملائي حيث كان قوام الدبلوماسيين علي أيام نشأتها السفراء والوزراء المفوضون الذين يمثلون رجال "الصف الأول" والذين جرى اختيارهم من الشخصيات العامة التي عرفت بغطائها الوطني وجدارتها المهنية الي جانب رجال "الصف الثاني" وقوامه نحو ثلاثين من الجامعيين دون سن الخامسة والثلاثين جري اختيارهم بعد ان جلسوا لامتحانات ومعاينات وتمحيص وتدقيق في سيرتهم ومسلكهم. كنا رجال الصف الثاني نتمثل تبعات المسئولية الكبيرة التي ستلقي علي عواتقنا، ولكننا كنا علي ثقة بأن العمل الجديد سوف يزودنا بمعلومات وتجارب غنية تعوضنا عن فرصة الابتعاث الي الخارج لنيل إجازات شهادات عليا وإجازات تخصصية رفيعة (شأن زملائنا في بقية الوزارات او تلك التي انحدرنا منها) كانت تلوح وشيكة بالنسبة للكثيرين منا.. كنا فئة محدودة ألقت بها الأقدار للتصدي لمهمة كبيرة تتمثل في استكمال قيام أول جهاز ديبلوماسي في تاريخ السودان في عشايا استقلاله، مستلهمين بعض الخطى التمهيدية التي أرسى قواعدها السيدان مبارك زروق – وزير الخارجية خلال الفترة الانتقالية – وخليفة عباس العبيد بعون مشهود من د.عقيل أحمد عقيل لفترة قصيرة. كانت تنثال علي الخاطر وجوه بعض أساتذتنا

الرواد من رجال الصف الأول الذين شرعوا في إنشاء الوزارة وعملنا تحت توجيه منهم وإرشاد لاستكمال البناء. لقد اضطلعت كتائبهم بتشييد صروح العمل الديبلوماسي وأصوله الثابتة التي مازالت باقية.. اضطلعوا بارتياد آفاقه ووضع مناهجه وانتقاء أساليب العمل فيه وأحكموا شروط الإلتحاق به.. وأورثوا الأجيال اللاحقة من اللوائح والضوابط والمسوغات والأشراط ما كان كفيلاً بأن يعصم حياضه من كل تعدٍ غشوم وينأي به عن شهوات بعض الحاكمين في إلحاق المحسوبين والمنسوبين والموالين... انطلقت تلك الفئة المؤمنة لأول مرة في تاريخ السودان الي عواصم الدنيا.. غير مزودين إلا بإيمان خالص بهذا الوطن الذي عملوا علي التعريف به والتبشير بآماله وجلب المنافع لشعبه ودعم أمنه وسلامة أراضيه والذود عن حياضه ووحدة شعبه. انطلقوا يجتابون الآفاق بعزيمة ومضاء كان حصادها ماثلاً لا تخطئه عين المنصف الحصيف.. تدارسوا أمر بلادنا وموقعها وأوضاعها وإمكاناتها وخلصوا من كل ذلك الي وضع المكونات النظرية لسياستنا الخارجية، ثم ارسوا قواعد المبادئ الموجهة لها واستنبطوا الأولويات وأساليب بلوغها وعمدوا الي إجراء مراجعات راتبة بين حين وآخر في ضوء المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية حيث توالت مؤتمرات السفراء لهذا الغرض، قدر لي أن أستمع الي بعضهم وأتلقي الدروس علي أيديهم في هذا المجال وأن اطلع علي أول تقارير ظلوا يوافون رئاسة الوزارة الوليدة بها من حيث اختار القدر ان يكونوا وأكون! كنت أري فيما سمعت منهم ونهلت من تجاربهم ما يستحق التسجيل وما هو جدير بأن يكون مخزوناً من النفع لناشئة السلك الديبلوماسي.

تواترت علي الخاطر لماحات مشرقة لبعض الانجاز الباهر الذي حققته الديبلوماسية السودانية عبر عمرها القصير.. تلك الديبلوماسية التي ولدت في ظروف دقيقة وحرجة كان عليها مغالبتها من جهة، والوفاء بالتزاماتها تجاه الأشقاء باعتبارها رابع دولة أفريقية تنال استقلالها تتطلع اليها الشقيقات كي تكون ساعداً يؤتيها المنفعة ولساناً يعبر عن مطامحها.. لذا لم يكن عجباً أن كانت ردهات الخارجية علي ذلك الزمن مؤئلاً لمعظم قادة حركة التحرير الأفريقية

والتي تتلقي العون من بلادنا.. وكان السودان مدركا لدوره في تحقيق الترابط العضوي بين العرب وإفريقيا والتي تمثلها مشكلة جنوب الوطن والتي كانت تمثل التحدي الأول للديبلوماسية السودانية حيث اندلعت شررة الاحداث فيها عام ١٩٥٥ وهي ما زالت في المهد وكانت تتفق كثيراً مع القائلين "بأن مشكلة جنوب السودان هي جزء من مشكلة ازدواج الشخصية الأفريقية بصورة مصغرة ولذلك فإن السودان يمسك بيديه مصير أفريقيا مثل مصيره فاذا استطاع السودان ان يذيب الفروق بين الشمال والجنوب فسيكون رائداً في هذا المجال للقارة الافريقية كلها".. كانت الدوائر الاستعمارية تتخذ من كمونها علي حدود بلادنا شرقاً وغرباً وجنوباً مكامن انطلاق لها فيما كانت بلادنا تستلهم من وضع بلادنا تاريخاً وموقعاً وجغرافية مصدر قوة لها.. ويدعم ذلك ويغذيه تلاحم وتناصر من الدول التي تنتمي إليها من الدوائر العربية ومجامع الدول النامية.. كذلك وبعد أسابيع قليلة من انضمام بلادنا للامم المتحدة برز تحد آخر تمثل في الإعتداء الثلاثي على مصر حيث اختير السودان دون سواه من المجموعة العربية ناطقاً رسمياً باسمها حيث شهد العالم كفاءته في هذا المجال حيث رددت ردهات المنظمة الدولية صولات المحجوب وجولاته في تصديه لسلوين لويد وزير خارجية بريطانيا وشريكيه الفرنسي والإسرائيلي وانقطاع وفده للمشاورات مع دول العالم الثالث انتصاراً لادانة العدوان وإزالة آثاره. ولعل ذلك الأداء المتميز شد المراقبين حيث تم اختياره في الدورة التالية عضواً في المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتحدة والذى عمل على توسيع عضويته كما أمكن له أن يرود مع آخرين في فترات لاحقة توسيع عضوية مجلس الأمن من أحد عشر عضواً إلي خمسة عشر. ولقد مهد أداؤه الرفيع لاختيار صفوة من بنيه لتولي بعض المواقع القيادية في المنظمات الإقليمية والدولية.. تم اختيار الدرديري احمد اسماعيل لمنصب نائب الأمين العام للجامعة العربية (وهو المنصب الثاني في تسلسل هيكلها) كما تم اختيار مكي عباس سكرتيراً للجنة الاقتصادية الأفريقية التابعة للأمم المتحدة لدى إنشائها بأدس أبابا، ومأمون بحيري مديراً لبنك التنمية الافريقية بابيدجان والذي تبني

السودان فكرة إنشائه ودعا الدول الأفريقية للخرطوم لهذا الغرض، واختير محي الدين صابر مديراً للمنظمة العربية للثقافة والعلوم الي جانب بعض المواقع النافذة في قيادات الفروع الإقليمية للوكالات المتخصصة التابعة للأمم المتحدة حيث أختير التجاني الماحي مديراً لمنظمة الصحة العالمية لمنطقة الشرق الأدني، ومحمد عبد الله نور "للفاو" في منطقة الشرق الأوسط. أما أبناؤه الذين انتشروا في فجاج الأرض مبعوثين شخصيين للأمين العام للأمم المتحدة او مكلفين بمهام محددة، أو اختيروا كسفراء دائمين لها مقيمين في بعض العواصم، أو الذين اثروا صناديق التمويل الدولية والإقليمية عبر مواقعهم المؤثرة، أو الذين تعاقبوا علي رئاسة اللجان النوعية في دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة فنعدهم ولا نكاد نحصيهم. كان السودان ملء السمع والبصر ومازال الكثيرون يذكرون مؤتمر اللاءات الثلاثة بالخرطوم في أعقاب النكسة وتحقيق التصافي بين الأشقاء في مصر والسعودية علي حواشيه لاخماد جذورة النزاع الدموي علي أرض اليمن. عرف السودان علي ذلك العهد بأنه عراب التضامن العربي، وسند النضال الأفريقي وداعية التضامن العربي الأفريقي. لذا لم يكن عبثاً ان تم اختياره للإضطلاع بدور مؤثر في حماية وحدة أراضي الأشقاء وتمكين لحمتها الوطنية حيث انتشرت أجناده في غابات الكونغو خلال الحرب الأهلية، وبطاح الصحراء خلال الأزمة العراقية الكويتية الأولي في الستينات، وربى لبنان أبان الحرب الأهلية فيها والتي اختير أحد أبنائها من العسكريين الأكفاء قائداً مناوباً للقوات العربية فيها - كما كان لبلادنا شرف التبشير والدعوة بالتعاون مع مصر لعقد أول مؤتمر عربي أفريقي في التاريخ عقد بالقاهرة لاحقاً.

كانت الخارجية علي ايام نشاتها تلتزم إلتزاماً صارماً بالفروض التي ينبغي الوفاء للكوادر التي تتهيأ للالتحاق بها والتي أجملتها في لوائح تحكم العمل الديبلوماسي والقنصلي.. وكان الوفاء بتلك المعايير يمثل المعيار الوحيد للإلتحاق ببلاط الديبلوماسية حينها. أذكر أن اثنين من الزملاء تقدما في الستينات للعمل بالسلك الديبلوماسي وتوفرت لديهما كل أشراط الإلتحاق واحرزا تفوقاً مشهوداً في الاختبار التحريري واختبار المعاينة.. ولكن جهات

أمنية تدخلت توصي بعدم إلحاقهما بالخارجية باعتبارهما كانا من الناشطين السياسيين في الجامعة أحدهما من قادة التيار الشيوعي (عبد الماجد الأحمدي) والآخر من زعماء الحركة الإسلامية (الراحل عمر عباس عجبنا) وان كليهما عمل علي تحريض الطلاب وإذكاء دعوة الاضرابات خلال الدراسة.. ولكن الوزير محمد أحمد محجوب رفض ذلك وأبان في وضوح وحسم أنهم يرفضون التدخل في اختيار العاملين بالخارجية من أية جهة لأن ذلك من صميم صلاحيات الوزارة وأن مكان هذين الشابين هو رحاب الخارجية دون سواها طالما استوفيا شروط القبول، مضيفاً أن تباين الأفكار من شأنه ان يثري العمل بالديبلوماسية وأن شعاره "دع مائة زهرة تتفتح!".. وقد امكن بفضل تلك الرؤية الثاقبة لذلك الرجل أن حفلت وزارة الخارجية بكثير من حملة الأفكار ذوي الخلفيات المتباينة والتي أثرت العمل الديبلوماسي طالما كانت تنطلق من توجه سوداني صميم ينأي من أن يكونوا أسيراً لطبقة معينة أو مذهب محدد أو قبيل بعينه.

وإذا كانت بعض الفترات اللاحقة شهدت اختيار بعض السفراء – وليس رجال الصف الثاني بحال- من خارج السلك الديبلوماسي فقد تم ذلك وفق نسبة محددة وبعقود موقوته ولمهام معينة وبكيفية لا يتأثر بها شباب العاملين في سلم ترقيتهم.. وهو أمر معمول به في كثير من دول العالم مثل أمريكا مثلا حيث يخصص للرئيس الجديد نحواً من أربعة ألف وظيفة سامية – بينها وظائف السفراء – ليختار من يشاء لأداء مهام معينة ينتهي الحاقهم بإنتهاء ولايته.

تداعت ذكرى تلك الأيام الزاهرة للديبلوماسية السودانية حيث كان القادة السياسيون ينظرون إليها بإحترام وإجلال، ويتخذونها موئلاً للمشورة ومرجعاً لكل ما يتصل بالشأن الخارجي.. كانت الخارجية تتمتع بقدر كبير من الإستقلالية ولا تحيد عن إلتزامها القومي البحت.

حملنى قطار الذكريات إلي واقعة لا أمل تردادها خلال بحث أمر المعونة الأمريكية عام ١٩٥٨ واشتجر الرأي بين طرفي الحكومة المؤتلفة يومها فاحتكم

الكل لراي الخارجية يستلهمون منها الرأي والمشورة والفصل.. يجيء رئيس الحكومة عبد الله بك خليل بنفسه الي الخارجية حاملاً أوراقه وأسانيده التي تعزز من رأيه حول مسوغات القبول وينصرف، ثم يعقبه نائبه الشيخ علي عبد الرحمن حاملاً شواهد تعزز من رأي حزبه الرافض للمعونة. طوفت بي الذكريات علي زمان كان فيه رأي سفرائنا المنتشرين في دول العالم يلقي الاعتبار والاحترام والتجاوب من الرؤساء والقادة والسياسيين.. وإذا كنت أشرت في مناسبة سابقة الي أمر الشكوى التي رفعها ضدنا أحد عتاة الحزب الحاكم يومها حول موقفنا إزاء وفد المعارضة في ندوة الربيع حيث كنت سفيراً بالجزائر عام ١٩٦٧م واتهمنا فيه بموالاة الشيوعيين، وموقف الوزير المحجوب الصارم انتصاراً لسفيره وزجراً له من التدخل في تقويم أعمال السفراء ومواقفهم، فإنني أسوق بعض الشواهد العابرة التي تعزز تلك النظرة الثاقبة والمسئولة..

أذكر أن الرئيس الأزهري تلقي دعوة لحضور اليوبيل الذي كانت تعده الجامعة الأمريكية ببيروت – والتي كان هو أحد خريجيها – كان الرجل سعيداً بالدعوة وحريصاً علي تلبيتها باعتبارها تهيء له فرصة اللقاء بزملاء قدامى فرقت بينهم الأيام.. وهكذا أبلغ سفيرنا في بيروت (السيد مصطفي مدني) كي ينقل قبوله تلبية الدعوة الي مدير الجامعة الأمريكية ولكن السفير رأي واجباً عليه أن يعبر عن إعتراضه علي اتمام تلك الخطوة التي ستتم في مناخ تشهد الساحة العربية فيها تفجر مشاعر الغضب تجاه أمريكا في تلك الظروف جراء موقفها في حرب ١٩٦٧م وعبر عن خشيته من ان يترتب علي قبول الدعوة تفسيرات وتخريجات ونتائج غير مرغوب فيها ونصح الرئيس بالعدول عن تلبية الدعوة ؛ فما كان من الرئيس إلا أن استجاب لرأي سفيره – رغم حرصه وتطلعه لإنجاز الدعوة.

واقعة أخرى جالت بخاطري حيث بعث القصر الجمهوري يوماً برسالة مغلقة الي الرئاسة الإيطالية عن طريق سفيرنا بروما (السيد محمد الأمين عبد الله) دون أن تشفعها بنسخة لاطلاعه أبرق السفير المسئولين بالخرطوم بأنه

يرفض تسليم الرسالة موضحاً بأنه لا يرضي أن يحمل أسفاراً هو بمضمونها غير عليم وأنه ما كان لحكومته ان ترضى ذلك لمثلها ورمز عزتها بالخارج.. وأمن الرئيس جعفر نميري يومها علي رأي السفير ووجه بموافاته بنسخة من الرسالة وتحديد المسئولية في الخطأ الإداري الذي قاد الي ذلك.

كان السفراء يقبلون علي أداء واجباتهم وهم مطمئنون بأن الكل يعترف بجلال الدور الذي يؤدون ويعتمد علي حكمتهم ورؤاهم وحسن مقصدهم.. يظاهرهم ويزودهم بثقته ويشد من أزرهم أياً كانت خلفياتهم.. وكان السفراء بدورهم يستصحبون ذلك دائماً في تحركاتهم وخطواتهم ومعرفتهم بحقيقة دور السفير وفقاً لرؤى كاميون بأنه (علي السفير التقيد بتعليمات حكومته ولكن عليه أيضاً أن ينير سبيلها ويراجعها أحياناً وأن يمنع الانزلاق.. أما السفير الذي يكتفي بأن يكون صندوق بريد فهو خطر علي حكومته نفسها..). لذا عمرت تلك الفترة بالإبداع والعمل الخلاق حيث كثرت المبادرات وانطلق السفراء يعملون في حرية دون خشية من أي تكدير بيروقراطي يحد من إنطلاقهم ويجعلهم أسرى لمشيئة نظام بعينه.

* وكما أتيحت لي خلال عملي بالخارجية أن أنهل من مورد الرواد من أساتذتنا وأن أفيد من التقاليد الراسخة التي وضعوا لبناتها فقد جذبتني عاطفة الذكرى في تلك الليلة الباريسية الي أفق آخر أفدت من خلاله الكثير من تجارب الآخرين حيث أتيح لي خلال عملي أن أرى عشرات القادة الكبار يتنادون لمعالجة أحداث عالمنا المعاصر بكل تعقيداته وتناول قضاياه ويطرحون فكرهم ورؤاهم إزاء ما يجري في هذا الكون.. يجهدون في تحليل العوامل التي تحد من انطلاق الإنسان المعاصر وإرتياد آماله في السلام والتنمية والديمقراطية والتقدم.. رأيتهم كيف يتصرفون خلال ساعات المحن وإشتداد الأزمات حيث يضع كل منهم فكره وتجربته ورؤاه أمام رصفائه.. رأيت المطبخ السياسي الدولي- علي مشهد منا جميعاً – يقف عليه أكبر الطهاة حذقاً ومهارة في عالمنا.. نهرو وتيتو وعبد الناصر وشواين لاي وديجول وجون كينيدى وخروتشوف وسوكارنو ونيكروما وكاسترو وسيكوتوري ونيريري وغيرهم من عمالقة القرن

الماضي.. ضمتنا الي بعضهم لقاءات أحياناً علي المستوى الدولي والإقليمي وتحت الإقليمي.. وهيأت لنا الحياة الديبلوماسية أن نجتمع إلي بعضهم منفردين بوصفنا مبعوثين شخصيين نحمل رسائل من رؤساء دولنا أو سفراء معتمدين لدى بلادهم.

مكنتنا تلك الحياة ان نحل ضيوفاً عليهم.. نفيء إلي قصورهم ونصيب من حفاوتهم التي ترقي أحياناً إلي تزيين صدورنا بالأوسمة والنياشين وأن يمدوا لنا البسط الحمراء لنشق طريقنا بين صفوف الجنود من حراس الشرف إلي حيث يجلسون لنودعهم الرسائل ونجلس إليهم نصغي إليهم ونحاورهم.. لقد هيأ لنا عملنا الديبلوماسي فرص التعرف علي كثير من مغاليق الأمور وإلي ما يجري تدبيره خلف الأبواب الموصدة أحياناً بشأن الأحداث والمواقف التي يفصح البعض بشأنها نقيض ما يؤمن ويضمر.. فنتصرف معتصمين بفضيلة الصمت مستلهمين وصية الديبلوماسي العريق محمد عثمان يس – أستاذنا ومعلمنا وراعينا " على الديبلوماسي أن يري جيداً.. ويسمع جيداً ولكن عليه الا يتكلم إلا مضطراً.. وإذا تكلم فعليه ألا يجزم بشيء.. حسبه كلمة واحدة عاصمة هى "ربما"! رحم الله أبو الزبير كنا نجادله ونطارحه القول ونثير كوامنه لنلقي المزيد من حكمته وطرافة حديثه. كذلك كنا نستلهم معاني الديبلوماسية وتعريفها والمرونة – متي انصرفنا عن التعريفات – الجامدة والفلسفية التي تزخر بها الكتب – من واقع تراثنا العربي في قول معاوية بن أبي سفيان " لو كان بيني وبين الناس شعرة ما قطعتها.. إذ شدوها أرخيت وإن أرخوها شددت " أو قول على بن أبي طالب " لا تكن ليناً فتعصر.. ولا يابساً فتكسر " كما كنا نستلهمها من تراثنا الأفريقي "إنطلق إلي العالم وأغرس قدميك في طين أرضك ولكن دع رجع صدى طبول غابات أفريقيا تسيطر أبداً على سمعك"..

إنقضي الليل كله وأنا نهب لذكرى تلك الأيام العذبة الجميلة التي مكنت بلادنا من ارتياد الوحدة الأفريقية تبشيراً وعوناً في صياغة ميثاقها، ومجموعة دول عدم الإنحياز استشراقاً لمبادئها وتحديداً وحصراً لها، وتركيزاً لتضامن أفريقى أسيوي سقت إليه في مظانه في باندونق.

علي أن كثيراً من الناس يتوهمون - كما توهمنا يوماً – أن العمل الدبلوماسي هو فضاء مخملي ملئ بمظاهر الرفاه والمتعة ولكن تبين للكثيرين أن هذه المهنة هي من أكثر المهن التي تفرض على الدبلوماسيين بعض الفروض القاسية.. فهي تفرض عليهم سلوكاً يتسم بالإحتشام كما تفرض عليهم الإلمام بدقائق الأمور في وطنهم.. تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً.. سياسة واجتماعاً واقتصاداً.. واقعاً وإمكانات وآمال وغايات، في عين الوقت الذي ينبغي عليهم الإلمام بالبلد الذي يعملون فيه.. عليهم أن يتعرفوا على خصائص شعبه وثقافته وعاداته ومحاور اهتمامه.. فوجئت يوماً وأنا أعمل في بلد أوروبي بسيدة عجوز تسألني عن فصائل القطط في بلدي وضروب الرعاية التي تلقاها فلم أحر جواباً.. ولكني لم أشك لحظة في أنها أصيبت بخيبة أمل لجهلي بأمور تبدو ذات أهمية خاصة لمجتمعهم وتحتل مكاناً في دائرة إهتماماتهم.

وللدبلوماسيين هموم خاصة تبدو صغيرة ولكنها تؤرقهم مثل تعليم أبنائهم ورعايتهم وتنشئتهم.. لطالما كان أبناؤهم ضحايا لتنقل آبائهم وتباين البيئات التي يعيشون فيها وإختلاف المناهج التي يتلقون تعليمهم على هديها.. وهذا ما دفع البعض إلي ترك أبنائهم في مراحل دراسية معينة في أوطانهم ليتشربوا واقعها وتقاليد أهلها وهذا ما فعلناه أحياناً. شعرت بأسى حين حدثني زميل بأن ابنته تقدمت لإمتحان السلك الدبلوماسي بالسودان فأصابت تفوقاً في مختلف المواد ولكنها تعثرت في امتحان اللغة العربية.. وعبثاً حاول إقناع المسئولين أن ذلك يعزى لبقائها إلي جانبه في بعض مراكز عمله في أوروبا وأمريكا وهو يؤدي واجبه سفيراً لبلاده.

إن العمل الدبلوماسي ماكينة لا ترحم العاملين.. فطبيعته تقوم على الإتصال والتواصل بغية الحصول على المعلومات الصحيحة والإنصراف إلي تحليلها وموافاة الرئاسة بمضمونها والعمل الدائب إلي إرتياد المنافع من مظانها، وتعزيز العلاقات في مختلف الوجوه إلي جانب المشاركة بالحضور في الحفلات الديبلوماسية المتواترة بشكل يومي.. وخلافاً لما يعتقد البعض فإن حفلات

الكوكتيل تضحى ثقيلة على النفس ويمثل إرتيادها وفاءاً لواجب ممل لا يمكن الاستغناء عنه فهي قناة إتصال ومصدر لتلقي الأنباء "رب ملول لا يمل فراقه".

قرأت لبعض الدبلوماسيين الأجانب يعترفون في مذكراتهم أنهم لم يسعدوا برؤيا المرافق السياحية في البلاد التي عملوا فيها إلا بعد تركهم لمواقعهم.. ولم أعجب في واقع الأمر فإنني شخصياً لم أقصد دار الأوبرا أو القناطر الخيرية خلال عملي بالقاهرة لست سنوات متواصلة إلا بعد تركي لموقعي. فالدبلوماسي يجعل الوطن هماً له وغاية.. لا تلهيه سياحة أو هواية عن واجباته.. ولعله لا يستطيع ممارسة هواياته أو تلبية رغائبه حتى لو أراد.. فعلم بلاده الذي يخفق أبداً فوق داره ومقر عمله وعلى سارية سيارته – فيما يقولون – هو تذكير دائم بالوطن دون سواه.

على أن كثيراً من المسئولين في الدول النامية يرون أن مهمة الدبلوماسيين تتمثل في الوقوف عليهم ومرافقتهم خلال رحلات التنزه والتسوق.. وطالما اشتكى الدبلوماسيون من تواتر بعض الوزراء ومطالبهم والعتب على السفارات لعدم الاحتفاء بهم.. وطالما تحدث السفراء خلال مؤتمراتهم حول ضرورة الحد من سفر بعض الوزراء لمناطق تمثيلهم في مهام يمكن أن تضطلع بها البعثة أو من هم دونهم مقاماً.. ولكن طغيان شهوة السفر لدى البعض وإدراكهم لمنافعه ربما زادتهم تعلقاً به " فالطعام يقوى شهوة النهم " لكأن الواحد فيهم يتمثل قول الشاعر:

| | |
|---|---|
| ما آب من سفر إلا (وأسعده) | رأى على سفر (باليمن) يتبعه |
| كأنمـــا هو في حـــل ومرتحل | موكل بقضـــاء الله يذرعــه |

لقد حطمت الثورة المعلوماتية وانتشار الفضائيات وسهولة الإتصالات بين الرؤساء والمسئولين وتلاقيهم المستمر الحواجز بين الدول، فجعلت المعلومة مشاعة والتحرك على هدى المعطيات الماثلة أمراً ميسوراً نتيجة لتلك العوامل.. وهو أمر جعل مهمة الدبلوماسي أكثر عسراً إذ بات عليه البحث عن "خفايا" المعلومات "وظلالها" والعمل على تبصير حكومته بما يمكن أن تنطوي عليه من

واقع المنطقة التى يعمل بها.. وهذا يفرض على الدبلوماسي أن يكون مبادراً ومجداً في تقديم رأيه وفكره إزاء الأحداث.. قيل أن بعض الدبلوماسيين في عالمنا الثالث يترددون في إبراز فكرهم فيبادرون إلي إرجاعها "للمراقبين" خلال عبارات مألوفة وغامضة مثل "ويرى المراقبون.." أو "وتعتقد بعض الأوساط العلمية ببواطن الأمور" إلي غير ذلك.. ولكن على الدبلوماسي – في تقديري – أن يجاهر برأيه ويصرح به. قد تكذبه الأحداث.. لا ضير في ذلك! قرأت يوماً أن السياسي البريطاني تشرشل تولي وزارة الخارجية البريطانية في بعض الأوقات وكتب يقول أنه "أمضى نصف وقته في الإطلاع على تقارير السفراء الذين يتوقعون حدوث أشياء معينة، والنصف الثاني من وقته في الإطلاع على تقاريرهم التي يبررون فيها أسباب عدم تحقيق ما تنبأءوا به".

أدركني الصباح وأنا تلفني هذه الخواطر الشاردة.. قفز سؤال إلى ذهني.. ترى هل تحافظ الأجيال اللاحقة من الدبلوماسيين على ذلك الموروث النفيس؟؟؟ ترى هل تبقى القيادات السياسية بالوزارة وفيه على تلك القيم والتقاليد التي أرساها الأقدمون وحرصت على قومية تلك الوزارة؟ ليتهم فعلوا!!

وإذا كنت أتيت على الجهد الذي بذله العاملون في وزارة الخارجية من دبلوماسيين وعاملين في إرساء دعائم الوزارة وإرساء مناهج العمل فيها وتشكيل ملامح السياسة الخارجية، فإن الإنصاف يدعوني لكتابة بضع كلمات عن القيادات السياسية التي اسهمت في رسم سياساتها من الوزراء الذين تعاقبوا عليها في أيامنا تلك.

على أن ثمة ظواهر استوقفتني في هذا المجال.. منها أن الوزراء الذين قاموا على تصريف وزارة الخارجية كانوا جميعاً من المدنيين. لم يكن بينهم واحد من إخواننا العسكريين كما كانوا جميعاً أو العشرة الذين عاصرتهم خلال عملي ينتمون إلي طائفتين.. أربعة منهم حزبيين وأربعة من الدبلوماسيين المحترفين..

كما أن جميع الوزراء الحزبيين كانوا من رجال القانون وكذلك الاثنين اللذين قاداها خلال حكم عسكرى.

ظاهرة أخرى إن الوزراء الحزبيين كانوا ينحدرون من حكومات إئتلافية، والمعروف أن/جميع الحكومات التي شهدها السودان منذ إستقلاله خلال العهد الديمقراطي كانت حكومات إئتلافية إذا استثنينا حكومة الأزهري الأولى. وأن جميع الوزراء الذين تعاقبوا على الخارجية جاءوا من أحزاب تختلف عن أحزاب رئيس الدولة ورئيس الحكومة، مما أثر على أدائهم وجعل أيديهم مغلولة عن تحقيق ما كانوا يريدون.

وشهدت بنفسي طرفاً من هذا التباين خلال مرافقتي للرئيس أزهري في عدد من المؤتمرات حين كان هو ورئيس وزرائه ووزير خارجيته يمثلون أطرافاً متباينة داخل الإئتلاف الحاكم، على أنني أشهد أنهم كانوا يخفون خلافاتهم وتباين أفكارهم داخل المؤتمرات وأروقتها ويبدون أمام العالم على نهج واحد منسجم وبالرغم من تلك الظروف فإن وزراء الخارجية من تلك الأحزاب اسهموا في إضافة بعض الأمور المهمة لمسار الدبلوماسية سيما وكانوا جميعاً من أبرز القيادات الحزبية والفكرية في تلك الأحزاب. أما الوزراء الأربعة من الدبلوماسيين المحترفين فكانوا قد تشربوا العمل الدبلوماسي وعرفوا أصوله ودقائق تفاصيله وخباياه فكانوا حراساً لتقاليد الوزارة ومبادئها وعنواناً مشرقاً لها.

وقد خلصت إلي أنه كلما كان الوزير مطلق اليد وله نفوذ في حكومته كلما جاء إنجازه مرضياً ومتكافئاً مع ذلك النفوذ.. ولعل هذا السبب إلي جانب بعض المزايا الشخصية هو الذي مكن بعضاً من الوزراء الذين تعاقبوا على الخارجية من ترك بصمات على الأداء الدبلوماسي خلال عملى بها. علماً بأن هناك من لم أعمل معهم وآخرين عاصرتهم لفترة قصيرة جداً كالسادة بابكر عوض الله والرشيد الطاهر وفاروق أبو عيسى مما لا نضعهم ضمن إطار هذه الانطباعات. أما الآخرون الذين عملت خلال ولايتهم:

• أولهم محمد أحمد محجوب والذي يمكن أن يوصف بأنه الأب الروحي لوزارة الخارجية.. تخير نبتها الذي أرسى بذوره، وتعهده بالرعاية حتى أستوى على سوقه. أسهم في وضع ملامح السياسة الخارجية.. فتح ساحات الدبلوماسية لأبناء الوطن كافة من غير تمييز أو تفريق بسبب الفكر أو المذهب أو الوضع الاجتماعي.. جعل الجدارة والكفاءة معياراً.. وأرسى بذلك جزءاً هاماً من تقاليد العمل الدبلوماسي.. كان يتمتع بصلات واسعة مع ساسة العالم والنافدين في مراكز صنع القرار.. كما كان يتمتع بثقافة واسعة ورؤيا ثاقبة وبصيرة نافذة ونفوذ قوي في حزبه.

يأخذ عليه البعض (عروبيته) التي تشى بها ثقافته ومزاجه وصلاته.. عايره البعض بأنه كان ينصرف عن المكون الآخر للوطن.. "الأفريقية".. ولكن نسى هؤلاء أن حركات التحرير الأفريقية لقيت من الدعم في عهده ما لم تلقه قط.. جعل السودان بيتاً لها وناطقاً باسمها في أغلب الأحيان.. أمدها بالمال والسلاح.. وكان بين رواد إنشاء منظمة الوحدة الأفريقية خلال مؤتمر أكرا عام ١٩٥٨م كما سعى جاهداً لإنشاء مجموعة شرق ووسط أفريقيا.

• أما أحمد خير فقد كان عراب نظام عبود وفيلسوفه ومركز ثقل بين السياسيين.. جاء يحمل سجلاً رائعاً وعامراً بالتضحية من أجل الوطن ومبادرات خلافه في هذا المجال.. يعود الفضل إليه في توظيف الدبلوماسية من أجل التنمية وتوسيع تجارتنا الخارجية لفتح مزيد من الأسواق أمام منتجاتنا والحصول على حاجتنا من القروض والسلع والخدمات بأفضل الشروط.. كان حفياً بالشباب من الدبلوماسيين يشجعهم ويوكل إليهم مهاماً كبيرة بغية تدريبهم، كان يتمتع ببعد نظر وذهن متفتح.. وجاء حصاده سخياً بالرغم من أن فترة ولايته شهدت الكثير من الأحداث والصراعات على المسرح الدولي مثل الحرب الأهلية في الكنغو ولبنان واشتداد الحرب بين التقدميين والرجعيين في الوطن العربي والإنفصال إلي غير ذلك. يأخذ عليه البعض أنه كان (شوفينياً) حيث كان شعاره

(السودان أولاً وأخيراً) وتمنوا لو حذف الكلمة الأخيرة من شعاره، فللسودان إلتزامات على الصعيد الدولي لا يمكن تجاوزها.

ولكن هؤلاء ينسون أن أحمد خير كان ضمن الذين صاغوا ميثاق منظمة الوحدة الأفريقية ومبادئ عم الإنحياز ورسموا مواقف السودان في مؤتمر القمة العربي الأول بالقاهرة والثاني بالأسكندرية.

- أما منصور خالد فكان يتمتع بفكر منهجي متماسك ويد مطلقة، وتأثير طاغ في حكومة مايو وتحديد مسارها خلال توليه وزارة الخارجية.. أفاد من تجربة المحجوب وأحمد خير.. شهد عهده انفتاحاً – خاصة على الدول الغربية – واستطراداً لتطويع الدبلوماسية لأغراض التنمية والبناء وعقد مؤتمرات دولية استقدم لها أهل الدراسة والخبرة والرأي.. يعود الفضل إليه في تحديث العمل في الوزارة وإخضاع مناهج العمل فيها لأساليب الإدارة الحديثة.

يأخذ عليه البعض التعالي الفكري وعدم الحرص على مد الجسور مع العاملين معه وإحاطة نفسه بمجموعة منهم عرفت (بأبناء منصور) وإيثارهم مع تجاهل وإنصراف عن الآخرين. ولكن أولئك ينسون أن كل من ينشد النجاح لابد أن يتخير من السلاح أمضاه، وطبيعي أن يختار المرء بعضاً لمعاونته خاصة لو كانوا من الموهوبين المتميزين على أن يتم ذلك دون هضم حقوق زملائهم الآخرين.

- أولئك في ظني بعض الذين مكنتهم مواهبهم الشخصية ونفوذهم الطاغي في حكوماتهم من ترك بصمات في العمل الدبلوماسي على أيامنا.. علماً بأن هناك وزراء آخرين كان أداؤهم مميزاً عملت مع بعضهم لفترة قصيرة جداً أو زاملتهم وزيراً لم آت على ذكرهم.

ولكن هذا لا يجيز لنا تجاوز شخصين كانوا يمثلان القوة الدافعة في قمة الوزارة من رجال الخدمة المدنية هما السيد محمد عثمان يس أول وكيل للوزارة صاحب الجهود الدائبة والدائمة والمبادرات الخلاقة. حسبه شرفاً أنه هو الذي

اقترح على همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة في مطلع الستينات ضرورة إعداد برامج لتدريب ناشئة الدبلوماسيين وكوادرهم في البلاد التي استقلت حديثاً.. وقام الرجل بإعداد مشروع برنامج لهذا الغرض سرعان ما أجازته الأمم المتحدة وتبنته وصار أحد برامجها المستمرة حتى اليوم في كل من نيويورك وجينيف.. وسارعت الأمم المتحدة إلي الإستعانة به بعد تقاعده واختارته مستشاراً ومحاضراً في ذلك البرنامج.

أما الآخر فهو السيد خليفة عباس العبيد الذي قام بوضع النظم الإدارية والقواعد المحاسبية والأولويات التي يمكن أن تأخذ بها وزارة الخارجية لدى إنشائها.. وذلك حين اختاره السيد مبارك زروق مسئولاً عن هذه المهمة خلال الفترة الانتقالية.. وامتد عطاؤه حين إنشاء الوزارة فصار مرجعاً في هذا المجال ودبلوماسياً مرموقاً يشار غليه ضمن أكثر السفراء تميزاً في تاريخ العمل الدبلوماسي السوداني.

الفصل الثامن

# تركت ما أهـوى لما أخشى

## تعييني وزيرا لمجلس الوزراء

فاجأني أحد الأصدقاء بأن الرئيس نميرى أخبره خلال معاودته له بالمستشفى – وكان مريضاً حينها – بأنه يفكر فى إسناد منصب وزير رئاسة مجلس الوزراء لشخصى.. دهشت! فذلك أمر لم أكن أتوقعه على الإطلاق. وبالرغم أن الموقع يتصل - بموقع سيادى – حيث كان الرئيس هو قائد الجهاز التنفيذى – ويجعلنى استرجع أيامى فى رئاسة الجمهورية والتى كانت حصيلتها مرضية فى ظنى، إلا أننى كنت راضياً بعودتى للعمل بالسلك الدبلوماسى الذى نشأت فيه فى بلاطه وخبرت مسالكه ووجدت نفسى فيه، فضلاً عن أن أمنية ظلت تساورنى دوماً بأن انتقل إلى موقع له صلة بالعمل السياسى، مثل التكامل أو الساحة البرلمانية – التى تعلقت بها منذ الخمسينات حين كان المحجوب يصحبنا إلى البرلمان مزودين بالإجابات علي أسئلة النواب المتعلقة بالشأن الخارجى، كما كنت ميالاً للعمل فى حياض الدبلوماسية الجماعية المتمثلة فى المؤتمرات.. وقد عبرت عن تلك الرغبة الدفينة التى كانت تنفر عن العمل البيروقراطى للرئيس كلما جدت مناسبة.. بل قلتها صراحة حين عرض علي تولى بعض الوزارات فى مناسبات سابقة.. وظللت أتصور أننى سأتولى يوماً أمر بعثتنا فى الأمم المتحدة أو الجامعة العربية! وأرانى اليوم أفاجأ باختيارى لموقع لا صلة له باستعدادى ورغباتى.. موقع يمثل بؤرة العمل التنفيذى الداخلى بكل تعقيداته، وهو أمر ما بلوته أو تحسبت له يوماً.

ويبدو أن الأمر بات معروفاً لدى الكثيرين من رجال العهد، فبادر بعضهم من الذين تقلدوا ذلك الموقع يوماً إلى تحريضى بالقبول ويفيضون فى شرح أهميته ومزاياه.. وما هى إلا أيام حتى دعيت لمقابلة الرئيس بمكتبه بمجلس

الوزراء حيث وافانى بقراره القاضى باختيارى وزيراً لشئون مجلس الوزراء.. تحدثت إليه طويلاً ملتمساً إعفائى من تولى ذلك الموقع أو إمهالى عاماً على الأقل، حتى أنجز بعض الأمور الهامة التى كنا بدأنا التزامها بسفارتنا بباريس، ولكنه أصر على رأيه. تحدثنا عن مهامى المنصوص عليها وبتصورى حولها وأخيراً اتفقنا على أن أكون عوناً له فى مجال العمل الخارجى بصفة استشارية فى نطاق ما يمنحه له الدستور دون تضارب مع اختصاصات وزارة الخارجية كلما كان ذلك ممكناً، على أن أفوض بعض صلاحياتى فى تصريف بعض الأمور الداخلية - وهى كثيرة ومتعددة - لوزير الدولة وكان لحسن الحظ تلميذى وزميلى فى الخارجية الأخ عز الدين حامد للاضطلاع بها تحت رعايتى وإشرافى، بالتعاون مع الوكيل محمد الحسن أحمد الحاج وكان كلاهما يتمتع بكفاءة مشهودة ومهنية عالية مما يجعلنى أتصرف إلى تصريف أعمالى الأخرى بقلب مطمئن ونفس راضية.

واكبت عودتى للعمل وزيراً لمجلس الوزراء فى خواتيم فترة السبعينيات الزاهرة أحداث هامة ورأيت أن أقف عندها فى شئ من الإيجاز. أما الحدث الأول فهو انعقاد مؤتمر القمة لمنظمة الوحدة الأفريقية بالسودان لأول مرة.. وجدت نفسى غارقاً فور وصولى فى العمل مع زملائى في الإعداد لذلك المؤتمر الذى تستضيف فيه بلادنا عشرات من الرؤساء الأفارقة.. اختير الرئيس نميرى رئيساً لتلك الدورة وناب عنه فى قيادة وفد السودان الذى تم اختيارى عضواً فيه الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم. ويجئ على خاطرى ذكرى حدث طريف جرى خلال تلك الدورة إذ شهدت إحدى دول الشمال الأفريقي " انقلاباً " أطاح بالنظام القائم فيها.. وأرسلت الحكومة الجديدة وفداً إلى السودان للمشاركة فى القمة.. وجرت مداولات مكثفة يومها خارج كواليس المؤتمر حول الموافقة على مشاركة وفد تلك الدولة.. ويبدو أنه تمت الموافقة على أن يدلى الوفد المذكور ببيان أمام المؤتمر حول نظام الحكم الجديد.. مقاصده ومراميه، والسياسة التى ينوى إتباعها على الصعيد الخارجى.. أذكر أننى كنت أتابع مداولات المؤتمر فى مساء أحد الأيام من مقعدى فى القاعة حين جاءنى

الأخ عمر محقر - سكرتير السيد الرئيس وقتها - وأسر إلى بأن الرئيس يدعونى للقائه على الفور فى مكتبه بأحد الطوابق العلوية فى قاعة الصداقة حيث كان معه الرئيس الجزائرى هوارى بومدين وأضاف أن على أن أصحب الأخ عبد العزيز بوتفليقه - وزير خارجية الجزائر كى نوافيهما معاً.. وبالفعل ذهبنا إلى حيث يقيم الرئيسان والدهشة تعترينا إزاء ذلك الاستدعاء المفاجئ.. كان الرئيس نميرى يجلس إلى مكتبه والسعادة تغمر وجهه، بينما كان الرئيس بومدين يذرع القاعة جيئة وذهوباً فى نشوة لا يخطئها المرء.. بادرنا الرئيسان بأن علينا أن نعد بياناً عاجلاً نيابة عن وفد العهد الجديد فى الدولة المشار إليها يتضمن المبادئ الأساسية والالتزامات التى يتعين أن نتعهد بها تلك الدولة إزاء المبادئ والمقررات خاصة على الصعيدين الأفريقى والعربى والانتصار لتلك القضايا.. فتساءلنا عن ما يمكن قوله إزاء القضية الساخنة التى كانت تلك الدولة طرفاً فيها، والتى كانت ماثلة وقتها فأجابا بأن الوفد المذكور طلب منهما بإلحاح شديد أن يضعا ما يشاءان من أفكار تبث الطمأنينة إلى الدول الأفريقية وتمثل إطاراً لسياسة خارجية رشيدة من شأنها أن تدعم قبول ذلك البلد، وتمثل مفتاحاً للعهد الجديد فى الساحة الأفريقية خاصة والدولية بصفة عامة.. وتحدثا عن الاعتبارات التى جعلتهما يوافقان على ذلك الرأى انتشالاً من حدوث أى انقسام من شأنه أن يتهدد نجاح المؤتمر الذى كان يسير بسلاسة. ذهبنا - السيد بوتفليقه وشخصى - إلى قاعة مجاورة نتدبر أمرنا وكنت أحسب أن من الأمور المسلم بها والتى من شأنها أن تبعث الارتياح لدى الأخ بوتفليقه إيراد شواهد على افتئات الطرف الآخر فى نزاع كان يهم بلاده، وتعداد مواقفه السالبة بالنسبة لقضايا التحرر أحياناً مما يمكن اعتباره نصراً للدبلوماسية الجزائرية ولكن الأخ بوتفليقه - وهذه شهادة للتاريخ - كان من رأيه أن يكون وفاؤنا للمهمة التى أوكلها ذلك النظام الجديد لبلدينا - على مقدار الثقة والدوافع التى أملت عليها ذلك. صحيح أن فى الموقف ما يغرى بلاده بأن تسجل نصراً مهما فى هذا المجال إذ ما جاء فى الخطاب المنشود ما يتبنى بشكل حازم ومفصل موقف بلاده بصفة خاصة وأخيراً رأينا أنه من المفيد أن يأتى الخطاب فى مجمله انتصاراً

لأهداف المنظمة الأفريقية وملبياً لمطامح شعوبها وتعزيزاً لمبادئها فى حق تقرير المصير وعدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول والانتصار لقضايا التحرر إلى غير ذلك من المبادئ المعروفة.. وهكذا تمت صياغة البيان على ذلك النهج الوقور التى يأتى جماعاً أمينا لكل ما تواضعت عليه القارة من مبادئ وغايات.

حملنا الخطاب للرئيسين وأجازا ما ورد فيه وانصرفت لطباعته فى كتمان شديد توطئة لتسليمه لذلك الوفد عساه يلقيه فى جلسة قادمة إذا صادف قبولاً لديه.

وتحضرنى هنا حادثة طريفة إذ أننا كنا نجلس فى مقعد السودان خلف رئيس الوفد الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم ومعى الأخوان مهدى مصطفى وأحمد عبد الحليم خلال الجلسة التى كان يلقى فيها مبعوث الدولة المذكورة خطابه وهو عين الخطاب الذى أعددنا دون تبديل أو تحوير.

وكنت أخطرت زملائى فى الوفد بأننى علمت بفحوى الخطاب المنتظر من أحد أصدقائى الدبلوماسيين الأجانب.. وبينما كان المندوب يلقى خطابه، كنت أستبق فقرات ذلك الخطاب بصوت خافت على مسمع من أعضاء وفدنا مما أثار انتباه الأخ أبو القاسم الذى كان يلتفت به بين حين وآخر، متسائلاً عما إذا كان الخطاب قد تم توزيعه وأخيراً وبعد انقضاء الجلسة ظل أبو القاسم يسألنى عن جلية الأمر فرد عليه الأخ مهدى " بأن الدبلوماسية تعلمنا أن نعرف ما سوف يقوله المتحدث قبل أن ينطق به" فهز أبو القاسم رأسه فى حيرة.! وأخيراً عرف كل أعضاء الوفد بجلية الأمر خلال اجتماع داخلى للوفد برئاسة الأخ الرئيس.

أوردت تلك الواقعة لأشير إلى أن النجاح الدبلوماسى يتطلب القناعة بما تبشر به، وأن الوسائل لبلوغها لا ينبغى أن تتم بالضرورة عن طريق الانتهازية والمخادعة.

وإذا كانت القيم الرفيعة مثل بلوغ السلام والعدالة والتصدى لضروب القهر والظلم والتلاحم بين الشعوب إلى غير ذلك من القيم التى تمثل هادباً

للعمل الدبلوماسى فإن المناهج التى نلتزمها ونتبعها فى هذا المجال لابد أن تتكافأ ومثل تلك المفاهيم.. لأن النصر الذى يأتى عن طريق المخادعة سرعان ما يخبو مثل لوامع البروق أو الزبد الذى يذهب جفاء!

ما كاد مؤتمر القمة الأفريقى يطوى أعماله حتى انصرفنا ننشد شيئاً من الراحة بعد تلاحق الأحداث التى انهكتنى جسدياً ••• تسليم السفارة بباريس وما يتبعها عادة من لقاءات وداعية وانخراط فى ذلك المؤتمر التاريخي.. ولكنى سرعان ما اكتشفت أن ذاك كله لم يكن إلا ضرباً من التمنى إذ سرعان ما استدعيت بعد أيام إلى اجتماع عاجل بالقصر الجمهورى حضره الرئيس الذى كان سعيداً بالنتائج التى انتهى إليها المؤتمر وتسميته للاضطلاع برئاسة المنظمة خلال دورة كاملة كما جرت العادة.. كان يتصفح ما أوردته الصحافة الأفريقية والعالمية حول مؤتمر الخرطوم وما اتسم به من مظاهر الإعداد الجيد والحضور الكثيف للرؤساء على نحو غير مسبوق والنتائج الباهرة التي انتهى إليها المؤتمر، ووقف إلى جانبه مستشاره الصحفى كان الرئيس معتزاً بالجهد الذى بذل وبعض ما ورد بشأنه من شذرات وطرائف.. ويقول ما كنت أحسب أن الخرطوم ساحرة إلى هذا الحد.. ثم يوافينا بصوت عال عن الرئيس الذى يقول أن الجلوس فى ساحة أحد الفنادق على مشارف المدينة والجلوس إلى الصبايا وهن يقمن بعمل الجبنه ( القهوة السودانية) وتقديمها بين عبق البخور ورجع الموسيقى الحالمة لا يعدله شئ.. وتلك صحيفة تقول أن الرئيس هوارى بومدين كان يعشق السير على شاطئ النيل فى الصباح الباكر، ويقف متأملاً دبيب الحياة على الضفة الأخرى إلى غير ذلك.. ولعل ذلك النجاح أغرى الرئيس نميرى وشحذ همته على تحقيق نصر آخر.. عربياً هذه المرة! إذ سرعان ما انعقد الاجتماع الذى دعينا إليه وأوضح لنا مسوغات الدعوة ومراميها مذكراً بأن جهداً مضنياً ينتظرنا قائلاً " ولكن هذا قدرنا.. هذا قدر السودان!! تحدث الرئيس عن الصدع الذى ينتاب المشهد العربى جراء رحلة القدس بالرغم مما تشهده القضية الفلسطينية من دعم ومؤازرة أفريقية – على نحو ما شهدنا فى المؤتمر الأخير، وإسلامياً بل ودولياً وأوضح خشيته فى أن يتلاشى هذا الدعم

جراء هذا التباعد والتنابذ الإعلامى بين الدول العربية، ثم أعاد إلى الأذهان لقاءنا بالرئيس السادات صبيحة عودته من القدس والحجج التى ساقها.

وذكر الرئيس بأن السودان قصد من توضيح موقفه بمضمون ما انطوت عليه الزيارة من مبادئ أوضحها الرئيس السادات، تمثل أهداف الأمة العربية النسبة للقضية الفلسطينية فى أكبر منبر أعلامى ما كان مأمولاً أن نبلغه بالرغم من اعتراض على الشكل الذى تمت به من تصرف انفرادى فى قضية اتفق على معالجتها بأسلوب جماعى، مع التذكير الدائم بأن التضامن العربى هو إداته الأساسية لبلوغ أهدافنا، وأن مصر تعتبر ركيزة أساسية لاتفاقات العمل العربى المشترك، ثم قال أن رتق الخرق الذى أحدثته تلك الزيارة يضحى أمراً ملحاً مما دفع السودان كى يعدل من اقتراحه بإيفاد السيد نائب الرئيس المصرى، بقيام السودان ممثلاً برئيسه للاضطلاع بذلك الدور الذى تنحصر مهمته فى توضيح أى غموض حول الحدث، والعمل على رص الصفوف وإعادة التضامن العربى إلى سيرته الأولى مع نقل التزام الرئيس السادات بعدم تطوير موقفه الانفرادى فى هذا المجال مستقبلاً.. وذكر الرئيس بأنه استطاع – بوسائله الخاصة – استمزاج رأى بعض رصفائه من الملوك والرؤساء ومدى استعدادهم لمناقشة الأمر تداركاً لما يمكن أن ينتهى إليه ذلك المناخ الذى تهدد العمل العربى المشترك ويبدد الآمال والمقاصد التى طوى دهوراً لبلوغ مراقيها.. وخلص إلى أنه أنس تجاوباً من البعض ينبغى البناء عليه وتحفظاً من البعض يتعين التصدى لتبديده عن طريق الحوار..

.. وأفادنا أنه رأى تبعاً لذلك أن تبدأ التحضير لزيارات عمل خاطفة – قصيرة ومتتالية، تجرى خلالها محادثات مكثفة مع الملوك والرؤساء حتى نصل إلى صيغة مقبولة تجنب الأمة العربية تداعيات المستقبل الذى تلوح نذره.

اتفقنا جميعاً على سلامة الفكرة من حيث المبدأ ورأينا أن يتم الإعداد لها بطريقة علمية ضماناً لنجاحها.. ومباركة الجامعة العربية لذلك الاقتراح لوضعه موضع التنفيذ (وهو ما تم فعلاً).. وقد بادرت مجموعة من الدبلوماسيين

المتميزين بوزارة الخارجية بإعداد ملف متكامل حول القضية الفلسطينية والتطورات التى اعتورتها منذ نشوئها حتى زيارة القدس، مع رصد دقيق للآثار التى ترتبت على تلك الزيارة، على الصعيد العربى والدولى ورؤيه حول مالات المستقبل. وقد انخرطنا – السيد رئيس الجمهورية ونائبه وزير الخارجية الرشيد الطاهر وشخصى والمستشار الصحفى للرئيس، فى وضع تصور لمهمتنا والأسلوب الذى نبغى إتباعه.. ورأينا أن فرص نجاح المبادرة تبدو معقولة سيما بعد أن قطع الرئيس السادات عهداً بأنه لن يتبع مبادرته بأية خطوة أخرى أو إنفاق دون الرجوع إلى القادة العرب، مع التزامه التام بما يقررونه فى هذا الشأن.

وكان الرأى منذ البداية أن التحليل الذى كانت مؤسساتنا السياسية والتنفيذية فى بلادنا انتهت إليه يصلح إطاراً عاماً لمناقشتنا بأن الخلاف يدول حول الشكل وليس المحتوى.. وأن الرئيس السادات والذى قد تكون دوافعه وطنية جراء الثمن الهائل والباهظ الذى دفعه شعبه، والتضحيات الكبيرة التى قدمها الشعب المصرى فى الأنفس والقدرات، وعدم وجود بارقة تبشر بالسلام جعلته يهبط إسرائيل داعياً للسلام العادل حاملاً فى يمينه غصن الزيتون وفى يساره المطالب العربية التى أفضى بها أمام الكنيست على مشهد من العالم سيما وأنه كان متفائلاً جراء الوعود التى قطعها له بعض رؤساء الدول المؤثرة بأن هذه الخطوة تمثل نقلة حقيقية سيتبعها سلام تعهدوا بدعمه... كان من رأينا أن السادات – مهما كانت دوافعه – جانبه الصواب فى اتخاذه ذلك المنحنى الانفرادى بالنسبة لقضية "قومية" تعنى أطرافاً أخرى مثل " دول الطوق " والجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامى ومجموعة عدم الانحياز.. وقد حذرت من التصرف بشكل " انفرادى " وكان من رأينا أن محتوى الزيارة يعلو على الأمر الشكلى وأن أمر الاجتهاد إذا لم يكن صواباً ليس جزاؤه المقاطعة واستبعاد مصر أكبر دولة عربية من المساهمة فى معركة المصير التى كان البعض يبشر بها.. وهكذا وضعت خطة للتحرك تشمل عشرين بلداً عربياً.. تلتقى فيها عشرين ملكاً ورئيساً.. فى حديث صريح ومباشر.. امتد النقاش خلالها لعشر

ساعات مع كل منهم ٠٠ كانت رحلة طفنا خلالها الوطن العربى.. كنا نتحدث إلى الملوك والرؤساء فى مناخ يخلو تماماً من التعقيدات المراسمية.. نسمع لوجهة نظرهم وآرائهم حول الأمر وكنا كلما فرغنا من مناقشة الأمر مع مجموعة من الدول عدنا إلى برج العرب حيث كان الرئيس السادات يقيم.. نوافيه برأى الآخرين ونسمع إلى فكره وتعليقه.

**وقد بدا واضحاً منذ البداية الاتفاق على مبادئ أساسية:**

١) أن التضامن العربى ركيزة هامة لابد من صونها.

٢) أن ما أفضى بها السادات ليس فيه افتئات على المطالبة العربية وكان هناك من يرى أن السادات بخطوته تلك وضع مسماراً فى نعش العمل العربى يصعب تداركه وأنه لا يمكن التعامل معه على الإطلاق، ولكن الكثيرين منهم ظلوا يؤكدون أن مصر تمثل حجر الزاوية فى أى عمل عربى لثقلها التاريخى والحضارى والمكانة الرفيعة التى تمتع بها.

**كنا اتفقنا أن تقوم خططنا خلال التحرك علي الآتي:**

١) التذكير بالمبائ التي يلتزم بها الجميع وفي مقدمتها مقررات الدول العربية والأمم المتحدة.

٢) الالتزام الكامل بمقررات مؤتمرى القمة في كل من الرباط والجزائر التي تعطي الحق بالتحرك في إطارها.

٣) التسلم بأن التحرك جاء مفاجئا ويكاد يكون مبادرة فردية، وهذا أمر مرفوض من ناحية الشكل ولكن ينبغي طرح السؤال التالي علي الجميع. هل خرج خطاب الرئيس السادات الذي ألقاه أمام الكنيست عن المبادئ التي اتفق عليها العرب.. وهل يمكن أن يطغي الشكل علي المضمون؟.

كانت الصورة تبدو أمامنا كما يلى:

أ) دول لها من العقلانية ما جعلها تدرك إبعاد التحرك وربما فوائده.

ب) دول مقتنعة بجدوى التحرك ولكنها لأسباب متعددة لا تجرو علي الأفصاح برأيها علانية.. بل أخذت تلوح بفكرها علي استحياء.

ت) دول رافضة للتحرك.. بل ورافضة للحل السلمي بكامله ورأت فيه أمراً مناقضاً لمقررات الأمة العربية كالعراق وليبيا واليمن الجنوبي وسوريا ومنظمة التحرير وقد بدا الموقف عموماً " غائماً" يكتنفه الضبابية.. ولكن كان حصيلة ما ورد في الصحافة العربية يتلخص في الآتي:

- **الأردن**: عادت وأيدت التحرك بعد معارضته.
- **الكويت**: أشترى تسجيل الخطاب وعرضه علي شاشات التلفزة.
- **قطر**: قامت بنقل التحرك في إرسال تلفزيوني مباشر
- **السعودية**: عارضت التحرك في بيان صادر عن مراسم الدولة ولكنها كفت عن الهجوم.
- **تونس**: عارضت التحرك ثم عادت فأيدت ما ورد في الخطاب.
- **الصومال**: مهد للقبول بإعلانها أن رئيسها سيزور القاهرة
- **اليمن**: لم تحسم أمرها بوضوح.. مظاهرة أحيانا ومعارضة أحيانا أخرى.

وكان في تقديرنا أن بيان الرئيس السادات جعل بعض الدول تميل إلي جدوي التحرك رغم إيمانها بمجافاته لأصول العمل الجماعي.

وقد رؤي أن يبدأ تحركنا هادئا بادئا بالدول التي لا تتخذ موقفا صلبا في معارضته.

## رحلة التضامن العربي:

وهكذا فى السادسة والنصف من صباح الخميس الأول من يونيو ٧٨ أقلعت بنا الطائرة: الرئيس نميرى، الأخوة الرشيد الطاهر نائبة ووزير خارجيته وشخصى ومستشاره الصحفى محمد محجوب من المطار الحربى فى ضواحى العاصمة وهى طائرة حربية من طراز C-١٣٠ وبرفقتنا عدد محدود من

سكرتارية الرئيس وحراسه على أن تلك الرحلة لم تخل من بعض المفارقات والطرائف التى رأيت الإتيان على بعضها فى إشارة خاطفة وموجزة.

(أ) بدأنا الرحلة باليمن الجنوبى وكانت الأوضاع الداخلية متوترة نسبة للصراع الذى اتخذ شكلاً عنيفاً بين الرئيس سالم ربيع والمجموعة المناوئة التى يتزعمها عبد الفتاح إسماعيل.. تميزت الساعات التى قضيناها فى عدن والتى أعقبها غداء عمل بعدم مشاركة الأخوة من التيار المناوئ وكان بعضها تواقاً للقيا بعضهم وفاءاً لعلاقات شخصية قديمة.. كان الرئيس سالم مضطرباً لا يكاد يدلى برأى قاطع.. كان قليل الكلام تنحصر ردوده فى عبارات مبهمة لا طائل وراءها.. كان يتلفت بين الحين والآخر كأن هناك شبحاً يطارده.. بدا مهموماً مكروباً.. انحصر حصاد محادثاتنا معه فى وعد منه بعرض الأمر على "الإخوان". ولكن زال العجب تماماً حين تلقينا فى وقت لاحق أنباء الإطاحة به واغتياله.

(ب) كذلك بدا موقف الرئيس الغشمى فى اليمن الشمالى مشابها، وإن بدا رابط الجأش أحياناً.. أذكر أن محادثاتنا فى صنعاء امتدت لساعات طويلة رؤى استئنافها بعد حين.. ولما كانت الأفكار الأساسية قد تم طرحها بالفعل وجرى التداول بشأنها تعرفنا خلاله على الإطار العام لأفكار الرئيس اليمنى فقد رأى الرئيس – كسباً للوقت – أن نعجل بالرحيل إلى المرحلة القادمة وأبلغنا مرافقنا بتلك الرغبة.. ولدهشتنا أفادنا المرافقون من الوزراء بصعوبة ذلك الأمر لأن الرئيس اليمنى يمضى فترة نهاية الأسبوع بإحدى مزارع القات الخاصة به فى مشارف العاصمة، بمنأى عن أى اتصال أو أمور تتصل بشئون الدولة والحكم.. أصر الرئيس نميرى على رأيه سيما وكانت سلطنة عمان تتوقع وصولنا خلال ساعات لم يتم تحديدها جرياً وراء نهج تلك الرحلة.. وأخيراً وبعون من مدير الأمن الداخلى أدرك الرئيس اليمنى الرئيس قبل سفره وكان فى وداعه.. وظل أمر اختفائه على ذلك النحو محل حيرة ودهشة لنا حتى وافتنا الأنباء بعد شهور بنبأ اغتياله فى حادث مأساوى.. ولعله كان يتوقع

ذلك ويمعن فى إجراءات السلامة على ذلك النحو الذى فوجئنا به.. أسفنا لما حدث.

(جـ) كان السلطان قابوس فى مدينة "صلالة" الساحرة فى الشطر الجنوبى من سلطنة عمان.. وكنا خلال ويبدو أن السلطان قابوس علم بالأمر فأمر بوضع طائرته الخاصة تحت تصرفنا حتى نهاية الرحلة.. ولكن ما أن وصلنا إلى الإمارات حتى أعاد الشيخ زايد تلك الطائرة كى نستقل طائرته الرئاسية حتى أضحى انتقالنا من بلد إلى آخر يتم عن طريق طائرات الملوك والرؤساء الذين نهبط بلادهم وتغادرها تباعاً.

(د) إلى أن هبطت الطائرة بسرمة الله والكل فى حالة ارتباك واضح وكانت محاثاتنا مع الشيخ زايد صريحة ومثمرة.. كلن بادى الحماسة للمهمة وامتدح الجهد الذى يبذله السودان مؤكدا ثقته بأن السودان مؤهل تماما لانجاز المهمة. وكان الشيخ زايد فى واقع الأمر محبا للسودان خصة بزياره قبل قيام دولة الاتحاد، ثم شاء أن يقوم بزيارته فى أول زيارة له بعد قيامه، وايدى رغبته بدعم الاتحاد الوليد بكفاءات سودانية فى مجالات متعددة مثل الحكم المحلى الاداره والقانون والدبلوماسية والأمن.. كذلك كان الرئيس نميرى أول رئيس يزور اتحاد الامارات بعد تكوينه وكان التشادر بيينهما لا ينقطع خاصة فى كل ما يخص التضامن العربى والانتصار لقضيية فلسطين.

(هـ) كان الوفدان السودانى والجزائرى قد اتخذا مواقعهما فى إحدى القاعات الفسيحة بقصر الشعب بالجزائر حين دخل الرئيسان نميرى وهوارى بومدين.. وما أن بدا الرئيس فى تقديم أعضاء وفده حتى قاطعه الرئيس بومدين بالتعبير عن احتجاج، لأن الأخ صالح – يعنى شخصى – يجلس مع الوفد السودانى بينما مكانه الصحيح هو بين الوفد الجزائرى.. كانت بادرة لطيفة ودعابة حلوة، سرعان ما رد عليها الرئيس نميرى "موافقون.. خذوه عندكم وأعطوه لأهله "البربر" هنا فى الجزائر.. أصله "بربرى" وضحك الجميع.

(و) كانت ليبيا هى الدولة الوحيدة بين الدول التى لم ترد علينا بموافقتها على استقبال الوفد.. وأخيراً رأينا أن نخطرها بأننا سنتوقف

لساعات تجرى محادثات مع العقيد معمر القذافى تنطلق بعدها لتونس.. وهكذا وبينما كانت الطائرة تعبر الأجواء الليبية فوجئنا برسالة تحمل عدم استعداد ليبيا لاستقبالنا مما جعلنا نوافى الأخوة فى تونس بتعجيل وصولنا.. ليبيا كانت من أشد الدول ضراوة فى معارضة خطوة السادات وما كانت ترى فى مسعانا إلا محاولة لدعمه والتبشير بمقاصده بدفع من دول الاستكبار العالمى!.

كانت رحلتنا إلى عدن ومنها إلى صنعاء فعمان فأبوظبى ثم قطر والبحرين والسعودية وسوريا والعراق وتونس والجزائر والمغرب عدنا بعدها إلى الإسكندرية لنعقد اجتماعات مع الرئيس السادات فى مصيفه بالإسكندرية حيث وافيناه بحصيلة ما انتهينا إليه واستمعنا لرأيه وتعليقه ومقترحاته وكنا نعمل جاهدين للتقريب بين المواقف ثم كنا ننطلق إلى منطقة أخرى لنعاود العمل على ذات النسق فى رحلة طوينا خلالها الوطن العربى من خليجه إلى محيطه رحلة مضنية حفلت بالنقاش المثمر والصريح فى أجواء خلت من كل تعقيدات المراسم، واتسمت بالإدراك بالمخاطر التى تهدد الجميع جراء انفراط العقد.

.. امتدت الرحلة نحواً من أسبوعين تخللتها رحلات مكوكية إلى الإسكندرية للقيا السادات على مصيفه فيما قلنا.. ولا أحسبنى بحاجة إلى تفصيل ما جرى فى تلك اللقاءات على وجه الدقة تحسباً لاعتبارات شتى سيما وأن تلك الجلسات كانت تمثل "حواراً مع النفس" فما ذكر أحد القادة العرب وأن محتواها لا يجوز إذاعته مما قد ينتج عنها أمور غير مرغوب فيها... وكان ذلك فى حد ذاته يمثل إغراء لتسجيله هنا غالبنا به رغائب النفس بعسر شديد.. وكنا نلتمس العزاء فى أن وزراء خارجية كثير من تلك الدول عبر عن موقف بلاده بإيجاز حين رؤى تتويج الجهد الفردى لبلادنا باجتماع لجنة التضامن العربى التى كانت أسندت رئاستها للرئيس نميرى وفى اجتماعها الأول بقصر الصداقة فى الخرطوم وبذا صارت مداولاتها ملكاً للجامعة العربية. على أنه يمكننى القول بأن تلك المبادرة كانت محطة فارقة بل وركيزة باكرة للتضامن

وتنقية ما ران بها من شوائب، وكان يمكن أن تكون أساساً قوياً لعملية التضامن العربى مستقبلاً، سيما بعد أن اتفق الجميع على إدانة المسلك الفردى والاتفاق على سلامة المبادئ التى أذاعها الرئيس السادات والتركيز مجدداً على عدم التفريط فى القضية الفلسطينية والموقف العربى الذى يدعو إلى السلام العادل والشامل والدائم الذى يكفل تحرير الأرض المحتلة واستعادة حقوق الشعب الفلسطينى مع التذكير بما انتهى إليه مؤتمر اللاءات الثلاث بالخرطوم عام ١٩٦٧.

وقد أمكن الوصول إلي اتفاق بأن يتعهد الرئيس السادات مجدداً بأن لا يعمل على تطوير موقفه التصالحي مع إسرائيل ما دامت تحتل الأراضي العربية وتمثل تهديداً للأمن القومي العربي مع إصرار من بعض الدول على أني ينهي السادات علاقاته معها خلال ثلاثة أشهر.. أي في أكتوبر من ذلك العام.. عاد الرئيس نميري إلي السودان راضياً بما تم إنجازه سعيداً بالإشادة التي حملتها بعض دول المنطقة بالمسعى الراشد الذي التزمته بلادنا.. على أن لجنة التضامن لم تحقق أهدافها كاملة لأن بعض الأطراف العربية كانت ضد قرارات مجلس الأمن، بينما كان البعض الآخر كالعراق – حريصاً على عزل مصر لينفرد بزعامة الأمة العربية إلي غير ذلك.

## في مجلس الوزراء.. يومان مشهودان:

كانت أمانة مجلس الوزراء تمثل الذراع اليمنى لرئيس الوزراء لإنفاذ مهامه التي نص عليها مشروع دستور ٥٦ في متابعة قرارات المجلس والإشراف على الأداء الحكومي عامة واختيار الوظائف القيادية وإرساء دعائم التنمية وكان من الواجبات الأساسية لأمانة المجلس التنسيق بين الوزارات المختلفة من جهة، وبينها وبين السلطة التشريعية والتي لها حق الرقابة على أداء السلطة التنفيذية من جهة أخرى. وهكذا وعلى ضوء الممارسة رأت مايو في وقت لاحق اختيار وزير مختص للسهر على أحكام العلاقة بين السلطتين التشريعية والتنفيذية يكون عضواً في مجلس الوزراء.

ومن خلال ممارستي للعمل كوزير لرئاسة مجلس الوزراء يجئ على الخاطر أمر يومين مشهودين كل عام، يمثلان معلمين في برنامج الأداء في المجلس، وهما يوم إعداد الموازنة العامة وخطاب الدورة في الفصل البرلماني الجديد، والذي يأتي على أداء الجهاز التنفيذي في العام المنصرم والبرامج العامة التي ينوي إعتمادها خلال العام المقبل عبر خطاب ضاف يلقيه الرئيس على المجلس، وكان إعداد الخطاب السنوي عن أداء الجهاز التنفيذي وبرامجه السنوية مناسبة تقوم بإستنفار جهود كل العاملين والذين يستغرق الإعداد له أياماً قد تمتد أسابيع نضع خلالها تصوراً عاماً لما يمكن أن يحمله الخطاب، حيث نقوم بتمرير نشرة لسائر الوزراء طالبين إليهم إعداد بيان عن أداء وزاراتهم خلال العام الفائت وما يخططون لإنجازه في العام اللاحق، ولما كان سائر الوزراء حريصين على إيراد ما أنجزت وزارتهم بتفصيل وإسهاب، كانت مهمتنا إختزال تلك التقارير بكيفية تبرز ما نراه هاماً مع تجاوز الكثير من الأمور التفصيلية وإعادة صياغتها، وهو أمر كثيراً ما ساق لنا عتب الزملاء والوزراء. يتبع ذلك مهمة توليف تلك التقارير ثم محاولة وضع تصور مشروع للإطار النهائي لخطاب الرئيس وقد وضعنا تقليداً ظل معمولاً به فيما أظن لفترات أعقبت تركنا لذلك المرفق، وهو عقد جلسة مغلقة تضم السيد رئيس الجمهورية (رئيس الجهاز التنفيذي) ورئيس مجلس الشعب ورائد المجلس لمناقشة الخطاب قبل وضعه في صيغته النهائية.. وذلك في ضوء ممارستهم العمل في القضاء التشريعي وإلمامهم بمسار التيارات المتباينة داخل المجلس.. ولا تنتهي المهمة عادة بإجازة الخطاب وتقديمه للمجلس، بل كنا نعمد إلي وضع مجموعات عمل مهمتها متابعة المداولات في المجلس ورصد التحفظات التي يبرزها الأعضاء في أداء بعض الوزارات ومقترحاتهم، إلي جانب محاولة رصد لرأي الشارع بالنسبة لما ورد في الخطاب ذلك بالتعاون مع بعض الأجهزة المختصة. وقد قاد هذا النهج أحياناً إلي التعرف على الجوانب الإيجابية والسلبية في أداء الجهاز. وكانت هادياً لنا في العمل على تدارك بعض السلبيات التي كثيراً ما كان يشكو منها النواب، مثل بطء الأداء في الجهاز التنفيذي، وعدم الوفاء بما تقدمت به بعض الوزارات فى

دورات سابقة. ومن هنا برزت فكرة خلق برنامج "الثلاثة أشهر" والذي يلزم الوزراء بوضع مراحل لتنفيذ برنامج الوزارة المجاز وفقاً لأسبقيات وأولويات يتم تنفيذها على مراحل زمنية (ثلاثة أشهر) يلتزم بها الوزراء، وتظل محل متابعة دقيقة من رئاسة المجلس التي تبادر إلي عقد جلسة خاصة لرصد ومتابعة ما تم في كل مرفق بواسطة مجلس الوزراء بكامله.

أما بالنسبة لمشروع الموازنة فإنه يمثل حدثاً بارزاً على صعيد الأداء الذي يتواصل منذ إخطار الوزارات المعنية بإعداد مشروعات ومقترحات، إلي عقد لجان فنية لإجراء دراسات مبدئية، إلي إعداد المشروع المتكامل الذى تتكثف حوله الدراسات، إلي عقد جلسات للمجلس بكامله تمتد حتى منتصف الليل تحفل بالمناقشات الحية والجدل حول كل ما يرد فيها.. يتم ذلك خلال أيام متعددة يتصل بها العمل نهاراً وليلاً.. وكثيراً ما كان الوزراء يتناولون عشاءهم في مباني المجلس عند منتصف الليل. ومن الطرائف أننا كنا نقدم أطباق "الكابيدة" التي تصف رقائقها فوق صحائف من إدام "البامية".. لا لحوم ولا أطايب طعام! " فإذا احتج بعض الزملاء تذرعنا بأن وزير المالية يريدها ميزانية تقشف والخطى الصغيرة هي بدايات للمسار على طريق بلوغ الغايات، وإذا أنسنا منهم إنكاراً وعدم قناعة ألقينا في وجوههم بالحجة الدامغة بأن تلك هي وجبة الرئيس المفضلة، وعليهم أن يأخذوا بها "فالناس على دين ملوكهم" فيزدرون ما تقدم في عتب وغيظ كتوم!

أما عرض مشروع الموازنة في مجلس الشعب نفسه فيعتبر حدثاً جليلاً يقع في مقدم المهام الموكولة للمجلس، حيث تخضع لمناقشة عامة وأخرى تفصيلية في اللجنة المكونة لهذا الغرض.. وكانت المناقشات تتسم بالحيوية والحدة.. وقد أتيح لي أن أتولى الدفاع عن مشروع الموازنة يوماً والرد على ملاحظات الأعضاء عندما ألمت برائد المجلس وعكه خلال إحدى دوراته وقد استمتعت بالتجربة التي حفلت بالجدل والمناظرات سيما وأن تكوين المجلس كان قد شمل رجال المعارضة بعد نجاز المصالحة وقد شهدت تلك الجلسات مجادلات حية بيني وبين اصدقاء قدامى مثل الدكتور عمر نور الدايم والطيب حسب الرسول،

وآخرين من المعارضين عرفتهم وعركتهم مثل الصادق بلة والصادق أبو نفيسة.. كنت أجد متعة والله في تلك الجلسات الساخنة والتي كانت تبث على الهواء عبر الإذاعة. وقد حملت ملاحظات إيجابية من بعض النواب طالما استرجعتها من وقائع الجلسات الموجودة اليوم في إرشيف المجلس، وكنا في الأمانة نعامل مشروع الموازنة بأسلوب شبيه بخطاب الدورة حيث تنقسم فرق العاملين إلي مجموعات يعنى بعضها برصد ملاحظات النواب ومطالبهم، ويعنى البعض الآخر بقياس الرأي وفقاً لما يرد في وسائل الإعلام ويعنى فريق ثالث بوضع دراسة داخلية ومقترحة للمناهج والأساليب التي يتعين إتباعها لوضع الملاحظات موضع التنفيذ.. وأنني لأذكر أن كثيراً من المبادرات التي قمنا بها في الأمانة كانت من وحي هاتين المناسبتين.. فإذا كان ثمة شكوى من النواب من السرف، انصرفنا إلي إرتياد الآفاق التي من شأنها خفض منصرفات الدولة.. فكنا نبادر إلي عقد جلسات فنية تشمل كل الجهات التي يساعد وجودها في بلوغ تلك الغايات مثل النقل الميكانيكي والجهات المسئولة عن المواصلات والإتصالات والخارجية والإعلام لنخرج بمشروع يضع قواعد لضغط الإنفاق الحكومي في كثير من الأوجه التي أتت معظمها بنتائج طيبة. وإذا حمل رصدنا لجلسات الجهاز التشريعي شكوى من عدم الإلتفات لقضايا الجماهير وإنصراف الجهاز التنفيذي عن منافسة تلك القضايا خلال جلسات مجلس الوزراء، بادرنا إلي تجاوز اختصاصات أمانة مجلس الوزراء المنصوص عليها، والتي تتلخص في التنسيق والمتابعة وتقديم مشروعات القوانين، إلي مبادرة بهذا المعنى إلي الرئيس نميري الذي آمن عليها فصارت جلسات مجلس الوزراء الأسبوعية الراتبة تبدأ بالتداول حول الموقف التمويني وتوفير السلع وخفض الأسعار، وهو أمر شد الناس إلي إجتماعات المجلس وتسقط أنباء جلساته مما دفع صديقنا إسماعيل الحاج موسى – عضو المجلس والمسكون بهموم الوطن والناس – إلي الإشادة بهذا النحو في كتاباته السيارة وكتبه. وإذا لاحظنا أن بعض النواب حاول تقديم مقترحات حول التغلب على شكوى وزير المالية من عدم توفر النقد الأجنبي مما يعيق عملية البناء والتنمية، بادرنا

بدراستها وتقديم مقترحات بشأنها في محاولة لإستنباط النقد الأجنبي من مظان ما كانت تجد الاهتمام بالقدر الكافي مثل السياحة وتنظيم العلاقة بين الدولة وجماعات المغتربين في إطار يكفل لإخواننا المنتشرين في أركان الأرض ويقومون بكل ما يدخرون من علم ودراية لإخواننا في الأرض العربية، ويمثلون طوعاً سفارات شعبية قائمة بذاتها طالما جاء حصادها ثناءاً وتقديراً، ومقابلتها بواجبات تضطلع بها الدولة إزاءهم نظير حقوقها عليهم، وهنا برزت فكرة إنشاء جهاز للمغتربين توافرنا على دراسته ودعمه وأنني لأذكر أننا قمنا بتقديم المشروع والدفاع عنه حتى أضحى قراراً نقلنا بشرياته إلي شعبنا صبيحة أحد الأيام عبر الإذاعة الصباحية، معلنين قرار تكوين جهاز لذلك الغرض ومعرفين بمقاصده عبر خطابين للأخ عمر محمد الطيب وكاتب هذه السطور. وبالفعل شهد السودان قيام أو جهاز للمغتربين تابع لرئاسة مجلس الوزراء والذي قام بإختيار مقر له واختيار القائمين عليه قبل أيلولته لوزارة المالية ثم إستقلاله في مراحل لاحقة قمت بإختيار السفير (م) حسن محمد الأمين لقيادته ليكون أول أمين عام له.

ولعل الذين تعاقبوا على قيادة الأمانة من الرواد الأوائل كانوا يفيدون من العلاقات بالجهاز التشريعي ويعنون برغبات أهلنا وإن اختلفت المناهج والأساليب.. وأنني لأذكر كيف أن مجلس الشعب اهتم يوماً بأمر التكتلات التي أخذت بوادرها تنتظم المعمورة فبادر الجهاز التنفيذي بتبني أمر خلق جهاز تكاملي بين مصر والسودان أثمر عن بروز منهاج العمل السياسي والتكامل الاقتصادي للبلدين بقيادة رئيسى وزراء البلدين.. السيدين الرشيد الطاهر بكر وممدوح سالم، وتم إنشاء وزارة لشئون مصر بالسودان تتبع لمجلس الوزراء بالسودان وإنشاء وزارة لشئون السودان بمصر.. وكانت تلك الخطوة تمثل إيذاناً بإرساء القواعد الحقيقية للتكامل ومرحلته اللاحقة في فترة الميثاق. وإذا شكا الوزير من تزايد أعداد النازحين واللاجئين في بلادنا، بادرنا إلي دراسة موضوع إفراغ العاصمة من النازحين بوجهها القانوني والاجتماعي والاقتصادي بكل ما تحفل به من جوانب إيجابية وسلبية إلي السلطات المحلية.. وقد عكف شباب

المجلس إلى إعداد مذكرة حول الإنضباط في أجهزة الدولة، تلك المذكرة الشهيرة والصريحة التي تنتقد الأداء في الجهاز السياسي والإعلامي والتنفيذي والتي تلاها الرئيس دون مشورتنا في إجتماعه بقيادات العمل بقاعة الصداقة لاحقاً.

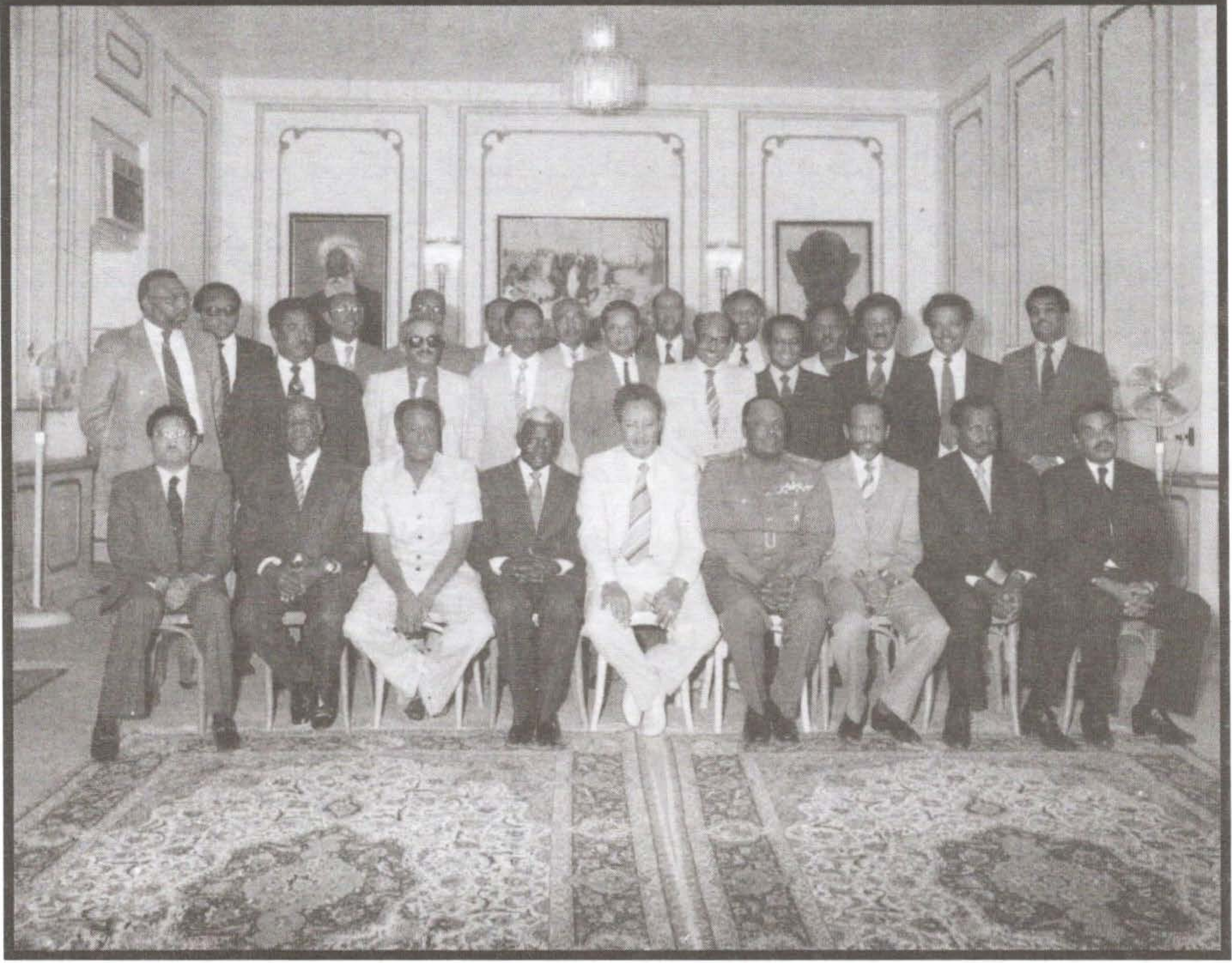
وقد كان أمر اللاجئين الذين توافدوا على بلادنا بمئات الآلاف أمراً مثل هماً لأجهزة الدولة.. وهكذا وبمبادرة من الدكتور عبد الرحمن أحمد البشير والذي كان معتمداً يقوم على جهاز اللاجئين بالسودان (والذي كان يتبع لمجلس الوزراء أيامها) بادرنا إلي تبني عقد مؤتمر دولي للاجئين بالسودان تم الإعداد له على نحو جيد وممتاز وجهت خلاله الدعوة لعشرات الشخصيات والهيئات الإقليمية والدولية والصناديق والوكالات، حضره الأمير طلال بن عبد العزيز الذي جاء من جنيف خصيصاً.. تم كل ذلك في إطار أمانة مجلس الوزراء بالتعاون مع وزارة الخارجية عبر ليال من السهر الطويل.. ولكن للمقادير أحكام.. فقد فوجئنا قبل إنعقاد المؤتمر بأيام قليلة بإجراءات رئاسية لإعادة تنظيم الوزارات والمرافق على ضوء التجربة، فأعلن عن قيام وزارة للشئون الداخلية وأوكل أمر قيادتها للأخ أحمد عبد الرحمن محمد ضمت لها إدارة اللاجئين الذي أشرف على قيام المؤتمر بكفاءة. إن إعادة التشكيل الوزاري والتنظيمي للجهاز التنفيذي هي من اختصاصات الرئيس وفقاً للنظام الدستوري، وكثيراً ما كنا نفاجأ ببعض التعديلات التي تفرضها الضرورة أحياناً.. وأذكر في هذا السياق أن إنفاذ مشروع الحكم الإقليمي كان استدعى حل بعض الوزارات ونقل اختصاصات لبعض الوزارات المركزية إلي الأقاليم مثل وزارات الداخلية والإعلام والتربية والتجارة..الخ. كما أوكل أمر تسيير ما تبقى منها لوزير رئاسة مجلس الوزراء.. كما حدث بالنسبة "للهيئة القومية للإذاعة والتلفزيون" فقد وجدت وأنا أشرف على وزارة الإعلام أمامي مشروعاً متكاملاً ينطوي على تحقيق حلم ظل الإعلاميون في بلادنا يسعون إليه لما ينطوي عليه من فوائد جليلة على العمل وعلى العاملين يمنحها جزء من الإستقلالية.. وهو مشروع إستهدف إيجاد هيئة مستقلة شملت عضويتها كوكبة من رجال الفكر والسياسة والإعلام بينهم كثيرون من خارج الإطار الحكومي.

وأذكر أن قيادة الهيئة أوكلت للأخ الفاتح التيجاني كما أوكل أمر قيادة التلفزيون للأخ محمود أبو العزائم والإذاعة للأخ صالح محمد صالح.. وتوليت الإشراف عن بعد وقد كان العمل ينساب في يسر بفضل التفويض التام الذي أعطيته لتلك الكوكبة الخلاقة من الرجال المشهود لهم بالمقدرة والدراية.

كذلك شهدت تلك الفترة إصدار مرجع يتناول تطور الجهاز التنفيذى منذ تكوينه عقب الاستقلال وما ران عليه من تعديل فى الاختصاصات والتكوينات منذ الاستقلال يتضمن رصداً بأسماء جميع الوزراء الذين تعاقبوا على قيادة الوزارات منذ الاستقلال وهو أمر أغرى الأخ عبد الباسط سبدرات على اعتزام إخراج إصدارة تحليلية لذلك الأمر فى وقت لاحق.

## تضارب بين الأجهزة:

كثيراً ما كنا ننعي على الأجهزة المتعددة تناول الشئون الخارجية وتداولها وطالما طالبنا بتوحيد العمل الخارجي وتركه تحت مظلة الخارجية لما يعتور تداولها بين الأيدي من أضرار.. وكان العمل الخارجي في واقع الأمر عرضة للتداول بين أيد كثيرة مثل لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشعب ومجلس الصداقة، ولجنة شئون الخارجية بالتنظيم السياسي، إلي غير ذلك مما كان يحدث إرتباكاً في كثير من الأحيان وكان يحتم ضبط الإيقاع بإستصدار قواعد صارمة تحدد صلاحيات كل جهة.. وفي واقع الأمر عملت الجهات المعنية منذ وضع ميثاق العمل الوطني وإقرار لوائحه التنظيمية وما تبعها من قواعد تنظيم العمل في الجهاز التنفيذي على وضع اللوائح التي تحول مثل هذا التضارب.. اتبعناها بمنشورات إدارية تحظر على غير المسئولين تناول الشئون الخارجية في تصريحاتهم، والتقليل من مقابلة السفراء الأجانب بل وجعل مثل تلك المقابلات تتم عن طريق الوزارة المعنية دون طائل.. بل ومنعاً لذلك التضارب صار وزير الخارجية أميناً للجنة العلاقات الخارجية في الحزب الحاكم، ولكن دون جدوى.



مجلس الوزارء وفي أوائل الثمانينيات.

حين توليت عملي وزيراً لمجلس الوزراء كان أمر التضارب بين الأجهزة وارداً ولم أشأ أن أخوض معركة في ذلك الوقت المبكر من تولي أعباء وزارتي.. حتى جاءني وزير الدولة الأخ عز الدين يوماً يحمل أمراً أزعجني.. ذلك أن مسئول وحدة التنظيم (الاتحاد الإشتراكي) في إحدى وحدات المرافق الحكومية التابعة لنا دأب على إستجواب مدير المصلحة عن أمور تتعلق بتغيبه أحياناً أو تأخره عن الحضور.. وهالني أن المدير المذكور كان يرد عليه كتابة إتقاء لسطوته وسطوة التنظيم.. وكان من رأى الأخ عز الدين إحالة المدير إلي التقاعد قبل محاسبة مسئول التنظيم في تلك الوحدة إنتصافاً لهيبة الدولة وشرف الخدمة المدنية، ولكن كان لي رأي آخر.. فالمدير عرف بكفاءة عالية فضلاً عن صداقة وزمالة كانت تربطني به (وهذا إعتراف بطغيان العاطفة أحياناً بعد على بعض القرارات فما أدعيت يوماً الكمال).. تداولنا حول الأمر ثم اتفقنا على ترك

الأمر لي لمعالجته. مرت الأيام فإذا بالأمين العام للإتحاد الإشتراكي يصدر منشوراً لوحدات التنظيم بالوزارات للإجتماع وانتخاب القيادات الجديدة بفروع العمل.

وهكذا وبناءاً على تعليمات الأمين العام لقادة العمل بالوزارات.. انعقد الاجتماع برئاسة مسئول الوحدة برئاسة مجلس الوزراء وكان موظفاً عادياً.. وجلست ووزراء الدولة والوكيل والعاملون وأحسست خلال النقاش أن رنة من السلطة تنضح بها رئاسة الجلسة بل أن أحد الموظفين وكان ضمن سكرتارية الرئيس علق على حديث بعض الوزراء بينهم شخصي بأسلوب لا يخلو من عنجهية.!!

قررت في نفسي أن أطلب نقل سكرتير الرئيس من المجلس على الفور حتى يكون عبرة لغيره، إذ يبدو أنه كان يستمد قوته من عضويته في لجنة التنظيم من جهة وعمله المباشر مع الرئيس من جهة أخرى.. ولكني جرياً على فروض اللياقة رأيت أن أستأذن الرئيس في ذلك.. وبالفعل عبرت للرئيس وهو – كان رئيساً للإتحاد الإشتراكي إلي جانب رئاسته للجمهورية والجهاز التنفيذي – عن ضيقي بما ألمحه من تضارب وعدم وضع حد فاصل لدور التنظيم السياسي في دواوين الحكومة مما يولد اضطراباً في العمل، وسقت شواهد على ذلك بينها ما يدر من أحد سكرتاريته موضحاً أنني قررت أن أستأذنه في إبعاده من رئاسة مجلس الوزراء إلي أي موقع آخر. كان الرئيس نميري – خلافاً لما يشيع خصومه وناقدوه - كثير الإحترام والتقدير لمساعديه ووزرائه. كان تعامله معهم يتسم بالشفافية والمودة وكثيراً ما كان يعتمد المقترحات التي يتقدمون بها في مجال عملهم ومسئولياتهم بل إنه كان لا يتردد في إستئذانهم في تأجيل ما كانوا يقررون إذا رأى أن الوقت غير مناسب.

صمت الرئيس طويلاً وسألني عن رأيي في علاج هذا الأمر بصفة كلية فإقترحت أن يصدر توجيه منه بوصفه القائم والقيم على أمر الجهاز التنفيذي، يحدد صلاحية كل من الجهاز السياسي والتنفيذي بكيفية تحول دون التضارب،

بأن يشار إلي واجب التنظيم السياسي وواجب الجهاز التنفيذي وبحيث يشار إلي أن وكيل الوزارة أو مدير المصلحة هو سيد الجهاز الذي يعمل فيه، وأنه لا يحق لأية جهة أخرى التدخل في شئون الوزارة وأن الوكيل هو المسئول أمام الوزير المعني فقط. وبدأ الرئيس متحمساً للأمر وكلفني بإعداد منشور يحمل هذا المعنى بتوقيعى توطئة لتعميمه على سائر الوزارات والوحدات ولكني اقترحت عليه مناقشة الأمر مع قيادة التنظيم ولكنه كان مصراً على إنفاذ الأمر على التو.. جاء المنشور برداً وسلاماً على العاملين في الدولة – فيما أفادت أجهزة الرصد لاحقاً – ولكنني فوجئت يوماً بالأخ الصديق أ.م.أ (وكان أميناً للإتحاد الإشتراكي) يقتحم مكتبي مهتاجاً يصرخ في وجهي متسائلاً عن الصفة التى حملتنى إصدار مثل ذلك المنشور على الوزارات، واستطرد مذكراً إياي بأنهم حين قاموا بالثورة من خور عمر لم يخطر على بالهم أن يأتي نفر ممن عاشوا مرفهين في السفارات ليعطلوا مسارها إلي غير ذلك من حديث! تقبلت كل ما عايرني به بأعصاب باردة – سيما وكنت أعرف إخلاصه والتقدير الذي كان يحمله كلانا للآخر – فرددت عليه أن يناقش الأمر مع الرئيس فهو الذي أشار علي بذلك.

ومن عجب أنني بعد شهور وجدت نفسي مسئولاً عن توضيح العلاقة ببن الجهازين. وضبط العلاقة بين الجهاز التنفيذي والسياسي بإعتبارها علاقة تكامل لا تفاصل. والتبشير بالحكم الإقليمي وكان معي كوكبة من قيادات فروع العمل أذكر منهم الراحل حمد والتاج بابكر وكمال عبد الشكور وزهير وامنة ضرار وغيرهم حيث تم عقد مؤتمرات في كل الأجهزة الحكومية أرست مبادئ موجهة نالت رضى القائمين على أمر النظام السياسي وفي مقدمتهم الأخ أ.م إبراهيم.. بل أنني وكنت في رحلة إلي خارج السودان فوجئت بأن الأخوة اختاروني ضمن عدد محدود في قائمة أبو القاسم (وكان قد ترك الأمانة والوزارة) بقسم الخرطوم شمال في اللجنة المركزية إلي جانب الأخت آمال عباس وصلاح عبد العال ويوسف بشارة وغيرهم وهي اللجنة التي تم على

أثرها تصعيد الأخ أبو القاسم حتى أعلن ترشيحه منافساً للرئيس نميري في إنتخابات رئاسة الجمهورية.




مؤتمر الحكم الإقليمي بملكال (أعالي النيل) وفي الصورة أندرو ويو والمحافظ جيشوا ديوال.

لم أكن شغوفاً بالعمل التقليدي في مجلس الوزراء وكنت أجد متعة لا حد لها فيما يوكل إليّ من أعباء في خارج نطاق المهام التقليدية المنصوص عليها في صلاحيات رئاسة المجلس. وهكذا كانت خلال فترة عملي مسئولاً عن أقسام العمل التابعة للتنظيم ممتعة مثلما كانت المهام التي كنت اضطلع بها في إطار إرساء مبادئ الحكم الإقليمي من المشاركة في اجتماعات الهيئة العليا أو الإشراف الميداني على مساره، حيث أمضيت فترة مسئولاً في إقليم أعالي النيل حيث كان يعاونني الأخوة طيفور محمد شريف وأندرو ويو.. وكانت فترة عامرة بالعطاء خاصة بالجهد الذي اضطلع الراحل أحمد الرضي جابر والأخ

الفاضلابي – الذي كان لسان الوفد وشاعره.. ولطالما أمضينا مناقشات جادة ومثمرة مع بعض قطاعات المواطنين والمثقفين بأعالي النيل خلال جلسات عامرة وخاصة كان يسهر على إعدادها صديقنا المحافظ النشط يومها جوشوا ديوال.

وكانت الفترات التي أمضيتها في مجلس الشعب (البرلمان) بوصفي وزيراً لمجلس الوزراء من أخصب الفترات وأكثرها ثراءاً سيما وكانت تلك الفترة تواكب المصالحة فحفلت بالمناقشات الحية التي يقودها عدد من الوافدين الذين كانوا يبدون فتوراً في تأييد ما كان مطروحاً. وكنت أجد متعة ولذة في المجالات الكثيرة التي كنت طرفاً فيها وبينها إضطلاعي بدور الرائد في الدفاع عن الموازنة فيما أسلفت. والتي إلتزمنا فيها أسلوباً صريحاً وناقداً لأداء الدولة في بعض الأحيان، والتي اعترفنا فيها بالقصور أحياناً وبالفساد أحياناً أخرى وطالبنا ببعث المشروع المقترح الخاص بإحياء قانون من أين لك هذا والذي كان قد تقدم به الأخ مهدي مصطفى يوماً حين كان لمجلس الشعب رقيباً.. كان في المنهج الذي التزمناه ما أشاع الرضى في نفوس المتوجسين والمعارضين من جهة وجاء تغييراً عن ديمقراطية حقيقية لمايو، وأن فى محاضر مداولات مجلس الشعب الموجودة اليوم ما ينهض دليلاً على ذلك كما أنها موجودة في إرشيف أجهزة الإعلام حيث كانت تبث حية عبر الإذاعة.

## وتدفق البترول في أرض السودان:

تلقيت اتصالاً هاتفياً صباح أحد الأيام من سكرتارية الرئيس تنقل إلى طلب الرئيس مقابلته فى التو بمكتبه بمجلس الوزراء.. كانت الساعة تشير إلى السابعة صباحاً ودلفت إلى مكتب الرئيس لأفاجأ بمشهد يصعب نسيانه أو تجاوزه.

كان الرئيس يجلس إلى مكتبه وقد وسد رأسه إحدى راحتيه والدمع ينهمر من عينيه.. والرائد مأمون عوض أبو زيد – وزير الطاقة – يقف قبالته وقد

تحلق حوله نفر من الناس.. سودانيين وأجانب.. كان فى دلائل البشر التى علت محياهم ما بدد مخاوفى من أن مكروهاً وقع.. قال الرئيس وهو يشير إلى زجاجة مليئة بسائل أسود وضعت بجانبه " اليوم دخلنا عالم البترول.. تم اكتشاف منابعه فى أرضنا الطيبة" ثم قال فى زهو واضح ومبرر " اليوم أموت مستريحاً.. لقد حققت مايو إنجازاً سيظل شاهداً فى ذاكرة التاريخ.. حسبنا ما وفقنا الله إليه والذى جاء ثمرة لجهد الرجال وصبر

شعبنا العظيم ".. وسارع الأخ مأمون إلى تأكيد تلك المعانى مذكراً بالجهد الذى اضطلع به أسلافه فى هذا المجال مضيفاً أن ما تم هو استكمال لجهد رجال قدموا الكثير فى ارتياد ذلك المجال.. استدعاءاً للشركات الأجنبية والتعاقد معها وفى مقدمتهم الوزيران موسى عوض بلال وبدر الدين سليمان.

بدأت الحركة تدب فى قاعات ومكاتب أمانة مجلس الوزراء.. وأخذت صيحات التهيليل تطرق مسامعنا وسرعان ما تحول ذلك إلى صخب وضجيج وهتاف وزغاريد من العاملات بالمجلس.. اقتحم الوكيل مكتب الرئيس وهو يقول فى نشوة أن العاملين يلتمسون لقاءه لتهنئته.. خرج الرئيس إليهم.. فإذا بعدد من الذبائح ملقاة تسبح فى دمائها، وإذا الكل يعانق بعضه بعضاً فى بشر وسعادة، بينما استبدت النشوة بالبعض فوقف يحيى الموقف بأبيات من الشعر عفو الخاطر.. أطل أطباء الامتياز (النواب) من شرفات مسكنهم الذى يطل على باحة المجلس وقد كست الحيرة محياهم للمشهد الذى يرون.. لم تسعف الرئيس كلمات سوى التعبير عن الحمد والشكر لله أردفها بكلمات أن ما تحقق هو جهد لرجال صدقوا ما عاهدوا " مايو" عليه، مثلما صدقت مايو شعبها بالسير به إلى آفاق التقدم والتنمية والرخاء. عم الخبر مرتادى مستشفى الخرطوم الذى يقع على مقربة من مبانى المجلس وبعض الدواوين الأخرى فزحفت تعبر عن فيض مشاعرها: أذكر أن الأخ الطاهر عوض الله – مدير الإدارة السياسية بأمانة الوزراء حينها انتحى به جانباً ذاكراً فى مسئولية ورشد ما أخطأته يوماً، متسائلاً " السيد الوزير.. ألا ترى أن ظهور النفط ينتقل بنا إلى مرحلة جديدة تماماً.. تتفاعل فيها عوامل الخير بمحاذير المخاطر.. ألا ترى أن بلادنا ستكون

منذ اليوم بؤرة لمطامع الدول الكبرى فتعمل جاهدة على اتخاذ موطن قدم فى أرضها؟. ألا ترى أنه ينطوى على آثار اجتماعية واقتصادية هائلة ينبغى التحسب لها، ليس أقلها الانصراف عن الزراعة مثلما حدث فى أقطار أخرى؟. ألا ترى أن ظهور النفط فى بعض مناطق بلادنا قد يفتح شهية المناطق التى يزخر بها ويحملها إلى المطالبة بجل عائده إن لم يكن كله؟. ثم مضى يعدد الآثار التى يمكن أن تترتب على ذلك منهياً حديثه بضرورة إجراء دراسة متكاملة لهذا الأمر عوضاً عن أن تنساق بلادنا وراء مشاعر الفرح والبهجة والزهو.

وبالفعل قامت الأمانة بإعداد دراسة علمية وموضوعية بعون من الباحثين والأكاديميين رفعت إلى الرئيس والمعنيين فى حينها. وجدت تلك الدراسة بين أوراقى بعد سنوات من تركى للموقع.. وكم تمنيت لو تمكنت من الإتيان عليها فى سياق ما أكتب اليوم لولا أن شرف المهنة لا يجيز ذلك، خلافاً لبعض الوثائق والوقائع الأخرى التى قد تأتى فى سياق هذه الذكريات التى أتت فى إطار وضعى الدستورى كسياسى يتمتع بوضع دستورى شهد بعض تلك الأحداث.. أما الدراسة فهى نتاج لجهد وتوصيات أتت فى نطاق أسرار الخدمة المدنية.. تلك رؤيتى للأمر.

## عصابة الأربعة:

درجت الدولة على الإحتفال بذكرى الإستقلال في عاصمة أحد الأقاليم.. وكان مقرراً إحياء تلك الذكرى في كسلا عاصمة الإقليم الشرقي بحضور الرئيس وقادة العمل الوطني والتنفيذي.. كان الصديق عبد الله الحسن لخضر حاكماً للإقليم وكان عليه إلقاء خطاب يوضح نهج سياسته.. وحمل خطابه مبادرة رأى فيها تعميقاً لمبادئ الحكم الإقليمي وإنفاذا لمزيد من الديمقراطية وتداول السلطة حين اقترح تكوين مجلس سام قوامه رئيس الجمهورية وحكام الأقاليم الخمسة حيث يجري فيه تداول السلطة بالتناوب.. يبدوا أن الأمر فهم على غير ما كان يهدف إليه الرجل على وجه الدقة..

وسرعان ما قفل الوفد الرسمي الذي كان يشهد الاحتفال – نسبة لغياب الرئيس نميري لأمر طارئ – راجعاً للخرطوم.. بينما حفلت مجتمعات العاصمة ودوائرها الرسمية والشعبية بتحليل الأمر ودوافعه.. استدعى الحاكم للخرطوم على عجل.. بينما سرت شائعات تناقلتها مجالس العاصمة وأوساطها السياسية بأن حاكم الإقليم الشرقي عقد خلال زيارته للخرطوم التي سبقت الإحتفالات إجتماعاً مغلقاً في منتصف إحدى الليالي شارك فيه مهدي مصطفى وأحمد عبد الحليم وشخصي، وضعت فيه الخطوط الرئيسية للخطاب الذي ألقاه الأخ الحاكم، وتعدت تلك الشائعة حدود بلادنا لتجد طريقها للنشر عبر صفحة كاملة في إحدى المجلات العربية التي تصدر في أوروبا تحت عنوان (عصابة الأربعة في السودان) وكانت أحداث عصابة الأربعة في الصين يومها ذائعة – اشتط الخيال بمحرر الصحيفة – وكان صديقاً لي – ما انقطع حبل الود بيننا منذ كنا معاً بباريس، وكان حريصاً على لقائي كل ما هبط الخرطوم والذي كثر تردده عليها نتيجة للصلة الخاصة التي كانت تربطه بالرئيس ومستشاره الصحفي. أقول أن الكاتب أورد أنباء الاجتماع المزعوم والأثر الكبير الذي أحدثه في مجتمع العاصمة وأورد أن الرئيس نميري أسر إليه بأنه حزين لما جرى، وأنه لا يكاد يصدق أن مستشاره وموضع سره والجالس أبداً إلي جواره في مبنى الرئاسة يمكن أن ينزل إلي هذا الدرك من التآمر والحنث بقسم الولاء.

صعقنا لتطور الأحداث وتردد علينا المشفقون والشامتون على حد سواء.. بذلنا جهداً للتقصي حول منشأ تلك الشائعة ومروجيها ومراميها.. وأخيراً علمنا أن أحد أصدقائنا الأعزاء من رجال الأعمال ومن النافذين في الحزب الإتحادي (المنحل)، وكان صديقاً لنا جميعاً طالما نعمنا بكرم وفادته خلال لقاءات السمر التي نعقدها في داره الأنيقة بالملازمين حيث كان جاراً للأخ مهدي وبحرص على رفقته كل مساء من مبنى المحافظة إلي داره تحدث مع أصدقائه بكل حسن نية – قبل سريان الشائعة – أنه شاهدنا نخرج من مكتب المحافظ عند منتصف الليل لتناول عشاء متأخر في منزل أحدنا ألححنا عليه لمرافقتنا ولكنه إعتذر.. وما أن ألقى الخطاب إياه حتى بحث الشائنون في

دفاترهم القديمة فكانت تلك الواقعة هي البينة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها!!!

كنت شقياً بما حدث وزاد من ألمي ما جاء على لسان الرئيس بشأني فكتبت خطاباً موجزاً للأخ عبد الماجد حامد خليل (بوصفه نائباً أول للرئيس ورئيساً لمجلس الأمن القومي) طالباً إياه التقصي والتحري حول الواقعة مؤكداً أنه لم يعد لي مكان بعد هذا التهريج الذي أرى فيه مساساً بأمانتي وإخلاصي في قيادة النظام القائم.. وأن تركي لموقعي رهين بتبرئتي من كل هذا الزعم المتهافت الذي يزحم الأفق.. حاول الأخ الفريق عبد الماجد - إعتماداً لما يربطنا من تقدير ومحبة – أن يحد من غلوائي ووافق على إجراء تقص للأمر مع الجهات المعنية.. لم أكتف بذلك أردفته بطلب إلي سكرتارية القصر الجمهوري لتحديد موعد لمقابلة الرئيس وأنا أعتزم التقدم بإستقالتي. كان أمر طلب المقابلة بتلك الكيفية التي لا تخلو من الرسميات وأنا الذي طالما قابلته دون وسيط أو حاجب كلما حل بمكتبه برئاسة مجلس الوزراء مثاراً لدهشة الرئيس فإتصل بي طالباً مقابلتي على التو بمكتبه برئاسة الجمهورية.. تحدثنا حول الأمر ولعله استشعر المرارة التي كنت أحسها إزاء العبارات الغليظة التي وردت بشأني على وجه الخصوص، فأقسم بأنه لم يتحدث إلي ذلك الصحفي مطلقاً حول الأمر وإن كل ما ورد في هذا الشأن لا يعدو أن يكون أكاذيب وأحاديثاً ملفقة.. وحرص على التعبير عن ثقته التامة في أربعتنا، ذاكراً أن التحريات أفادت أن الخطاب المذكور جرى إعداده فعلاً بواسطة لجنة تضم كبار الرسميين بالإقليم بناءاً على تكليف الحاكم الذي جاء للخرطوم. وتساءل الرئيس هل صرنا نعيش زمناً أضحى الاجتهاد فيه أمراً غير مقبول؟ إن ديننا الحنيف يحض على الاجتهاد وإني لا أقيم أعواني على هدى موقف واحد إنما بمواقف متعددة. وحاكم الإقليم الشرقي – شأنكم أنتم – ظل موضع ثقتي وإعتزازي وأن ما اقترحه لا يعدو أن يكون ضرباً من الاجتهاد فإذا رأت المؤسسات أنه يتمشى مع الدستور فماذا يضير؟

وهكذا انطوت أخطر أزمة رانت على علاقتي بالرئيس طيلة فترة عملي إلي جانبه وزيراً بالقصر لمجلس الوزراء لثماني سنوات كاملة. أوردت هذه الواقعة لأذكر بأن بلاط السلطة ملئ بالتآمر فيما تشهد وقائع التاريخ.

## أزمة أخري علي الطريق!:

أما الأزمة الثانية فجاءت إثر مقالات كتبها صديق قديم لي - أديب وشاعر - في مجلة الدستور اللندنية زعم فيها أنني طالما تحدثت إليه عن "مايو" وفسادها خلال جلسات كنت أدعوه لها فى دارى بباريس، وأننى كنت أرى بين بعض رجال البلاط الرئاسى ( رئاسة الجمهورية ) بعض الفاسدين الذين ينهبون مقدرات الوطن ، بل أنه ذهب للإدعاء بأننى بادرت بتأييد انقلاب هاشم العطا عام ٧١ وأننى أبديت أسفى وندمى علانية بعد إجهاض الانقلاب، وأننى كوفئت لموقفى الأخير بالترقية إلى منصب السفير!! كما أننى كنت أقيم دعوات فى دارى للمثقفين اليساريين العرب والسودانيين وأنقل أحاديثهم لوزارة الخارجية بالخرطوم!

لم أكن أحب أن أقف عند هذه المحطة أو أنوى الإشارة إليها، لولا أنها كانت المرة الوحيدة التى أتلقى فيها نقداً أو اتهامات علنية طيلة ممارستى للعمل العام والتى امتدت ثلاثين عاماً متصلة، ولم أشأ أن أبادر بالرد على الرجل لعدة عوامل بينها:-

أولاً: خشية شماتة زملائى وأصحابى الذين كانوا يعرفون صلتى الوثيقة بالرجل منذ كنا صبية فى مدرسة حنتوب، ودفاعى الدائم عنه فى مختلف المجتمعات حتى أننى كنت أسعى جاهداً لإرجاعه سفيراً بالخارجية لإلمامي بالظروف النفسية الحرجة التى دعته لتقديم استقالته بعد أن عمل سفيراً مقرباً من السلطة حتى أواخر السبعينات، وأنه رغم مواهبه المشهودة فى مجال الثقافة والأدب إلا أنه كان شديد الانفعال عدوانياً فى مواجهة مخالفيه الرأي، وهو أمر طالما عاتبته عليه - أيام الصفاء - وقد قدم لى أحد الإخوان إحصاءاً للمقالات

التى هاجم فيها عدداً من الرجال البارزين فى مجلة الدستور نفسها عبر السنوات وبينهم جميع قادة الأحزاب السودانية – التقليدية والعقائدية -.. من الأزهرى حتى عبد الخالق محجوب، فضلاً عن تهجمه على كثير من خيرة أبناء الوطن الشرفاء إلى جانب هجومه المستمر على بعض الدول وفى مقدمتها مصر. وقد كان بعض أقربائه وأصدقائه الذين يكنون له تقديراً ومحبة وإعجاباً أشقياء تماما بهذا النهج الذى طالما تحدثوا إليه بشأنه.

ثانياً:.. الكل يعرف أننى كنت سفيراً منذ عام ٦٦ أى قبل انقلاب هاشم العطا بل قبل بزوغ فجر مايو وعليه لم أكن بحاجة إلى أن أتسول ذلك الموقع من أحد.. وقد آلمنى كثيراً أن الرجل يعرف ذلك بل أنه جاء سفيراً فى أحد المواقع التى كنت سفيراً فيها فى أواخر الستينات ولاشك أنه وجد من التقارير والمكاتبات ما يشير إلى ذلك.

أما دعواتى لبعض عناصر اليسار فى فرنسا ونقل مناقشاتهم للرئاسة فقد التمست للرجل عذراً، فالرجل كان حديث عهد بالخارجية ولم يكن ضمن كوادرها التى تدرجت على بلاطها، حتى يلم بتقاليد العمل الدبلوماسى التى لم يكن نقل " قالات" الناس و"قوالاتهم " ضمن عمل السفير ( والوثائق كلها موجودة فى أضابير الخارجية على أى حال).

كانت الحملة مثار دهشتى ودهشة الأصدقاء وبادر بعض الناس بالرد عليه بالخارج.. ولكنى عرفت السبب وزال العجب!

فقد حدث أن اتصل بى السيد هاشم عثمان (وكيل الخارجية) قبل شهور ذاكراً أن خطاباً معنوناً لوزير الخارجية كان ضمن محتويات الحقيبة الدبلوماسية القادمة من البلد الذى كان يقيم فيه الرجل فقام بفضه ظناً منه أنه خطاب رسمى فإذا به يطفح بعبارات السباب والتهجم على الوزير (الأخ الرشيد الطاهر) جراء إهماله أمر الدبلوماسي الذى استشهد فى حادث حركة مؤسف بالمغرب. استشارنى الوكيل أن كان مناسباً تقديم الخطاب، فوجهته بإرساله لى وترك الأمر لى لمعالجته تأسيساً على صلاتى بالرجل.. وبالفعل انتهزت فرصة

اتصال سفيرنا بذلك البلد تليفونياً بشأن زيارة بعض المسئولين، وقد رجوت السفير أن يخطر ذلك الصديق إلى الواقعة الشائنة التى جنح فيها إلى ظلم الوزير قبل أن يتبين الجهود الكبيرة التى بذلها فى حق الفقيد.

على أننى فوجئت بخطاب عبر البريد الدبلوماسى من ذلك الصديق ينعى على مسلكى الذى جعلنى أحجم عن الكتابة إليه بعد أن وصلت السودان وصرت وزيراً، ويذكرنى بأننى لم استمع إلى رأيه حين طلب إلىّ أن اعتذر عن المنصب الوزارى الذى كلفت به إلى أن شكا من أننى صرت أخاطبه عن طريق السفير، عوضاً عن التخاطب المباشر إلى أن ختم خطابه بالتهديد والابتزاز حيث ذكر أنه إذا لم يتلق منى تفسيراً لذلك المسلك فإنه سيكون فى حل من كل ما تفرضه روابط الصداقة والمحبة التى جمعتنا عبر السنين. وأنه بالتالى سيقوم بنشر كل ما كنت أقوله عن فساد النظام حين كنا نلتقى فى دارى بباريس. دهشت بل صعقت لما قرأت سيما وأن الرجل شاء أن يودعنى فى آخر لقاء معه وصبيحة مغادرتى النهائية لموقع عملى فى رسالة مكتوبة (مازالت احتفظ بها) تشير إلى اعتزازه بإخائى وصدق وفائى.. إلى غير ذلك. وبطبيعة الحال ما كان لى أن استجيب لتهديده وابتزازه.. وربما لم يكن يدرى يومها أننى وقفت على منصة مجلس الشعب قبل أيام معلقاً على مدخلات الأعضاء أتحدث عن الفساد فى بعض أوجه حياتنا السياسية بل فى بعض مرافق الدولة مطالباً بتكوين لجنة لملاحقته، بل داعياً إلى بعث مقترح كان قد تقدم به رقيب مجلس الشعب يوماً الأخ مهدى مصطفى الهادى بسن قانون إبراء الذمة. لقد اختار الرجل توقيته بدقة وشاء أن يبدأ بنشر مقالاته لحظة هبوط الرئيس فى لندن – التى تصدر فيها الصحيفة– قادماً من أمريكا.. ولم أكن أعلم بالأمر حتى لاحت بوادر تنبئ عن ذلك.. فقد عاد الرئيس من رحلته لأمريكا معافى بعد إجراء عملية دقيقة وأعد له استقبال رسمى وشعبى حافل فى مطار الخرطوم كان على رأس مستقبليه نواب الرئيس والوزراء وأعمدة الجهاز التشريعى ورجال الأحزاب والطوائف وعلى رأسهم السيد محمد عثمان الميرغنى واحمد المهدى ورجال الطرق الصوفية.. وما أن هبط الرئيس من الطائرة حتى توجه لمصافحة

كبار أعوانه من أركان الدولة الذين اصطفوا على سلم الطائرة معانقاً إياهم فرداً فرداً حتى أتى دورى فصافحنى بيد باردة وجفاء ظاهر مما كان مثار حيرتنا ودهشتنا فى رحلة العودة (الإخوان الرشيد الطاهر ودفع الله الحاج يوسف وشخصى ) تواترات مقالاته فى الدستور وتماديت فى إهمالها.

## أساليب جديدة فى العمل:

* كنا نعالج بعض القضايا بطرحها فى إطار سياسى وإعلامى أخذ طريقه إلى نفوس الجماهير.. أذكر أن ارتفاعاً حاداً فى أسعار الأضاحى ساد الأسواق نتيجة لضآلة العرض.. فى عشايا قدوم عيد الأضحى.. تقاصرت دخول الكثيرين عن بلوغها.. استحكمت الأزمة وصارت حديث المجتمع العاصمى.. وكان طبيعياً أن يزداد السخط والتبرم.. رأيت بالاتفاق مع الصحفى المبدع حسن ساتى – وكان وقتها مشرفاً على صحيفة الأيام – أن نوضح لشعبنا أن الأضحية – خلافاً لما يعتقد الكثيرون – ليست فرضاً من فروض الدين، وإن بإمكان الوالى أن يضحى نيابة عن أهل الديار فكتبت مقالاً بتوقيع وهمى أبين فيه حال الكاتب والتزاماته الأسرية والظروف القاسية التى يعيشها مما يستحيل معه الوفاء " بالأضحية ثم وجهت سؤالاً محدداً لمفتى السودان أن كانت ظروفه تشفع له فى عدم الوفاء بها.. وأن يوضح لنا حكم الأضحية فى صحيح الدين.. آثار المقال جدلاً وفجأة ظهر مفتى الديار الشيخ صديق عبد الحى على شاشة التليفزيون ليلقى بياناً ضافياً حول الأمر موضحاً أنها ليست فرضاً أو واجباً لمن لا يستطيع بل ذهب إلى أن بإمكان الوالى أن يضحى نيابة عن أهل السودان. موضحاً أن كثيراً من الذين يحرصون عليها رغم رقة حالهم لا ينطلقون من صحيح الدين بقدر ما ينطلقون من نوازع التفاخر الاجتماعى وهو مذموم "مذموم" وكانت فتوى مولانا عاملاً فى تهدئة العاصفة!

صرنا تكبت مقالات تحت أسماء مستعارة تسلط الضوء على بعض الجوانب المشرقة فى الموازنة مثلاً، وتناول بعض الأمور الاجتماعية والسياسية تحت باب "المحرر السياسى" حتى صار المستشار الصحفى، أخونا الراحل محمد

محجوب كاتباً راتباً تحت ذلك العنوان. وكثيراً ما كنا نسهر مع أصدقائنا رؤساء التحرير نتداول حول كيفية إخراج الأمور الهامة والتى كانت تنطوى على خبطات كبيرة. أذكر أن الصحفى القدير إبراهيم عبد القيوم كان سعيداً بأحد خطابات الرئيس فى ذكرى الاستقلال حيث حيا الآباء الكبار الذين صنعوا الاستقلال وأورد أسماء بعضهم معدداً مآثرهم مشيداً بمواقفهم معلناً عن اعتزام الثورة تكريمهم وكان ذلك قبل المصالحة. رأينا أن تبرز المعانى فى خطوط بارزة وعديدة (مانشيتات) عوضاً عن عنواين بارزين كما جرت العادة أيامها فخصصنا واجهة الصفحة كلها للمعانى البارزة فى شكل مانشيتات.وكان أخونا إبراهيم حفياً بالاقتراح، سعيداً به ولا عجب فقد كان مايوياً اتحادياً شأن الكثيرين.. كانت تلك مبادرات شخصية بسيطة وعابرة ولكن أريد لأقول أن أسلوب المبادرة التى تتحرر من قيود الروتين كانت هادياً لعملنا على تلك الأيام.. كثيراً ما كنا نتشاور مع العاملين فى جلسات حميمة.. وكان غالبيتهم من الشباب المتحمس المستنير – الذين تم اختيارهم بعناية وتدقيق.. كانت كل إدارة من إدارات المجلس معنية بالمبادأة وطرح المقترحات والجنوح إلى أساليب العمل الخلاق دونما إخلال بتجويد العمل وفقاً للأساسيات المنصوص عليها.. كنا نعمل فى تنسيق وانسياب وكنا نشجعهم على التعبير عن فكرهم، ونؤكد لهم دوماً استعدادنا لتبنى من يصلح منها وحمايتهم من عواقب أى شطط قد يلحق سهواً بتعبيرهم الصريح.. وأضحت الإدارة السياسية معنية بأحوال المواطنين المعيشية ونقد مرافق الدولة جراء أى تقصير.. وأثمرت مبادرات الشباب الذى أضحى يتبارى ويتناقش فى تقديم المذكرات والمبادرات عن نتائج طيبة أحياناً.

عمدنا إلي إعداد جدول يضم كل الموضوعات المقدمة إلي الرئيس فى عبارات موجزة (كبسولات) يقابلها الرأى الفنى للإدارة المختصة وتوصية الوزير ثم هامشاً بقرار الرئيس النهائى.. كنا نشفع الجدول بعدد من الملفات وفقاً لتسلسل الموضوعات حتى يمكن للرئيس الرجوع إليها إذا شاء. أثمرت هذه الخطة كثيراً ووفرت زمناً جعل الرئيس سعيداً به وقبل أنه ناقش أمرها مع

بعض مكاتبه الأخرى.. بل حدثنى رصيفى فى دولة شقيقة أنهم عمدوا إلى إتباع ذلك المنهج الذى كان يختصر الزمن.

على أن أمراً واحداً كان يمثل هماً للرئيس وكان مصدر عناء وشفاء لنا فى المجلس إذ نظل قابعين حتى المغيب. وكان ذلك يوم يوافيه رئيس القضاء بالقضايا المحكوم فيها "بالإعدام" فى القضايا الجنائية للتصديق النهائى عليها.. كان يقف على كل حجة وكلمة فى تدقيق.. يداوم الاتصال برئيس القضاء كان دائم البحث عن مخرج يفيد منه المتهم.. وهو أمر لاحظه رؤساء القضاء الذين تعاقبوا على ذلك الموقع الرفيع خلال تلك الفترة.

وإننى إذ أسوق بعض الشواهد العابرة وفقاً لما اسعفتنى الذاكرة أبادر بالتأكيد أن الفضل مما أنجز يعود إلى شباب العاملين بمجلس الوزراء فى الثمانينيات الذين كانوا يعملون بروح من التفانى والوفاق والتجانس.. وما كان ليتم ذلك لولا التبنى الدائم لمبادراتهم من جانب الرئيس والذى كان يرى فى رجال مكتبه دعامة أساسية للثورة.. يعرف منطلقاتهم وصدق توجههم.. يتعهدهم برعايته الشخصية ويأنس إلى كثير مما يبادرون به.. وكثيراً ما يجيز مبادراتهم دون أن يقف لديها طويلاً.. دارساً مدققاً ومتفحصاً تأسيساً على ثقة غير محددة بهم.. وهى ثقة طالما بادلوه بها وفاءاً ومحبة وولاء.

## إحساس مفرط بالأزمات:

كان الشح في بعض السلع التموينية يمثل ظاهرة حادة في بعض الأحيان حيث تتكاثر صفوف المواطنين أمام المخابز أو طلمبات المحروقات.. وانني لأذكر أن المسئولين كانوا يقابلون ذلك بقلق وحساسية مفرطة وشعور عال من المسئولية.. حيث تتواتر الاجتماعات لمناقشتها واستنباط وسائل معالجتها في غير التفات لأمر الموقع أو التخصص.. وكان الكل يشعر بإنتمائه لنظام واحد يضع أمر دعمه واجباً، وانني لأذكر أننا كنا نقابل ما يجري على الساحة الداخلية بحساسية مفرطة لا تخلو من القلق أحياناً.. فإذا إنعدم "البترول" وتأخر وصوله من بورت سودان كنا نسهر الليل في مكتب محافظ الخرطوم وقتها الأخ مهدي مصطفى نتابع مسار القطارات من محطة لأخرى بينما كان بعض الأخوة في

وزارة النقل بقيادة الأخ مصطفي نوري يسهرون بالمثل يتابعون ويوافوننا بكل ما يجري وإذا بدت نذر ندرة في اللحوم وارتفعت أسعارها أمضينا الليل نلاحق تجمعات مستورديها أو في مسلخ "الكدرو" مع بعض الوزراء وقادة التنظيم السياسي حيث نعود إلي ديارنا ونحن نتشعر سعادة غامرة اثر اجتماعات غير رسمية نحاول خلالها وضع الحلول.. وإنني لأذكر بالخير في هذا المجال الصديقين الراحلين محمد الحسن الجاك وزير الدولة بوزارة الزراعة والإنتاج الحيواني ومصطفي حسن أحمد الناشط في التنظيم السياسي والمعروف بإنتمائه الأصيل لمايو وإنقطاعه للعمل تحت راياتها في تجرد وإنكار ذات قل نظيره والدكتور عمر الأمين وزير الزراعة.

## المشي فوق الأشواك

## الرحلة إلي أمريكا عشية توقيع اتفاق كامبد ديفيد

جرت العادة أن يخاطب رئيس الدورة الجارية لمنظمة الوحدة الأفريقية الجمعية العامة للأمم المتحدة مذكراً بأهداف المنظمة و إسهاماتها في الوفاء بمبادئ الأمم المتحدة و الدور الذي تضطلع به في مجال تقرير أسباب التعاون الدولي، إلي غير ذلك من أهداف تنسجم و مبادئ و أحكام ميثاقها، مع التركيز على رؤى إفريقية بالنسبة للقضايا الدولية الماثلة.. و كان على الرئيس نميري أن يضطلع بهذا الدور في خريف ١٩٧٨بوصفه رئيساً للمنظمة في تلك الدورة واقترحت الدبلوماسية السودانية أن يشفع الرئيس تلك الزيارة بأخرى رسمية للولايات المتحدة لترقية العلاقات و جذب الاستثمار وتبادل الرأي حول القضايا الدولية سيما و أنه كان من المقرر أن يقوم الرئيس على إثر تلك الزيارة للولايات المتحدة بزيارات رسمية لكل من بلجيكا و ألمانيا وأسبانيا. على أنه بدا للوهلة الأولى صعوبة تنفيذ مثل تلك الزيارة الرسمية للولايات المتحدة لانشغال المسئولين بالتحضير لانتخابات جميع أعضاء مجلس النواب وثلثي أعضاء مجلس الشيوخ فضلاً عن استغراق الرئيس كارتر في مفاوضات كامب ديفيد. وكان مثيراً أن تلقت سفارتنا بواشنطن اتصالا مفاده بأن الرئيس

كارتر – والذي كان قد اعتذر عن استقبال آخرين كانوا يعتزمون القيام بزيارات مماثلة نسبه لتلك الظروف – أبدى ترحيباً و حرصاً على أن يمدد الرئيس نميري زيارته للأمم المتحدة لبضعة أيام يلتقي خلالها بالرئيس كارتر مع إعداد برنامج متكامل مع سائر الدوائر النافذة والمسئولة، وقد اقترحت الدوائر الأمريكية أن تتم الزيارة في ٢١ سبتمبر عوضاً عن ١٧ سبتمبر.

جرى جدل واسع بين أعوان الرئيس حول الزيارة، سيما أن وكالات الأنباء كانت تشير إلى أن المحادثات التي كانت تجري في منتجع كامب ديفيد بين مصر وإسرائيل برعاية أمريكية تشير إلى قرب التوصل إلى اتفاق. وكانت تلك المحادثات مثار تعليقات وانتقادات واسعة في وسائل الإعلام العربية باعتبارها تصرفاً انفراديا من الرئيس المصري من شأنه أن يوسع الخرق الذي تم رتقه بمجهود خارق من لجنة التضامن العربي إثر زيارته الشهيرة للقدس. وكان من رأي مجموعة من مستشاري الرئيس يحتم – تبعاً لذلك- إرجاء الزيارة في ضوء المستجدات المنتظرة على الساحة العربية، خشية أن يواجه الرئيس ضغوطاً جدية لتحديد موقفه مما ينعكس سلباً علي مساعيه بوصفه رئيساً للجنة التضامن العربي. وأخيراً رؤى أن يترك القرار للرئيس على أن تسير الإجراءات الخاصة ببرنامجها وفقاً لما كان مقرراً. كان الوفد يضم إلى جانب الرئيس نائبه ووزير خارجيته السيد الرشيد الطاهر ووزراء الرئاسة (وزير مجلس الوزراء – المستشار القانوني للرئيس و المستشار الصحفي للرئيس.) كما ضم الوزراء د. بشير عبادي (النقل)، نصر الدين مصطفى (التخطيط)، د. عبد الله أحمد عبد الله (الزراعة)، عثمان هاشم عبد السلام (المالية) د.شريف التهامي (الطاقة) كما تقرر أن ينضم إلى الوفد بعض قادة العمل الإعلامي في بلادنا، السيد حسن ساتي (جريدة الأيام)، محمد مصطفى الحسن (الصحافة)، حسن عبد الوهاب و عبد الرحمن أحمد صالح (الإذاعة والتلفزيون) و ممثلين لسونا و بعض المرافق الأخرى. بدا وضحاً أن الجميع كانوا يستشعرون دقة الموقف و لكنهم كانوا مدركين بالمثل للآثار التي يمكن أن تترتب على إلغاء الزيارة بعد ذلك الترحيب من جانب الولايات المتحدة سيما وكان الرئيس يعول كثيراً على ترقية

العلاقات مع أميركا ويحرص على فتح آفاق مجالات الاستثمار لجلب رأس المال الأمريكي.

كان في وداع الرئيس ووفده فجر ذلك اليوم عدد محدود من المسئولين، ويبدو أن موعد الزيارة أحيط بكتمان شديد لم نتبين دواعيه. حسبي أن أشير إلى أننا كنا نجهل خط مسار الرحلة إلى واشنطن و المكان المقرر أن تحط به الطائرة للتزود بالوقود قبل استئنافنا الرحلة عبر الأطلنطي.. فتعددت التخرصات والتخمينات فمن قائل أنها ستكون روما ومن حسب أنها ستكون لندن حتى فوجئنا بأننا نهبط مطار نيس في الريفيرا الفرنسية حيث انطلق بنا رتل من السيارات لتقلنا إلى "كان" حيث أمضينا ليلتنا هناك.

خصصت طائرتان لنقل الوفد إحداها رئاسية حملت الرئيس ونائبه ووزير رئاسة مجلس الوزراء والمستشار الصحفي للرئيس و طبيبه المرافق، والأخرى كانت من طراز إيرباص العملاقة حملت الأخوة الوزراء وبقية أعضاء الوفد. كانت الطائرة التي خصصت للرئيس ملكاً لأحد الأثرياء العرب الذي بادر بوضع طائرته الخاصة تحت تصرفه بعد أن طليت بالعلم السوداني وكانت مزوده بكل ضروب الفخامة والرفاه. يتوسط المقصورة الرئيسية فيها صالون بيضاوي فسيح تحد حواشيه الأرائك الفارهة التي صفت على بسط حمراء وتناثرت فوقها الوسائد والطنافس، وزينت خلفيتها بلوحات من الفن التشكيلي لمشاهير الفنانين، التي تدلت فوق أرفف من البلور الرقيق تبدت من خلاله مجموعة كبيرة من الأشرطة تضم مجموعة منتقاة من أحدث الأفلام العالمية وثبتت قبالتها شاشة ضخمة. ضمت الطائرة بعض مقصورات النوم وحمامات صنعت بعض صنابيرها ومقابضها من الذهب الخالص. كان طاقم الطائرة قوامه ربان ومضيفات ومضيفون أجانب من الأمريكيين على الأرجح. ولقد صار هذا الإيوان الباذخ السابح في الفضاء واسطة ترحالنا بين القارات طيلة رحلتنا التي إمتدت عشرين يوماً.. وأذكر أننا كنا تواقين للاستمتاع بالروائع التي حفلت بها مكتبة الطائرة دون طائل.. فقد أمضينا جل الوقت نستمع إلى أناشيد الشيخ البرعي وحاج الماحي التي حرص الرئيس على التزود

بها قبل بدء الرحلة، وكنا حين ننشد شيئاً من التغيير نضطر إلى متابعة أفلام الكاوبوي التي كان الأخ نميري يهيم بها عشقاً، أو ننشد المسرة في طرائف وفقشات د. بلال – الطبيب الخاص للرئيس – وهو يقلد بعض الشخصيات العالمية والمحلية في حذق تام وإبهار. حاولت وصديقي الرشيد الطاهر أن نعقد مقارنة بين بساط الريح الباذخ الذي كنا نمتطيه والطائرات العديدة الخاصة التي وضعها الملوك والرؤساء العرب تحت تصرفنا يوماً لترحالنا خلال رحلة التضامن العربي التي طفنا خلالها على عشرين بلداً عربياً فيما أشرت سابقاً، فانتهينا إلى أن تلك الطائرة إتسمت بالفخامة والإحتشام شأن سائر رصيفاتها، إلا أنها تميزت في بعض جوانبها بالإسراف في مظاهر البذخ والحداثة وضروب الزينة والديكور.

ما إن انطلقت الطائرة في الجو إيذاناً ببدء الرحلة حتى أخذ الرئيس نميري يتحدث عن المهمة الجليلة التي تنتظرنا بل ينتظرها شعبنا خاصة في مجال جذب المستثمرين، ولكنه سرعان ما قال مستدركاً أن الزيارة تتم في ظروف بالغة الدقة والتعقيد وأنها تتطلب حرصاً شديداً وتحسساً لخطانا، سيما وأن المحادثات بين السادات وبيغن والتي تجري في منتجع كامب ديفيد برعاية أمريكية قد توجت باتفاق أمكن الوصول إليه بالفعل وأنه تلقي مشروع ذلك الإتفاق في اللحظة الأخيرة ولوح بحزمة من الأوراق بيده مذكراً أن هذا الحدث يفرض نفسه على وقائع الزيارة، وأن كثيراً من الدوائر الأمريكية والدولية تعلق إهتماما كبيراً على موقفنا سيما وأن الرئيس السوداني سيكون أول رئيس عربي بل أول رئيس في هذا الكون يهبط أمريكا بعد توقيع الاتفاق بساعات، فضلاً عن ما ينطوي عليه وضعنا من دلالات باعتبار أن السودان يتولى رئاسة لجنة التضامن العربي كما يتولى رئاسة منظمة الوحدة الأفريقية بل ورئاسة لجنة العقلاء التي أنشئت لحل قضية الصحراء المغربية ومضى يقول: "صحيح أننا تلقينا وعداً من الرئيس السادات بعدم إتباع زياته للقدس التي قام بها باجتهاد شخصي منه أملتها ضرورات قام بشرحها نقلناها للأشقاء العرب في حينها مع وعده بعدم تطويرها أو إتباعها بأي خطوة دون مشورتهم... ولكن يبدو أن ظروفاً غالبة

جعلته يقرر التوقيع اليوم وهو "كاره"، ومضى يقول: "أشعر بأنني في موقف دقيق وحرج... كل الدلائل تشير إلى أن الأشقاء العرب سوف لا يرحبون حيث أنهم يقفون ضد المباحثات منذ البداية بل أنهم اتخذوا موقفاً رافضاً لزيارة القدس ولم تهدأ الحملة الضارية التي قادوها ضد الشقيقة مصر، إلا بجهود لجنة التضامن العربي التي شرفنا برئاستها بعد التزام السادات الصارم بعدم اتخاذ أية خطوة مقبلة بشأن القضية الفلسطينية دون مشورتهم، ومن جهة أخرى يرى بعض المراقبين أن قطاعات كبيرة من شعب مصر مرحبة بأي اتفاق يكفل السلام العادل المرجو، والذي يضع حداً لمعاناته و تضحياته التي امتدت دهوراً". وعبر الرئيس عن شعوره بأن مشروع الاتفاق الذي اطلع عليه يبدو مقبولاً في بعض جوانبه وغامضاً في جوانب أخرى، وفي ظنه أن الاتفاق يبدو قاصراً عن ما كان يطمح إليه السادات، ولكن يبدو أنه اقتنع بما هو ممكن. وسرعان ما أجاب على سؤال ظل يلح على الخاطر حول سبب اختياره لنا نحن الثلاثة لكي نكون رفقاء له على الطائرة الرئاسية دون الآخرين حين قال: " لذا رأيت أن تكونوا إلى جانبي طيلة الرحلة حتى نتشاور حول الخطوات التي ينبغي إتباعها خلال الزيارة ومسارها الشائك خاصة في مواجهة أجهزة الإعلام ومراكز الدراسات الدبلوماسية والمحادثات مع مراكز صنع القرار بوصفكم معنيين بالشئون الدبلوماسية والإعلامية..تجربة وممارسة". ثم قدم لنا الرئيس المشروع لدراسته.

ما أن فرغ الرئيس من حديثه حتى تحولت الطائرة إلى "غرفة عمليات" عكفنا خلالها على دراسة مشروع الاتفاق الذي وافته به السفارة الأمريكية بالخرطوم قبل لحظات من سفره، واضعين في الاعتبار بعض المذكرات الدبلوماسية الخاصة بالقضية الفلسطينية.. مرجعيتها ومستجداتها مثل مقررات مؤتمر القمة العربي السابع في الرباط و قرارات مؤتمر عدم الإنجاز الذي انعقد في بلغراد قبل شهرين، ومقررات المؤتمر الإسلامي إلى غيره من الوثائق التي حملها الملف المتكامل الذي أعددناه قبل بدء الرحلة إلى جانب ما كنا نتزود به من حصيلة رحلة التضامن العربي وأفكار تسعة عشر ملكاً وأميراً ورئيساً تباحثنا معهم حول الأمر خلال تلك الرحلة التاريخية.. بينما إنصرف الأخ محمد محجوب

المستشار الإعلامي لاحقاً لوضع خطة عمل مع الوفد الإعلامي السامي المرافق لطرح كل الأسئلة التي يمكن أن توجه للرئيس من الدوائر الصحفية والإعلامية في هذا الشأن ومقترحاته حول الردود التي يحسن أن تساق.

كان رأينا المبدئي بعد الفحص الدقيق لمشروع الاتفاق يتلخص في الآتي:

- **أولاً**: جاء المشروع مجافياً للأسلوب الجماعي في معالجة القضية الفلسطينية فضلاً عن أنه أغفل الإشارة لمنظمة التحرير الفلسطينية و الأراضي العربية الأخرى المحتلة.

- **ثانيا**: انتقل بالقضية من أروقة الأمم المتحدة والتي سجلت فيها الدبلوماسية العربية انتصارات مشهودة ممثلة في القرارات ١٩٤(١١١) بشأن اللاجئين و٢٤٢ و٣٣٨ وقبول منظمة التحرير عضواً مراقباً في الأمم المتحدة، والانتقال بالقضية إلى هيمنة دولة واحدة هي الولايات المتحدة الأمريكية والتي تشدها لإسرائيل علاقات استراتيجية راسخة.

- **ثالثاً**: أن الاتفاق يمكن أن يحدث صدعاً في العمل العربي المشترك وبالتالي يضعف دور جامعة الدول العربية وأن الصلح مع إسرائيل بهذه الكيفية والاعتراف بها دون مقابل ربما أحدث شرخاً في صروح التضامن العربي من جهة والتضامن العربي الإفريقي من جهة أخرى. حيث بات من المنطقي أن تعيد بعض الدول الأفريقية علاقتها المقطوعة مع إسرائيل طالما أن أكبر الدول العربية والتي تقاسمها العيش في نفس القارة بادرت لذلك، سيما وأن منظمة الوحدة الأفريقية أشارت في معرض تضامنها مع القضية الفلسطينية إدانتها الشديدة لإسرائيل نسبة لاحتلالها أرضاً لدولة من دول المنظمة (مصر).

- **رابعاً**: هناك أمور تبدو غير واضحة للقارئ، المدقق في بعض البنود مثل وضع القوات الدولية على الأرض المصرية التي لا نجد نظيراً مماثلاً لها على الأرض الإسرائيلية، رغم أن مصر هي التي تعرضت للعدوان وهي الجهة التي احتلت أراضيها.

- خامساً: نصت الاتفاقية على إقامة علاقات دبلوماسية كاملة وإقامة تبادل اقتصادي وتجاري مما يمهد لفتح المنطقة العربية كي تكون ساحة للنشاط الاقتصادي الإسرائيلي وبالتالي إسقاط سلاح المقاطعة الاقتصادية لإسرائيل والجهات التي تدعم اقتصادها أو مجهودها الحربي مما يجرد العرب من واحد من أهم الأسلحة التي يملكون في مواجهة إسرائيل.

وبالرغم مما تقدم كان من رأينا أن هناك اعتبارات توجب التريث في اتخاذ موقف صريح ومناوئ للاتفاق في ذلك الطور الباكر، ليس أقلها العلاقة الخاصة التي تربط السودان بمصر والمواثيق المبرمة بين البلدين مثل منهاج العمل السياسي والتكامل الاقتصادي من جهة، وموقفنا إزاء الدول العربية الشقيقة الأخرى. من جهة ثانية فضلاً عن أن اتخاذ أي موقف محدد أياً كانت طبيعته من شأنه أن يعيق جهود السودان بوصفه رئيساً للجنة التضامن العربي ويفقده المصداقية بل وينال من مكانته ويجعل حرص إكمال جهوده في هذا الشأن تبدو ضامرة إن لم تكن مستحيلة. وعليه وتأسيساً على ما تقدم اقترحنا أن يلتزم السودان أمام ما هو متوقع من ضغوط ضارية لتحديد موقفه بما سبق إعلانه عقب زيارة السادات للقدس، و بالنسبة لموقف السودان إزاء اتفاق كامب ديفيد رؤى أن يتمثل في الآتي:

1) أن الرئيس كان في طريقه للولايات المتحدة الأمريكية حين تم التوصل للاتفاق وعليه لم تكن هناك فرصة لدراسته والتقرير بشأنه.
2) أن النظام في السودان يقوم على المؤسسية و عليه لا بد أن يخضع الاتفاق لدارسة الأجهزة السياسية والتشريعية والتنفيذية في بلادنا قبل الإدلاء برأي حوله.
3) أن الرئيس السوداني بوصفه رئيساً للجنة التضامن العربي لا يتوقع منه أن يدلي برأي محدد قد تترتب عليه محاذير تنعكس على مساعيه في هذا الصدد، سيما وأن أمر المباحثات برمتها ظل موضع خلاف واضح في المحيط العربي. هذا وقد اقترحنا أن نجري اتصالات دائبة مع الدوائر المعنية بالخرطوم لمتابعة الأمر والانخراط في إجراء دراسات حوله

وموافاتنا بردود الأفعال داخلياً وعربياً أولاً بأول، مع توجيه من الرئيس بالتزام الموقف السالف ذكره ليكون نواة للتصريحات في هذا الطور.

كان الرئيس نميري يتطلع إلى لقاء الرئيس السادات فور هبوطه في واشنطن ليقف على تفاصيل المباحثات التي أشارت الوكالات إلى أن نهايتها أضحت وشيكة بل أن بعضها بادر إلى التأكيد بأن اتفاقا قد تم. ولكن ما أن هبطت الطائرة في المطار حتى أخطرنا السفير عمر صالح عيسى – سفيرنا في واشنطن حينها – بأن الاتفاق تم توقيعه بالفعل وأن الرئيس السادات غادر واشنطن قبل ساعات متوجهاً للمغرب للقاء الملك الحسن الثاني في طريق عودته للقاهرة. بدا الأسى واضحاً على وجه الرئيس نميري كما تملكت الحيرة أعضاء الوفد حيث كان منتظراً أن يفكر الرئيس السادات في لقاء الرئيس نميري الذي كانت طائرته تحلق في الأجواء الأمريكية ليوافيه بالظروف التي تم فيها الاتفاق ونتائجه.. ولكن قلنا 'لعل له عذراً وأنت تلوم'.

ظلت مجموعتنا تقيم مع الرئيس نميري في منزل الضيافة الرسمي المخصص لرؤساء الدول (بلير هاوس) بينما كان بقية أعضاء الوفد من الوزراء يقيمون في فندق بنسلفانيا الفخم.. و كان كلا المكانين يبعدان خطوات من البيت الأبيض.

## الرئيس يستقبل بجفاوة بالغة:

* كان لافتاً للنظر الحفاوة البالغة التي لمسناها منذ وصولنا مما تجلى في البرنامج الذي أعد بإشراف من موظفي البيت الأبيض والذي تماثل وقائعه برنامج الزيارات الرسمية التي يقوم بها رؤساء الدول بل أنها تعدت في بعض مظاهرها كثيراً من تلك الزيارات فيما قالت بعض الدوائر الدبلوماسية هناك... شمل البرنامج لقاءاً بالرئيس كارتر في اليوم التالي ثم غداء عمل مع نائب الرئيس (مونديل) تبعته محادثات في وزارة الخارجية وغداء عمل مع لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ ولقاء مع لجنة العلاقات الخارجية بمجلس النواب ولقاءات مكثفة مع الدوائر الاقتصادية رفيعة الشأن مثل المستر ماكنمارا

مدير البنك الدولي ولاروريه مدير صندوق النقد الدولي وإفطار عمل مع كتلة الأمريكيين السود ولقاء مع كبار رجال المال والاستثمار والسفراء العرب والأفارقة، إلى جانب اللقاءات الإعلامية المكثفة التي تسابقت الدوائر الإعلامية والصحفية والتي أمكن اختصارها بعد لأي وجهد من سفارتنا هناك في لقاء مع القناة التلفزيونية **C.B.S.** ولقاء بهيئة الواشنطن بوست مجتمعة، ولقاء مع المذيع التلفزيوني الأشهر ولتر برويكايت ولقاء بالقناة الخامسة ولقاء مع هيئة تحرير صحيفة لوس انجلز تايمز إلى غير ذلك. ثم كان لقاء بالمستر برزنسكي مستشار الأمن القومي وبعض الشخصيات البارزة والمؤثرة في أميركا ومراكز صنع القرار فيها. استوقف هذا الاهتمام بزيارة الرئيس المراقبين وقد أرجع بعض المحللين وفي مقدمتهم سفارتنا بواشنطن ووفد المقدمة الذي سبقنا إلى هناك برئاسة السيد فرانسيس دينق – وزير الدولة للخارجية وقتها – والخبير بالشأن الأمريكي والذي لعب دوراً بارزاً و مؤثراً في إتمام الزيارة في الآتي:

أ) المكانة العالية التي يتمتع بها السودان باعتباره أكبر الأقطار العربية والأفريقية مساحة فضلاً عن موقعة الإستراتيجي وإمكانياته الواعدة من ثروات ظاهرة ومطمورة مما يؤهله للإسهام في حل أزمة الغذاء لما يتمتع به من أراضٍ زراعية شاسعة ووفرة في الماء من مختلف مصادرها ووجود ثروة حيوانية فضلاً عن نجاح الشركات الأمريكية (شيفرون) في اكتشاف البترول بكميات مبشرة.

ب) المكانة التي يتمتع بها الرئيس نميري عالمياً فيما أفصحت عنه بعض الدوائر الأمريكية والمتمثلة في:

- نجاحه في مقاومة التيار الشيوعي في المنطقة و تفكيك أقوى الأحزاب الشيوعية في أفريقيا و الشرق الأوسط.
- حل قضية الجنوب و ما تبعها من تحقيق الوحدة الوطنية بإجراء مصالحة مع أحزاب المعارضة.
- انصرافه لجعل التنمية في بلاده هدف السودان الأول مما انعكس على مشروعات تنموية ماثلة يعترف بها حتى معارضوه.

ج) سياسة بلاده القائمة على العمل على عكس الإنجازات القومية على مستوى إقليمي وعالمي وسعي السودان لإحلال السلام مكان الإضطراب.

د) المكانة العالمية التي يتمتع بها السودان باعتباره رئيساً للجنة التي اعتمدتها الجامعة العربية لتحقيق التضامن العربي ونجاحه في كسر طوق العداء لمصر وعدم اتخاذ إجراءات ضدها على إثر زيارة الرئيس السادات للقدس. كما أنه رئيس لمنظمة الوحدة الأفريقية والناطق باسمها خلال زيارته وتكليفه بنقل رؤى أفريقيا للمجتمع الدولي فضلاً عن اختياره رئيساً للجنة "عقلاء إفريقيا" التي كونتها منظمة الوحدة الإفريقية لحل قضية الصحراء محاولة جذب الاهتمام الدولي ومشاركته في حلها.

وعليه وتأسيساً على ما تقدم أهمية تأييده لمقررات كامب ديفيد سيما وأنها تأتي بعد ساعات من توقيع الاتفاق، وأنه بذلك يكون أول رئيس عربي – بل أول رئيس في العالم – يلتقي بكارتر بعد توقيع الاتفاق بساعات مما يعطي دفعاً هائلاً للاتفاقية في حالة تأييده لها.

## المحادثات مع كارتر:

- لقد كان لقاء الرئيس كارتر بالرئيس نميري بالبيت الأبيض لقاءاً هاماً فبعد الترحيب وعبارات المجاملة بين الرئيس الأمريكي وضيفه ذهب الرئيس كارتر مباشرة إلى الحديث عن الأيام الأخيرة في كامب ديفيد بدأه بالثناء على الرئيس السادات وإلمامه بكل ما يدور بالعالم العربي على الصعيدين الشعبي والرسمي وذكر أن وجوده كان صمام الأمان لنجاح المحادثات ثم تحدث عن الجوانب الإيجابية في الاتفاق وتتلخص في الآتي:

١) وافقت إسرائيل ولأول مرة على تطبيق قرار الأمم المتحدة رقم٢٤٢.

٢) وافقت إسرائيل ولأول مرة على إنهاء الحكم العسكري في الأراضي المحتلة.

٣) وافقت إسرائيل ولأول مرة على الحكم الذاتي للضفة الغربية. وذكر أنه سيتم الاتفاق على شكل ونمط الحكم الذاتي بمساهمة مصر والأردن وفلسطين والإسرائيليين.. و سيكون للإسرائيليين حق العيش مثل غيرهم.

٤) سيتم تشكيل قوة بوليسية لحفظ الأمي قوامها الفلسطينيون والأردنيون.

٥) يمكن للفلسطينيين خارج الضفة الغربية العودة للضفة الغربية والمشاركة في التصويت واختيار ممثليهم والعمل على تحديد مصيرهم بعد فترة الخمس سنوات. وستكون المقترحات خاضعة لاستفتاء فلسطيني.

٦) أن اشتراك مصر والأردن في تحديد مصير الضفة الغربية وغزة هو الوضع الأمثل لتطبيق القرار ٢٤٢ الذي يشير إلى الدول ذات السيادة مما يعني عدم شموله للشعب الفلسطيني. وأردف أنه واثق من أن الأردن سيوافق على تشكيل وفده من الفلسطينيين.

٧) أن الاتفاق سيؤدي إلى الانسحاب الفوري لـ٥٠% من القوات الإسرائيلية من سيناء والضفة الغربية وبقاء القوات الباقية في مواقع محدودة داخل المعسكرات.

٨) أن إسرائيل أكدت ولأول مرة كتابة حقوق الشعب الفلسطيني ووصف الاتفاق بأنه إطار عام خاضع لمناقشات لاحقة.

٩) أكد الرئيس الأمريكي أن هذا الاتفاق ما يشمله من إزاله للمستوطنات من سيناء سيطلق يد القوات المسلحة المصرية – أقوى قوة عسكرية في الشرق الأوسط حينها – عدا كتيبة واحدة لحماية جيرانها كالسودان والسعودية.

ثم اعتدل الرئيس كارتر في جلسته وخاطب الرئيس في لهجة حاسمة مفعمة بالرجاء: "لكل ذلك أطلب منك يا سيادة الرئيس التأييد الكامل لاتفاق كامب ديفيد لأهميته.. أن مكانة السودان هامة و تأثيره ضروري.. وأمل أن

يكون تأييدك شاملاً وكاملاً ليس هنا أمامي بل على صفحات الصحف وفي الأمم المتحدة."، رد الرئيس نميري شاكراً له شرحه وجهده في محاولة صنع السلام المستدام وذكر مضيفه أن قضية الشرق الأوسط معقدة ولا يمكن حلها باتفاق واحد إلا أن ما تم يعتبر خطوة هامة على طريق السلام.

وعاد كارتر ليؤكد للرئيس نميري بأن انضمام الأردن و سوريا إليه ضروري وأن موقف الولايات المتحدة من القدس يبدو واضحاً في تأييدها لقرارات الأمم المتحدة.. وذكره بالتنازلات التي قدمتها إسرائيل، ثم عاد ليطلب إلى الرئيس نميري إن يمد يد العون للرئيس السادات. ثم انتقل إلى الحديث عن القضايا الأفريقية وعن منظمة الوحدة وما يمكن تقوم بها تجاه مختلف القضايا مما لا يدخل ضمن إطار هذا الحديث.

وتحدث الرئيس نميري.. و قد جاءت حصيلة حديثه كالآتي اعتمادا على وقائع اللقاء.

- السودان كان ومازال داعية سلام ومن هنا جاءت مبادرته لتأييد الرئيس السادات في زيارته للقدس،لأن حديث الرئيس السادات في الكنيست استند على المبادئ الثلاثة التي أقرها مؤتمر القمة العربية وهي:

١) الانسحاب الكامل من جميع الأراضي العربية المحتلة.
٢) احترام حقوق الشعب الفلسطيني.
٣) رفض الحل الفردي للقضية.

أوضح أن زيارة السادات للقدس أدت إلى شق الصف العربي وقد اختار السودان السعي لإعادة التضامن ولذا قمت بزيارة أغلب الرؤساء العرب وقضيت مع كل منهم ما يقارب العشر ساعات مذكراً بأن الشكل لا ينبغي أن يطفو على المضمون. صحيح أن السادات اتخذ مبادرة الذهاب بصفة انفرادية و هذا خطأ، ولكن ما أفصح عنه يشمل الإستراتيجية العربية المتفق عليها بالنسبة للنزاع العربي الإسرائيلي. وأخيراً وافقت غالبيتهم على إعادة العلاقة إلى سابق عهدها **شريطة أن يبادر إلى قطع اتصاله بإسرائيل يعقد بعدها مؤتمر**

**قمة عربي.. وقد وافق الجميع على إعطاء الرئيس السادات فرصة لا تتعدى شهراً لإنجاز ذلك.**

- اتفاق كامب ديفيد يمثل جهداً مثابراً ولكن قراراته جاءت مفاجئة بالنسبة لنا وهو أمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة المتأنية بالكيفية التي يستحقها والتشاور بشأنه مع مؤسساتنا.
- يؤكد أن العرب يسعون للسلام وليس للحرب وأن الولايات المتحدة بمبادرتها لعقد مؤتمر كامب ديفيد ودخولها كشريك أكدت بالمثل أنها تعمل من أجل السلام.. وتمنى على الرئيس كارتر بذل مزيد من الجهد للوصول إلى حل عادل وشامل ودائم.
- ذكر الرئيس مضيفه بأنه يقوم على رأس لجنه لأحياء التضامن العربي وأن الإدلاء برأي قاطع ربما يساء فهمه ويقلل من فرص أقناع الآخرين، فضلاً عن أن نظام الحكم في السودان يقوم على النظام المؤسسي، وأنه لا بد من تزويد مؤسساتنا في الداخل بنص الاتفاق لدراسته والإدلاء برأي بشأنه.

بدت خيبة الأمل واضحة على محيا الرئيس الأمريكي ويبدو – مما أشارت إليه وسائل الإعلام الأمريكية (الواشنطن بوست)–أن الرئيس السادات هيأ الدوائر الرسمية الأمريكية بموافقة السودان خاصة وأنه أمضى نصف الوقت الذي أمضاه مع لجنة العلاقات الخارجية الكونغرس يحدثهم عن خصوصية العلاقات مع السودان وعن الرئيس نميري بصفه خاصة وأكد للولايات المتحدة بأن السودان تربطه علاقات حميمة مع مصر التي تشاركها الرؤى وأنه يؤيد الاتفاق – كما أشارت الواشنطن بوست نقلاً عن الرئيس السادات والذي أمضى أكثر من نصف وقته أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ يتحدث عن نميري باعتباره قائداً كبيراً.

- بدا تأييد كامب ديفيد هاماً في ذلك الوقت بالنسبة للرئيس كارتر الذي هبطت شعبيته قبل انعقاد المؤتمر إلى أقل مستوى في تاريخ توليه الرئاسة وأن نجاحه في حل قضية الشرق الأوسط وقبول مقررات كامب ديفيد

عربياً يمثل انتصاراً له وقد يمثل طوق نجاته، وأن فشل كامب ديفيد يعني نهاية الرئيس كارتر والسادات معاً وخلو الساحة للإتحاد السوفيتي كي ينفرد بطلاً لها.

لقد كان ما ذهبت إليه الدبلوماسية السودانية من أفكار تمثلت في غالبيتها حول أهمية الزيارة و توقيتها و الأسباب التي جعلت الحفاوة بها أمراً غير مسبوق تحليلاً صائباً تجلى فى مسار الأحداث. لقد كان أمر اتفاق كامب ديفيد هو شاغلها وكانت حريصة علي تأييد الرئيس لها باعتباره في نظرهم صوت العقل والتروي الذي يمكن أن يكبح جماع الرفض العربي، كان الاهتمام بها طاغياً في كل لقاء أجراه الرئيس، فالرئيس كارتر طلب من الرئيس أن يبادر للتأكيد من منابر الإعلام ومنبر الأمم المتحدة، كما دعا نائبه المستر مونديل إلى تأيد قرارات كامب ديفيد، و ينسحب ذلك على رئيس وأعضاء لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ ولجنة العلاقات الدولية بمجلس النواب الذي دعا أيضاً لتأييد الرئيس الذي أشاد بأن الرئيس يتمتع بسمعة دولية مما أهله لإنجاح القمة الأفريقية بالخرطوم، والمكانة التي اكتسبها كداعية سلام ونجاحه في الوساطات التي قام بها أفريقياً وعربياً. على أن خير شاهد على أن أمريكا كانت تعول على تأييد الرئيس لكامب ديفيد وتبدي حرصاً على انتزاع أية أشارة تدل على ذلك، الحصار الذي قامت به الواشنطن بوست له حين ذكر الرئيس أنه يصعب عليه أن يقيِّم كامب ديفيد في ذلك الطور الباكر مستدركاً باعترافه بجهود الرئيس كارتر ودوره، وأنها المرة الأولى التي يجلس فيها المسلم والمسيحي واليهودي جنباً إلى جنب وإنها المرة الأولى التي تتخذ فيها الولايات بدور أساسي (شريك).. وذكر أن رئاسته لمجس التضامن العربي تحول دون إبداء رأي فيها. وهنا سألته المجلة حول "ما ذكره لهم السادات بأن السودان يؤيد هذه الخطوة" فأجاب الرئيس "بأن السادات يعرف السودان جيداً ويعرف أسلوبنا المؤسسي في العمل الذى نقوم بإخضاع نتائجه لدراسة علمية".

توجه الوفد إلى نيويورك حيث كان على الرئيس مخاطبة الجمعية العامة للأمم المتحدة بوصفه رئيساً لمنظمة الوحدة الأفريقية، وكان الوفد بكامله مجتمعاً

بجناح الرئيس بفندق والدورف ستوريا بحضور السفير علي سحلول الذي اضطلع مع أركان مندوبية السودان هناك بإعداد الخطاب، أبدى الرئيس دهشته لآن الخطاب جاء خالياً من الإشارة إلى قضية الساعة وكان يعني بذلك اتفاق كامب ديفيد، واقترح وضع فقرة تشير إلى أن الاتفاق يعني تحركاً ايجابياً في اتجاه السلام وحل القضية، بينما كان يري آخرون وبينهم الأخ الرشيد الطاهر وشخصي والمستشار الصحفي للرئيس – أن الاتفاق المذكور آتى لاحقاً للقمة الأفريقية وأن إعلانه الذي تم قبل يومين لم يمكن الدول الأفريقية من دارسته واتخاذ قرار سياسي بشأنه، وعليه فلعله ليس من المناسب أن يتحدث الرئيس باسمها سيما وأن الوكالات أشارت إلى تحفظ بعض الدول مبدئياً على الخطوة ذاتها فضلاً عن أن الرئيس سوف يتحدث باسم المنظمة وليس باسم السودان. كان الرئيس بادي الحماسة ويتحدث في انفعال واضح عن تصميمه على تناول الأمر في سطور وأخيراً اقترحنا أن نستطلع رأي مندوبنا الدائم في الأمم المتحدة حيث كان يشارك في الاجتماع الذي تحدث قائلاً بأنه لا يتحدث عن واقعة بعينها ولكنه يرى واجباً علية أن يذكر أن الخطاب موضع النقاش هو خطاب خاص برئيس الدورة الماثلة لمنظمة الوحدة الأفريقية والذي ينتظر أن يتناول فكر أفريقيا إزاء القضايا الدولية الماثلة مع شرح قضايا القارة وهمومها وتطلعاتها دون أن يترتب على ذلك حرمان السودان من حقه في إلقاء خطابه المنفصل والذي حدد له بالفعل تاريخ لاحق...

إذن كانت قضية كامب ديفيد تمثل أولوية تامة في إتمام الزيارة وتوقيعها بالنسبة للجانب الأمريكي.

وظل الرئيس متمسكاً بالموقف المبدئي الذي اعتصم به خلال زيارتنا للولايات المتحدة التي امتدت عشرة أيام وباقي الدول الأوروبية التي زارها والتي امتدت نحواً من أسبوعين. صحيح أن الرئيس كان يحاول أحيانا إبداء رأي شخصي مثل تصريحه بأن كامب ديفيد ليست كلها سلبيات وهو أمر تناقلته وكالات الأنباء وتبنته سلطنة عمان وصنف بعضها السودان ضمن الدول المساندة خاصة حين شارك السودان في مرحلة لاحقة في مؤتمر القمة بممثل

بدرجة سفير، ومقاطعة اجتماعات الجامعة العربية التى تم على إثرها عزل مصر ونقل مقر الجامعة العربية. ولكن ليس صحيحاً ان السودان أيد الإتفاق.. فقد أخطرت الأجهزة والمؤسسات بإجراء دراسات للاتفاق ووصلت إلى مقررات سنأتي عليها لأهميتها. لقد حرصت أن أنقل ما شهدت وسمعت ولمست خلال المحادثات مع كل المسئولين في هذا الشأن، و رأيت كذلك – إمعاناً في الدقة في نقل ما تقدم – أن لا أفئ إلى الذاكرة بإسقاطاتها أو إلى أوراق متناثرة واعتمدت على أوراق دبلوماسية ووقائع رسمية سجلتها، اتفقت مع ما أوردته الدبلوماسية السودانية في العواصم التي زارها الرئيس وفي مقدمتها سفارتنا بواشنطن لا أري حرجاً في إيرادها بعد مضي أكثر من ثلاثين عاماً علي حدوثها.

- لقد مثلت قضية كامب ديفيد هماً أكبر ألقى بظلاله على الزيارة واستنفد جهوداً مضنية لوفدنا ولكن ذلك لم يحل دون انصراف الجانب الآخر من الوفد والمتمثل في وزراء القطاع الاقتصادي إلى عقد الاجتماعات الهامة مع رئيس البنك الدولي ومدير صندوق النقد ومؤتمرات لرجال الأعمال والمستثمرين ورجال المجلس الاقتصادي الأمريكي والسوداني والعلاقات الثنائية مع القائمين على أمور التنمية والاستثمار في أمريكا... (ذلك أن النظام الأمريكي يقوم فيما هو معروف على نظام سكرتيري الدولة لا وزراء مناظرين لهم ).

وهكذا انتهت الزيارة للولايات المتحدة والتي أثمرت عن إنجازات رائعة في المجالات الاقتصادية والإعلامية والثقافية التي أنجزوها في هذا المجال الذي رأيت أن أركز فيه على الجانب السياسي خاصة بالنسبة لاتفاقية هامة ألقت بظلالها وآثارها على العمل العربي المشترك ومثلت نقطة تحول حقيقي في مسار القضية العربية..

وقد رأيت أن أنقل أحداثاً كنت شاهداً عليها بعد أن أثير غبار كثيف حول موقف بلادنا حول الاتفاق ورأيت كذلك أن أشفع ذلك بالرأي الذي انتهى

إليه الجهاز السياسي في بلادنا حول الأمر والذي كان الرئيس قد كلفه بدراسته منذ وصولنا إلى الولايات المتحدة والذي جاء في مجمله متسقاً مع الرأي الذي تبنيناه وبعض أعضاء الوفد مما يؤكد سلامة الاجتهاد الدبلوماسي الذي التزمنا وتوثيقاً لموقف السودان إزاء تلك القضية وتنقيتها من الغبار الذي علق به من بعض الدوائر. رأيت أن أورد بإيجاز شديد ما انتهت إليه الدراسة التي انتهت إليها اللجنة السياسية للإتحاد الاشتراكي بوصفها الجهاز السياسي الذي أنيط به دراسة الأمر و تتلخص فيما يلي:

## اتفاقية كامب ديفيد.

قد ناقشت لجنة العلاقات الخارجية بالتنظيم الحاكم موضوع كامب ديفيد في ٤ أكتوبر ٧٨ للنظر في الدراسة الوثائقية والتحليلية لاتفاق كامب ديفيد مما ساعد المكتب السياسي على تحديد موقف السودان وآثار الاتفاق على القضية العربية توصلت للآتي:

- **هيكل الاتفاق:** جاء شكل الاتفاق مجافياً للأسلوب الجماعي الذي اتفق عليه في قمة الرباط (أكتوبر ٧٤) القاضية بعدم قبول أي محاولة لتحقيق أي تسويات سياسية جزئية انطلاقاً من مركزية القضية ووحدتها وهذا الإتفاق لم يسبقه أي تشاور أو تنسيق عربي مما أضفى عليه الفردية.
- **مضمون الاتفاق:** فصل المسألة المصرية عن القضية العربية – أن الإطار العام يتعارض مع قرارات مؤتمرات القمة التي أجمعت على رفض كل تسوية سلمية لا تقر مبدأ الجلاء الكامل من جميع الأراضي المحتلة والاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره. هذا الاتفاق لم يشر إلى القدس المحتلة أو الجولان مما جعل إسرائيل تبادر إلى أنها باقية فيهما إلى الأبد.
- أغفل الإشارة إلى منظمة التحرير باعتبارها الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني بالرغم من اجماع الدول العربية ومعظم دول العالم

على نحو مباشر أو من واقع قرار الأمم المتحدة باعتبارها عضواً مراقباً.. فضلاً أن مبدئي الانسحاب الكامل وحق تقرير المصير أيدتهما العديد من المؤتمرات الدولية والإقليمية منها القمة الأفريقية والإسلامية وعدم الانحياز.

- **الآثار المترتبة على الاتفاق:**
  - عربياً: مصاعب ونقص في القوة العسكرية والاقتصادية والإعلامية بسبب انعزال مصر مما يغري إسرائيل بالتعنت.
  - تشجيع الاتجاهات الانفرادية و الإقليمية داخل الدول العربية مما يساعد في اضمحلال دول الجامعة العربية والإغراء بالخروج على نظمها ومقرراتها.
  - الاتفاق يشجع العديد من الدول الأفريقية على إعادة علاقاتها مع إسرائيل مما يضعف الحصار الذي نجحت الدول العربية في إحكامه حول إسرائيل.
  - الاتفاق خرج بالقضية العربية من الإطار الدولي (الأمم المتحدة ومقررات جنيف) والذي كان صيغة قبلها طرفا النزاع.
- الاعتبارات التي تتصل بالعلاقات المصرية السودانية:

البلدان لهما علاقات خاصة ذات جذور تاريخية وحضارية أفرزت أنماطاً من التعاون وتدابير معينة بموافقة المؤسسات الدستورية في البلدين (منهاج العمل السياسي والتكامل) – اتفاق الدفاع المشترك – وهو أمر يتطلب موازنة دقيقة.

لا يجوز إغفال علاقاتنا الثنائية مع الدول العربية الأخرى والتي يضطلع السودان بدور ممتاز في مجال تنميتها وترقيتها بل يضطلع باسمها بمسؤولية جمع الصف العربي. أما تأييد مبادرة السادات لزيارته للقدس في نوفمبر الماضي لم يكن تأييداً لشكل المبادرة (الزيارة) بقدر ما كان تأييداً لمضمون خطابه أمام

الكنيست والذي شدد فيه على المطالبة بالانسحاب الإسرائيلي الكامل من الأراضي العربية والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني وهما جوهر الاتفاق العربي الذي حاد عنه اتفاق كامب ديفيد. إذن اتخاذ موقف مؤيد سوف يعزل السودان عن الدول العربية التي رفضت الاتفاق فيما يشبه الإجماع كما أن الموقف الموالي سوف يحطم مهمة السودان في لم الشمل العربي (لجنة التضامن العربي ) ودوره في رئاسة الدورة لمنظمة الوحدة الإفريقية وهي أمور يجب وضعها في الاعتبار خاصة في مجال تبشير السودان بخلق مزيد من الترابط العربي الأفريقي.

أردت أن أورد خلاصة لموقف بلادنا وفقاً لما اعتمده الجهاز السياسي فى بلادنا والذى طالته بعضٍ التفسيرات الخاطئة التى راجت فى وسائل الإعلام الإقليمية والدولية اعتماداً على بعض التصريحات الشاردة من بعض المسئولين أو بعض البيانات التى روجت لها بعض الدوائر دون سند مؤسسى.

كان طبيعياً أن يزور الوفد سان فرانسيسكو للاجتماع بأركان شركة شيفرون الأمريكية التي أفلحت في اكتشاف البترول في سهول غرب السودان وبطاح جنوبه في وقت شهدت فيه أسعار البترول قفزة واسعة بعد اندلاع الثورة الإيرانية.. والتي أخرجت الثورة على أثرها إيران من سوق النفط العالمي بإنتاجها الكبير الذي يتجاوز المليوني برميلٍ يومياً ترتب عليه ارتفاع سعر برميل النفط إلى ٣٤ دولاراً عوضاً عن ١٨ دولاراً.

تحركنا من واشنطن إلى سان فرانسيسكو في الساحل الغربي للولايات المتحدة التي طالما وصفت بأنها درة الولايات المتحدة حيث قضينا ليلة في ضيافة عمدة المدينة وتوجهنا في الصباح الباكر إلى مقر شركة شيفرون في إحدى ناطحات السحاب المشهورة في المدينة حيث عقد الوفد اجتماعا مع إدارة تلك المؤسسة العملاقة برئاسة المستر جورج كلر **George Keller** وأعضاء مجلس إدارته حيث جرى تبادل لوجهات النظر حول المصادر البترولية في بلادنا ومستقبل عمليات التنقيب يومها.. و قد كان اجتماعا مثمراً زودنا خلاله

ببعض المعلومات والإحصائيات في هذا الشأن مع شرح دقيق لمكامن البترول عبر خرائط مجسمة وبعض الصور الضوئية.. أفدنا كثيراً من تلك المعلومات التي لم تكن متاحة لنا من ذي قبل والتي كان زميلنا د.شريف التهامي – ضنيناً بها على زملائه لا يسر بها إلا إلى الرئيس، مما جعل الرئيس يثني عليه في أحد لقاءاته الشهرية المتلفزة ويصفه بالرجل المؤتمن الكتوم أو "أبو الهول الصامت" على حد تعبيره. لقد كان مدعاة للرضى أن علمنا أن إمكانيات السودان النفطية توفر احتياطياً يربو على العشرين بليون برميل. ولعل المؤرخ المنصف لا بد أن يذكر أن كشف البترول السوداني والأفكار حول تطويره ومستقبله هو إنجاز مايوي بحت بذلت فيه الحكومة جهداً كبيراً وأفردت له دراسات حول أنجح السبل لاستثماره، ولكن توقف شيفرون عن العمل في حقوله الذي ربما جاء بضغط من الإدارة الأمريكية حال دون تحقيق الحكومة في هذا الشأن.. ولابد للمؤرخ المنصف أيضاً أن يشير إلى أن حكومة الإنقاذ أفلحت بذكاء وحذق شديدين في تسويق أفكار مايو مما توج بالاستثمار الضخم الذي نراه ماثلاً اليوم.. ذلك أسلوب ألتزمته الإنقاذ في جوانب أخرى ليس فيه ما يعيب.. ألم تأخذ ببعض المناهج التنظيمية التي ابتدعها الحزب الشيوعي في بعض جوانب العمل السياسي مما تجلى في تكوين الجبهة القومية الإسلامية كوعاء شامل ينظمها، والأخذ ببعض مناهجها في الإطار السياسي فيما إعترف د. حسن الترابي في مؤلفه الشهير حول تاريخ الحركة الإسلامية بالسودان.

لقد صرفني أمر كامب ديفيد عن الحديث عن الزيارة من زواياها الأخرى والنتائج التي أثمرت في المجال الاقتصادي والاستثماري الثنائي إلى جانب بعض مظاهر الحفاوة التي لقيها الوفد على الصعيد الاجتماعي مثل احتفاء مجموعات الأمريكيين السود Black Caucus والدعوات التي أقيمت على شرف الوفد في دور بعض كبار الممثلين من السود الشهيرين في هوليود في مساكنهم في حي بفرلي هيلز الراقي، والحفاوة التي لقيناها في ضيافة آل المليونير روكفلر والذي تشد ابنها ديفيد صداقة بالرئيس نميري وعدد من قادة الدول النامية. حيث أمضينا يوماً كاملاً بعيداً عن المظاهر الرسمية والبروتوكولية نعمنا خلالها بكرم

الضيافة وممارسة شتى أنواع الرياضة وتفقد متحف الأسرة حيث كان يرافقنا أخوه الأكبر نائب الرئيس سابقاً.

وكان افتتاح جناح الحضارة النوبية في بروكلين حدثاً هاماً استوقف الكثيرين الذين تعرفوا إلى تلك الحضارة العريقة التي اهتمت بها وسائل الإعلام وحرص عمدة نيويورك على افتتاح المعرض وزيارته والحديث عنه..

كان المتحف تتويجاً لجهد كبير وقف عليه الراحل نجم الدين محمد شريف ونائبه أحمد حاكم اللذين بكرا بالذهاب إلى أمريكا للإعداد له بعون من الدوائر المعنية.. وكانت لفتة من الرئيس نميري حين تحدث عن عراقة النوبيين ماضياً وحاضراً مشيراً إلى الشخصيات التي تركت بصماتها على مر الدهور ذاكراً العالم متوكل أحمد أمين وآثاره.. وحرص على انتداب الأخ النائب للرئيس وشخصي لحمل تمنياته إليه حيث كان يصارع المرض في احدى قرى كاليفورنيا.. وقد الفينا متوكل العالم يعيش بين كتبه ومراجعه التى تناثرت بين زجاجات العقاقير التى كان عليه تناولها.. الفيناه متوقد الذهن مسكوناً بتاريخ الحضارة النوبية ينظر إلى المستقبل بتفاؤل كبير.

## السودان.. وترميم الجسور مع الأشقاء

ظلت بلادنا منذ استقلالها ترتبط بعلاقات طيبة مع كثير من دول العالم.. ولم تكن فى المواقف المتباينة فى النهج والفكر أحياناً ما يجعلها تعمد إلى قطع علاقاتها الدبلوماسية مع الدول التى تقع ضمن دائرة انتمائنا العربى أو الأفريقى. صحيح أن السودان لم يكن ليتقاعس عن الوفاء بالتزاماته فى هذا الشأن إن كان القرار صادراً من المنطقتين اللتين ينتمى إليهما، انتصاراً لبعض القضايا التى تهم دول المنطقتين على نحو ما شهدنا من قطع للعلاقات مع الولايات المتحدة وألمانيا أثر حرب ٦٧. على أن السودان بدا مجافياً لهذا النهج فى منتصف السبعينيات حيث شهد قطعاً لعلاقاته مع ليبيا والعراق وفتوراً بلغ مشارف تجميد نشاطه فى جامعة الدول العربية حيث التزم موقفاً مناوئاً فى

إطاره العام لما انتهت إليه المجموعة العربية فى أعقاب كامب ديفيد فى مؤتمر بغداد الشهير الذى قرر قطع العلاقات مع مصر ونقل مقر الجامعة العربية إلى تونس.. وفى واقع الأمر كان الكثيرون فى القيادة السياسية والتنفيذية - وكنت بينهم - غير سعداء بأسلوب قطع العلاقات مهما كانت دواعيه باعتبار أن العلاقات الدبلوماسية لم تكن سوى قنوات تهيئ التعرف إلى فكر الآخرين وجسراً لتقوية الروابط وإزالة الشوائب التى تعترض طريق تنميتها.. وكثيراً ما تبقى العلاقات قائمة وصامدة فى وجه الأعاصير والتواترات التى تواجه الدول.. لذا لم يكن عجباً أن تبقى دولتان مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على علاقاتهما الدبلوماسية بل ولا يلجأن إلى قطعها أو تعليقها طيلة سنوات الحرب الباردة. من هنا كانت دعوتنا - ونحن مجموعة من القيادين يومها - إلى إنفاذ الفكر الذى كنا تتبناه فى هذا الشأن.. فكان مسعانا لرأب الصدع بين المجموعة العربية من جهة ومصر من جهة أخرى، تأسيساً على ضرورة إرساء التضامن العربى وحتيمته، وتجسير العلاقات مع العراق وجامعة الدول العربية من جهة أخرى.. وهكذا شهد السودان تحركاً عربياً واسعاً على أثر زيارة الرئيس السادات للقدس فيما قدمنا وصار عليه أن يعيد علاقاته مع العراق. وقد شهد مجلس الوزراء مناقشات حامية الوصل فى هذا الشأن. وأخيراً تبنى المجلس ذلك الرأى وشرفت أن أكون موفداً من الحكومة إلى العراق وتصفية الخلافات معها. وهكذا غادرت الخرطوم محملاً برسالة خطية من الرئيس نميرى للرئيس صدام حسين. لم تكن مهمتى سهلة وميسورة.. ذلك أن السودان كان مستهدفاً من العراق.. وكان هدفاً لحملة إعلامية شرسة يقودها الرئيس صدام حسين بنفسه وتغذيها جماعات حزب البعث فى قيادته القطرية على أعلى المستويات.

صحيح أن السودان كان يستشعر مرارة إزاء العراق على أيام صدام والذى كان بدوره يحمل حقداً دفيناً لنظام الحكم فيه.. وقد لمسنا ذلك منذ فترة حين تم اختيار الرئيس نميرى رئيساً للتضامن العربى وقام بجولته الشهيرة إلى العواصم العربية. أذكر أننا وصلنا بغداد فى زيارة خاطفة امتدت ساعات قليلة

على أيام الرئيس السابق أحمد حسن البكر – وكان صدام يومها نائباً للرئيس – كان ملاحظاً أنه لم يكن ضمن المسئولين الذين بادروا لاستقبال الرئيس فى المطار بل أنه تعمد الغياب عن الغداء الرسمى رغم تواجده بالعاصمة العراقية.. أعقب ذلك بفترة قصيرة تصريحات له يسوق فيها المذمة لنظام الحكم فى السودان إلى حد أن تمنى لو تمكن من إطلاق الرصاص على رئيس السودان بيده للدور المشبوه الذى يقوم به – فى رأيه – لانتشال مصر من عزلتها بعد زيارة السادات للقدس.. وكثيراً ما كانت الدبلوماسية العراقية والسودان تنجحان فى تطويق مثل هذه المواقف باعتبارها آراء لا تعكس بالضرورة رأى الحكومات وأن بعض التحريف كثيراً ما يطال تصريحات المسئولين. ولكن محاربة حزب البعث للنظام فى السودان أصبح أكثر ضراوة فقد تضاعف النشاط السرى للأخوة البعثيين المحليين وصاروا أكثر نشاطاً فى تعبئة العناصر المعارضة وخلق المتاعب للنظام فى اتساق تام مع رئاستهم فى بغداد. وفى هذا الصدد أذكر أن بلادنا كانت تستورد النفط من العراق فى مواقيت محددة وكان العراق يتخلف عن الوفاء بها حتى يخلق أزمة للنظام. وبالفعل تفاقمت الأزمة فى بعض الأحيان وشهدت العاصمة صفوفاً وتزاحماً للحصول على بعض الوقود مما نتج عنه إمكانية تحول الأزمة إلى وضع سياسى يصعب تداركه. وحاول السودان بمختلف الوسائل أن يطلب إلى العراق الإسراع بإمدادها بالنفط وفقاً للاتفاق ولكن العراق أخذ فى المماطلة مما اعتبر جزءاً من خطة لإحداث حرب غادرة عليه يوقف انسياب سلعة تمس احتياجات أبنائه.. ثم طلبت العراق الدفع نقداً ومقدماً خلافاً للعرف التجارى الدولى بل أنها ماطلت بعد أن تسلمت الثمن – والذى أمكن تدبيره من أكف ندية لبعض الدول الشقيقة – بدعوى عدم وجود ناقلات، ثم أخذ يماطل بعد أن تسلم الثمن مطالباً بمبالغ إضافية لتغطية الفارق بين كمية الشحنات المطلوبة للسودان وطاقة الناقلات التى أمكن توفيرها، ثم اعتذر بعد الاستجابة لطلبه الجديد باستحالة الشحن لازدحام ميناء التصدير بالبصرة.. كل ذلك فى الوقت الذى كانت تتفاقم فيه أزمة البترول وانعكاس ذلك على الموسم الزراعى. هذا ولما باتت

مرامى العراق وأهدافها واضحة، ولما رصد تحرك السودان بالاتصال بأطراف بديلة عساها تتمكن من تطويق الآثار المدمرة التى كان يستهدفها حزب البعث العراقى.. وفى هذا الوقت بادرت السلطات العراقية بإبلاغنا بأن الناقلات تحركت إلى السودان.

لعل كل ما تقدم كان كافياً فى نظر بعض الأخوة الوزراء للإبقاء على العلاقات المقطوعة مع العراق سيما بعد تولى صدام السلطة.. " نريد حياتهم ويريدون قتلنا " ولكننى وبعض الأخوة كنا نرى غير ذلك.. فالعراق لا يمكن أن يؤخذ بجريرة شخص مهما كان وصفه، فسجل العلاقات بينه وبين السودان كانت مشرقة وضاءة فى الماضى وهو ركن أساسى للجبهة الشرقية فى المعركة مع إسرائيل فضلاً عن إمكاناته الهائلة التى تعتبر رصيداً لأمتنا. لم يكن المناخ مواتياً إذن.. وزاد من ترديه تصريح شارد نسب إلى الرئيس صدام ساق فيه المذمة إلى النظام السودانى ورئيسه بأسلوب حاد مجاف لكل قواعد اللياقة التى اعتاد الرؤساء التزامها فى مخاطبة نظائرهم.

## ساعة مع صدام حسين في عشية حرب الخليج الأولي:

هبطت بغداد فى ليلة صيفية قائظة الحرارة.. وكان أحد الوزراء وبعض أركان وزارة الخارجية فى استقبالى حيث أقمت فى أحد قصور الضيافة.. كان الاستقبال ودياً ساق الطمأنينة إلى نفسى وحسبته يبشر بنجاح مسعاى.. ولكن ذلك لم يدم طويلاً حيث صدرت إحدى الصحف الرسمية صبيحة اليوم التالى وفى صدرها مقال يتضح بالتطاول على بلادنا والتهجم على قيادته.. وكنت أعلم أن هناك بعض العناصر فى حزب البعث لم تكن راضية على هذا التحرك وكانت ترى فى بلادنا سنداً وعضداً للنظام المصرى وأن المقال لا يمثل بالضرورة رأى الحكومة أو القيادة بكاملها، وعلمت أن مثل هذا أمر حدث أكثر من مرة.

عبرت بذاكرتى إلى أول زيارة قمنا بها لبغداد فى رفقة الرئيس نميرى قبل سنوات - الرشيد الطاهر وشخصى - بوضعه رئيساً للجنة التضامن العربى.. وتذكرت كيف أن إحدى الصحف رحبت بزيارتنا وأن وزير الخارجية على وجه التحديد أدلى بتصريحات طيبة حول مهمتنا فيما أظهرت بعض الأوساط النافذة سلوكاً مغايراً.. فقد تعمد صدام حسين - نائب الرئيس العراقى وقتها وكان يعتبر الرجل القوى والنافذ فى النظام - تحاشى استقبالنا أو المشاركة بأية مناسبة أقيمت على شرف الوفد خلال زيارته القصيرة. وأذكر واقعة طريفة حيث عقد الوفدان جلسة مباحثات فى قصر الخلد.. وحين بدأ الرئيس نميرى فى شرح مهمته استغرق الرئيس العراقى أحمد حسن البكر المسن الوهن فى نوم - أو تظاهر بذلك.. وما أن فرغ الرئيس نميرى من حديثه حتى أفاق الرجل وتمتم بجملة واحدة "والله محمد سليمان كان خوش راجل" أى كان رجلاً فحلاً بلغة أهلنا فى العراق وهو يقصد محمد سليمان الخليفة ممثل السودان فى القيادة والذى قتل فى حادث إسقاط الطائرة المتجهة للسودان فى أعقاب قيام حركة هاشم العطا فى سماوات السعودية فى ظروف غامضة.

ولكن يبدو أنه أدرك ما انزلق إليه فتداركه بكلمات طيبات.. وقد حدثنا مرافقونا لاحقاً أن السيد البكر رجل طاعن فى السن وأن المحرك الحقيقى هو صدام حسين. عدت بذاكرتى إلى تلك الواقعة وأمامى المقال الذى أشرت إليه فقلت فى نفسى لعلها رعود يعقبها غيث عميم.. وبالفعل تم إخطارى بأن الرئيس صدام حسين سوف يستقبلنى فى الخامسة من عصر اليوم الثانى بقصره. وفى الموعد المحدد جلست وحولى المرافقون وثلة من الحراس كانت ترافقنى فى القاعة السفلى بالقصر بانتظار التحرك.. وحلت الخامسة ثم الخامسة والنصف دون ظهور أى بوادر لانطلاقنا.. ازداد قلقى وحسبت أن جدالاً لابد أن يكون محتدماً بين أطراف الحكم حول موقف العراق من السودان وبالتالى حول مهمتى والتى تتمثل فى تصفية الخلافات وإعادة الأمور إلى طبيعتها بين بلدتنا..

وفجأة دخل أحد الضباط وتوجه مسرعاً إلى حيث التليفزيون الذى كان موضوعاً فى ركن قصى من القاعة وقام بتشغيله فإذا بالرئيس صدام بلباس عسكرى يزور أحد المستشفيات وكانت غاصة بالجرحى والمعوقين ويتحدث بتأثر شديد عن القتلى والجرحى الذين تساقطوا.. لم أفهم مغزى ما كنت أشاهد.. سمعت المذيع يتحدث عن انفجارات فى جامعة المستنصرية ببغداد وعن القتلى والجرحى وأعداء العراق، ولكن لا أحد بين الحاضرين كان يدرك ما يجرى. وبعد ساعات طلب إلى التوجه للقاء الرئيس العراقى. لم تكن المرة الأولى التى أرى فيها صدام حسين فطالما رأيته فى بعض المؤتمرات العربية ولكنها كانت المرة الأولى التى أجلس فيها إليه.. بدا الرجل متعباً ومكدوداً. ولكن بدا أنه يغالب ما ألم به ليبدو حفياً بمهمتى فقال بعد إطلاعه على رسالة الرئيس فى تبسم وفى صوت خفيض "ما يخالف.. موافقون.. سحابة صيف عبرت وانقشعت.. الله لا عادها". والله نحن نحب السودانيين.. نعتبر الموضوع منتهيًا". اقترحت عليه أن نعمل على صياغة بيان مشترك يذاع فى نفس اللحظة فى كل من بغداد والخرطوم إيذاناً بعودة العلاقات إلى طبيعتها وطى صفحة الماضى والتوجه إلى الآفاق التى ننتظرها مستقبلاً " فرد " ما يخالف " وأمر أحد مساعديه بتهيئة اجتماع مع وزير الخارجية لإعداد البيان والاتفاق معى على تفاصيله وسرعان ما انتقل إلى الحديث عن الأحداث التى شهدتها بغداد ذلك اليوم فقال أن " العجم " عادوا إلى حياكة المؤامرات ضد أمتنا.. وأن الأحقاد التاريخية الموروثة بدأت تتحرك..!

لم أفهم للوهلة الولى من كان يعنى " بالعجم " إلا أن استمراره فى سرده لبعض الوقائع التاريخية محللاً إياها من منظوره جعلنى أدرك أنه يعنى إيران. فقد أفاد بأنهم دسوا بعض المتفجرات بين الطلاب فى جامعة المستنصرية ببغداد وقتلوا وجرحوا الأبرياء.. أبديت دهشتى وعبرت عن رأيى بأن الكثيرين يعتقدون أن الثورة التى قادها الخمينى فى إيران هى "ثورة أصيلة وضعت حداً لطغيان نظام فاسد بل وحارس لمصالح أعداء أمتنا فى المنطقة ولا يكاد المرء يجد سبباً فى أن يراه معادياً لنظام ثورى جار مثل النظام العراقى.. ولكنه مضى

يسوق شواهد تاريخية - من منظوره - تثبت أن النظام الجديد فى إيران يعز عليه أن يرى نظاماً قومياً وقوياً من شأنه أن يقف ضد أطماعه فى الخليج.. تداعت على خاطرى واقعة عقد الاتفاقية التى عقدها صدام مع شاه إيران بشأن شط العرب والعلاقة الحميمة التى ربطته بالرجل الذى كان ظلاً لإسرائيل فى المنطقة ثم التعبير عن نواياه أحياناً على استحياء حيال بلد مسالم تشده للكل روابط التقدير والمحبة مثل الكويت.

ثم تداعى الحديث بيننا - والذى استمر لأكثر من ساعة عن مستقبل الأمة العربية.. ولقد لفت نظرى أنه كان يلح فى أكثر من مرة على أن على الأمة العربية تدارك الهوة التكنولوجية التى تفصلنا عن الغرب.. "الغرب لم يتفوق علينا إلا بالعلم والتكنولوجيا".. وتحدث عن سعيهم حثيثاً للقضاء على الأمية فى العراق خلال أعوام معدودة وفق خطة مدروسة يقوم على رعايتها بشخصه.. وأن العراق معنى بالبحث العلمى وأن نسبة ما يقتطعه من موازنته العامة لأغراض البحث العلمى يعتبر رقماً عالياً بكل المقاييس، بل أنه يقارب ما تقتطع الدول المتقدمة، ولفت نظرى أن الرجل ظل يكرر هذا المعنى وأوصانى بتذكير "أخيه النميرى" بضرورة وضع هذا الأمر ضمن دائرة همومه واهتمامه.

بدا الرجل هادئاً ومرتباً فى حديثه.. يختار عباراته فى هدوء وترك انطباعاً لدى بأنه مطلع ومواكب لروح العصر. وودعته وانصرفت إلى تكملة مهمتى مع أعوانه وأنا قرير العين بذلك اللقاء، إن كانت عباراته عن جارته إيران.. والتى كنا ننظر إلى ثورتها اعتبارها فتحاً مبيناً فى ساحة العمل الإسلامى، يثير فى النفس بعض القلق.. ولم يطل انتظارنا حيث أعلنت إذاعة بغداد أن مواداً أخرى جرى تفجيرها خلال تشييع شهداء جامعة المستنصرية وبدأت وسائل الإعلام تشن حملة شرسة على إيران.

إذن المنطقة مقبلة على مرحلة جديدة من العداءات.. وأن الرئيس صدام كان يعنى ما يقول.. كانت تلك الأحداث مقدمة لكل ما جرى من أهوال بعد حين.. وتداعت الأحداث وكانت الحرب التى علمنا وذقنا. أفسدت الأحداث

حلال الحرب النصر التى كنت أحسب أننى أحرزته بصدور البيان المشترك والذى أعاد العلاقات بين البلدين.. وهو أمر ضمنته فى التقرير الذى رفعته للرئيس لدى عودتى إلى جانب التذكير بأهمية الالتفات إلى أمر البحث العلمى.. كان الرئيس راضياً تماماً عن عودة العلاقات، وكان قلقاً تماماً لنذر الحرب بين إيران والعراق، ومقدراً تماماً لاهتمام الرئيس العراقى بأمر البحث العلمى فقال لى " لماذا لم تحطه بأننا بدأنا دورة البحث العلمى قبلهم.. ألا تذكر أن أخونا العاقب – فى إشارة للدكتور أحمد عبد الرحمن العاقب – يعكف مع إخوانه على وضع معالم "دولة العلم الحديثة" وأننا خصصنا مبالغ فى موازنتنا لهذا العام لأغراض البحث العلمى؟ وكان الرئيس محقاً ولكن يبدو أن المناخ الذى انعقد فيه لقائى بالرئيس العراقى وما واكبه من أحداث جعلنى فى دوامة ليس لها قرار.

تواصلت مساعى الحكومة لمد الجسور التى انقطعت مع الغير، ورؤى أن يعاود السودان نشاطه فى جامعة الدول العربية استطراداً للدور البارز الذى ظل يضطلع به فى هذا الإطار خاصة على صعيد التضامن العربى والذى ظل السودان يرفع لواءه منذ انخراطه فى الجامعة حتى أصبح عرابها ولما كان الأخ الرشيد الطاهر نائب الرئيس ووزير الخارجية وقتها – مشغولاً بحضور بعض اللقاءات الهامة فى بعض الأقطار المجاورة والتى حددت مواعيدها سلفاً – فقد اقترح على الرئيس أن أقوم على رأس وفد لحضور تلك الدورة والتى حفل جدول أعمالها ببعض الأمور الهامة وبينها اختيار أمين عام جديد للجامعة خلفاً للسيد محمود رياض الذى استقال من منصبه.

## ذو الشوق القديم..يعود:

وهكذا سافرت إلى تونس وسعدت بلقاء زملاء وأصدقاء قدامى طالما ضمتنا معاً لجان الجامعة واجتماعاتها.. فألفت بين قلوبنا.. كان فى مقدمهم السفير طاهر رضوان مندوب السعودية الدائم وعميد المندوبين والذى ظل فى

موقعه لمنصب السعودية فى الجامعة عشرات الأعوام وكان يحيط بأسرارها وأساليب عملها ويكاد يحفظ قراراتها ومناسبات صدورها.. وأهم إنجازاتها...

وكان حفياً بى إذا بادرنى ضاحكاً " وذو الشوق القديم وإن تعزى.. مشوق حين يلقى العاشقينا ".. تعرف.. نبع الجامعة مثل ماء النيل عندكم.. من شرب منه مرة لابد أن يعود ليشرب منه ثانية.. ها أنت تعود.. يا هلا بيك".. ترى أين هو الآن إنه ذخيرة.. ليته عكف على إعداد كتاب عن " تجربته فى جامعة الدول العربية ". ليكون مرجعاً وذخيرة بل ومعيناً حياً للدارسين والأجيال القادمة..

عدت بذاكرتى للأيام التى كنت أداوم فيها حضور اجتماعات الجامعة واستعرضت الأسماء التى طالما صالت وجالت فى دهاليزها.. ونظرت إلى القاعة فحزنت.. كان مقعد مصر خالياً.. لم أكن لأصدق أن مصر التى كانت ضمن خمسة أعضاء قاموا بإنشاء الجامعة، والتى جعلت أراضيها بيتا لمناشطها، واضطلعت بدورها فى عطاء سخى، تحرم من المشاركة فى أعمالها.

وتجولت ببصرى فى المنصة فلم أجد بين الجالسين سيد نوفل، والذى كان أشبه بملح الطعام على مائدة المناقشات.. بعلمه وحسن سبكه وقفشاته، وافتقدت عدداً من زملائنا القدامى الذين كانوا لسنوات طويلة حضوراً فى كل اجتماع.. إلا أننى لمحت بين الحاضرين بعض الوجوه المألوفة التى عرفتها الجامعة وعرفها ميدان العمل العربى وعركها وعركتهم.

تم اختيار الشاذلى القليبى " أميناً عاماً " جديداً فى ذلك الاجتماع وكان مما يدعو للاطمئنان تأكيد عدد من المشاركين بأن تونس كانت مقراً مؤقتا للجامعة، إلى جانب تعليقات بعض المشاركين من أن غياب مصر موقوت وأنها لابد عائدة لممارسة دورها القيادى والريادى.

## دعوة مفاجئة!

تلقيت دعوة شخصية من وزير الخارجية التونسى يومها لتناول فنجان شاى معه فى منزله الكائن فى ضواحى العاصمة. والذى يبعد بضع كيلو مترات عن العاصمة التونسية وقد رأيت أن أصحب معى السفير وقتها الأخ

معتصم البربر والذى تمنع فى بداية الأمر باعتبار أن الدعوة شخصية فضلاً عن ارتباطه بحفل دبلوماسى فى العاصمة مساء نفس اليوم. وأخيراً رافقنى إلى دار الوزير وأمضى بعض الوقت حتى أذن موعد ارتباطه وانسحب فتركنى مع الوزير منفرداً لفت نظرى أن الوزير تحدث إلى فى مرارة عن الواقع العربى وعجز القيادات الشابة عن تقديم أى مبادرات أو جهد ملحوظ إن لم نقل محاولة المشاركة فى تبديله.. ثم انتقل إلى حديث عن جيلنا – هو وأنا – والآمال التى كانت تغمر نفوسنا فى مقتبل سن الشباب والمطامح التى كانت تساورنا غداة استقلال بلدينا الذين شاء القدر أن يكونا فى نفس العام، وتناقشنا عن الآفاق التى يمكن أن نعمل فى فضائها فى الدائرة العربية والدائرة الإسلامية والدائرة الأفريقية ودائرة عدم الانحياز، ولكنه كان صريحاً فى قوله أن أمتنا لن تتمكن من الانطلاق ما دامت هذه القيادات تتولى أمرها.. مضى يعبر فى تلميح مبطن عن مآخذه على قيادة بلاده.. كانت أمسية جميلة وهادئة خرجنا بعدها نذرع راجلين طرقات تلك المدينة الصغيرة الساحرة وعدت إلى الفندق وأنا استرجع ما دار بشعور لا يخلو من الدهشة والتساؤل.. كيف خصنى الأخ الوزير بتلك الدعوة الحميمة الخاصة.. أتراه خص بها غيرى؟.. ما معنى أن يبث لي شكواه المقنعة من تراخ للقيادة فى بلاده وهو وزير للخارجية وموضع ثقة الرئيس بورقيبة فيما حسبت.

عدت إلى الخرطوم بعد أيام جميلة أعادت الطمأنينة إلى نفسى سيما وكانت تلك المهمة خاتمة جهد بذلناه وبعض الأخوة وفى طليعتهم صديقنا الرشيد الطاهر، لتكملة الجهد فى إعادة العلاقات مع الشقيقات إلى طبيعتها ووضع أساس للعمل المشترك فى مقبل الأيام.

وكان التقرير المتكامل الذى أدليت به أمام مجلس الوزراء محل رضى الأخوة وقد أغفلت الإشارة إلى بعض الانطباعات الشخصية والمناقشات إن لم أقل "المناوشات" الجانبية التى عمرت بها لقاءاتنا الخاصة مع بعض الوزراء الآخرين.. وبطبيعة الحال " واقعة " دعوة الوزير التونسى الشخصية فقد كانت سراً لم أفض به إلا لقلة من الأصدقاء بينهم الرشيد.

وتعاقبت الشهور فإذا بى أفاجأ يوماً بوكالات الأنباء تذيع نبأ لجوء السيد الشطى إلى أوروبا وانسلاخه من الحزب الديمقراطى الحر معلناً معارضة لحكم الرئيس بورقيبة ومعدداً مآخذه عليه. وقد أثارت الواقعة عجب كثير من المراقبين وحيرتهم، ولكن عجبى كان أقل!!

لم يكن اضطلاعى ببعض المهام المتعلقة بالعمل الخارجى تتم بمعزل عن التنسيق مع وزارة الخارجية. فقد كانت وزارة الخارجية دائمة المشاركة فى الوفود الرئاسية فضلاً عن أن المهام التى كنت أضطلع بها كانت تتم بمعرفة وزارة الخارجية والتنسيق معها.. مشورة وإلماماً بما ننتهى إليه.. بل أننى كثيراً ما كنت أدعو أحد الدبلوماسيين لمرافقتى أو أوافى المسئولين فى الخارجية بصورة من التقرير الذى أقوم برفعه للسيد الرئيس..

صحيح أن الدستور يكفل للرئيس كل الصلاحيات فى تصريف الشئون الخارجية، ولكن تظل وزارة الخارجية فى رأيى هى بؤرة العمل فى هذا المجال.

ودعت رئاسة مجلس الوزراء بعد أن قضيت بها عدة أعوام شرفت خلالها بالعمل إلى جانب الرئيس نميرى وتعرفت خلالها على كثير من مفاليق الأمور التى كانت خافية على.. كنت حريصاً على قضاء بعض الوقت اتصفح الأحداث التى شهدتها دورات المجلس خلال الأعوام المنصرمة وفكر الرجال الذين تصدوا لإنشاء أمانة المجلس وتثبيت أركانه وفكر القيادات التى تعاقبت على تسيير السودان فى مختلف العهود والحقب السابقة.. وإذا كانت الوزارات فى بلادنا قد وصفت لبنائها على أيام الحكم الأجنبى وأخرى نشأت وفقاً للقوانين المنظمة للعمل التنفيذى عام ١٩٥٤ فإن أمانة مجلس الوزراء – شأنها شأن وزارة الخارجية – تم إنشاؤها غداة الاستقلال بموجب دستور ١٩٥٦ المؤقت، وهكذا جاء كلاهما غرساً للعبقرية السودانية الخالصة ونبتاً للبصيرة الخلاقة التى أرسى بها الرواد الأوائل تلك الأمانة شأن نظرائهم من الرعيل الأول فى وزارة الخارجية. ولطالما أحسست بالرضى للظروف جعلتنى أكاد أطوى معظم سنى عملى فى الحياة العملية والتى امتدت لثلاثين عاماً متصلة

فى هذين المرفقين وأن أشهد عن قرب الانضباط والحماس والأخذ بالتقاليد العريقة التى سار هذان المرفقان على هديهما حتى الأمس القريب. وأننى لأذكر بالخير مواكب الشيوخ والشباب الذين أمكنهم ترقية تلك المرافق والمحافظة عليها فى وجه أعاصير السياسة وأهواء السياسيين.

ولقد شهدت فى رئاسة مجلس الوزراء على أيامى وزيراً لها شباباً يلتزم النهج القومى فى قراءته للأمور وتصريف أعبائه وأمانته فى التعبير عن فكره بأسلوب أمين وشجاع. ولعله لم يكن صدفة أن رئاسة مجلس الوزراء لم تشهد تبديلاً أو فصلاً بين الشباب القائم على أمر ذلك المرفق – شأن الكثيرين الذين طالتهم الأيدى خلال حمى التطهير الذى ابتدعته ثورة أكتوبر بدءاً وتبعته النظم المتعاقبة فطالت فى كثير من الأحيان رجالاً ممتازين من ذوى القدرات المهنية العالية والكفاءة المشهودة حتى رأينا قوماً يغلبون الولاء الحزبى على الكفاءة والاعتبارات الوطنية.

تركت رئاسة مجلس الوزراء ولم يقدر لي أن أدخل مبانيها طيلة عشرين عاما حتي تلقيت دعوة لحضور مناسبة جليلة احتفاءاً بعيدها الذهبي.. ودعي للمناسبة كل الرؤساء الي تعاقبوا علي حكم السودان منذ استقلاله إلي جانب الوزراء الذين اشرفوا علي تسيير رئاسة المجلس منذ أن كان أمانة عامة إلي جانب آخرين.. وقد أسعدني ما شهدت.. فقد امتدت يد التطور العمراني علي مبانية الجديدة فبدت زاهية ورائعة كما وقفت علي ما اصابه المجلس من تحديث وارتقاء في آليات العمل وأنني لأشهد أن السجلات والأضابير العامرة المودعة في خزائن تلك الدار تقف الدار شاهداً علي أن كلا من أولئك القادة قدم من جهده وفكره الكثير، بلوغاً لما كان يظنه خيراً لهذا الوطن. قد تختلف الاجتهادات والأساليب والطرائق بين عهد وآخر ولكن الكل كان يعمل في تجرد لخدمة شعبه.. ولكن الحديث عن وقائع ذلك اليوبيل له مجال قادم.

## ميثاق التكامل بين مصر والسودان:

كنت فى كينشاسا ممثلاً لرئيس الجمهورية فى مؤتمر رؤساء الدول الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون) حيث كان السودان ومصر يتمتعان بوضع المراقب وكنا- د. بطرس وشخصى – ننعمان بكل المزايا التى يتمتع بها رؤساء تلك المجموعة.. حيث خصصت لكل منا فيللا خاصة من تلك التى خصصت للرؤساء فى القرية التى شيدت لذلك الغرض وكان كلانا يتحرك فى موكب شبيه بمواكبهم.. تضمنا وإياهم حافلة واحدة كلما خرجنا فى جولات حرة فى أطراف الغابات القريبة حيث كان الرؤساء يتحللون من وقار الرئاسة فيتبادلون القفشات وربما ممارسة بعض منافسات الجرى وضروب الرياضة، حتى أخذ يدغدغ مشاعرنا إحساس بأننا جزء منهم.. أذكر أننى قلت للأخ فاروق مصطفى سفيرنا هناك "لم أكن أعرف أن حياة الرؤساء لذيذة ورائعة على ذلك النحو من الأبهة.. لو عرف الناس ذلك لجالدوهم عليها بالسيوف"!

جاءت الأنباء تحمل إعلان ميثاق التكامل بين مصر والسودان خلال زيارة قام بها الرئيس حسنى مبارك للسودان فى ٢٢ أكتوبر ١٩٨٢.. كنا نجهل نصوصه وقسماته وظللنا نلاحق أنباء الوكالات حول السمات الرئيسية لذلك الميثاق وعملت سفارتا البلدين على مدنا ما توفر لديها من معلومات فى هذا الشأن عسانا نحمله لذلك التجمع العام وهو يتأهب لطى أعماله.. عملنا جهد الطاقة لموافاة الوفود بإطاره العام باعتباره تعزيزاً لفكرة التجمعات – تحت الإقليمية – والتى ظل مفهومها يتطور لاحقاً بحيث ينتهى إلى قيام سوق إفريقية موحدة بحلول عام ٢٠٢٥.

كنت أحمل رسالة خطية من الرئيس نميرى للرئيس موبوتو الذى حدد لى موعد للقياه فى قصره بالعاصمة.. توجهت وبرفقتى الدبلوماسى الفطن يوسف سعيد الذى رافقنى من الخرطوم وكان يعمل معى بباريس يوماً إلى القصر الرئاسى فى أصيل يوم غائم رقت نسائمه حيث اتخذنا مقاعدنا تحت دوح تشابكت أغصانه وبدت أمامنا رياض القصر رائعة وفاتنة صفت فى جنباتها

الأزاهير والورود بعناية وتناثرت على نجيلها الفسيح بعض الأرائك.. كان المشهد يسبى الألباب.. جذاباً رائعاً وجميلاً حتى يخيل إليك أنك:

تری جنة من جنان الربيع تبدت مع الخلد فى مستوى!

واعترف أننى كنت – شأن الكثيرين من أبناء جيلى – لا نضمر مشاعر احترام وتقدير لموبوتو لدوره المشبوه فى تصفية المناضل الأفريقى لوممبا وبالتالى إجهاض تلك الثورة العظيمة التى هزت القارة بجلالها ووقائعها ومبادئها.

جاء الرئيس موبوتو ورأيت – على كره منى – أن ابتدر الحديث بعبارات مجاملة يفرضها السلوك الدبلوماسى بقولى "سيادة الرئيس.. عرفناك أحد حكماء أفريقيا وبناتها.. ولكننا لم نكن ندرك أنك شاعر وفنان.. قال متسائلاً فى دهشة "شاعر.. من قال ذلك؟" قلت " إن هذه اللوحة الرائعة التى تمتد أمامنا ممثلة فى هذا الروض الساحر الأخاذ ينم عن إحساس فنان متمكن وشاعر"

بدت دلائل الارتياح واضحة على محياه وأخذ يحدثنى فى نشوة عن رعايته الشخصية لتلك الحديقة بل امتدت رعايته لكل ما حفل به قصره من تنسيق وانتقاء للوحات " والبيلوهات ".. وكان يشفع حديثه بحركات لعصى صغيره كان يحملها فى إيماءات موحية إلى حذائه وغطاء رأسه اللذين صُنعا من جلد الفهد فى اتساق واضح!

وما أن تناقشنا حول مضمون الرسالة فى جو مريح من التآلف وقصدنا السيارة قاصدين نزلنا حتى فوجئنا برجلين يحملان لوحة فنية كبيرة صنعت من النحاس هدية من الرئيس مازالت أزين بها دارى.. ركبنا السيارة والتفت إلى مرافقى قائلاً " ألا ترى يا عزيزى يوسف إن بعض الرؤساء – شأنهم شأن الغواني اللائي يغرهن الثناء؟!" ضحكنا وسرعان ما رانت على وجهينا نظرة آسية وحزينة لمصير أقوام من أشقائنا الأفارقة أسلمت قيادها لمثل تلك النماذج البشرية.. ولكنا كنا ندرك أن الشعوب قد تنحنى ولكنها لا تركع! لذا لم يكن غريباً أن أطاح إخوتنا فى الجوار بالرجل فى ثورة شعبية استطراداً لثورة لوممبا وانتصافاً.

عدت إلى السودان وأطلعت على نص مشروع الميثاق وتعرفت على الظروف التى واكبت إعداده.. وسرعان ما تم استدعاؤنا بوصفنا أعضاء فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى إلى جلسة مسائية كرست لمناقشة مشروع الميثاق بغية إقراره وإجازته فى ضوء الدراسة العلمية التى توفرت عليها لجنة خاصة استمزجت رؤى نخبة من أساتذة الجامعات والقيادات الثقافية والمهنية ورجال القانون والفكر والسياسة إلى جانب القيادات الشبابية والنسائية ورجال الأعمال وغيرهم من قيادات المجتمع المدنى.. وقد جرى نقاش مستفيض خلال الاجتماع لمشروع الميثاق من جوانبه كافة، أهدافه.. مناهجه ومؤسساته.. كانت مناقشة حيه ورائعة امتدت حتى الساعات الأولى لفجر اليوم التالى، اتسمت بالصراحة والوضوح وانتهت بإقراره وأوصت – بإحالته للجهازين التنفيذى والتشريعى لمناقشته وإبداء الرأى حوله وفاءاً لمقتضيات التقليد الدستورى المعمول به باعتباره أمراً بالغ الأهمية لابد للأجهزة والمؤسسات من اتخاذ قرار بشأنه.

ولما كانت رئاسة مجلس الوزراء التي كنت أقوم بوصفي وزيرًا لها ظلت ترعى التكامل خلال فترة المنهاج، نظرًا لأن وزارة مصر بالسودان كانت تابعة لها، ولما كانت وثائق المجلس تحوي ذخيرة من المعلومات حول التكامل وأدبياته وتفاصيل اجتماعات اللجان ومقررات اللجنة العليا، فقد عكفت على دراستها ولم يكن ذلك إلا ضربًا من ضروب الاستعداد والتحسب من جانبي للمداخلات التي سيتعين عليّ الإسهام بها في مناقشات الأجهزة والمؤسسات الشعبية وما قد يواكبها من مناظرات، وبطبيعة الحال ما كان لي أن أستشف حجب الغيب لأدرك أن مثل هذه الخطوة ستندرج تحت اختصاصاتي حين عُينت أمينًا عامًا للتكامل بعد أسابيع معدودة، ذلك أنني ظللت طيلة فترة منهاج العمل السياسى والتعاون الاقتصادى خارج السودان أؤدى واجبى سفيراً لبلادى أرقب مسار التجربة وأتابعها عن كثب وكم تمنيت لو كنت فى بلادى أسهم فى بناء ذلك الصرح والذى أنتقل بالتكامل من مرحلة " التنظير" على أيام ميثاق طرابلس إلى مرحلة التدبير و" التسيير" ومحاولة إحالته إلى واقع

يسرى بين الناس فى مجافاة لنوازع القفز العجول والتزام باستقراء واقع البلدين وقدراتهما.. كنت تواقاً للعمل تحت رايات التكامل، عضواً فى لجانه ومؤسساته ولكن ذلك الأمل ظل عسيراً. وكثيراً ما كانت رسائل الأصدقاء بالسودان تحمل لى أنباء عن ما يجرى تداوله فى أروقة السلطة بل وفى مجتمعات العاصمة حول التفكير فى استدعائى للعمل فى ذلك الفضاء الرحيب.

أذكر أن السيد بابكر عوض الله - الرئيس السابق للأجهزة التنفيذية والتشريعية والقضائية فى السودان - والذى يتمتع بسيرة طاهرة ومتميزة واحترام فى مجال العمل الوطنى أخبرنى بأنه فوجئ وهو بالقاهرة باتصال هاتفى من الرئيس نميرى بالإسكندرية - والذى تقطعت بينهما أسباب الوصال والاتصال منذ أن تفرقت بينهما السبل وتقدم باستقالته قبل أعوام - يدعوه للقائه فى الإسكندرية ليناقشه فى أمر هام.. وأضاف أن الرئيس نميرى حدثه لدى لقائه به عن اعتزامه دعم التعاون والتكامل مع الشقيقة مصر إلى آفاق غير مسبوقة وأنه والرئيس السادات التزما بتحقيق اتحاد بين البلدين فى أقرب فرصة مواتية وأنهما أعلنا منهاج التكامل الذى يضع الأهداف والمناهج والاستراتيجيات بأسلوب علمى وأنه - واقتناعاً منه بأن السيد بابكر يعتبر من أكبر محبى مصر ومناصريها فى السودان رأى أن يستمزج رأيه حول الشخص الذى يمكن اختياره لأمانة التكامل.. ولعل السيد بابكر - لطفاً منه وكرماً - طرح على الرئيس أسمى فوجد تأييداً ومباركة منه.

فوجئت يوماً باتصال هاتفى من الصديق أحمد سليمان سفيرنا فى لندن فى ذلك الحين الذى كنت أعمل فيه سفيراً بباريس ينهى إلى أن أمر اختيارى للعمل فى مؤسسات التكامل أضحى مفروغاً منه، ومضى يسوق إلى سعادته بذلك الاختيار ويحرضى على الاستجابة تحقيقاً لحلمنا القديم فى رؤية اتحاد مصر والسودان واقعاً.. وأكاد أذكر كلماته التى ساقها بأسلوبه المحبب "اسمع يا ابكر.. أنا عارف باريس طراوه.. والعمل الدبلوماسى آخر حلاوة.. ولكننا عشنا حياتنا بالطول والعرض.. لم يعد يغرينا شئ فى هذه الحياة سوى مرضاة الشعب والتفانى فى خدمة الوطن.. عليك قبول العرض بلا تردد".

تعاقبت الشهور والسنون ولم أتلق ما يفيد باختيارى للعمل فى ذلك المجال.. بل أننى لم أشرف بالعمل فى ذلك المجال إلا فى مناسبتين كانت أولاهما حين استدعانى الرئيس نميرى من باريس فى اتصال تليفونى بالقدوم للخرطوم للانضمام إلى مجموعة محدودة قوامها اثنان من الأصدقاء ( مهدى مصطفى وأحمد عبد الحليم) لإعداد خطاب يحمل رؤية السودان للعلاقة مع مصر وآماله التى لا تحدها حدود فى بلوغ مراقى الوحدة ومرافقته لحضور البرلمان المشترك للبلدين لدى انعقاده وشيكاً بالقاهرة.. وكانت المناسبة الأخرى عام ١٩٧٩ خلال عملى وزيراً لرئاسة مجلس الوزراء ورؤى عقد جلسة أخرى للبرلمان المشترك بعد تعاقب السنين. حينها جرى نقاش بين الرئيس نميرى وبينى حول قضية التكامل برمتها.. مراميها ومناهجها ومسارها وحصيلتها.. وتحليل الأسباب التى حالت دون انطلاقها إلى رحاب الأمل المرجو. وأذكر أن الرئيس نميرى بدا حريصاً على نجاح التجربة وعلى أن لا تأتى الجلسة القادمة للبرلمان المشترك بالخرطوم بحضور الرئيس المصرى جلسة احتفالية وساحة خطابية على النسق المألوف، وعبر عن حرصه على طرح فكر السودان بصراحة تامة ووضوح. وأردف ذلك بتوجيه منه أن تكون جلسة نقاشنا والذى امتدت نحواً من ساعتين محوراً للخطاب الذى سيقوم بإلقائه.. وهكذا جاء الخطاب الرئيس نميرى يحمل رؤاه كاملة تكملة لرؤية السودان التي تقدم بها في مذكرته للقاء الثلاثى دوماً، وقد حمل ميثاق التكامل الذى تم وضعه بعد سنوات الكثير من الرؤى التى طرحها السودان والتى فصلناها فى الجزء الخاص بموضوع التكامل الثلاثى ثم الثنائى منذ نشأته عام ١٩٦٩ حتى توقفت أعماله فى أبريل ١٩٨٥.

## اختياري أمينًا عاماً للتكامل..

كان خطاب الدورة الذى يأتى على أداء الوزارات خلال العام المنصرم والبرامج مناسبة حوليه هامة تنصرف فيها إدارات مجلس الوزراء إلى عمل متصل.. ملاحقة للوزارات لتقديم البرامج الخاصة بها.. ثم تنسيقها ووصفها فى إطار واحد منسق يمثل خطاب الدورة الذى يلقيه الرئيس فى استهلال

الفصل التسريعى الجديد. وكنا التزمنا تقليداً نخضع فيه بيان الرئيس لنقاش داخلى بين الوزير وأركان رئاسة مجلس الوزراء وإبداء ملاحظاتهم عليه، حتى إذا تم إقراره بصفة مبدئية أخضعناه لدراسة أخرى خلال اجتماع يضم الرئيس ورئيس مجلس الشعب ورائد المجلس (زعيم الأغلبية) ووزير رئاسة مجلس الوزراء لإجازته فى صورته النهائية.

كان صباح الأربعاء ٨ أكتوبر ١٩٨٢ هو الموعد المحدد لذلك الاجتماع وتوافد على مكتبى الزميلان عز الدين السيد رئيس المجلس وبدر الدين سليمان رائد المجلس وانخرطنا فى أحاديث عادية ريثما يصل الرئيس.. وما أن أستقر فى مكتبه حتى أخطرته السكرتارية بوصول أركان المجلس وحلول موعد الاجتماع.. ولدهشتي أخطرتنى السكرتارية بأن السيد الرئيس يود فى البداية أن يتحدث إلىَّ منفرداً.. تحدثت إلى السيد الرئيس حول اكتمال إعداد خطاب الدورة واستعدادنا لوضعه فى صيغته النهائية بعد إقراره بحضور أركان المجلس المتواجدين بمكتبى.. بدا لى أن الرئيس منصرف عن الأمر وأنه كان يعالج هماً يعتمل فى صدره ويشغل باله.. فاجأنى بأنه قرر أن يسند إلى أمر القيام على التكامل المصرى السودانى خلال فترة الميثاق، وأن الأمر تم باتفاق مع الرئيس مبارك ومضى يعدد لى مزايا الوضع الوظيفى الجديد باعتبار أن الأمين العام سيكون فى مرتبة " رئيس وزراء " بكل مخصصاته وامتيازاته الوظيفية ويحق له حضور جلسات مجلس الوزراء فى البلدين لأن ذلك من شأنه أن يعطيه صلاحية المتابعة من جهة، والتعرف على سياسات البلدين من جهة أخرى.. وتحدث إلى بأنه تقرر بأن يكون لى مساعدان برتبة وزير أحدهما مصرى يكون مقره السودان وآخر سودانى مقره القاهرة ثم مضى يذكرني بضرورة إنجاح التجربة لقناعته بأن السودان ومصر شريكا قدر ومصير، مذكراً بأن تجربة منهاج العمل السياسى والتكامل الاقتصادى التى وضع أسسها مع الرئيس السادات فى فبراير عام ١٩٧٤ حفلت بالكثير من الإنجاز الطيب وأرست الركائز الحقيقية لمسيرة التكامل، إلا أن بعض العقبات والمثالب أقعدتها عن بلوغ الأهداف المرتجاة. وأضاف أنه والرئيس مبارك مصممان على بعث التجربة

ورعايتها وإنجاحها هذه المرة لما ينطوى عليه التكامل من آثار ومنافع للبلدين. تحدث – بمودة وكرم – عن الاعتبارات التى جعلته يقترح إسناد المنصب لشخصى. كان الأمر برمته مفاجئاً على نحو لم أنتظره أو أتوقعه.. وعبرت عن ذلك المعنى صراحة – راجياً إمهالى حتى أفكر فى الأمر بأناة وروية، سيما وأن رئيس مجلس الشعب ورائد المجلس يجلسان بمكتبى وبانتظار دعوتهما للاجتماع المقرر حتى ينصرفا لبعض المشاغل الهامة التى تنتظرهما.. ولكن الرئيس تجاوز ملاحظتى معبراً عن إصراره على تلقى إجابتى كى يوافى بها الرئيس المصرى توطئة لوضع الأمر فى إطاره الدستورى فى نفس اليوم.

## اعتذاري عن قبول المنصب:

أبديت اعتذارى عن قبول المنصب لأسباب خاصة.. وبدت الدهشة واضحة على وجه الرئيس الذى بادر إلى تذكيرى بأننى كنت من غلاة الداعين لوحدة وادى النيل منذ كنا معاً فى مدرسة حنتوب الثانوية.. فنحن زملاء دراسة، وهاله أن يرانى أتقاعس عن أداء مهمة جليلة تستهدف إنفاذ تلك القناعة.. مضيت أشرح له أن حبى لمصر هو الذى يدفعنى إلى الاعتذار عن التصدى لأمر قد لا تتوفر المقومات لإنجاحه، مما ينعكس سلباً على العلاقة بين البلدين وطموح شعبيهما وآمالهما.. انخرطنا فى نقاش أمتد نحو أربعين دقيقة وأخيراً رجوته متوسلاً أن نرجئ النقاش حتى نفرغ من إنجاز مهمتنا ذلك الصباح سيما وقد طال انتظار الزميلين بمكتبى. أرسل الرئيس فى استدعائهما وبادرهما بسرد ما جرى من نقاش بيننا حول أمر التكليف وبدا أنه يستنجد بهما لإقناعى.. سيما وكان فى تقديره أن كليها تشده إلى روابط وداد وصداقة.. فعمل الزميلان على إقناعى وأخيراً تحدث صديقى بدر الدين – بأسلوبه التقريرى المعروف – بأنه يجيز لنفسه أن يعلن نيابة عنى قبول التكليف.. اقترحت عدم اتخاذ خطوات نحو إخطار الطرف الآخر أو إذاعة النبأ حتى أقف على تفاصيل المهمة وأقطع برأى نهائى.. ثم انصرفنا.

كان تمنعى فى واقع الأمر يعود إلى عوامل جاءت على خاطرى منذ أول وهلة جعلتنى أتردد فى قبول التكليف.. ليس تهيباً من مسئولياتها وتبعاتها، ولا كفراً بجدواها، ولكن لأسباب ذكرتها للرئيس فى حينها، بينها:

١) ظل أمر الدعوة الاتحادية مع مصر موضع جدال بين القوى السياسية فى البلاد فمن نصير لها ومؤمن بالتنسيق والتكامل معها إلى حد الاتحاد والوحدة، إلى كاره لها وكائد يرى فيها شراً مستطيراً ومعبراً للنفوذ المصرى إلى السودان.. فأصبح لديه شك تاريخى فى نوايا مصر تجاه بلادنا. وبالرغم من أن الميثاق الذى أطلعنا عليه وتدارسناه يمثل فكراً وسطياً راشداً فى منهجه وأسلوبه وغاياته التى يأتى بلوغها بأسلوب متدرج ويستلهم رأى شعبى البلدين بأسلوب ديمقراطى كنت أتصور أن آخرين يرون أنه رجس من عمل الشيطان.

٢) أن فترة المنهاج عمرت بإنجاز ضخم فى مجال الدراسات التى توافر عليها حشد من كبار العلماء وأهل الدراية فى مصر والسودان غطت سائر المجالات.. إذ تم توصيف مشروعات هامة خاصة فى مجالات الزراعة والبنى التحتية وتبادل السلع من شأنها أن تغطى احتياجات البلدين لو وجدت طريقها للتنفيذ ولكنها ظلت قابعة فى أضابيرها جراء قصور "التمويل".. وكان القائمون خلال فترة المنهاج يعولون على إسهام دول الخليج فى إنفاذ تلك المشروعات.. ولكن هذا أضحى عسيراً بعيد المنال الآن حيث كانت مصر وهى إحدى طرفى التكامل تتعرض لمقاطعة اقتصادية وسياسية من الدول العربية.

٣) كان الرئيس وسائر زملائى فى مجلس الوزراء واللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى يعرفون أننى كنت ضمن المعارضين لاتفاقيات كامب ديفيد لأسباب أوردتها فى فصول سابقة ضناً بمصر من أن يصبح دورها القيادى للدول العربية محل شك أو تساؤل دع عنك تعرضها للعزل.. وهو عين ما كانت تهدف إليه الدوائر الغربية التى ظلت تعمل طويلاً وعبثاً لإخراج مصر من دائرة الصراع العربى الإسرائيلى عن طريق

توقيع اتفاق منفرد وهى القوة الرئيسية الضاربة التى قدمت أرتال الشهداء.. إلى جانب أسباب أخرى فصلناها فى فصول سابقة فى معرض الوثيقة التحليلية التى عددناها حول اتفاق كامب ديفيد، ليس أقلها الانتقال بالقضية من أروقة الأمم المتحدة التى أصدرت قرارات إيجابية انتصاراً للحق العربى (القرارات ١٩٤-٢٤٣-٣٣٨ وغيرها) ووضعها للقضية تحت تصرف أمريكا، إلى جانب تقديم الاعتراف بإسرائيل دون ثمن. وكنت أرى فى ترشيح السودان لى لهذا الموقع فى مثل هذه الظروف ربما ينطوى على حساسية، وربما كان فيه إحراج للطرف الآخر.. وكنت أفضل أن يتم ترشيح شخص آخر لهذا الموقع.

ثمة تساؤل ظل يتنازعنى طيلة اجتماعى بالرئيس حول ترشيحى لذلك الموقع الكبير فى تلك الظروف بالذات، بعد أن طوت مسيرة التكامل مرحلة المنهاج بكاملها تطلعت صادقاً إلى العمل فى فضاءاتها وكانت السلطة تتخطانى وتبادر إلى اختيار غيرى من الأخوة، وهو أمر محير لا يمثل حديث الرئيس عن أن ميولى الوحدوية - التى لم تكن أمراً مستجداً - هى التى دفعتهم لترشيحى لذلك الموقع الآن أمراً مقنعاً بالنسبة لى.

مهما يكن الأمر فقد اتفقت مع الأخ الرئيس - بحضور الأخوين عز الدين وبدر الدين - على إرجاء إعلان الأمر حتى صبيحة اليوم التالى فيما ذكرت سابقاً، ولكننى فوجئت بقرار جمهورى تتم إذاعته نفس اليوم فى نشرة الخامسة عصر ٨ أكتوبر ٨٢ بنبأ تسميتى أميناً عاماً للمجلس الأعلى للتكامل المصرى السودانى.

ولم يكن أمامى سوى الالتزام بمشيئة الثورة واحترام الاتفاق مع الرئيس المصرى الذى تم فيما علمت، والقبول بالاضطلاع بأعباء الموقع. ولكن لابد لى أن أشير إلى أمرين يتعلقان بما ورد بشأن الهواجس التى كانت تؤرقنى وتدفعنى إلى اتخاذ موقف سلبى إزاء قبول المنصب.

**أولهما**: أشهد الله أننى وعلى مدار ولايتي على أمانة التكامل خلال عامين اجتمعت خلالهما كثيراً إلى المسئولين فى مصر، بمختلف مستوياتهم الرئاسية والوزارية والنيابية والفكرية والصحفية والشعبية، لم أسمع عتباً أو تلميحاً -من قريب أو بعيد- إلى موقفي من القيادة خلال أزمة كامب ديفيد.. بل وجدت عوناً ما أخطأته وتقديراً لما كنت أضطلع به جهد.

**ثانيهما**: قبل أن أبدأ فى وضع تصور عام لأسلوب العمل بانتظار اختبار الأمينين المساعدين وانتقاء العناصر التى تصلح نواة للأمانة ووضع خطة لأسلوب العمل ومناهجه، حدثت واقعة أكدت بعضاً من مخاوفى حول النظرة المتباينة لبعض أطراف القوى الوطنية للفكرة - إذا طلب إلى إلقاء محاضرة فى قاعة الصداقة بالخرطوم- على هامش المؤتمر القومى الاقتصادى- عن ميثاق التكامل الجديد بأهدافه ومراميه وأبعاده والآثار التى يمكن أن تترب عليه، حضرها حشد كبير من قادة العمل الوطنى ورموز المجتمع العاصمى.. ما أن فرغت من تقديم حديثى الذى أمتد نحواً من خمسين دقيقة فى جلسة قادها باقتدار السيد مكاوى مصطفى حتى وقف أحد غلاة الاتحاديين هو الأخ محمد زيادة حمور وعبر عن أسفه لهذه "الردة" فى المسار الوحدوى، ونعى على مقدم المحاضرة على وجه الخصوص، والذى كان يعده من جنود الوحدة منذ يفاعته، أن ينتهى به المطاف كى يكون عراباً لمثل هذا الفكر "التكاملى" "الذرائعى"، الذى يستهدف الالتفاف حول قضية "الوحدة " بشتى الأساليب والمسميات.. وقف أخر.. لعله ينتمى لفصيل اليسار المتطرف - ليعبر عن رأيه بأن الأمر كله لا يعدو أن يكون أداة لحماية النظام، ثم جرى نقاش علمى رصين أفدنا منه كثيراً، إلى أن وقف زعيم حزب سياسى كبير عرف بمناوأته الفكر الوحدوى، فأثنى على الأسلوب العلمى الذى التزمه الميثاق والشرح الذى جاء على لسان الأمين العام والذى يتوخى الواقعية، ويضع القضية بمعالمها ومقاصدها وخطى مسيرتها واضحة أمام المجتمعين، ولكنه نعى على الحكومة اختيارها لذلك التوقيت فى طرح الفكرة، بل نعى عليها أن تعمل على قيام اتحاد مع بلد ترفرف علي أرضه الطاهرة "نجمة داوود"...!.

كانت المناسبة تجربة غنية عززت ما كنت أتحسب له من تباين الرؤى حول القضية من جهة، وأعطتنى قوة دافعة وزودتنى بأفكار قيمة أفدت منها فى معرض ممارستى للعمل من جهة أخري.

## الانطلاق على طريق الميثاق:

رأيت أن أبدأ مهمتى بإنشاء نواة مؤقتة عن طريق الإعارة من مجلس الوزراء ووزارة المالية وشئون العمل كى تشرع فى إعداد مقترحات حول الإطار العام لهيكلة الأمانة من حيث الموظفين وأسلوب اختيارهم وقواعد العمل إلى غير ذلك، فيما قمت باختيار ثلاثة من الشباب الذين يتمتعون بحس سياسى وإدراك واع للقضية التى نحن بصدد الشروع فى إنجازها، وقد حددت لهم مهمة عاجلة تتلخص فى دراسة قضية الوحدة العربية والأفريقية والتجارب السابقة والأساليب التى التزمتها، ودراسة الميثاق.. مقاصده ومناهجه وهياكله.

ورأيت أن أنصرف خلال تلك الفترة إلى القيام بزيارات منزلية لبعض قدامى الاتحاديين (وبعضهم كان يتخذ جانب المعارضة لثورة مايو) استطلع رأيهم فيما ينبغى إتباعه وصولاً لذلك الهدف، وكذلك استطلاع رأى جماعات من حزب الأمة والشيوعيين والبعثيين الذين كانوا يتخذون موقفاً مناوئاً للتكامل منذ نشوئه إلى جانب بعض أصدقائى من المثقفين من أبناء الجنوب. وقد ركزت فى مشاوراتى تلك على الذين كانت تربطنى معهم زمالة أو صداقة..واعتزمت أن أتبع نهجاً مماثلاً لدى هبوطى أرض مصر فى أول زيارة لها بعد تولى ذلك الموقع.

أخطرنى الرئيس بأن الحكومة المصرية تستعجل قيام الأمانة العامة حتى تنطلق مسيرة التكامل، وأن اختيارها وقع على اللواء عبد الستار أمين – أستاذ الاستراتيجية المعروف بثقافته العالية وفطنته وخلقه الرفيع، والذى سبقت شهرته التى روج لها بحماس تلاميذه من القادة العسكريين السودانيين – لملء منصب مساعد الأمين العام من الجانب المصرى، وعليه بات أمر اختيار مساعد

الأمين العام السودانى أمراً ملحاً. وأخيراً تم اختيار الأخ عز الدين حامد الذى واكب فترة المنهاج وصدور القرارات الخاصة بالمشروعات التى اعتمدت وكان يتولى شئون مصر بالسودان يوماً.

## التكامل.. يرتاد المرحلة الثانية:

ليس من همى هنا أن أورد الإنجازات التى تمت خلال العامين الذين حفلت بهما مسيرة التكامل خلال الفترة التمهيدية، ذلك أمر أتركه لوثيقة لاحقة، ولكنى أريد لأشير إلى مظاهر الوفاء التى اضطلعت بها اللجان الفنية التابعة للمجلس الأعلى للتكامل فى تنزيل مبادئ وأحكام مبادئ الميثاق وفلسفته إلى برامج – أخذ بعضها طريقه للتنفيذ، عساها تكون عوناً لأجيال نأمل أن تتصدى يوماً لبعث الفكر التكاملى.. وهو أمر آثرت أن أتركه لمطبوعة أخرى تتناول التكامل من جوانبه كافة. حسبي أن أشير خطفاً إلى تفصيل دور القطاع الخاص وإشراكه فى الاستثمارات ذات العائد السريع وقد تم بالفعل عقد أول مؤتمر لهذا الغرض برعاية هيئة دولية انتهى إلى قرارات هامة – كما قامت معسكرات للشباب فى البلدين وتوقيع بروتوكولات بين العمال والمزارعين والمهنيين والجماعات النسوية والشبابية والطالبية فى البلدين.. وتوج ذلك بقيام أول مؤتمر للتنظيمات الشعبية فى تاريخ وادى النيل عقد بالقاهرة ضم المئات من القطاعات الشعبية كانت مداولاته تبث حية عبر الإذاعة والتليفزيون المثبتة فى الساحات العامة بمصر، حرصاً على نشر ثقافة التكامل وأهمية الدور الشعبى فى ذلك.. هذا إلى جانب عقد مؤتمر تاريخي بالخرطوم للحكم المحلى بالخرطوم شهده جميع محافظى مصر وحكام الأقاليم بالسودان وأول مؤتمر شعبى فى وادى حلفا لفعاليات المنطقة المتكاملة، إلى جانب تحقيق التآخى بين المدن والقرى فى البلدين وفق معايير ثابتة إلى غير ذلك من أمور أترك إيرادها لمجال آخر وإصدار بطاقة وادى النيل وتخفيض أجور السفر إلى النصف وإزالة بعض القيود الإدارية والجمركية أمام السلع وتعزيز مسارات الطرق ختى شارفت حدود البلدين إلى غير ذلك.

وكانت تلك اللجان والتى ضمت نخبة من أبناء وادى النيل تنصرف إلى أداء واجبها فى دأب ونكران ذات دون أن يتقاضوا أجراً لقاء الجلسات التى تعقد فى البلدين.. وكانت الأمانة العامة نبذل جهداً لمواكبة أعمال اللجان الفنية إعداداً للمذكرات والدراسات المبدئية وتصنيفاً لها وصياغة لمقرراتها.. وكانت تدعم ذلك الجهد وتظاهره بعقد الندوات المتعددة التى تمت بالتعاون مع بعض المؤسسات المحلية والأجنبية ودوائر البحوث والمعاهد ومراكز الدراسات الاستراتيجية وأهل الخبرة والدراية، عالجت بشئ من التفصيل قضايا التكامل فى المجالات الإنتاجية والخدمية والشعبية، جرى تصنيفها وإعدادها ووضعها أمام اللجان المختصة بغية الإفادة منها فى مناهج عملها وعززت ذلك بلقاءات ومؤتمرات شعبية طالت معظم فصائل المجتمع المدنى تدارست خلالها الدور الذى يمكن أن تضطلع به تلك الفصائل فى دفع عملية التلاحم بين الشعبين أثمرت بروتوكولات ومواثيق على نحو ما أسلفنا.

وكان صندوق التكامل الذى تم إنشاؤه يباشر نشاطه بوصفه مؤسسة استثمارية مستقلة ذات استقلال مالى وإدارى له من الصلاحيات والمرونة ما مكنه من مفاوضة دوائر التمويل المحلية والعربية والدولية، وتسويق مشروعات التكامل وجذب المستثمرين، كما زود الصندوق بصلاحيات لإنشاء البنوك والشركات وطرح السندات وتقديم الضمانات. وبالفعل قام الصندوق بتحديث الدراسات لشركات التكامل القائمة منذ فترة المنهاج والتى آلت تبعيتها إليه وبدأ تحركاً حثيثاً وسط دوائر المال بعد أن أرسى قواعد العمل ومناهجه.

## مساجلات في برلمان وادي النيل:

كذلك اضطلع برلمان وادى النيل الذى يمثل أحد الأضلاع الرئيسية الثلاث فى أجهزة التكامل بدور فاعل ومؤثر فى المسيرة التكاملية بإصدار التشريعات وإقرار الموازنات وإقرار البرامج بالإضافة إلى دورة الخلاف فى

التعبئة والحشد.. وكان من إشراقات البرلمان تكوين خمسة لجان فنية نظيرة لمثيلاتها للجان الفنية للمجلس الأعلى.. لتكون مكملة لها ورقيبة.

وكان لوجود د صوفى أبو طالب وعز الدين السيد رئيسى مجلس الشعب فى البلدين على رأس البرلمان عاملاً مؤثراً فى تحقيق مقاصد المجلس باعتبارهما من رواد الدعوة الاتحادية والحريصين على نجاح التجربة..

ولقد ساعد تكوين البرلمان الموحد بعضويته المتعددة الاتجاهات والرؤى الذى ضم بعض أحزاب المعارضة فى مصر والمعارضين بالسودان على إضفاء الحيوية على مناقشاته التى جاءت غنية وثرية حفلت بالكثير من الأفكار.. وأننى لأذكر أن دورات المجلس كانت تمثل – بالرغم مما تقدم – فترة إرهاق وعمل شاق حيث كان على الأمين العام ومساعديه أن يمثلا أمام النواب طيلة فترة انعقاده للإجابة عن سيل الاستفسارات والملاحظات التى تتضمنها التقارير التى ترفعها الأمانة العامة للمجلس، حاوية القرارات ومراحل التنفيذ فى سائر المجلات التى تضمنها دراسات اللجان.. وأننى لأذكر المساجلات الحية والممتعة التى طالما جرت بينى وبين بعض النواب الذين كانوا يستبطئون المسار ويتعجلون بلوغ الوحدة وفى مقدمتهم الأصدقاء د. أحمد السيد حمد وفضل بربرى وآخرين من السودان، وموسى صبرى وصبرى أبو المجد من الجانب المصرى، من الذين حملوا رايات دعوة وحدة وادى النيل وخاضوا معاركها منذ أن كانوا فى ميعة الصبا وشرح الشباب.

## تقدرون وتضحك الإقدار:

كانت المرحلة التمهيدية التى حددت بعامين فى إطار الاستراتيجية المجازة تشارف الانتهاء أمكن خلالها قيام المؤسسات كاملة والالتزام بواجباتها المنصوص عليها.. وكانت فى انتهاء الفترة التمهيدية إيذان بانقضاء فترة عمل الأمين العام السودانى (عامين) ليخلفه بديل من الشقيقة مصر.. ولم يعد أمامنا إلا عقد جلسة للمجلس الأعلى لإقرار ما سوف تطرحه اللجان التى دعيت جميعها للانعقاد وشيكاً.. كان الكل يتأهب للانطلاق نحو تحقيق مرامى المرحلة

الثانية (مرحلة بناء التكامل ) والتى كانت تستهدف استغلال عناصر القوة فى اقتصاد البلدين ومعالجة الإختلالات الهيكلية فيها من خلال الخطة التكاملية التنسيقية وتسخير المدخرات والموارد المحلية، وإعطاء أولوية قصوى لتحقيق الاكتفاء الذاتى من السلع الزراعية والصناعية وتقريب مناهج وسياسات ونظم التعليم، وتوحيد نظم الرعاية الاجتماعية، وإذا كان ميثاق التكامل استهدف السياسات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية تعمل على إزالة المعوقات بحيث يتمتع مواطن أى من البلدين بحق الإقامة فى البلد الآخر ومعاملة مواطنيه فى كل الحقوق والواجبات فى المجالات المنصوص عليها، وفقاً لقوانين البلد الى يقيم فيه، وإذا كان الميثاق يستهدف بناء المواطن وفق استراتيجيات محددة الأهداف، متكاملة الخطى والبرامج، ومتناسقة الوسائل يتم تنفيذها على نحو تدريجي يؤمن سلامة الخطى عبر مراحل ثلاثة، فقد بات الجميع يتأهب لمقابلة المرحلة الثانية (مرحلة بناء التكامل) بما يتطلبه من إعداد.

وهكذا دعيت سائر اللجان الفنية إلى عقد اجتماعات بالقاهرة فى مارس ١٩٨٥ لإعداد توصيات حول ما تبقى من اختصاصاتها توطئة لعرضها على المجلس الأعلى ثم برلمان وادى النيل فى مرحلة لاحقة.. لا تتعدى بضعة أشهر تمثل ما تبقى من عمر تلك الفترة.. كان الكل يعمل فى حماس وينظر بتفاؤل وثقة للمستقبل ولم يكن يعرف المفاجأة التى تحملها الأيام القادمات!!

الفصل التاسع

# النيل يفيض.. ثم يغيض:

كانت القاهرة تشهد زخماً فى مجال التكامل المصرى السودانى فى تلك الأيام من شهر أبريل.. إذ كان على اللجان الفنية مراجعة الخطط والبرامج ووضع اللمسات الأخيرة للمشروعات التى تضمنتها فترة " بناء التكامل " لتقديمها للجنة العليا للتكامل، والذى كان سيعقد دورته الثالثة خلال أسابيع.. وشهد فندق شيراتون لقاءات بين عشرات السودانيين وأشقائهم من أبناء مصر ومداولات وتبادل لوجهات النظر حول جدول أعمال تلك اللجان.. كان هم الجميع إزالة ما تبقى من قيود إدارية وجمركية تتيسر الانطلاق نحو الهدف المنشود، كما عكف رجال القانون فى كلا البلدين لمعالجة القيود التى تحول دون انتقال العمالة وحق ممارسة المهن الحرة وحرية السفر والإقامة والعمل والتنقل بقانون بعد أن انطلقت وفق إجراءات إدارية واتخذت طريقها لأرض الواقع.

## ثورة مايو تتهاوي:

ولم يكن ليؤرق المئات من أبناء وادى النيل سوى الأنباء التى كانت تأتى من الخرطوم فى تواتر يدعو للقلق.. كانت أنباء الإضراب العام والتظاهرات التى تعج بها عاصمة الجنوب (الخرطوم) تتوالى. أذكر أننا وعدد من المؤتمرين كنا ضيوفاً على العشاء لدى الصديق فاروق أبو عيسى.. وكنا جميعاً حريصين على متابعة ما يجرى حيث كنا نتلقى ما تحمله وكالات الأنباء لحظة بلحظة.. عدت إلى الفندق وحاولت الاتصال ببعض الزملاء فى الخرطوم دون طائل وأويت إلى فراشى مغتماً مكدوداً يراودنى هاجس واحد وهو محاولة إقناع الرئيس نميرى لدى لقائى به خلال توقفه بالقاهرة بالعودة إلى السودان عوضاً عن التوجه إلى باكستان وفقاً لما كان مقرراً، وحسبت أن فى مقدورى أن

أستعين على ذلك ببعض الأخوة من المصريين النافذين. وفى صبيحة اليوم التالى اتخذت طريقى إلى قصر القبة - حيث كان مقرراً وفقاً لمقتضيات البروتوكول المصرى - أن يعد الاستقبال الرسمى لرؤساء الدول هناك. وأنا فى طريقى إلى قصر القبة رن الهاتف فى السيارة التى تقلنى وإذا برئاسة الجمهورية تطلب إلىّ التوجه إلى مطار القاهرة لأن الرئيس ربما أجل رحلته إلى باكستان واتجه إلى السودان.. وما أن وصلت مطار القاهرة حتى بادرنى المشير أبو غزالة - وكانت تشدنا علاقات طيبة بالسؤال عما فعله "سوار الدهب" وكان السؤال مباغتاً وخايلنى شعور بأنه يعنى د. صالح سوار الدهب المستشار الثقافى بالسفارة، ثم أردف "أما دريت.. لقد تسلم المشير سوار الدهب السلطة الآن!".. لم يكن هناك متسع لمزيد من الحديث حول الأمر فقد كانت طائرة الرئيس نميرى تتأهب للهبوط حيث كان المستقبلون جميعاً فى قصر القبة ولم يكن مع الرئيس سوى عدد محدود جداً من مساعديه وكان الكل على يقين بأن الرئيس نميرى لم يكن على دراية بهذا التطور المفاجئ. حطت الطائرة وتحلقنا جميعاً حولها انتظاراً لنزول الرئيس - وخلافاً لما تواتر من شائعات سخيفة روج لها البعض فى تلك الأيام بأن حرس الشرف تم تسريحه وأن البسط الحمراء طويت وأن الاستقبال الرسمى ألغى. كان الإعداد فى قصر القبة ولم توضع ترتيبات لذلك فى المطار أصلاً - همس الرئيس مبارك فى أذن الرئيس نميرى وسرعان ما هرع الرئيسان مبارك ونميرى فى خطو سريع إلى المقر الرئاسى فى المطار وانخرطا فى اجتماع مغلق دام ساعة أو أكثر كنا خلالها - السفير السودانى الصديق عبد الرحمن سلمان وأنا وبعض مساعدى الرئيس مبارك منخرطين فى تحليل وتقويم ما جرى. ذهب بعضنا إلى الظن بأن المشير سوار الدهب ربما أتخذ تلك الخطوة حماية للثورة سيما وقد توافرت لدينا أنباء من الخرطوم أنه كان حتى آخر لحظة يتحدث - عقب صلاة الجمعة فى مسجد القوات المسلحة - يستنفر الجميع لحماية الثورة التى تتهددها المخاطر مذكراً زملاءه فى القوات المسلحة بالقسم الذى أدوه للرئيس نميرى مجددة إيماناً غليظاً بأنهم سيظلون على العهد.

وذهب البعض الآخر إلى أن المشير – رغم ولائه المطلق للرئيس نميرى– ربما تعرض لضغوط جعلته يتخذ ذلك الموقف درءاً للمخاطر.. وذهبت التأويلات طرائق قدداً.. وفجأة ونحن فى غمرة تلك المناقشات فوجئنا بالرئيس نميرى منطلقاً فى خطو هو إلى الركض أقرب مندفعاً نحو الطائرة والرئيس مبارك يلهث فى متابعته محاولاً تهدئته.. كان مشهداً سيظل محفوراً فى ذاكرتى.. وما أن وصل الجمع إلى الطائرة حتى فوجئوا بأن أبوابها مغلقة وتقبل الرئيس نميرى اقتراحاً من رفيقه المصرى بأن يجتمع إلى وفده المرافق ومستشاريه لمناقشة الأمر.

## كيف تلقي الرئيس نميري النبأ:

انعقد اجتماع ضم السيد هاشم عثمان – وزير الخارجية وقتها وكان ضمن الوفد الرئاسى للولايات المتحدة – وقائد الطائرة الذى استدعى على عجل وبعض أعضاء الوفد المرافق، وقد رؤى أن ننضم إليهم أنا والسفير وانخرط الجميع فى مناقشة ما يجرى. كان البعض يرى الانتظار لبعض الوقت ريثما تتضح الصورة للوضع هناك بينما كان آخرون يحثون الرئيس على العودة الفورية.. كان الرئيس مصراً على العودة إلى الخرطوم وكان حديثه ينم عن ثقة كاملة بأنه قادر على تطويق الحدث لدى عودته – سيما وكانت الدلائل تشير إلى أن التحرك إنما هو انقلاب على مايو.. تدخل قائد الطائرة ليتحدث فى نبرة يشوبها الهدوء والثقة والاحترام. ألخص حديثه فيما يلى:

١) أنه حمل الرئيس نميرى من أرض الوطن خلال رحلته إلى أمريكا بوصفه قائد الأمة ورئيس جمهورية السودان وإن مهمته محددة فى إعادته لأرض الوطن وفقاً لما كان مقرراً.

٢) أن منظمة الطيران الدولية (إياتا) قامت بتعميم على المستوى الدولى بأن المجال الجوى للسودان مغلق فى وجه الملاحة الجوية وهذا يعنى بالضرورة أن من يخالف ذلك باختراق ذلك المجال إنما يقوم بذلك على مسئوليته.. مما يعنى أن الطائرة إذا تعرضت لأى هجوم فلا تقع المسئولية

إلا على الطائرة.. وأنه يتعين عليه التذكير بأن مسار الطائرة يحتم عليها الاقتراب من حدود دولة معادية بل تعتبر فى حالة أشبه بالحرب حيث كانت تخصص إذاعة خاصة تحرض على الإطاحة بالوضع فى السودان بل أمدت المتمردين بالجنوب بكل أنواع الأسلحة فيما هو معروف.. فضلاً عن تدخلها يوماً فى حركة الطيران بإجبار طائرة تقترب من أجوائها بالهبوط خلال محاولة الانقلاب الشيوعى.

٣) جاءت رسالة واضحة بأن مطار الخرطوم تم إغلاقه وأن ممراته ما عادت صالحة لهبوط الطائرات.

ثم أوضح الكابتن أنه وفى هذه الحالة يخشى أن يكون الرئيس معرضاً لمخاطر هى ولا شك واردة مذكراً بأنه لا يخشى على نفسه وإنما هو ضنين بسلامة الرئيس ومن يرافقه.. وختم حديثه بأنه يرى واجباً عليه وضع الحقائق أمام الرئيس والحاضرين وأنه يترك لهم تقدير الموقف وأنه رهن بتنفيذ القرار الذى يتخذون.

كان ذلك تلخيصاً لما دار وفق ما وعت ذاكرتى الذى عززه بعض الحاضرين معى لدى عرضه عليهم وأنا أكتب هذه السطور.

تحدث الرئيس نميرى بانفعال واضح شاكراً للكابتن نصيحته ولكنه أكد مجدداً على تصميمه على دخول السودان مهما كانت المخاطر.. وذكر أنه قد يفكر فى السفر على طائرة هليكوبتر يهبط بها فى إحدى بقاع شمال السودان ويتحرك إلى الخرطوم وفق مسار محسوب.. وأخذ الأخ الرئيس يردد فى تساؤل: "كيف أبقى بعيداً وأنا أشهد مايو تنهار أمام عينى وأرى أعداءها ينقضون على منجزاتها وتاريخها بل كيف أترك "رجالى" يقعون فى حبائل بعض الجاحدين الحاقدين؟ وسيطرت على الاجتماع مشاعر الحزن والقلق والحيرة. ففى الوقت الذى كان حديث الرئيس يلامس مشاعرهم بدا حديث الكابتن ينطوى على "معقولية" يصعب إسقاطها أو تجاوزها.

فى هذا الأثناء وقع أمر أحسب أنه كان من العوامل الرئيسية فى تغيير مسار ذلك الجدل إذ طرق الباب أحد إخواننا من الضباط المصريين وأستأذن فى أن هناك من ينتظر الأمين العام للتكامل بالخارج.. خرجت فإذا بأحد الأخوة الضباط الكبار يعرفنى بنفسه مشيراً إلى أن ثمة معلومة هامة يحسن أن يلم بها الرئيس نميرى.. وأخذ يسألنى عن ثلاثة أشخاص من كبار ضباط الجيش السودانى – صاروا أعضاء فى المجلس العسكرى الانتقالى لدى تكوينه لاحقاً – ولما أحببت بأننى أعرفهم حق المعرفة أجاب بأن المعلومات التى وردت إليهم للتو تفيد بأن ثلاثتهم يمثلون العقل المفكر للانقلاب وأن المشير سوار الدهب كان مغلوباً على أمره، وأنه لا يمثل القائد والمدير الحقيقى لذلك الانقلاب بل أنه لم يكن طرفاً فى التخطيط له.

عدت للاجتماع وجلست فى هدوء ولما تساءل الرئيس عن أمر ذلك الطارق – وكنت أجلس على مقربة منه – همست إليه بما وافانى به الرجل وسرعان ما اكتسى وجه الرئيس بمسحة من الهدوء والطمأنينة.. سيما وأن له دالة على أولئك الضباط الثلاثة وأنهم مدينون له ببقائهم فى القوات المسلحة مؤيداً ذلك بوقائع محددة ذكرها لى لاحقًا مضيفاً بأن بعضهم كانوا يعرفون " بأبناء نميرى " فى الجيش.. لا أدرى ربما كان الرئيس يحسب أن أولئك الضباط استبقوا الأمر انتصاراً للثورة.. وبالفعل اجتمع إلى الرئيس مبارك وربما أفضى إليه بعدوله عن فكرة التوجه إلى الخرطوم – ورؤى –أن يعد بيان مقتضب جداً يسلم لممثل رويتر بأن الرئيس نميرى غادر القاهرة إلى جهة لم يجر تحديدها على أن تقلع طائرته فى نفس اللحظة متجهة إلى مطار ألماظة.. وقد قمنا – الوزير صفوت الشريف وشخصى- بإعداد البيان.

ظللنا فى المقر الرئيسى بالمطار انتظاراً لمغادرة رجال الصحافة والإعلام فى الوقت الذى كان يجرى فيه إعداد أحد القصور ليكون نزلاً للرئيس نميرى وظلت تقارير وكالات الأنباء ومصادر المعلومات المختلفة تترى علينا حتى عصر ذلك اليوم حيث انطلق الرئيس والوفد المرافق إلى القصر وبقينا السفير وشخصى معهم حتى ساعة متأخرة من الليل.. وما كانت تخفى علينا تحركات

متواصلة وتقارير وأوراق تنقل للرئيس ومشاورات ما انقطعت كان عمادها الأخ محمد الشربينى – وكان يعمل فى رئاسة الجمهورية وقتها – وتردد أن رسالة جاءت من القيادة الجديدة فى السودان إلى القيادة المصرية تتمنى لو بقى الرئيس لبعض الوقت ثم سمعنا أن القيادة رأت أن تعرف ما يقترحه الرئيس نميرى فى البرنامج الذى سيعلن لاحقاً وقيل أنه لخصها فى الإبقاء على الحكم الإقليمى والالتزام بالتوجه الإسلامى وعدم المساس برجاله وأعوانه الذين قدموا للوطن عصارة جهدهم إلى غير ذلك من أمور.

## عودة الوفود للسودان (وبقاؤنا بالقاهرة):

عدت للفندق بعد يوم عسير وطويل لأجد نفسى محاصراً بين أعداد كبيرة من أصدقائى وأخواتى من السودانيين والمصريين الكل يتساءل عما حدث وعن الرئيس وعن الاتجاه الذى قصده فيما انخرط الصديقان أحمد سلمان وشدو وغيرهما من أعضاء اللجنة القانونية يذكران بأن التكامل بوصفه معاهدة لا يمكن أن تتأثر بما حدث تلقائياً وإن إلقاءه يتم وفق أسس وإجراءات معروفة وأن على الجميع مواصلة أعمالهم. على أن الجو السياسى الماثل كان لابد أن ينعكس على أداء اللجان سيما وبات أمر اجتماع المجلس الأعلى فى حكم المؤجل.. وقد نصحنا الجميع بالعودة حالما يجرى فتح مطار الخرطوم.. وللحقيقة والتاريخ أبدى عدد كبير منهم مشاعر طيبة وحتى أصدقاؤنا المقيمون بالقاهرة ومن الذين لم يكونوا يحملون لمايو مشاعر تعاطف عبروا عن تبرمهم لما حدث باعتباره انقلاباً عسكرياً وكانوا يريدونها ثورة شعبية خالصة تقود زمامها فصائل المجتمع المدنى على غرار أكتوبر.. بل أن بعض الإخوان من القادة المناوئين لمايو المتواجدين بالقاهرة حملونى رسائل للرئيس نميرى وفاءاً لأواصر زمالة قديمة ما أفسدها تباين الاجتهاد واختلاف الرؤى. وظللت إلى جانب الرئيس نميرى أياماً لا أفارقه تحدثنا كثيراً حول تقييم الأحداث وشهدت بعضاً من مناشطه واستقبالاته وعرفت كثيراً من حصيلتها مما أتجاوز عن ذكره هنا.

أعلن عن فتح مطار الخرطوم وأذيع أن كثيراً من قادة مايو تم التحفظ عليهم فى سجن كوبر وأن الأمور بدأت تأخذ طريقها للاستقرار.. وجاء فى إعلان تشكيل مجلسى القيادة ومجلس الوزراء ما يدعو للارتباك والحيرة.. إذ لاحظ الكثيرون أن المجلس العالى الانتقالى ( مجلس القيادة ) كان يتكون من أعمدة النظام المايوى فى القوات المسلحة وأن عدداً من أعضائه عرفوا بالحماس لمايو كما كانت تربطهم علاقات مودة خاصة وصداقة مع الرئيس نميرى على الصعيد الشخصى فيما جاء تشكيل مجلس الوزراء خليطاً مربكاً ضم عدداً من المستقلين (التكنوقراط) إلى جانب الذين عرفوا بموالاتهم لليسار إلى جانب آخرين من المنسوبين للتيار الإسلامى.. عزز من الحيرة التصريحات الباكرة لبعض الوزراء التى كانت تنم عن تباين التوجه وانعدام التنسيق.

سافر العشرات من الذين أتوا للمشاركة فى لجان التكامل التى تقوم بالإعداد لاجتماعات المجلس الأعلى للتكامل عائدين إلى السودان فيما انطلق البعض إلى غرب أفريقيا - فى مقدمهم الأخ أبيل الير - لحضور اجتماعات قارية كان أعد لها سلفاً.. انطلقوا وكلهم حريص على الوقوف على حقيقة الأحداث التى كانت تشهدها بلادنا وخلا فندق شيراتون من أعداد كبيرة من نزلائه ولم تعد باحاته التى تحولت إلى محط للنقاش الصاخب تضم إلا نفراً قليلاً:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وأثرنا - الصديقان إسماعيل الحاج موسى وعبد الرحمن أبو زيد البقاء بالقاهرة لبعض الوقت نتدبر أمرنا ونكون إلى جانب الأخ الرئيس فى تلك الظروف عسانا نقوم بجهد متى توافرت لنا الوسائط والوسائل التى يمكن من خلالها تفتيد أباطيل المذمة التى أخذ البعض يسوقها ضد مايو ورجالها.. سيما وأننا كنا نتابع بكثير من الأسى والإشفاق أن أكثر الأصوات صخباً وادعاءاً للبطولات كانت أكثرها استخذاء وانتقاعاً بمايو. ظللنا نتدارس الخطط لما ينبغى عمله مستقبلاً ومتى كان الجو مواتياً للعودة.. كان د. عبد الرحمن بنهجه

الأكاديمى يرى أنه من الأفضل المبادرة بإصدار كتاب على نحو عاجل تتناول فيه بموضوعية بعيدة عن مدارك الزيف والتهريج ما أنجزته ثورة مايو للوطن.. وكنت والصديق إسماعيل نرى أن الاقتراح جدير بالاعتبار ولكنه يبدو أمراً مؤجلاً فى تلك الظروف التى تتطلب تحركاً سياسياً - سريعاً وبصيراً.. وانخرطنا نلتقى ببعض الأخوة المثقفين المصريين ورجال الصحافة بأسلوب فردى إلى جانب بعض الشباب السودانيين المقيمين بمصر من الذين كانت مايو بالنسبة لهم محط أمل ورجاء وعكفت من جانبى على إجراء تقييم متكامل لتجربة التكامل لرفعها للمجلس الأعلى فور تكوينه يتضمن التوصية بالإبقاء على صيغة التكامل بفكره ونهجه مذكراً بالإيجابيات التى يتعين دعمها والسلبيات التى ينبغى تفاديها مع التذكير بأن قيادة التكامل فى الجانب السودانى إنما جاءت تسميتها من النظام السابق لاعتبارات بينها الاعتبار السياسى ( ذلك أن الأمين العام ومساعده من الجانب السودانى كانا من قيادة النظام الذى استهدفه التغيير) رأيت أن أقوم بتسليمها لرئاسة الجمهورية المصرية مجدداً الاقتراح بأن يطال التغيير القيادات دون الأهداف والهياكل والمناهج إذا رؤى ذلك بينما احتفظت بالنسخة عسانى أقوم بتسليمها للقيادة الجديدة مشفوعة بكتاب استقالتى، وقد اتخذت تلك الخطوة بعد مشورة الرئيس نميرى واستلهام نصوص الميثاق واللوائح التى تجعل من الأمين العام كادراً يتبع للبلدين ويتم تعينه بواسطة المجلس الأعلى.

تعاقبت الأيام وصارت الأنباء تترى عن بعض الإدعاءات الزائفة التى تطال "أمانة" قادة مايو وفسادهم ورأينا فى بقائنا خلال تلك الظروف أمراً قد يساء تفسيره لدى الكثيرين.. واذكر أن شقيقى عمر ظل على اتصال دائم بى من الخرطوم يحثنى على المجئ حتى لا يظن البعض أن بقاءنا هناك هو تهرب من مواجهة الحملة التى يشتد أوراها.. وفى واقع الأمر لم يعد هناك ما يستوجب بقائى بالقاهرة بعد أن أعددت خطاب " التسليم والتسلم " لمهمتى فى التكامل وبعد أن رأينا أن نضع جهدنا مع الآخرين فى الداخل وقد أيد الأخ الرئيس ما اعتزمنا.

## قرار العودة للسودان:

وهكذا قررنا ثلاثتنا السفر إلى الخرطوم بعد أن استعرضنا كل "السيناريوهات".. اشترينا بعض الحقائب الصغيرة أودعنا فيها احتياجاتنا العاجلة تحسباً لاعتقالنا من المطار.. وتواثر علينا بعض الأخوة من المصريين مودعين حتى جاءنا الأخ محمد محجوب – السكرتير الصحفى للأخ الرئيس – يحمل رسالة منه يدعونى للبقاء فى موقعى وعدم التقدم باستقالتى حتى لا نتهم تاريخياً بتصفية التكامل.. " دعنا نترك الأمر ليقدموا على تلك الخطوة لتمثل إحدى الخطايا التى يحفل بها تاريخهم ". وأشهد الله لم يكن أقسى على نفسى وقعاً من هذا التوجيه!

فارقنا القاهرة بعد أن خصنا العاملون فى أمانة التكامل بمصر يتقدمهم اللواء عبد الستار أمين بوداع عاطفى حار.. وكأنما تصور البعض أننا كنا نقتحم المجهول جراء توارد أنباء الاعتقالات وضروب التجنى على زملائنا من قادة النظام فأجهش بالبكاء.

كان مطار الخرطوم غاصاً بأفراد القوات النظامية وبعض المسئولين.. وما أن هبطت الطائرة حتى بادر اثنان منهم باقتياد زميلى إسماعيل وعبد الرحمن إلى داخل المطار فيما صحبنى الإخوان عز الدين وبخارى – المسئولان عن التكامل بالخرطوم – إلى قاعة كبار الزوار. ولما أبديت تصميماً على معرفة مصير الزميلين والاطمئنان عليهما جاءنى السيد بشير مالك – مدير السجون وقتها وصهر الصديق إسماعيل – يؤكد أن أسئلة روتينية ستطرح عليهما قبل السماح لهما بالتوجه إلى أهلهما.

عدت إلى دارى أعانى رهقاً شديداً وما أن تفرق الأهل والأصدقاء الذين هبوا للترحيب بى حتى أويت إلى فراشى عسانى أصيب شيئاً من الراحة جراء الضغط النفسى الهائل والجهود التي بذلناها خلال الأيام السابقة والحافلة بكل ما هو مثير.. ظللت ليلتى كلها أرقاً مسهداً لا أكاد أن أتصور بقائى فى موقعى وسائر الرفاق والأصدقاء يعيشون وراء القضبان.. وفى الساعات الأولى من

صباح اليوم التالى جاءنى بعض الأخوة الاتحاديين يتقدمهم د. أحمد السيد حمد وبعض الزملاء يعبرون عن إصرارهم على بقائى فى موقعى لأن تركه يعطى دفعاً للحملة الضاربة التى تتعرض لها العلاقات بين مصر والسودان والتى تستهدف تصفية التكامل.

بقيت فى دارى وأرسلت من يخطر الأخوة فى أمانة التكامل بأننى سأظل فى الدار لبضعة أيام نتيجة للإرهاق الشديد ( وكانت الاتصال التليفونى معطلاً نتيجة لعطب كثير الحدوث).

## استدعاء من المجلس الانتقالي الحاكم:

رحت فى إغفاءة فإذا بابنى يخطرنى بأن سكرتيرى (الأستاذ قريب الله عبد الرحمن) بانتظارى لأمر هام، بدا الرجل مضطرباً وهو يذكر أن رسولاً جاء من المجلس العسكرى الانتقالى (القيادة الجديدة) يطلب حضورى مساء نفس اليوم، وأنهم حاولوا عبثاً الاتصال بى فعجزوا جراء عطل الهاتف. وأن الغرض من اللقاء سيكون التعرف على التكامل ومساره مناهجه على نحو من يقين.. بدت على دلائل الدهشة وعبرت شكى فى دوافع تلك الدعوة لكن الأخ قريب الله سارع إلى إخطارى بأنه شعر من الحديث الذى دار ببينه وبين الضابط الموفد بأن القيادة تبدو غير راضية عن العبارات التى تساق لمصر والمناداة بتصفية التكامل وأنهم بصدد القيام بحملة معاكسة لوقف تلك الموجة الظالمة.. وقد قبلت الدعوة تأسيساً على ما سمعت.

توجهت إلى مقر القيادة العامة التى كانت تخضع لحراسة مشددة وإجراءات أمنية صارمة.. لمحت الأخ مهدى الفكى الذى تمت تسميته محافظاً جديداً لبنك السودان وبرفقته عدد من الخبراء الأجانب يتوجهون إلى داخل المبنى الرئيسى للمجلس.. وبقيت فى الصالة المؤدية إلى قاعة المجلس لبعض الوقت.. وهالنى أن رأيت بعض أعضاء مجلس القيادة – وبعضهم كان من تلامذتى وآخرين تربطنى بهم عرى مودة – يهرعون فرادى لتحيتى وبدا

بعضهم بادى الحرج للظروف التى وضعتهم فى ذلك الموقف حتى جاء المشير عبد الرحمن سوار الدهب الذى عانقنى بحرارة وأمسك بيدى إلى داخل قاعة الاجتماع التى كانت تعج بأعضاء المجلس وبعض كبار الضباط.. وشاء أن يقدمنى إلى للحاضرين بعبارات رقيقة ذاكراً أنهم أرادوا أن يكون اللقاء بمثابة "تنوير" للحاضرين حول التكامل.. تاريخه مناهجه.. إنجازاته والأشواط التى بلغها والتى يتعين عليه بلوغها.. وجاء حديثى الذى استغرق نحواً من أربعين دقيقة شاملاً لتلك الأمور.. أعقبه نقاش واسع حول المشروعات ووسائل تمويلها.. ثم ذكرت بأننى كنت أعددت مذكرة تحوى كثيراً من النقاط التى جرى التحدث بشأنها إلى القيادة في مصر قبل حضورى باعتبارها طرقاً من العملية وباعتبار الرئيس مبارك رئيساً للدورة الحالية للمجلس الأعلى للتكامل وأردفت أنه من الأفضل أن ينظر إلى التكامل بأنه فكرة نابعة من ضمير الشعبين وأن التعاون سيبقى ما بقى الشعبان.. وعليه فإن الحفاظ عليها يعتبر فى نظرى واجباً يوجب استئناف العمل دون المساس بالمقاصد والغايات وأن التبديل يمكن أن ينظر إليه فى إطار الهياكل..

وكررت القول بأن أمر قيادة التكامل إنما جاء بتعيين سياسى.. وختم الاجتماع بعبارات ثناء حارة قدمها رئيس المجلس مع رجاء بأن أبقى في موقعى حتى يبت فى الأمر تحاشياً لحدوث فراغ وبعث النبأ الذى جاء مصوراً لوسائل الإعلام موضحاً أن الاجتماع تم بمبادرة ودعوة من المجلس العسكرى الانتقالى للتعرف على عملية التكامل المصري - السودانى التى سيجرى بشأنها حوار مع الجانب المصرى... وكان نقلاً أميناً للواقعة.

بدأت ممارسة أعمالى وفاءا لما طلبت إلى كثير من الجهات التى أشرت إليها سابقاً وانتظاراً لأعمال المراجعة لقيادة الجهاز وإعفائى تبعاً لذلك والذى يجئ بعد مشاورات مع الطرف الآخر باعتبار أن تعيينى صادر منهما معاً.

## المظاهرات تطالب برجوع نميري وحرق العلم المصري:

* شهدت تلك الفترة أحداثاً غريبة ومؤسفة إذ عملت بعض الجهات إلى تصفية حساباتها مع مصر باعتبارها كانت حليفاً وسنداً لمايو وباعتبارها رفضت الاستجابة لمطلبها الداعى بتسليم الرئيس نميرى رغم علمها المسبق باستحالة ذلك اعتماداً على تقاليد مصرية راسخة ومرعية بشأن اللجوء السياسى.. ولعل هذا الظن بأن مصر كانت ظهيراً رئيسياً لمايو دفع حركة التمرد فى جنوب الوطن كى تجعل فى مقدم مطالبها إلغاء مؤسسات التكامل وإلغاء اتفاقية الدفاع المشترك مع مصر والتى كانت تظن أنها وقعت أساساً لحماية النظام فى السودان، رغم أن مسار الأحداث كذبت عملياً ذلك الافتراض الخاطئ حين لم تبادر مصر إلى التدخل فى الأحداث الأخيرة بالانتصار للنظام، فضلاً عن أن التكامل أتى سابقاً من الناحية التاريخية لاتفاقية الدفاع المشترك التى أبرمت عام ٧٦ بينما أبرم أول اتفاق للتكامل عام ١٩٧٤.. وربما رأت تلك الجهات فى التصريحات التى أدلى بها السادات غداة القضاء على محاولة الانقلاب الشيوعى أن "ميثاق طرابس" ولد بأسنانه، مضافاً إلى ذلك إقدام القيادة الليبية على إجبار الطائرة التى كانت تقل بعض قادة المحاولة على تغيير مسارها والهبوط فى بنغازى دليلاً على ما ذهبت إليه. ولكن ذلك كله كان سابقاً لاتفاقية الدفاع المشترك التى أبرمت فى ظروف أخذت أسباب الاستقرار تتجذر فى أروقة النظام بعد القضاء على ما عرف "بغزو المرتزقة" وسحق معارضيها بقوة سودانية خالصة.

كان صخب المظاهرات لا ينقطع.. واستمرت المسيرات القاصدة إلى سفارة مصر وقنصلياتها المواجهة لمقر التكامل تترى، فتوزع علينا ما تيسر من عبارات القذف والسباب ليس أقلها "العمالة".. بينما بلغ الغلواء والحماقة ببعض الجماعات إلى إنزال العلم المصرى عنوة من ساريته وإحراقه فى قلب الخرطوم. وهو حدث قل أن شهدته بلادنا منذ الاستقلال.. هذا فى الوقت

الذى تواتر فيه انعقاد ندوات عالية الصخب والضجيج تسوق المذمة لمصر ومايو.

كنا لا نهتم كثيراً بتلك المجموعات المسيرة والمواكب التى نعرف من يقف وراءها تنظيماً وتسييراً. وكان د. أحمد السيد حمد ووصفى ورهط من زملائه الاتحاديين يكثرون من التردد على دار التكامل معربين عن التضامن والمؤازرة داعين إلى تفويت الفرصة على الجماعات التى يعرفونها ويعرفون مقاصدها.. وكانت بعض الوفود والرسل تترى من شمال الوادى معبرة عن التضامن داعية إلى الصمود.. وأذكر أن الزعيم المعارض الكبير إبراهيم شكرى انفعل إلى حد البكاء وهو يشهد ضروب التجنى التى تساق إلى بلاده ومحاولة البعض لدفع العلاقات إلى مدارك التردى السحيق فانكب على مكتبى يسطر رسالة إلى قادة النظام وأخرى إلى النائب العام يدعوه إلى الانتصار لأحكام العدالة والقانون بتقديم المتحفظ عليهم للقضاء وحمايتهم من الافتراءات الفجة التى تساق إلى بعض منهم وفى طليعتهم صديقه الرشيد الطاهر واكب ذلك حملة عاتيه قادها إعلام اليسار المتطرف ضد مايو ورئيسها ومؤسساتها – وبينها بالطبع مؤسسة التكامل. ولما أيقنت أن إغلاق مؤسسات التكامل وتصفية أعمالها لم يعد أمراً ممكناً لاعتبارات تحكم ذلك من الوجهة القانونية تشطت جهود السلطة مع الحكومة المصرية بغية الوصول إلى تكييف قانونى يتيح لها اعتقال الأمين العام ومساعده.! إلا أن مصر ظلت تتآبى وتعارض أمر اعتقال الأمين والأمين المساعد لأنهما يتبعان لدولتين بينهما ميثاق يكيف وضعهما القانونى.. وظلت الرسائل متبادلة لأسابيع بين الطرفين ولكنا كنا نتلقى أنباء فحوى كل رسالة يبعث بها النظام إلى مصر من مظانه.. ظلت تلك الرسائل تأتينى من مصادر سودانية متعددة عبر صديق قديم فرقت بيننا الأيام فآبى إلا أن يكون إلى جانبنا فى ظروف الشدة هو الأخ الصحفى محمد أحمد عجيب – أمد الله فى عمره وكثيراً ما كنت أتلقى فحوى تلك المذكرات من مصادر أخرى!

## إرهاصات باعتقال قيادة التكامل.. ؟!

كانت الاتصالات فى هذا الشأن كتاباً مفتوحاً لا نسعى لبلوغ تفاصيلها ولكن التفاصيل كانت تدق أبوابنا طائعة معلنة عن دقائقها دون سعى منا أو توقع. وأخيراً يبدو أن اليأس أخذ بأسبابه إلى نفوس الساعين إلى تقويض التكامل حيث استوقفتنى حادثتان لا مناص من ذكرهما:

الأولى: حين جاءنى أبنى الأكبر أسامة - وهو شاب متحمس للفكر اليسارى يعنى بتاريخه ومقاصده تربطه صداقات مع كوادره ولعله ينتمى إلى بعض فصائله فى ساعة متأخرة من الليل لينبئنى ضاحكاً أنه عائد لتوه من ندوة عقدت فى قاعة البغدادى حول " قضية مياه النيل " كان طرفاها السيد الصادق المهدى رئيس حزب الأمة - ومحمد إبراهيم نقد - الأمين العام للحزب الشيوعى السودانى - وأن نقد داعبنى فى عبارات ودودة مناشداً إياى التخلى عن موقعى وتسليم مفاتيح مقر التكامل لوزير الداخلية دون إبطاء.. وفى اليوم التالى وأنا أهم بالانصراف من مكتبى بأمانة التكامل جاء سكرتيرى يحمل شريطاً سلمه إياه شخص لا يعرفه راجياً منى الاستماع إليه.. وبالفعل بدأت وبعض أعوانى الاستماع للشريط وهالنى أن أسمع نداءاً خشناً من زميلى القديم نقد والذى كانت تربطنى به علاقة مودة وتقدير يطالبنى فيه بإغلاق مكتب التكامل لأننى لست بحاجة إلى ذلك المرتب الذى اتقاضاه والتوجه إلى العمل فى " عصاصير " أهلى بأم روابه! كان لتلك الكلمات وقع اليم فى نفسى سيما وأن زميلى القديم يجردنى من أى دافع وطنى أو مبدئى ويلخص رأيه فى أننى اضطلع بذلك الدور سعياً وراء مغنم مالى اتقاضاه أجراً.. كأن الأخ تناسى مواقفنا الصلبة معاً ونحن نقتحم المخاطر على أيام الطلب فى الدراسة الجامعية.. ظلت هذه الواقعة تحز فى نفسى إلى أن التقينا بعد خروجى من الاعتقال التحفظى.. ذلك النوع من الاعتقال الذى ظل اليسار يلح على بطلانه ومجافاته لأبسط فروض العدالة فصار يمارسه حين واتته السلطة.

في ذلك اللقاء لقيت أخى وزميلى القديم محمد إبراهيم تقد الذى افتقدت، بصفائه وسجاياه التى عرفت، ودماثة خلقه وحديثه عالى التهذيب.

أما الواقعة الأخرى حملتها مجلة روزاليوسف المصرية والتى أفردت حملة عاتية على التكامل وأمينه العام خلال حوار زعمت المجلة أنها أجرته مع الدكتور محمد البشير حامد وزير الإعلام وقتها تحدث فيه عن فوقية التكامل (جرياً مع 'الموضة) وعن تبديد أموال الدولة خلال " الصرف البذخى" الأمر الذى أدى إلى اعتقال الأمين العام وحرمانه من السفر إلى خارج السودان حتى تتم محاكمته على هدى التهم الموجهة إليه!! كان وقع ذلك النبأ أليما على نفسي فعكفت على إعداد رد موثق يفند تلك الافتراءات (رأيت إيراد نصه ربطاً مع هذه الفصول) واعترف أن الرد كان حاداً فى بعض فقراته دون تجاوز لحدود اللياقة ولدهشتى تبطأت المجلة فى نشره.. انقضت أسابيع فاتصلت ببعض الأصدقاء هناك - ولعله أحمد حمروش - طالباً إليه إقناع الأخوة بنشر الرد ملمحاً إلى احتمال اتخاذ إجراءات أخرى تضمن انتصافى من الوزير والمجلة من الإساءة الماسة بسمعتى ولشد ما كان يؤلمني أن تتخذ هذه المجلة بالذات ذلك الموقف منى وقد كنت قبل ثلاثين عاماً أحد المترددين على مكاتبها وصالوناتها حيث كنت مسئولاً - ضمن واجبات أخرى بالسفارة - على شئون الإعلام حيث كنت أدلف إلى مبنى المجلة - المجاورة للسفارة - حيث نمضى ساعات سامرة وأوقات طيبة مع رهط من النخبة التى كانت تقوم على إصدارها! وقد تم النشر فعلاً على استحياء من ما بدا من طريقة إخراجه.

تلقيت اتصالاً هاتفياً من زميلى القديم وصديقى طه محمد طه - وكان وكيلاً للشباب الذى كان يقع ضمن منظومة وزارة الإعلام.. ينقل إلى دهشة الوزير مما جاء فى ردى عليه وأضاف أن الوزير - ويبدو أنه كان فى اجتماع لمجلس الوزراء- كلفه كى يؤكد لى أنه لم يقم بإجراء أى حديث صحفى مع مندوب من المجلة المذكورة بل أنه لم يتحدث قط لأى محرر فيها ووعد بأن ينفى ما جاء فيها جملة وتفصيلاً.

تبع ذلك حدث آخر.. إذ سافر شقيقى عمر إلى لندن فى مهمة تتعلق بأعماله التجارية التى قد تستغرق أسبوعاً فيما حدثنى.. وإذا بى أجده أمامى بعد يومين وقد سيطر عليه القلق.. دفع إلى بنسخة من جريدة "العرب الدولية" التى يصدرها بلندن الأستاذ أحمد الصالحين الهونى وقد أفردت حيزاً لخبر فى صفحتها الأولى زعمت أنه منقول عن صحيفة الأهالى المصرية – الناطقة باسم التجمع اليسارى- نشرت فى عددها الصادر بتاريخ ١/٨/ ١٩٨٥ " نقلاً عن مصادر سودانية " أنه تم تسليم مذكرة سودانية للسلطات المصرية تطلب إعادة النظر فى التكامل بعد اعتقال أبو بكر عثمان أمين عام التكامل وتعيين عبد الستار أمين بدلاً منه دون الرجوع إلى مصر.. مما أثار احتجاج القاهرة.. نظراً لأن أبو بكر جرى تعيينه بواسطة برلمان وادى النيل الذى يشارك فيه البلدان. وكانت أجهزة الأمن قد ألقت القبض على أبو بكر عثمان بصفته أحد أعوان الرئيس السابق جعفر نميرى.. وقد وجهت إليه عدة اتهامات منها تخريب الاقتصاد السودانى والإضرار بسيادة البلاد وتبديد المال العام".

وأسفت مرة أخرى لصدور هذا النبأ الكاذب والمختلق والمنقول عن صحيفة اليسار فى مصر والذى كان من همنا فى أيام التكامل الباكرة مد الجسور مع تلك الفصائل وإقناعها بالمشاركة فى مسيرته ودخول برلمان وادى النيل.. وزاد من ألمى أن الاحتفاء بذلك الخبر جاء فى صحيفة "العرب الدولية" التى يحررها الأستاذ الصالحين الهونى والذى ربطتنى وإياه علاقة ود قديم منذ كان وزيراً للإعلام وفى عهد الملك إدريس حيث كانت علاقات ليبيا والجزائر مقطوعة وجاء قائداً لوفد بلاده لمؤتمر الثقافة الأول بالجزائر. على أن العجب قد تلاشت دواعيه بعد أن علمت لاحقاً من صديقى السفير أحمد محمد نور أن الصالحين جاء إلى السودان وكنت غائباً عن أرض الوطن وأنه بدا حريصاً على لقائى كما علمت لاحقاً وأن النشر ما كان مقصوداً وأنه فوجئ به.. ولم يكن ذلك غريباً بالنسبة لى فقد لمست طيلة عملى سفيراً فى ليبيا مدى الحب الذى يكنه أبناء هذا الشعب الشقيق لبلادنا ومشاعر الوفاء والعرفان الذى يحسونه إزاء أبنائه خاصة وأن الأجيال المتعاقبة ظلت تتوارث أحداث المواقف المشرفة

لرجال الجيش السودانى خلال الحرب العالمية الثانية فى حماية أملاكهم وأعراضهم.

## في لفتة وفاء الوفد الليبي الزائر بطلب لقائي:

وعزز ذلك أمر قابلته بتأثر عميق.. إذ هبط بلادنا فى أعقاب ٦ أبريل بأسابيع قليلة وفد ليبى رفيع المستوى برئاسة الرائد عبد السلام جلود وعضوية الأخ على التريكى وآخرين وكان أن سأل الرائد جلود مستقبليه من رجال العهد الجديد عن أحوالى.. وهو أمر سارع العميد رمضان حمو الذى كان ضمن وفد المستقبلين إلى نقله لى مساء نفس اليوم.. ثم عاد الأخوة الليبيون للاتصال بمكتبى بالتكامل طالبين لقائى. وأذكر أننى – وبإلحاح من الأخوة عز الدين حامد والراحل أحمد صلاح بخارى – توجهت إلى فندق هيلتون حيث كانوا يقيمون فإذا بى أجد عددًا من أعمدة العهد الجديد من السياسيين والصحفيين – وبينهم بعض زملائى القدامى – يتحلقون فى ردهات الفندق وينخرطون فى مناقشات ساخنة.. وما أن شاهدونى حتى علت الدهشة وجوههم: بل طرق مسمعى تساؤل من بعضهم عن الأسباب التى حالت دون اعتقالى حتى ذلك الحين وتساءلوا عن ما إذا كان لقائى بنائب الرئيس الليبى – الرائد جلود ينطوى على مرامى سياسية تآتى فى إطار تحرك جديد "للسدنة"

صعدت إلى جناح الرائد جلود الذى كان يجلس إلى رجل يلتحف ثوباً أبيض فوق الزى الوطنى المعروف.. كان بادى الحيوية يستغرق فى حديث هامس مع جلود، علمت فيما بعد أنه السيد زين العابدين الهندى.. السياسى الألمعى والذى صار نائباً لرئيس الوزراء فيما بعد.. بدا لى أنهما كان يبحثان أموراً هامة لم أكن أريد أن أكون سبباً فى تكديرها فتراجعت أبغى الانصراف ولكن الأخ جلود أصر على بقائى ولما تمنعت انتحى بى جانباً وتساءل فى همس بأن إخوانك فى ليبيا يريدون الاطمئنان على أحوالك وعما إذا كنت أحتاج عوناً لمواجهة الظروف التى استجدت فشكرته على طيب مشاعره ثم دلفت إلى حيث يقيم الأخ التريكى وأمضيت معه بعض الوقت وانصرفت

مودعاً. كان ما ترامى إلى مسامعى من تساؤل بعض النافذين من رجال العهد الجديد حول بقائى خارج السجن حتى ذلك الحين نذيراً بأن أمر اعتقالى بات وشيكاً وأن المكاتبات مع الطرف الآخر شارفت نهايتها. زاد من عنفوان ذلك التصميم زيارة قام بها الرئيس مبارك للسودان لساعات.. اتصلت بى مراسم القصر تدعونى للتوجه للمطار كى أكون ضمن المستقبلين باعتبار أن الضيف الكبير هو رئيس للجانب المصرى فى المجلس الأعلى للتكامل ريثما يتم تشكيل الجانب السودانى.. وكنت أعارض ذلك وأعتقد أن الرئيس المصرى سيقدر غيابى باعتبار أننى جزء من النظام الذاهب وأخيراً وبعد إلحاح من زملائي فى أمانة التكامل وتتابع الاتصالات من مراسم القصر ذهبت وشاركت فى تلك المناسبة الذى نقلت مراسيمها حية على الهواء.

ولم يطل بنا الانتظار لرد فعل ذلك.. إذ جاءنى فى وقت متأخر من الليلة التالية صديق كان عائداً لتوه من حفل أقيم على شرف أحد السياسيين المغتربين.. ضم نفراً من قادة النظام الجديد طرح الضيف دهشته لعدم اعتقالى ووافقه الكثيرون وبينهم النائب العام.. ثم جائنى بعد أيام من يحدثنى بأن الصديق ميرغنى النصرى – السياسى المعروف والذى لم يكن تولى مؤقعه فى مجلس رئاسة الدولة فى ذلك الوقت – انخرط فى جدال حاد مع النائب العام بمكتبه حول ما ترامى إليه عن نية لاعتقالى وأنه أفصح بصراحته وأمانته التى لا يخطئها كل من عرفه عن عدم موافقته على مبدأ الاعتقال التحفظى بتلك الكيفية والتى تطال الكثير من الأبرياء هو أمر يجافى أركان العدالة وأن فى ذلك تنكراً لكل ما ظل ينادى به بعض القائمين على السلطة لما كانوا ينادون به.

وأخيراً توجت لحظات الترقب بمقال فى مجلة الدستور اللندنية كتبه زميلى اليسارى القديم الذي ربطت بيننا يوماً أواصر الصداقة والمحبة منذ أن كنا فى حنتوب ثم باعدت بيننا الأيام نتيجة وشاية أدرك بعدها بفترة طويلة بطلانها. كتب ذلك الرجل – وكان ذا مكانة أثيرة لدى رجال التجمع القابض على العهد الجديد- ناعياً على " الانتفاضة" بعض القصور والتراخى، مضيفاً أنه لا

يكاد يصدق أن انتفاضة قامت لدك صروح مايو وتعقب آثارها تتجاوز اعتقال شخصين اثنين على وجه التحديد.. هما فضل الله محمد رئيس تحرير جريدة الصحافة والذى كان المدافع والمبشر لأفكار مايو وشخصى الضعيف باعتبارى كنت كاتب خطابات نميرى و"مزين أباطيله".. وشدد على أن اعتقالنا أضحى ضرورة إن لم يكن محكاً لمصداقية "الانتفاضة".

## إصرار علي الاستقالة:

كنت طيلة تلك الفترة نهباً تتنازعنى المشاعر القلقة ونوازع الحيرة والأسى. كنت شقياً والله ببقائى فى موقعى استجابة لضغوط أنصار التكامل والعلاقة مع مصر وانتصاراً للمبادئ والأفكار التى اعتنق، وما يمكن أن يفسر عليه ذلك الموقف فى نظر الكثير من العامة سيما وأن زملائى من قادة مايو يعيشون وراء القضبان من جهة، وبين اتخاذ موقف محدد كامتناعى عن الذهاب إلى العمل وما يترتب عليه ذلك من خطوات تيسر مراميهم لتصفية الأمانة وإعفاء وتشريد للعاملين معى فى أمانة التكامل وإضعاف للجانب المصرى الذى لم يبادر إلى تصفية التكامل باعتباره أمراً تحكمه القوانين.. كنت أرى أن اتخاذ مثل هذه الخطوة من شأنها أن تيسر على بعض أطراف السلطة مقاصدها فى تصفية التكامل.. أخذت أبعث بالرسائل تباعاً للأخ المشير سوار الدهب أطلب إعفائى لأسباب خاصة وضيقاً بالتجنى والتهافت التى تفيض بها الحملة الصحفية الفجة التى تستهدفنى.. وكنت المس فى سلوك المشير سوار الدهب ورفاقه حرصاً شديداً على الإبقاء على صيغة التكامل والعلاقة المتميزة مع مصر فى الوقت الذى كان فيه الجهاز التنفيذى – أو بعض أفراده – يعملون بنفاذ صبر واضح لتصفية التكامل والإساءة إليه فى تصريحات صحفية ما انقطعت

اتصلت بالمشير سوار الدهب تليفونياً متسائلاً عن مصير الاستقالة التى بعثت بها إليه ولكنه كان يطمئننى بأنها قيد البحث حتى ضقت ذراعاً فبادرت يوماً بالاتصال بأحد زملائه فى المجلس الأعلى للقيادة طالباً تحديد موعد لى للقياه عسانى استعين به على تحقيق ما أريد، ولكن الرجل بادرنى مستنكراً ما

ذهبت إليه قائلاً " كيف تقول ذلك يا سعادتك.. إن العين لا تعلو على الحاجب... أنا الذى أسعى إليك عوضاً أن تسعى أنت إلى " شكرته على مشاعره الشخصية مذكراً بفروض البروتوكول التى تحكم وضعه..

## أخيراً.. تم اعتقالنا:

ما أن وضعت سماعة الهاتف حتى أخطرنى سكرتيرى بأن اثنين من رجال المباحث ينتظرون فى مكتبه ملتمسين الإذن لمقابلتى.. ولما كنت فى تلك الأيام على اتصال دائم بتلك الجهة التى كانت تتسقط أنباء بعض الغرقى السودانيين فى الشلال بادرتهم قائلاً بأنه لا جديد حول الأمر وأننا ما زلنا بانتظار أنباء من مصر. لاحظت ارتباكاً وحيرة بدت مظاهرها واضحة عليهما تمتم أحدهما معبراً عن حيرته هامساً إلى زميله بإخطارى بجلية الأمر. وإذا بالآخر ينهى إلى فى أسلوب مهذب أنهما مكلفان بمهمة أخرى.. واستطرد بعد لحظات صمت.. أنهما مكلفان باعتقالى من قبل النائب العام. ولم يفتهما التذكير بأنهما إذ يقومان بهذه الخطوة تنفيذاً للأوامر التى صدرت إليهما يعبران عن تقديرهما واحترامهما لى شخصياً، وأن بوسعهما اصطحابى إلى دارى لترتيب أمرى ولقاء من أشاء من أهلى وأصدقائى قبل الذهاب إلى إدارة المباحث توطئة لنقلى إلى سجن كوبر حيث كان على أن أمضى فترة اعتقال. كان الأمر مفاجئاً لى فطلبت إليهما إبراز أمر الاعتقال فذكرا أنهما لا يحملان أمراً مكتوباً وإنما يمتثلان لأمر صادر من المصادر العليا.. عجبت ودهشت.. تمنعت وطلبت إليهما العودة لرؤسائهما وموافاتى بأمر مكتوب من النائب العام.. انصرفا وعادا بعد فترة وهما يحملان ذلك الأمر. ذهبت معهما إلى دارى حيث كانت أسرتى كلها مجتمعة استعداداً لإحياء مناسبة أسرية فى اليوم التالى ثم انصرفت معهما إلى مبنى المباحث حيث قابلنى الأخوة باحترام لم أخطئه وظللت معهما انتظاراً لتكملة الإجراءات فإذا بأحد الجنود يدخل لإخطار رئيسه بأنهم لم يعثروا على مكان إقامة الأخوة فضل الله محمد وإبراهيم عبد القيوم وأن التقصى جار حول مكان تواجدهما.

وما هى إلا دقائق حتى أحضر مساعدى الأخ عز الدين حامد مخفوراً حيث تم نقلنا إلى سجن كوبر.. ولدهشتنا لم تتخذ أية إجراءات إدارية ولو روتينية وتم اقتيادنا عبر ممرات وأبواب إلى بهو السجن الفسيح فإذا بنا وجهاً لوجه أمام رفقائنا القدامى من قيادات مايو وقد تحلقوا جماعات يتسامرون ويتصايحون ويتقافزون فى حيوية ومرح.. ومثلما كنا سعيدين بلقيا رفقاء النضال وشركاء المصير كانوا حفيين بالقادمين الجدد.. شعرت براحة شديدة افتقدتها دهرا وأخذت إلى غرفة تضم الأخوين د. عبد الله أحمد عبد الله والراحل محمد عبد القادر عمر لتكون مقراً لإقامتى وظللنا نتسامر مع زملائنا حتى ساعة متأخرة من الليل ولدهشتى كان إلمامهم بما يجرى خارج أسوار السجن – خاصة على الصعيد السياسى والاجتماعى يفوق كل ما كنا نعرف.. ثم استغرقت فى نوم عميق لم أفق من إلا على نداء زميل جاء يخطرنى بأن إذاعة الصباح أذاعت نبأ اعتقال أمين التكامل ومساعده مشفوعاً بإيضاح من النائب العام فى خطوة غير مسبوقة بأنه ليست هناك تهمة جنائية ضدهما وأن أمر الاعتقال لا صله له بالتكامل وأن مبعثه هو المشاركة فى السلطة ونشر الإيضاح صبيحة اليوم التالى فى الصحف وهى مكرمة ظللت أذكرها للأخ عمر عبد العاطى النائب العام ولا أدرى حتى هذه اللحظة أن كانت تلك الصيغة جاءت نتيجة لاتفاق مع الجانب المصرى أم بمبادرة منه.

## أيامي في المعتقل:

كانت أيام السجن خصبة وعذبة ودافئة.. عامرة بدواعى المتعة لقينا فيها معاملة حسنة وكانت سلطات السجن تزودنا بالصحف الصادرة يومياً وبجهاز تلفاز. كانت فرصة نستعيد خلالها أياماً شهدت فيها خطونا على مر السنين ونستشرف المستقبل الذى كان مليئاً بكل ما يدعو للتفاؤل.. وكانت زيارات الأهل والأصدقاء والرفاق تحمل لنا كل ما يشد من أزرنا ويقوى من عزائمنا.. وكان المايويون قد قرروا قبل ذلك عقد اجتماعات راتبة فى المعتقل يناقشون خلالها تجربة مايو بكل سلبياتها وإيجابياتها.. انتصاراتها وإخفاقاتها على نحو

موضوعى وتناول علمى.. وقد قدم كل وزير أو مسئول أعمال وزارته ومنجزاتها وإخفاقاتها.. كما جرى نقاش واسع حول العمل السياسى ومناهجه ودور قوات التحالف ومكامن ضعفها وقوتها.. كانت حصيلة باهرة للتجربة المايوية تم نسخها وتبويبها تبع ذلك محاولات لرسم ملامح عامة لما ينبغى عمله مستقبلاً. ولعل حصيلة تلك الجلسات الطويلة والمضنية تشكل مستنداً هاماً وموثقاً يعين الدارسين للتجربة المايوية بأسلوب علمى محايد.. ولعل المشاركين فى تلك الجلسات كانوا يتطلعون أن تكون مناراً لهم وهم يعاودون العمل مستقبلاً.

ومضت أيام الاعتقال وشهوره تتوالى.. انصرف البعض إلى محاولة تزجية الفراغ فى عمل نافع على النحو الذى تقدم بينما انصرف آخرون إلى ممارسة هوايات حرموا منها طويلاً مثل القراءة وزرع بعض الأزاهير حول زنزانات المعتقل وتعهدها بالسقيا والرعاية.. وكان الكثيرون يمضون بعض الوقت فى مباريات بريئة فى لعب الوست.. وممارسة المشى.. وكنا ننتظر حلول المناسبات الوطنية والتاريخية فنحيي ذكراها بأسلوب متفرد.. أذكر أن ذكرى مولد الرسول حلت ونحن بالمعتقل ونقرر إحياء تلك المناسبة حيث جرت الاستعدادات ووضع برنامج يتضمن محاضرة عن معانى الذكرى قدمها الصديق الرشيد الطاهر تبعها بعض الأهازيج الدينية ثم قراءة "المولد".. وما أن بدئ فى قراءة المولد الذى اعتادت طائفة معينة فى بلادنا قراءته دائماً حتى تبادل كل الحاضرين قراءته من الذاكرة وترديد فقراته.. مشهد محير كان شاهداً على أن جل الحاضرين كانوا ينحدرون من أصول طائفة معينة (الختمية). وجلس خلالها آخرون والحيرة تتملكهم يحدقون فى وجوه زملائهم فى دهشة.. لم يكن أولئك الآخرون سوى شريف التهامى ويوسف بشارة.. وإلى جانبهم جيمس طمبره ولوارانس وول وداك داي.!

وكنا نلتمس العزاء دوماً بأن النظام الجديد –ظل ينقب فى كل ملفات مايو وأضابيرها دون أن يجد تبريراً لتلك الحملة الجائرة التى طالت مايو وقائدها ورجالها ودعاوى الفساد التى روجت لها دهراً – لم يجد فى سجل مايو

ما ينهض دليلاً على فساد مايو.. بل أنه عجز عن توجيه أية تهمة جنائية إلا لنفر يعد على أصابع اليد الواحدة بين المئات الذين تعاقبوا على قيادتها في شتى المرافق طيلة ستة عشر عاماً من عمرها. سيظل ذلك فخراً لنا جميعاً.. ووقف الخلق جميعاً يتابعون لاحقاً رئيس النظام السابق الذى تفننوا فى إيراد أوجه ثرائه وقادة نظامه وهم يكدون ويكابدون فى سبيل توفير لقمة العيش.. وجاء التقدير من المنصفين لأولئك الذين أعطوا الوطن من عافيتهم وجهدهم فى نكران ذات جزاءاً وعزاء.. حقاً أن الزبد يذهب جفاء!..كان التقصى الدقيق بل والتحري الذي قادته السلطة الجديدة نفسها أثبت طهارة أولئك الرجال.. حسبهم شرفاً تلك الشهادة الذى ذاع أمرها بين الناس.. كل الناس.

ولعل من المواقف التى ساقت السكينة إلى نفسى ذلك القول الرصين الذى أفضى به الأخ الجزولى دفع الله لاحقاً فى محفل جليل شهده نفر من قادة البلاد فى مختلف العهود حين ذكر أن كل الذين تعاقبوا على الحكم كانوا ينشدون خيراً لهذا الوطن، وأنهم بذلوا ما وسعهم الجهد للارتقاء به « من أتى على ظهر دبابة، أو أثر انتفاضة، أو عن طريق صندوق الانتخاب » – على حد قوله. كنت حفياً بهذا القول، لا لأنه يتفق وقناعاتى، ولكن لأنه صدر من رجل كان على قمة الحكومة التى أطاحت بمايو والتى دأب نفر من أعضائها وأزلامها على تجريد مايو من كل مكرمة إلى الحد الذى طالبوا فيه بمحو سجل الحقبة المايوية من تاريخ الوطن.. كانوا يتبعون ذلك بمشاهد وأفعال ظلت محل تندر الناس فى مجالسهم. ولم يكن يشقينى فى واقع الأمر رد الفعل ذاك العنيف الذى استغلت فيه النوايا الطيبة لشعبنا العظيم الذى كان يهفو دائما لاستشراف مستقبل أكثر اشراقا ، ولكن سرعان ما كان يخيب مسعاه "فيبكى" واقعه ويستبد به الحنين إلى حد "البكاء" على عهود أنكرها وضاق بها، حتى خيل للمرء أن المشهد السياسى المعاصر يمثل "مناحة" متصلة و"بكائية" لا تنقطع. ولكم تمنينا أن يرشد ذلك الشعور حتى لا يقع الشعب أسيراً لماضيه بل النظر إليه وفق تقويم موضوعى رزين ( لا مجال فيه للانفعال ) يستصحبه فى صنع مستقبل يقوم على التفاعل الواعى مع متغيرات العصر وما يشهده من تطور فى مجال العلم

والتكنولوجيا، وتحريك الطاقات الكامنة بشرية كانت أم طبيعية لصنع التقدم على أرضه وفق أساليب عصرية وعلمية تقوم على رعايته قيادات شابة تعكس واقع العصر وتدرك مكوناته وأدواته ترود المستقبل الذى تصنعه والذى سوف تعيشه، دونما إنكار لدور الآباء الذين أدوا دورهم والذين باتوا يمثلون مخزوناً للتجربة لا غنى عنه فى استلهام المشورة، دون تحميلهم ما لا طاقة لهم به من جهد تنفيذى لا تسعفهم قدراتهم على الاضطلاع به.

## مايو.. وقفة تأمل خاطفة:

لست هنا بصدد تناول التجربة المايوية على نحو من تفصيل.. ذاك أمر أرجئه لمناسبة لاحقة. ولكنى أقول خطفاً أن فترة عملنا تحت رايات مايو كانت نقطة فخار لنا جميعاً.. كانت فترة عامرة بالإنجاز، اعترتها بعض السلبيات شأن كل تجربة إنسانية.. على أن التاريخ يشهد بأنها استقطبت أعداداً لا يستهان بها من خيرة العلماء والمثقفين والنقابيين وقادة المجتمع المدني خلال مسارها الطويل.. كان لبعضهم الفضل في الإنجاز الذي تم. وإذا كان البعض يحلو له أن يقسم مايو إلي ثلاثة مراحل، المرحلة التي سيطر خلالها اليسار على اعنتها (٦٩-٧١)، ثم المرحلة التي تولي أمرها القوميون والمثقفون الوطنيون وجماعات التكنوقراط (٧٢-٨٢) وأخيراً المرحلة التى تسللت إليها بعض العناصر الوافدة التى كانت تتخذ موقفاً تاريخياً مناوئاً لمايو ونهجها إلى بعض المراكز الحساسة فى السلطة ومراكز صنع القرار ومكنت لأفكارها ونهجها من الذيوع فى دأب مثابر.. خفى وذكى، فإن التأمل العميق يؤكد أن العناصر الغالبة من أهل اليسار والوسط واليمين عملوا جميعًا تحت ظلال مايو خلال تلك المراحل، وأن قراءة للوثائق المتاحة اليوم أمام كل باحث تنهض دليلاً على ذلك حيث كتب بعض الاقتصادين المحادين .

ثورة مايو أدركت منذ قيامها أن الحلقة الأضعف في البنيان الوطني هي حلقة الإقتصاد – حيث تدهور الإقتصاد في نهاية الستينات بدرجة كبيرة

أدت إلي انخفاض درجة النمو وتفاقم الاختلال في ميزان المدفوعات، وارتفاع المديونية وتناقص مردودات التنمية، والاختلال في توزيع الدخل القومي وبداية الهجرة من الريف إلي المدن، وتدني مستوي الخدمة والوهن الذي أصاب الإقتصاد الكلي يضاف لذلك مشكلة الجنوب التي ظلت تستنزف موارد البلاد المالية. ادركت مايو منذ البداية أن الاستقرار السياسي هو المناخ المناسب للتنمية والنهضة الإقتصادية، فكان اعلان ٩ يونيو ١٩٧٠م اتبعته باتفاقية أديس أبابا لتحقيق الاستقرار السياسي كمقدمة أساسية لتعزيز التقدم الإقتصادي واكتساب ثقة المجتمع الدولي، ثم رفعت شعار تنمية الريف باعتُبار أن الهجرة من الريف للمدن تجفف منابع الإنتاج وتلقي بثقلها على الخدمات المحدودة في المدن سيما أن الفقر والتخلف كان مرده ضعف التنمية ووهن البنية التحتية للبلاد وأن أداء الاستثمارات والتنمية في البلاد، يرتبط بالتخطيط السليم والتوجيه نحو تمتين أوعية الإنتاج والاستفادة من الخبرات الأجنبية.

بهذا المفهوم تم وضع خطة " خمسية " أمتدت لخطة " سبعية " لاستكمال العديد من المشروعات التى أسهم فيها الشعب إلى جانب الإفادة من خبرات قطر مثل الاتحاد السوفيتي وقتها ذي التجارب العديدة في مجال التنمية والتخطيط المركزي، وتضمنت الخطة مشاريع الرهد والسوكي والطاقة الكهربائية والطرق عابرة الولايات ومشروع قناة جونقلي والأذاعات ومحطات التلفزيون الولائية، وجامعة الجزيرة وجامعة جوبا وتأهيل السكة الحديد وسائر وسائط النقل الأخرى ومشاريع السكر العملاقة ومصانع الغزل والنسيج والصناعات، كما هدفت إلي تعزيز القدرات الذاتية للاقتصاد السوداني وربطه بعجلة الإقتصاد العالمي، وفتح المجال أمام الاستثمارات الأجنبية، وتشجيع رأس المال الوطني مع تعظيم دور الدولة في التخطيط وفي تملك وسائل الإنتاج للمشاريع الصناعية والخدمية كبيرة الحجم، ووطدت علاقتها الإقليمية والدولية، ثم اتجهت نحو استغلال مسوحات البترول لاكتشاف منابعه في السودان وكان لها فضل استقدام شركات بترولية كبرى مثل شيفرون نجحت في اكتشاف البترول واستخراجه.. وطبقت نظام الحكم الإقليمي لتقصير الظل

الإداري وتمليك الجماهير سلطة لتسيير أمورها والتمتع بعائدات مرافقها..وعملت على تكثيف الخدمات كما عظمت من دور الشركات كقنوات لتوزيع الثروة.

لقد واجهت مايو في بعض المراحل أقسي الظروف المحلية والإقليمية والعالمية وكثيراً من الضغوط لإثنائها عن طريقها الاستقلالي، وعانت من الحصار الاقتصادي أحياناً وفتور العلاقات مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، فكان أن وسعت من سوقها الخارجي وسنت قوانين الإستثمار المحفزة للاستثمارات الأجنبية، وجعلت من التنمية هما قوميا. كانت مايو تلتزم أسلوب التنمية المعتمدة على النفس واستنفار الناس وتعبئة الموارد الوطنية الهادفة إلي بناء هيكل إنتاجي للاقتصاد على نحو مستقل. وقد ظلت هذه القضية هاجسا للعهد ولازمة بارزة في أدبها السياسي لسنوات أذكر أن شعار احتفالنا بالعيد الثالث عشر للثورة أتخذ أمر "الثقة بالنفس والاعتماد على النفس.. والاعتداد بالنفس" شعاراً له..

قلت سابقاً ليس من همي استعادة منجزات مايو على نحو من تفصيل أو أجراء تقييم شامل لها... ذاك أمر نحتكم فيه لذمة التاريخ. على أن الذي يحسب لذلك العهد أنه أنطلق نحو مراميه بأسلوب بصير تمثل في أجراء مسح شامل ودقيق لواقع السودان، وتشخيص العوائق التي أقعدت به عن بلوغ آماله، والوسائل التي ينبغي الأخذ بها انتشالا للوطن من وهدته.. جاء ذلك عبر مؤتمر قومي جامع تم عقده في سنوات الثورة الأولي دعى إليه المئات من بنات وأبناء شعبنا ضم فصائل المجتمع من العلماء والأكاديميين والنقابين والمهنيين والسياسيين وسائر قوي المجتمع المدني. جاءت توصياته خلاصة لدراسات ومنافشات حرة وثرة، أجملت في ميثاق العمل الوطني الذى أصبح هاديا ومرجعاً للعهد الجديد.. وقد جاء ذلك الميثاق متضمناً فصولا ستة تتناول تاريخ السودان وأصول شعبه وأعراقه ومراحل تطوره، ومفهوم العهد الجديد للحرية والاشتراكية والديمقراطية ومعالم الثورة الإقتصادية والاجتماعية التي تروم، والوحدة الوطنية ووسائل بلوغ مراقبها، إلي جانب صون مبادئ الثورة وركائز

السياسة الخارجية.. لقي ميثاق العمل الوطني السوداني ترحيبا كبيراً في بعض الدوائر المعنية بالعمل السياسي داخلياً وإقليمياً وجري تصنيفه ضمن الوثائق السياسية الرصينة في مجال العمل الوطني يصعب تجاوزه. واكب ذلك عمل جاد في مجال الخدمات تمثل في مجانية التعليم والعلاج واستنفار الجهد الشعبي لتشييد المدراس والمعاهد وتطوير الريف ومحاربة العطش، وتكثيف حملات محو الأمية وإتباع سياسة خارجية رشيدة ومتوازنة.. وإبتداع مناهج في العمل الوطني أثمرت عن بروز قيادات شابه ومتمرسة، وارتياد الحكم الإقليمي وتحقيق الوحدة الوطنية عبر حل مشكلة الجنوب وتحقيق المصالحة على "علاتها"، والانتصار لقضايا المرأة حتى تسنمت أرفع المواقع السياسية والتنفيذية ومكاسب للعمال والمزارعين حين خصتهم بخصص مؤثرة فى سائر المؤسسات التشريعية والسياسية والتنفيذية.

على أن كثيراً من الناس كانوا يعيبون على مايو غياب الديمقراطية والتزام نهج ديكتاتوري في كثير من الظروف وهذا صحيح. ولكن علينا أن نتذكر أن الديمقراطية ليست هدفا في حد ذاتها، فالهدف الذي وضعته مايو نصب أعينها هوالنهوض بالوطن وإحداث التنمية وتوفير متطلبات المواطن في العيش الكريم، كانت الحرية مطلبا لكثير من الشعوب وبينها السودان – وقد بلغتها بفضل تضحيات تلك الشعوب.. ثم واجهتها مشاكل التنمية وتدارك مظاهر التخلف والعمل على تحقيق آمالها في التطور والتقدم.. وهكذا انتظمت المنطقة بكاملها خلال فترة الخمسينات والستينات والسبعينات فلسفة تعظيم الديمقراطية يوجهها " الاجتماعي " وقد التزمت من الوسائل لبلوغ تلك الغاية ما جعلها تنتقص أحياناً من بعض الحقوق السياسية لمواطنيها، والتزام وسائل صارمة تمكنها من حشد القوي في معركة البناء والتنمية، وكما قيل بحق " فالديمقراطية وحدها ليست هى المعيار للحكم على النظم بكاملها هناك ظروف استثنائية أحياناً - فالفرنسيون يحتفلون بالثورة الفرنسية العظيمة كل عام مع أن الدماء التي اريقت فيها تجاوزت كل الدماء التي سفكت في كل الديكتاتوريات في العالم ولكن الناس ينظرون إلي الحصيلة ". الديمقراطية هي النظام الأمثل

دون شك.. وربما اختلف الناس حول مناهجها ومواصفاتها وظروف ممارستها إلي غير ذلك ولكن لا أحد ينكرها كمبدأ سام. وهذا ما جعل مايو تضعها ضمن الاسم الرسمى للدولة اعترافاً بها واحتفاءاً.

قلنا أن التجربة ما كانت منزهة عن السلبيات.. كانت تعتري المسيرة بعض الأخطاء وربما الخطايا نتيجة للانفلات والشطط أحياناً، وعدم الالتزام "بالميثاق" والنظم والشوري أحيانا أخري.. لقد طرحت في نهاية العهد المايوي تساؤلات عن الأسباب المباشرة لتهاوي النظام.. كثيرون يعتقدون أن تقسيم الجنوب كان يمكن معالجته بأسلوب يعتمد على استمزاج رأي المؤسسات وكان يمكن أن يتم تعديل الاتفاقية إذا رؤي الأخذ بموضوع التقسيم وفقا للقواعد والإجراءات المنصوص عليها في الاتفاقية، كذلك كان يمكن طرح موضوع التشريعات الإسلامية على المؤسسات وأخضاعها لنقاش موسع ودراسة آثارها المتوقعة على الوحدة الوطنية عوضا عن فرضها على الوطن بكامله بأسلوب منفر.. بل كان يمكن انفاذها إذا اتفق على ذلك على نحو متدرج على غرار ما التزم فى اللجنة التي كونت لتنقية القوانين من المواد التي تتعارض مع أحكام الشريعة.. بل كان يمكن إرجاء تطبيق "الحدود" بعد مرحلة من التبشير الي مرحلة أخيرة بعد التمهيد. وبالمثل يري البعض عيوبا شابت أمر المصالحة الوطنية التي تمت على نحو مفاجئ وفي غيبة المؤسسات التي لم تكن عليمة بالمرتكزات التي قامت عليها أو المناهج التى جرى الاتفاق حولها، مما أدي إلي تبرم بعض الكوادر القيادية التي واكبت نشوء التنظيم السياسى وشاركت في وضع مقاصده وأهدافه وأدبياته، واستبدالها بكوادر أخرى "مهجنة" من داخل التنظيم في كثير من الأحيان، لا تتمتع بالخبرة في ممارسة العمل الجماهيري رغم تمتعها بالسيرة الحسنة والنزاهة.. ويشير الكثيرون إلي مجافاة النهج الديمقراطي والنأي عن ثقافة الحوار يوما بعد يوم والتزام أساليب القهر عوضا عن الحوار فيما تبدي في ماسأة الأستاذ محمود محمد طه الذي ظل يبشر بأفكاره علانية لعشرات السنين، وفقاً للسنة الإسلامية الحميدة التي تحض على "الاجتهاد" لقد عرف العمل السياسي في بلادنا وفي العالم الثالث تصفيات الخصوم أحياناً بدعوى حمل

السلاح للإطاحة بالنظم القائمة، أو التدبير لذلك، ولكنها ما عرفت تصفية الناس لمجرد الاختلاف حول أفكارهم ومعتقداتهم.. لم يشفع للرجل تاريخه ولا شيخوخته ولا دعوته المستمرة لمخالفيه الرأى إلى حوارات علنية مفتوحة ولا تصديه يوماً لأفكار خصوم النظام فى كتبه ومداخلاته.. وهو أمر جعل الكثيرين يعتقدون أن مايو كانت " مطيه " أو أداة لتصفية حسابات بين الخصوم النافذين فى السلطة على تلك الأيام مع الرجل.

يري البعض أن القيادة كانت في آخريات أيامها لا تعير اهتماماً للتحركات الخفية التى كانت تتم بين صفوف الخصوم بغية الانقضاض على السلطة عن طريق العصيان المدنى – بعد أن برهن العمل العسكرى عن فشله على نحو ما عرف " بالغزو الخارجى" أو غزو المرتزقة، كما أن مايو تعجلت الصدام مع حلفائها الإسلامويين فى توقيت خاطئ – وفى تجاف لأى أسلوب تكتيكى – حيث كانت تجد فيهم عوناً فى تخذيل الاضرابات والتحركات المناوئة وحرمانها من " الإجماع " الذى يعتبر أداة رئيسية فى إنجاح أى عصيان مدنى – نتيجة لنفوذهم وسط المهنيين.. وهو عين الخطأ الذى ارتكبه الرئيس السادات حين دخل فى صدام مع سائر القوى السياسية فى مصر وزج بقادتها من مفكرين ونقابيين ومهنيين ورجال دين ( مسلمين ومسيحيين) فى أعماق السجون فأضحى ظهره مكشوفاً بلا حليف أو ظهير حتى انتهى به الأمر إلى تلك النهاية المفجعة.. لعل مايو نهلت من نفس الكأس الذى عرف " بالثقة المفرطة " Over Confidence.

على أننى لست ميالاً كثيراً إلى الأخذ بما تردد فى إلحاح بأن عناصر نافذة داخل السلطة كانت تعمل بحذق لدفع مايو إلى تلك المهاوى عن طريق إشاعة جو من التوجس وعدم الثقة بين أطراف النظام ومناصريه، ومد الجسور الخفية مع قيادات المعارضة بل واستلهام العون والسند والتدبير من دوائر خارجية كانت زيارة بوش " الأب " عنواناً لها.

أليس غريباً أن تكون بعض انجازات مايو الباهرة ذاتها ضمن أسباب سقوطها؟ إن حل مشكلة الجنوب أفسده الأسلوب العقيم الذى أتبع فى أمر إعادة تقسيم الجنوب أياً كانت مبرراته ودواعيه، وميثاق العمل الوطنى الذى كان هادياً للثورة ودليلاً حدد مقاصدها وأهدافها ومراحل عملها أفسده التجاوز البين والتزام النهج الذى انتهى بما يعرف "بقوانين سبتمبر"، بكل ما عابها من عجلة فى الإقرار وتهافت فى الصياغة وتطرف فى التنفيذ. والمصالحة الوطنية – رغم سموها وجلال مقصدها – لم تناقش داخل الأجهزة للتعرف على بواعثها فى تلك المرحلة والأسس التى قامت عليها.. والتضامن العربى الذى حقق السودان إنجازات تاريخية فى ساحاته أجهز عليه " ترحيل الفلاشا " بأسلوب غامض ومريب فوجئت به جل القيادات المايوية التى زلزلت المفاجاة كيانها ؛ سيما وكان ذلك أمراً خطيراً على تلك الأيام حيث كان السماح بهجرة اليهود إلى داخل إسرائيل يمثل أحد المعايير التى تحدد بها الدول العربية مواقفها إزاء الدول الأخرى.. خلافاً لما هو ماثل على أيامنا هذه.. أيام الاستباحة والانكفاء العربى الذى صار فيه بعض القادة يترددون فى الانتصار لقضايا أمتهم ويستخذون أمام تهديد الكبار.. فبدا بعضهم مغواراً أمام قومه، خواراً أمام الأجنبى.

كانت مايو فى أخريات أيامها كالتى نقضت غزلها بعد قوة أنكاثاً مما أشاع مشاعر الأسى والإحباط فتقاعست كوادرها عن الإنتصار لها فى ساعات المحن على نحو ما تبدى فى "مسيرة الردع "، تلك الكوادر التى عرفت بالبأس والدربة فى مقارعة الخصوم على نحو ما جرى فى محاولات سابقة كانت أكثر خطراً وأجل شأناً من القشة التى قصمت ظهرها فى أبريل ٨٥.

على أن ما تقدم لا ينال بحال من حصيلة الإنجاز الباقى والمشهود الذى خلفته مايو خلال مسارها الطويل، ولا يعنى أننا – وكنا ضمن كتائبها – لا نتحمل جزءاً من مسئولية الإخفاق أحياناً.. على العكس فإننى شخصياً سأظل معترفاً بذلك وفخوراً فى نفس الوقت بالعمل تحت رايات مايو، وسأظل مؤمناً بأن مايو تعد فى بعض جوانبها من أكثر فصول تاريخنا المعاصر إشراقاً.. لقد

طرحت مبادئ سامية.. رفيعة ونبيلة، لن يطالها تعاقب الأحداث والمتغيرات الهائلة التى رانت على عالم اليوم.. كانت مايو حلقة فى منظومة عهود ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية بسنوات. طرحت فكراً جديداً فى ساحات العمل الوطنى.. آمنت مايو به وتبنته.. تصدت للإستعمار بشتى مظاهره التقليدية والحديثة وأدواء التخلف الاجتماعى فى الداخل والتى كانت همًا للخريجين حين أنشأوا مؤتمرهم، نادت بالعدالة الإجتماعية واستشراف مجتمع الكفاية والعدل، التزمت بتحقيق الديمقراطية وفق ضوابط وشروط ارتضتها، عملت على إحداث نهضة وفق تخطيط علمي لبناء المصانع والبنى التحتية والسدود وتسليم الأقاليم سلطات فى تسيير أوجه الحياه وتطويرها.. التزمت بعدم الانحياز وتصدت لأداء دور مؤثر خاصة فى محيطها العربى والأفريقي، حتى جمعت يوماً بين رئاسة منظمة الوحدة الأفريقية ورئاسة لجنة الحكماء ورئاسة لجنة التضامن العربى بل رئاسة مجلس الأمن والانتقال بجلساته إلى الأرض الأفريقية تكريماً للقارة السمراء وإبرازاً لقضاياها العادلة والمشروعة.

مازالت تلك المبادئ التى طرحتها تلك المنظومة – وبينها مايو – ماثلة وعزيزة فى وجدان الشعوب رغم تبدل الظروف وانحسار دور المنظمات الدولية التى أودعتها الشعوب آمالها وأمانيها والتى عبرت عنها مواثيقها، ورغم انهيار دور النصير والظهير المتمثل يوماً فى الاتحاد السوفيتي، وغياب القيادات التاريخية الملهمة.. ما زالت المبادئ باقية. لخص البعض الموقف على نحو بديع استرجعه فى ما يلى "بتصرف":

- أن الإستعمار انحسر فى سائر البقاع بشكله القديم ولكننا نقول أمر "الحرية" يظل مطلوباً ومرغوباً.
- أن الإشتراكية تداعت أركانها واندكت قلاعها ولكننا نقول أن أمر "المساواة" يظل مطلوباً ومرغوباً.
- أن التضامن والتوحد توارى تحت تيار التجزئة والتفتت ولكننا نقول أن أمر "التكامل والوحدة" يظل مطلوباً ومرغوباً.
- أن عهد التخطيط المركزى للتنمية وتسليم الشعوب وسائل إنتاجها تضاءل ولكننا نقول أن أمر "العدالة" يظل مطلوباً ومرغوباً.

- أن زمن "الخاصية" والذاتية فى زمن العولمة ينحسر ولكننا نقول أن الإحساس الدائم "بالهوية" والتذكير بها يظل مطلوباً ومرغوباً.

ستظل تلك المبادئ النبيلة باقية فى وجدان الشعوب تتوارثها الأجيال وتعمل على إنفاذها وتدارك ما عجز الكثيرون عن إدراك مراسيها كاملة.. ولكن حسب مايو ورصيفاتها شرفاً أجر المحاولة وجسارة التصدى وسلامة النهج وطهارة المسار. عمل المايويون ما أبطرهم نجاح، ولا أفزعهم إخفاق يبدو سمة لكل جهد بشرى.. إنهم يعتزون بمايو ويعترفون بعثراتها وسلبياتها.. والتاريخ كتاب مفتوح وحكم عدل. وبهذه المناسبة كم تمنينا – ونحن نتنسم عبير السلام وتباشير إرساء الوحدة الوطنية – لو قمنا ببعث دعوة هامة وهادفة أطلقها البعض يوماً – عالية وداوية – حول ضرورة إعادة كتابة تاريخنا المعاصر منذ الاستقلال على هدى من الوثائق وصحيح الأسانيد – يقوم عليه نفر العارفين والعلماء والمؤرخين المنزهين عن نوازع الهوى والغرض، لتبيان المنجزات التى حققتها بلادنا والدور الذى اضطلعت به العهود التى تعاقبت على حكم البلاد، وتنقيتها من كل ما شابها من أضاليل وأباطيل.. فلكل عهد بصمات وحسنات ولكل عهد هفوات وكبوات. لعل ذلك يكون إضافة لسجلنا الحضارى وتاريخنا الوطنى وملهماً للأجيال الصاعدة فى مسعاها نحو تحقيق آمال شعبنا ومقاصده فى خلق المجتمع الذى تعمل لبلوغ مراقيه.

**أما بعد:**

لقد حق لقطار الذكريات أن ينهى مساره بعد رحلة طوت عقوداً خمسة، توقف خلالها فى " محطات " قليلة ومتواضعة، متجاوزاً " محطات " حفلت بالإثارة والمتعة، وذلك لضمور مغزاها أحياناً، أو لانفلات كثير من وقائعها من ثنايا الذاكرة فتناثرت تفاصيلها مع تعاقب الأيام وتباعد السنين حتى " أضحت زجاجاً لا يعاد له سبك ".

وختاماً دعونا نطوى صحائف الذكريات ونردد في تأمل:-

والمرء يفرح بالأيام يقطعها          وكل يوم يُدنِى من الأجَلِ

# ملاحق وإضاءات

# ملحق

## الرعيل الأول من الدبلوماسيين

## تم التعيين ١٩٥٦ حسب الدرجات الآتية

## سفراء سنة ١٩٥٦

| | |
|---|---|
| ١. محمد عثمان ياسين | أول وكيل لوزارة الخارجية |
| ٢. خليفة عباس | نائب لوكيل الخارجية |
| ٣. أمين احمد حسين | |
| ٤. عوض ساتي | |
| ٥. جمال محمد أحمد | السفير |
| ٦. د. إبراهيم أنيس | |
| ٧. محمد حمد النيل | |
| ٨. يوسف مصطفي التني | |
| ٩. بابكر الديب | |

## وزراء مفوضين لسنة ١٩٥٦

١. رحمة الله عبد الله

٢. د. عثمان الحضري

٣. د. بشير البكري

٤. محجوب مكاوي

٥. أمير الصاوي

٦. عثمان عبد الله حامد

٧. عباس الدابي

٨. عمر عبد الحميد عديل

٩. صادق أحمد المصطفي

١٠. الباقر سيد محمد

١١. يعقوب عثمان

## مستشارين سنة ١٩٥٦

١. محمد احمد ياجي
٢. فخر الدين محمد
٣. أحمد صلاح بخاري
٤. محمد ميرغني مبارك
٥. عبد الكريم ميرغني

## سكرتيرين أوائل سنة ١٩٥٦

١. فضل عبيد
٢. محمد عبد الماجد أحمد
٣. حسن محمد حسن
٤. النور علي سليمان
٥. عبد الله الحسن الخضر
٦. صلاح الدين هاشم
٧. عز الدين شبيكة
٨. الأمين محمد الأمين
٩. الباقر عبد المتعال

## سكرتيرين ثواني سنة ١٩٥٦

١. حامد محمد الأمين
٢. أحمد الطيب البدوي
٣. صلاح بابكر زروق
٤. مصطفي مدني
٥. أبو بكر عثمان محمد صالح
٦. كمال البكري
٧. إسماعيل أبو بكر المليك

## سكرتيرين ثوالث ١٩٥٦

١. حسن الأمين البشير
٢. أبو بكر عثمان محمد خير
٣. علي احمد سحلول
٤. عبد العزيز النصري
٥. محمد عثمان شندي
٦. محمد عثمان محمد العوض
٧. أمين مجذوب عبدون
٨. بشرى حامد جبر الدار

## ملحقين صحفيين بدرجة سكرتير ثاني سنة ٥٦

١. حسن محمد الأمين
٢. سر الختم السنوسي
٣. معتصم البرير
٤. صلاح أحمد محمد صالح

## رئاسة وزارة الخارجية لدى إنشائها عام ١٩٥٦

- الوكيل العام: السيد محمد عثمان يس
- نائب الوكيل الدائم: السفير خليفة عباس العبيد
- مساعد الوكيل (شئون سياسية ): الوزير المفوض أمير الصاوى

## الأقسام والإدارات:

- القسم الاقتصادي:

السيد محمد خوجلى (وزير مفوض)
السيد على احمد سحلول (سكرتير ثالث)

- القسم القنصلي والإداري:

السيد الصادق أحمد المصطفى (وزير مفوض)

السيد محمد على باشا (سكرتير أول)

- قسم المؤتمرات والمعاهدات:

السيد عباس الدابى (وزير مفوض)

السيد فضل عبيد (سكرتير أول)

- القسم السياسي:

السيد عبد الكريم ميرغني (مستشار)

السيد مصطفى مدنى (سكرتير ثاني)

السيد أبو بكر عثمان محمد صالح (سكرتير ثاني)

- القسم البروتوكول

السيد فخر الدين محمد (مستشار)

السيد أحمد حسن مطر (سكرتير أول)

- قسم الإعلام ( ملحق بالقسم السياسي):

السيد منصور أحمد الشيخ (مستشار)

السيد سر الختم السنوسي (سكرتير أول)

السيد أمين بابكر ( درجة سكرتير ثانى)

- المكتبة:

السيد حيدر أبو بكر الحلاب

- الحقيبة الدبلوماسية:

السيد حسين سيد أحمد

• السكرتارية:

السيد خضر محمد أحمد الشريف (سكرتير الوزير)

**الشئون الإدارية والمكتبية:**

السيد عبد الله وقيع الله

السيد حاج التوم حسن

السيد عبد الرحيم أبو بكر

السيد محمد إبراهيم

السيد خضر خلف الله

• الشئون الحسابية:

السيد سيد أحمد الصائغ (مديراً للإدارة)

• شئون الخدمة والموظفين:

السيد منصور حسن (مديراً للإدارة)

• الكبانية والاتصال:

محمد المصرى

الحاج عبيد

• إلى جانب عدد من إخواننا العمال حيث كان العم الجاك كبيراً للسعاة، ومحجوب أقدم السائقين.

## أول سفارات ومفوضيات للسودان بالخارج عام ١٩٥٦

- تم اختيار عدد من الشخصيات لتولى منصب " سفير " باشر أربعة منهم مهام رئاسة بعثاتنا بالخارج وهم السادة: عوض ساتى – إبراهيم أنيس – محمد حمد النيل – يوسف الثنى – بابكر الديب ( لفترة قصيرة ) فيما تولى السيد خليفة عباس مهام نائب الوكيل الدائم.
- تم إضفاء لقب سفير على عدد من الوزراء المفوضين للاضطلاع بمهام رئاسة بعثاتنا بالخارج. وجاء هيكل أول سفارات لنا بالخارج من الدبلوماسيين على النحو التالى (مضافاً إليهم الكتبة والفنيون والملحقون).

- **لنـدن:**

| | |
|---|---|
| السيد عوض ساتى | ( سفير) |
| السيد محمد ميرغنى مبارك | ( مستشار ) |
| السيد حسن محمد حسن | (سكرتير أول) |
| السيد حامد محمد الأمين | (سكرتير ثانى) |
| السيد حسن محمد الأمين | (سكرتير ثانى) |
| السيد محمد عثمان شندى | (سكرتير ثالث) |

- **القاهرة:**

| | |
|---|---|
| السيد بابكر الديب | (سفير) |
| السيد أحمد مختار | (وزير مفوض: للجامعة العربية) |
| السيد أحمد صلاح بخارى | (مستشار) |
| السيد حسن الأمين البشير | (سكرتير ثالث) |

- **أديس أبابا:**

| | |
|---|---|
| السيد يوسف مصطفى الثنى | (سفير) |

| | |
|---|---|
| السيد محمد كمال البكرى | (سكرتير ثاني) |
| السيد بشرى حامد جبر الدار | (سكرتير ثالث: قنصلاً بجمبيلا) |

- **موسكو:**

| | |
|---|---|
| السيد محمد حمد النيل | (سفير) |
| السيد صلاح عثمان هاشم | (سكرتير أول ) |

- **واشنطن:**

| | |
|---|---|
| السيد إبراهيم أنيس | (سفير) |
| السيد محمد عبد الماجد أحمد | (سكرتير أول) |
| السيد الأمين مجدوب عابدون | (سكرتير ثالث ) |

- **جدة:**

| | |
|---|---|
| السيد محجوب مكاوى | (وزير مفوض ) |
| السيد باشا بدوى | (سكرتير ثالث) |

- **العراق والشام:**

| | |
|---|---|
| السيد جمال محمد أحمد | (وزير مفوض) |
| السيد عز الدين شبيكة | (سكرتير أول) |
| السيد صلاح أحمد محمد صالح | (سكرتير ثاني) |

- **نيويورك: (الأمم المتحدة)**

| | |
|---|---|
| السيد يعقوب عثمان | (وزير مفوض) |
| د. محمد أحمد ياجى | ( مستشار ) |

- **باريس:**

| | |
|---|---|
| د. بشير البكرى | (وزير مفوض) |
| السيد إسماعيل المليك | (سكرتير ثالث) |

- **بون:**

السيد عثمان عبد الله حامد (وزير مفوض)

السيد عبد العزيز النصرى حمزه (سكرتير ثالث)

- **أثينا:**

السيد الباقر سيد محمد (وزير مفوض)

السيد محمد عثمان العوض (سكرتير ثالث)

- **نيودلهي:**

السيد رحمة الله عبد الله (وزير مفوض)

السيد الأمين محمد الأمين (سكرتير أول)

- **كراتشي:**

د. عثمان الحضرى (وزير مفوض)

السيد أبو بكر عثمان محمد الخير (سكرتير ثالث)

- **القناصل المقيمون:**

- **كمبالا:**

السيد عبد الله الحسن الخضر (سكرتير أول)

- **بيروت:**

السيد النور على سليمان ( سكرتير أول)

- **جمبيلا:**

السيد بشرى حامد جيرالدار (ملحقاً بسفارتنا بأثيوبيا)

- **الباقر عبد المتعال** اسمرا

## خطاب استقالة

## السيد الفريق أول / عبد الرحمن سوار الدهب

## رئيس المجلس العسكري الانتقالي

تحية طيبة،،،

لما كانت السياسة العامة للدولة قد اقتضت أن يتصدى لقيادة العمل العام خلال المرحلة المقبلة رجال من غير الذين تولوا مواقع سياسية متقدمة خلال العهد الماضي، ولما كانت ظروفي الصحية لا تسعفني للاضطلاع بمهامي علي النحو المرجو، فقد رأيت مناسباً أن أتقدم إليكم بكتابي هذا راجيا قبول استقالتي من موقعي كأمين عام للمجلس الأعلى للتكامل والذي جاء تأسيساً علي ترشيح من حكومة جمهورية السودان الديمقراطية في نوفمبر عام ١٩٨٢. وربما رأيتم ـ وبالطريقة التي ترونها ـ إخطار السيد رئيس جمهورية مصر العربية برغبتي هذه والتي تمليها أسباب شخصية بحتة.

وإنني لأحرص ـ أيها الأخ الكريم ـ أن تقدروا أن الذي يدفعني لذلك إنما هو تحسبي من أن يكون هذا الموقع القومي محلاً لتساؤل من أي جهة أو فئة قد تنعكس أثاره سلباً علي حساب هذا العمل التكاملي الجليل، وضني بهذا الموقع من أن يظل علي تصريف مهامه شخص في مثل حالتي الصحية الراهنة.

وختاماً أرجو أن تسمحوا لي أن اعبر عن تأثري للتقدير الذي ما أخطأته خلال لقائي بكم مؤكداً أنني سوف لا أدخر جهداً أملكه في سبل خدمة بلادي ودعم قضية التكامل حيثما كنت، وكيفما كانت الصيغة التي يستقر عليها الرأي بين دولتي التكامل.

ولكم وللأخوة أعضاء المجلس أسمى اعتباري،،

**أبو بكر عثمان**

**الأمين العام للمجلس الأعلى للتكامل**

**٨ يوليو ١٩٨٥م**

## استعجال

## السيد الكريم الفريق أول / عبد الرحمن سوار الدهب

لك التحية...

كنت قد عبرت لكم في مناسبات سابقة عن الضغط النفسي الشديد الذي ظللت أقاسيه خلال الشهور الماضية جراء حملة التشهير غير العادلة التي استهدفت الأمانة العامة لمجلس التكامل واستهدفتني شخصياً، وأوضحت لكم حينها عن رغبتي في الاستقالة من موقعي منذ فترة وتبيان الموجبات التي اقتضت تجاوز ذلك مراعاة لاعتبارات قومية ووطنية، في مقدمتها درء أية تخريجات أو تأويلات تمس التكامل والعلاقة بين شطري وادي النيل.

٢- أبعث إلي سيادتكم بنص ما أوردته صحيفة العرب الصادرة في لندن بتاريخ البارحة ـ ٢ أغسطس ـ نقلا عن صحيفة الأهالي المصرية.

هذا وقد اتصل بي أمس أصدقاء من الخليج ذاكرين أن نفس الخبر المنقول ظهر في صحيفة الأنباء الكويتية بتاريخ أول أغسطس الجاري.

٣- لعلكم تقدرون مدى الأضرار التي تحيق بي شخصيا وبأسرتي، بل وبالموقع القومي الذي رشحتني له بلادي يوماً والذي يغتر من فيه أن يكون بمنأى عن كل فطنة أو تشكيك.

ولست في موقف أستطيع معه اليوم نفي أو إثبات بعض محتويات النبأ والمنسوبة لمصادر سودانية مما ذكرت الصحيفة.

وإذا كان ما حدث قد تزامن مع انتهاء فترة تعييني المقررة أصلاً مما يوحي ضمناً بأن تركي للخدمة إنما جاء في هذا الإطار، وإذا توفرت لسيادتكم القناعة التامة بان ما يردد لا أساس له من الصحة، فأنني أترك لسيادتكم أمر صياغة القرار الخاص بتركي للموقع في ضوء المشاورات التي ترون.

مع خالص التقدير

أبو بكر عثمان محمد صالح

## الرسالة التي بعثت بها لمجلة روزاليوسف ردًا علي حديث وزير الإعلام

السيد/ رئيس تحرير مجلة روزاليوسف

تحية طيبة وبعد،،،،

قرأت بالدهشة كل ما ورد حولي في معرض الحديث الذي أجريتموه مع السيد/ محمد البشير حامد وزير الثقافة والإعلام السوداني في عددكم المرقم ٣٠٠٧ والمؤرخ ٢٧ يناير الماضي، وانتظرت طيلة الأسابيع الماضية عساني أجد استدراكاً يدل على أن خطأ ما ربما اعترى صدوره بتلك الصورة الضارة بسمعتي. واليوم أجدني مضطرا أن أوضح ـ تبيانا للحقيقة ودرءاً للمذمة عن نفسي ـ أن ما ورد بشأني في ذلك الحديث لا يستند إلي الواقع وأنه غير صحيح جملة وتفصيلاً.

ذكر سيادته في معرض إجابته حول الإفراج عن الأمين العام للمجلس الأعلى للتكامل ما نصه: " أن الإفراج لا يعني عدم إدانته ولكن يعني أن التهمة الموجهة إليه لا تستدعي اعتقاله؟ والتهمة الموجهة إليه هي الفساد والبذخ وتبديد المال العام لميزانية التكامل وهذا موضوع خطير في بلد فقير مثل السودان. وهو الآن ممنوع من مغادرة السودان ولا تزال محاكمته مستمرة.

أرجو أن أبادر بتوضيح الآتي:

أولا: تم اعتقالي في ٢٢ أغسطس الماضي اعتقالاً تحفظياً.. وقد أوضح السيد/ النائب العام السوداني في تصريحات صحفية أن الاعتقال قد تم لأسباب سياسية بحتة باعتباري تقلدت منصبا وزارياً في الماضي ونفي أن تكون هناك أية اتهامات جنائية ضدي.

ثانيا: لم يحدث قط ـ طيلة فترة اعتقالي وحتى اليوم ـ أن وجهت لي أية تهمة علي الإطلاق، ولم أمثل أمام أية لجنة تحقيق أو أتعرض لأية مساءلة.

وعليه خلافا لما أورد سيادته ـ فليست هناك بالتالي محاكمة مستمرة تجرى لي الآن.

ثالثا: لا علم لي وليس لدى سبب للعلم بأنني ممنوع من مغادرة السودان لأن هناك تهمة محددة ضدي أو أنني أمثل الآن أمام أية محكمة أياً كان نوعها.

لست أدري سبباً واحداً لإقحام موضوع التكامل في هذا الأمر ولو كان السيد / بشير حامد قد اطلع علي القوانين والنظم واللوائح التي تحكم مسار التكامل لتبين له الآتي:

أولاً: أن الأمين العام للمجلس الأعلى للتكامل ليس مسئولاً عن ميزانية التكامل والتي تتكون أطره من ثلاثة مؤسسات رئيسية لها استقلالها المالي والإداري التام ولكل منها أمر نفقة مسئول.

ثانيا: أن الأمين العام يقوم علي خدمة واحدة من هذه المؤسسات هي المجلس الأعلى بالإضافة إلي بعض الأمور التنسيقية البحتة بين المؤسسات وهو بهذا ليس جهة تنفيذية ولا متصرفاً في أموال التكامل التي تشكل ميزانية.

ثالثا: أن ميزانية المجلس الأعلى وأمانته يناقشها ويقرها المجلس نفسه ويجيزها برلمان وادي النيل وهما الجهتان المنوط بهما مراجعة الإنفاق في ضوء مراجعات داخلية ثم خارجية مشتركة للتأكد أن الإنفاق يتم وفقاً للأغراض المحددة والضوابط واللوائح الصارمة التي تحكمها. ومن ثم فلا يملك الأمين العام ـ حتى لو أراد ـ أن يبدد المال العام في غير مواضعه المحددة وإلا تعرض للمساءلة أمام المجلس الأعلى الذي يملك الحق ـ دون سواه ـ في مثل هذه الأحوال.

بقيت كلمة أخيرة... أنني شخصياً حين قبلت تولي هذا الموقع إنما كنت استجيب لنداء واجب قومي يتفق وقناعاتي التي نشأت عليها وقد عبرت عن

ذلك عشية اختياري لذلك الموقع بأنني انظر ذلك الاختيار باعتباره تشريعا لأداء رسالة قومية أتصدى لها بكل ما املك من إيمان وقدرة ولا اعتبره تكليفا وظيفياً.

وأخيرا أقول لسيادته في تواضع شديد إنني خدمت تحت علم بلادي ثلاثين عاما كاملة، عملت خلالها ولمدى ثمانية عشر عاما متصلة سفيراً ووزيراً كنت المتصرف الأول في أموال لا تعد موازنة أمانة " التكامل " بالنسبة لها إلا كما ضامراً لا يستحق الذكر، فما عرف عني قط أنني أسأت التصرف أو بددت المال العام أو أفسدت! أقول ذلك مذكر بأن الوثائق والسجلات تقف شاهداً وهي ميسورة وفي متناول اليد.

مع خالص الشكر والتقدير،،

## فهرست الجزء الثانى

# فى فضاءات التكامل (قريبا فى المكتبات)

الموضوع


- مقدمة التكامل.. تأملات وذكريات
- ميثاق طرابلس ورؤية استراتيجية للسودان حول مفهوم الوحدة (١٩٦٩-١٩٧٢)
- السودان ومصر وليبيا على طريق التكامل
- رحيل عبد الناصر وتداعياته على دول الميثاق
- انضمام سوريا لدول الميثاق وإعلان دولة الاتحاد
- انسحاب السودان وبقاؤه مراقباً تحت ضغوط دول الميثاق
- دستور الاتحاد.. سماته وقسماته ومواطن الخلاف
- تطور الأحداث (محاولة الانقلاب فى السودان وحرب أكتوبر) تلقى بآثارها على المحاولة
- **الفصل الثانى. فترة المنهاج (١٩٧٤-١٩٨٣)**
- السودان ومصر يعلنان منهاج التكامل بين البلدين "مقوماته وظروفه ودواعيه"
- تقييم لمسار تجربة المنهاج

**الفصل الثالث: فترة الميثاق (١٩٨٣-١٩٨٥)**

- ميثاق التكامل بين مصر والسودان ( أهدافه.. مناهجه ومؤسساته)
- حل مؤسسات التكامل على أثر تطور الأحداث بالسودان عام ١٩٨٥

**الفصل الرابع: فترة التيه**

- محاولات وندوات اجتماعية واقتحام ميدان العمل الحر خلال أيام الانتفاضة مناشط سياسية متفرقة
- انتهاء الفترة الانتقالية وعودة الأحزاب واستيلاء الجيش على السلطة

**الفصل الخامس:**

- تكوين قيادة تمهيدية للمايويين
- أزمة تواجه التنظيم حول التسجيل على نظام التوالى

- نميرى يعود والشعب يستقبله بجفاوة ومحاولات لرأب الصدع بين الفرقاء
- قيام تنظيم التحالف وقيام مؤسساته على نهج التوالى والبعض يجمد نشاطه

**الفصل السادس:**

- مقالات صحفية متفرقة تتناول الشئون السياسية والاجتماعية
- شواهد ووثائق وأسانيد

رقـم الإيـداع

٢٠٠٥/١٨٦٦٦

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977 - 209 - 131 - 3



المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

almaktabalmasry@hotmail.com

القـاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧

الإسكندرية: ٧ شـارع نوبـار المنشـية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

**وردت بعض الأخطاء الفنية رأينا أن نشير إلى بعضها تداركا وتصويبا..**

**مـــع الاعتـــذار.**

| الصفحة | الفقرة أو السطر | العبارة | التدارك أو التصويب |
|---|---|---|---|
| ٢٣ | الفقرة الاولى | كان للمناسبة دورا | كان للمناسبة دور |
| ٢٩ | الفقرة الاولى | يضطلع بجميع التبرعات | يضطلعون بجمع التبرعات |
| ٤٣ | الفقرة الثانية | بنك السودان | البنوك |
| ٤٥ | ٨ من أسفل | شرعة موسى | شركة إبراهيم |
| ٤٦ | الفقرة الثالثة | أحراش الخيوب | أحراش الجنوب |
| ٥٢ | أسفل الصفحة | يحث الرضا | بخت الرضا |
| ٥٣ | أول السطر | العاملين | العاملون |
| ٥٣ | منتصف السطر | الوجاج | ابوحاج |
| ٦٥ | منتصف السطر | دراستها اقتصادها | دراسة اقتصادها |
| ٦٦ | أول الفقرة الثانية | أنطلق بى أمبرالى مكتبه | أنطلق بى السيد أمبر إلى مكتبه المجاور |
| ٦٩ | الصورة | اداء القسم لرجال الصف الثانى | لبعض رجال الصف الثانى |
| | | عثمان القوصى | عثمان القوص |
| ٧٣ | الفقرة الثانية | المعلومه والمفيدة | المعلومه المفيدة |
| | الفقرة الثانية | كان اسلوبه شائعا | كان اسلوبه شائقا |
| ٧٦ | الفقرة الاولى | الدول المظوية | الدول المنضوية |
| ٨٢ | الفقرة الثانية | سفيرنا بغانا | قنصلنا بيوغندة |
| ٨٢ | الفقرة الأخيرة | بقيادة محمد مندور | مع مندور وعزيز فهمى |
| ٨٧ | الصورة | أحمد خسير<br>أحمد مساعدى<br>إلف بونش | أحمد خير<br>أحد مساعدى<br>رالف بونش |
| ١٠٢ | الفقرة الاولى | يكتبها الدبيلوماسين | يكتبها الديبلوماسيون |
| ١٠٣ | الفقرة الاولى | يعرفوا منطلقاتها | يعرفون منطلقاتها |

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٠٥ | الفقرة الاولى | اودرت | اوردت |
| ١٠٧ | الفقرة الثانية | مكافحة المدخرات | مكافحة المخدرات |
| ١١١ | الفقرة الثانية | الديمقراطية الشعبيه | الديمقراطية والشعبية |
| ١٥٩ | الفقرة الثانية | اليمن | اليمين |
| ١٥٩ | | مبطبئا | مبطنا |
| ١٦٦ | الأخير | عصر٢٧/٩ | عصر٢٨/٩ |
| ١٨١ | الاول | ١٠ دواتنق ستريت | ١٠ دواننق ستريت |
| الصورة | | ام دريان | ام درمان |
| ٢٠٣ | الأول | الساخرة | الساحرة |
| ٢٠٩ | الفقرة الاولى | نهاية عن الحرب | نهاية الحرب |
| ٢٢٥ | الفقرة الاولى | ربع القاعة | ربع القامه |
| ٢٢٩ | الفقرة الاولى | القمة العربية٧٦ | عام ١٩٧٧ |
| ٢٣٩ | الفقرة الاولى | تصر القاهرة | قصر الطاهرة |
| ٢٤٢ | الفقرة الاولى | الدولتا | الدولتان |
| ٢٤٩ | الفقرة الاولى | عضو محكمة العدل يومها | عضو محكمة العدل لاحقا |
| ٢٥٣ | الفقرة الاولى | الوزير المحجوب | الوزير أحمد خير |
| | الفقرة الاولى | يكونوا اسيرا | يكونوا اسرى |
| ٣٠١ | الفقرة الاولى | كامبد ديفيد | كامب ديفييد |
| ٣٤١ | الفقرة الاولى | القرارات(١٩٤- ٢٤٣- ٣٣٨) | القرارات(١٩٤- ٢٤٢- ٣٣٨) |
| ٣٥١ | الفقرة الاولى | اللجنة العليا للتكامل | المجلس الاعلى للتكامل |
| ٣٨٠ | الفقرة الأخيرة | مايو فى بعض جوانبها | فى معظم جوانبها |
| ٣٩١ | الفقرة الاولى | أربعة سفراء | خمسة سفراء (إضافة جمال) |
| | الفقرة الاولى | سكرتير ثالث | سكرتير ثانى |